رواية

مِثل مَلاكٍ في الظّلام

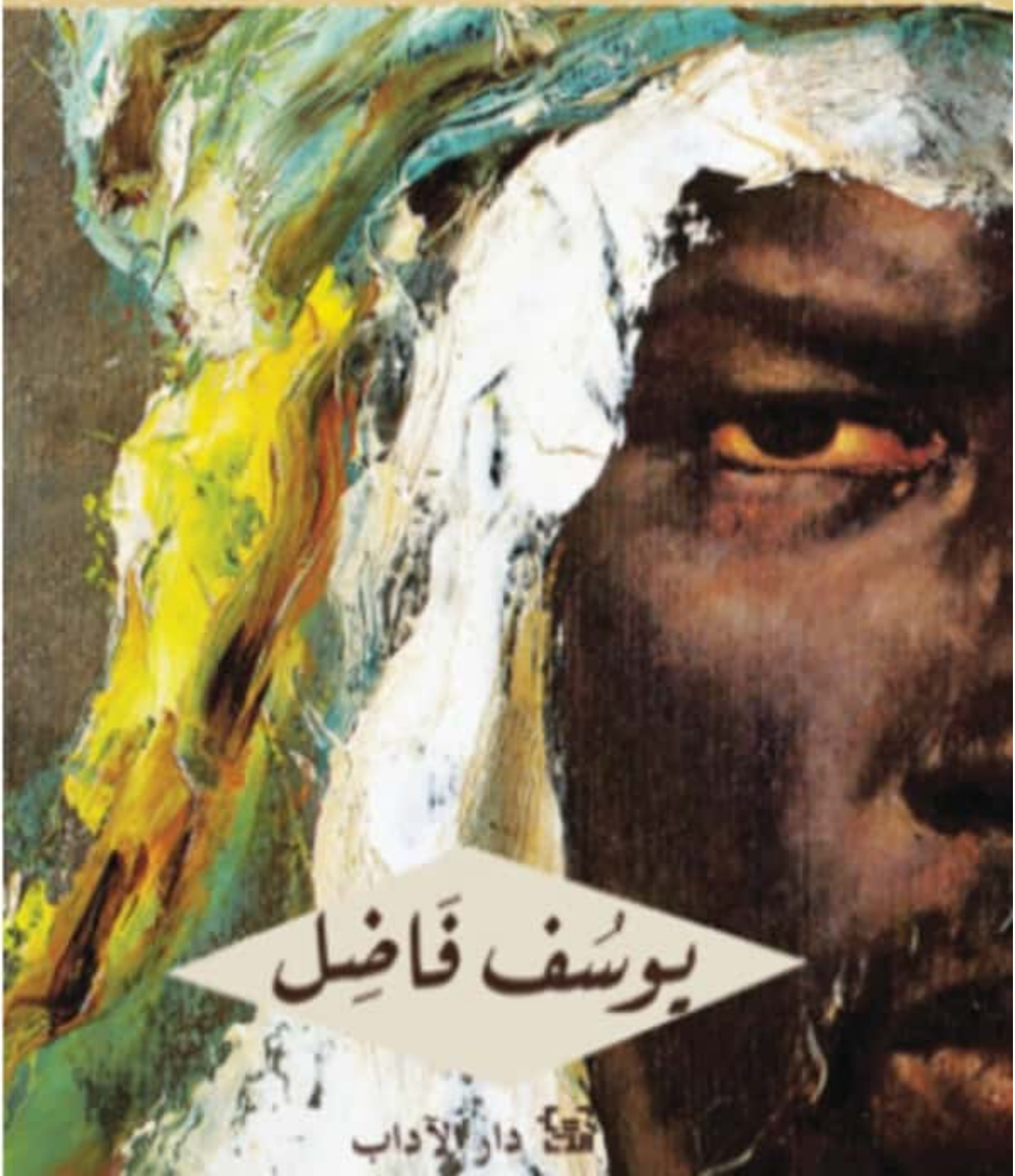

يوسُف فَاضِل

دار الآداب

يوسف فاضل

مثل ملاك في الظلام

رواية

دار الآداب - بيروت

جميع الحقوق محفوظة©

الأربعاء 12 نوفمبر 2012

منع الملك ذبحَ كبش العيد بسبب الجفاف، في سنة 1963. وذبح شخص من گلميم كلبًا، احتجاجًا على هذا المنع، وعلّقه في الشارع... الرجلان اللذان يتجادلان بشأن السنة التي علّق فيها ذلك الرجلُ الكلبَ يحملان الاسم نفسه. إنّهما يسيران وسط سكّة الترام. قال إدريس الأوّل إنّ هذه الواقعة تعود إلى سنة 1958 وليس سنة 1963، فانتفض إدريس الثاني محتجًا، وغيرَ موافق بتاتًا...

وارتفع صوت الأوّل حتّى يعلو على الاحتجاج... هذا الشخص ذبح الكلب في سنة 1963. واعتقل رجال البوليس شخصًا، بعد أيّام من التحرّي، وصبّوا عليه البنزين وأحرقوه...

أوّلًا، لا أحد اعتقل أحدًا. وثانيًا، لا يوجد كلب في مَحاضره، لأنّ الأوّل، ببساطة، لم يكن حاضرًا في مكان الحادث. والمَحاضر ها هي، في المحفظة، إذا رغب في إلقاء نظرة عليها... ما حدث هو أنّ الرجل صعد إلى السطح في الوقت الذي كانت النيران تلتهم أُسس البيت...

في سنة 1958

لا، في سنة 1963...

وكشخص لا يحتمل أن تكون ذاكرته تداعت إلى هذا الحدّ، سأله إدريس الأوّل إن كان يذكر على الأقلّ اسمه؛ هذا الرجل الذي أكلته النيران على السطح؟ ومرّة أخرى، في سلسلة اختلافاتهما ذات التاريخ الطّويل، لا يتّفقان، لا على الواقعة وتاريخها، ولا على الرجل واسمه...

يعتمر إدريس الأوّل قلنسوة باسكيّة سوداء، بينما يضع إدريس الثاني فوق رأسه قبّعة من القشّ الفاتح اللّون. يَبدوان غريبين في هذا الزيّ، وفي هذا المكان. رجلان طاعنان في السنّ، وسط سكّة الترام، بقبعتين ونظّارتين سوداوين ومعطفين، الأوّل بمربّعات خضراء وصفراء، والثاني معطفه مخطّط بالأحمر والأزرق، ويلبسان سروالين ليمونيًا وأزرقَ فاتحًا. وحذاءاهما مخطّطان بالأبيض والأسود. والمحفظة التي تتدلّى من يد أحدهما كبيرةٌ ومرقّعة كأنّما صُنعت من جلود حيوانات عدّة، وثقيلةٌ تكاد تجرّ خلفها غبار السّكة. رجلان عائدان من جنازة مضى عليها نصف قرن، وفي الوقت نفسه متعوّدان على الشارع والمقهى والسينما. يسيران مثل الرجل الثالث الذي يتحرّك خلفهما، بالمشية البطيئة نفسها، آخذًا

الاحتياطَ اللّازم حتّى لا يبتعد عنهما، محشورًا في معطف رماديّ قديم يتدلّى حتّى الحذاء، ويسير بالخطى المتعبة نفسها، بين خطّي سكّة الترام، على بعد متر واحد، بحيث يصله لجاجهما، ويجد نفسه مشغولًا به. أصبح صوتاهما منخفضين أكثرَ ممّا يجب، كأنّما انتبها لاهتمام الرجل الذي يسير خلفهما بهذا الحدث المنسيّ، على بعد خمسمئة كيلومتر من مكان الحادث، على مسافة أزيدَ من نصف قرن من الواقعة، في هذا الصباح من شهر نوفمبر الذي ظهرت فيه شمس مفاجئة.

مظهره ليس أقلّ غرابة: الرجلُ الذي يسير خلفهما؛ موزّعُ الرّسائل السّابق؛ الرقّاصُ كما كانوا يسمّونه. اسمه نافع. شعره الأبيض يظهر من تحت الطاقية الذهبيّة اللّون كباقة من الأقحوان حاصرها الثلج. لحيته فوق البشرة السوداء كحبّات الإبزار الأبيض. المعطف الرّماديّ الطويل والحزام الأخضر الذي يعود إلى معطف آخر تاه مع قوافل الثياب المستعمَلة التي مرت. ولا أعتقد أنّها حكاية تعنيه. وهو يقتفي خطى الرجلين، جعل مشيته تغيّر إيقاعها، وحرّك على وجهه عضلات ظنّ أنّها ماتت من زمان. ولا أعتقد أنّها ابتسامة شردت من دون أن ينتبه إليها لم تكن كذلك. كما لو أنّ ريحًا قديمة هبّت عليه، جالبةً معها الرائحةَ الخانقة لاحتراق الجلد البشريّ، وغمرت عينيه وأنفه، واستقرّت على أديم وجهه. ويحسّ الآن بأنّ دموعًا ستجري على خديه. ويمسحهما قبل أن تنزل. إنّها ليست دموعًا حقيقيّة حال، وهو يرفع ياقة معطفه الطويل ويقترب من الرجلين، وينحني حتّى يلتقط بعضًا من معنى ما يتبادلان من حديث، ويقول إنّه كان هناك، في تلك السنة، يجري بين گلميم وآسا، يذهب حتّى أگادير... ويعتقد أنّها سنة 1958... وهي السنة التي قنبلت فيها الطائرات المغربيّة والأجنبيّة برج آسا. نافع، موزّع الرّسائل، كان حاضرًا ورأى بعينيه الثقب الهائل الذي أحدثته القنابل في البرج. وأصبحوا ثلاثة. تجمعهم الآن قصّة واحدة. يجمعهم الآن اتّفاقهم بشأن الحدث والسنة والمكان، لكنّهم مختلفون، مع ذلك، بشأن النافذة التي يطل منها كلّ واحد على أحداث مضى عليها كلّ هذا العمر. ثمّ يحني نافع رأسه ويقرّبه منهما. يحدّق في ثيابهما الغريبة، متسائلًا عن نوعية العمل الذي ظلّا يمارسانه طوال حياتهما المنتهية... سمعُه تضاءل. لم يعد كما كان. تتناهى إليه الأصوات خافتةً ومشتّتة كالغبار. وحين التفتَ، ضبط صاحب القلنسوة الباسكيّة يمعن النّظر فيه، كأنّما يبحث هو الآخر عن مفاتيح ضاعت تحت الوجه المطلّ عليه.

أطلّت شمس من بين الغيوم السود، ليس لتدفئة الأرض وإنّما لتعتذر عن هذا الظهور المارق. واختفت في اللّحظة نفسها، تحت الغيوم الثقيلة نفسها. وأصبح النهار، بفعل اختفائها، يشبه بداية ليل رماديّ. رجلان في الثمانين. زيّاهما يشبهان زيّ العاملين في السيرك. يسيران بصعوبة، ويمتشقان قصّةً قديمة، ليس بغرض اختبار مدى صحّتها، وإنّما كعكاز ظلًّا حتّى هذه الساعة يتّكئان عليه ليتحاشيا التفكير في سقوطهما الوشيك. كانا في مستوصف محمد الخامس المحاذي لسينما السعادة. وتركا فيه قليلًا من دمهما لفحوص جديدة.

سارا، وسار نافع إلى جانبهما، حتّى جلسا على سطيحة مقهى السعادة أسفل الشارع، وهما مستمرّان في اختلافهما...

وعلاش مشينا لگلميم؟ ما عقلتيش علاش مشينا لگلميم؟

إنت اللّي ما عقلتيش...

يذكران أيضًا أنّها المرّة الأولى التي ينزلان فيها في مدينة اسمها گلميم. عدّة شهور في مدينة نائية، في عزّ الحرارة والجفاف، بسبب عبد لم يُعثر على اسمه ضمن لائحة العبيد التي تسلّمها القصر الملكيّ... هل هرب من القصر؟

لا، لم يدخل القصر أصلًا...

واخنا مشينا نقلبو عليه. ما غقلتيش؟

نعم، ما غقلتيش؟

إنت اللي ما عقلتيش...

وفي الآخر لقيناه.

لا، ما لقيناهش.

معلوم لقيناه.

هكذا بدأ هذا النهار الذي سينطلق فيه أوّل ثرام في الدار البيضاء، مخترقًا المدينةَ على مسافة اثنين وأربعين كيلومترًا.

كان صوتاهما مرتفعين على سطيحة المقهى، حتّى إنّهما غطّيا على ما عداهما من أصوات الراديوات ونداءات الباعة المتجوّلين وصياح الأمّهات عبر النوافذ المطلّة على الشارع. والذين يقصدون محطة الترام، رجالًا ونساءً وأطفالًا، والمرضى الذين يقصدون المستشفى، على الرّغم من تكشيرة الألم التي حفرت وجوههم طوال اللّيل، توقّفوا ليستريحوا لحظة،

ملتفتين إلى جهة الرجلين اللذين ازدادت خلافاتهما حدَّةً، ناسيَين المهمّ، وناسيَين خيشة البلاستيك التي يضعون فيها بولهم وتتأرجح بين أصابعهما... إنَّهما جالسان على سطيحة المقهى الشعبيّ، غير بعيد عن محطَّة الترام، ما بين سنيما السعادة ومستشفى محمد الخامس؛ جالسان تقريبًا على قارعة الطريق، لأنَّ الطوار ضيّق والمقهى مزدحم بالزبائن، ذلك بأنَّ أغلبهم يفضل الجلوس على السطيحة في هذا الصباح الذي ظهرت فيه شمس مفاجئة لم يكن يتوقَّعها أحد. يبدو الرجلان متعوّدين على الجلوس في هذا المقهى، وحول هذه المائدة، وعلى هذين الكرسيَّين، وعلى هؤلاء الزبائن الذين يُنصتون إلى قصَّتهما باهتمام كبير. وبين أيديهم، أو على الموائد أمامهم، ملفَّاتٌ يعتقدون أنَّ هذين الرجلين النافذين، والمطَّلعَين على خبايا الأمور، سيساعدانهم فيها. لقد مرَّ الترام على مساكنهم ولا يرغبون في أكثر من تعويض لائق عن الضرر... أليس كذلك؟ لهذا، هم يُظهرون اهتمامًا مبالغًا فيه بثرثرتهما. الزبائن القريبون من مائدتهما يهزُّون رؤوسهم متفهمين تمامًا، ويبقون صامتين حتَّى لا يضيّعوا خيوط قصَّة لا تعنيهم، ولا أهمّيَّة لها، ويستمعون إليها، مع ذلك، كتلاميذ مجتهدين. حتَّى النادل، يهمل عمله في كلّ مرَّة وجد فيها نفسه قريبًا من حلقتهما. وباتا، شيئًا فشيئًا، في مقهى السعادة ومقاهٍ أخرى غيره، وفي محطَّة الحافلات أو محطَّات القطارات، يملآن الوقت كشخصين تقاعدا عن العمل. وهذا كلّ ما تبقّى لديهما... ملابسهما المزركشة، وقصَّتهما القديمة يحكيانها يوميًا كما يفعل الحلايقية في جامع لفْنا.

إدريس الأوّل، صاحب القلنسوة الباسكيَّة والمعطف ذي المربَّعات الخضر والصفر، رمى حبَّة في فمه، وأعقبها بجرعة ماء. أغمض عينيه وسها عنهما... والتفت إدريس الثاني إلى جهة نافع، وقال له إنَّه لم يرَ في الدنيا فاسقًا مثلَ هذا الرجل. ظلَّ إدريس الأوّل مغمَض العينين، ولكن شفتيه تمطّطتا. وفتحا معًا فميهما ليضحكا، ولم يخرج منهما غيرُ صوت يشبه الصفير، لأنَّ مخزون الضحك استنفداه منذ مدّة. فقد استنفدا منذ فترة مخزونَهما من الضحك والفسق والمجون. كلّ واحد منهما تزوَّج مرَّتين. وأنجبا أولادًا كثيرين، وتنقّلا في طول البلاد وعرضها، لمطاردة أعداء النظام، وأصبحا ملاكين لبيتين من ثلاث غرف وحمّام، وأبوين لأولاد بلا عمل. وها هما يكتشفان، في آخر العمر، أنَّ حياتيهما تتلخَّصان في حفنة أدوية لا تداوي أمراضهما العديدة، وحكايةٍ قديمة لم تعد تُضحكهما، كما في السّابق.

كانا قد أزالا نظّارتيهما السّوداوين قبل أن يجلسا. وجهان أبيضان، مصفّران قليلًا، في لون الشمع. لا يجري فيهما دم. تحيط بالعيون الأربع خطوطٌ من التجاعيد كأعشاش العناكب، بالإضافة إلى التجاعيد الأخرى الزرقاء، والمحفورة عميقًا على اليدين. بَدَوا كشبحين، كميّتين عادا إلى الحياة ويجرّان جثّتيهما على هامش حياتنا. علا صوتاهما أكثر من السّابق، وهما من دون نظّارتين. كيف حدث أن بدأ الرجلان جدالهما بالذات في الوقت الذي كان نافع، صاحبُ المعطف الرماديّ الطويل، مارًّا بالقرب منهما، لاهيًا، يتدحرج بين خطّي سكّة الترام؟ لماذا قصّة الرجل المحترق؟ لماذا هذه القصّة بالذات، وليس أيّ قصّة أخرى، لا تعنيه من قريب أو من بعيد؟ مثلًا، قصّة أخرى وقعت لهما شخصيًا، أو عاشها أحد أقربائهما؟ ولماذا اختارا هذا اليوم بدلًا من يوم آخر يكون فيه نافع غائبًا عن الدار البيضاء، أو بعيدًا عنها؟ يتدحرج على سكّة أخرى، أو يتظلّل فيء صخرة في الجهة الأخرى من المدينة؟ كلّ هذا يحدث؛ المكانُ واليوم والساعة، ليتمكّن من الإصغاء بدوره، بفضول أكبر من الذي على وجوه الزبائن، وليصبح معنيًا أكثر منهم. مثل هذه المصادفات لا تخطر في البال حتّى تكون وقعت. وتجد أنّها معقولة، وأنّه كان من المفروض أن تقع، وأنّك كنت تنتظرها، ومستعدًا لاستقبالها، في أيّ لحظة.

إنّها لَفكرة سيّئة أن يحرق الواحد دمه ليتذكّر. نافع جالس على الكرسيّ المجاور الآن، ويقول إنّ عليه أن يغادر. وبدلًا من هذا يظلّ جالسًا. يتأمّل المحفظة ذات البقع الجلديّة، والموضوعةَ على المائدة. هل تحتوي على أدوية، أم إنّها مليئة بالأوراق والوثائق والشهادات؟ إنّها من نوع قديم لم يعد موجودًا في أيّ سوق. أخرج إدريس الثاني، صاحب قبّعة القشّ، سيجارةً، فهبّ أحد الزبائن ومدّ إليه القدّاحة وهي مشتعلة. استمرّ يتأمّل الشعلة، ثمّ رفع رأسه إلى السماء الغائمة، كأنّما سيقوم بعمل خارق. استمرّت الشعلة تنتظر متراقصةً حتّى ينتبه الآخرون لهذه المعجزة التي ستحدث. أشعل سيجارته أخيرًا، بحركات بطيئة، وضحكة مسرحية، ونفث الدخان الذي كوّن غيمة صغيرة فوق رأسه. أمّا إدريس الأوّل، صاحب القلنسوة الباسكيّة، فقد رمى السيجارة في الهواء، فدارت نصف دورة واستقرّت بين شفتيه. طريقة مسرحيّة مخالفة. وهبّ زبون آخر ومدّ إليه القدّاحة وهي مشتعلة. لاحظ نافع، لأوّل مرّة، أنّ يده اليمنى معطوبة. هي ميّتة تمامًا وتتدلّى إلى جانبه كالعصا اليابسة. إنّهما الآن سعيدان، معتزّان بذاكرتيهما كيفما كانتا، ومسروران بما خلّفت حكايتهما في نفوس المستمعين من حزن مصطنع. فرحهما كبير، وحياتاهما مليئتان وحافلتان

بالقصص والتجارب... نفثا الدخان مرّة أخرى. هبّ أربعة من الزبائن لمساعدتهما على الوقوف، وهم الذين دفعوا ثمن المشروبات: عصيرِ ليمون وقهوةٍ بالحليب، ودفعوا أيضًا إلى بائع السجائر الذي رفض أن يأخذ ثمن السجائر التي نفثاها طوال الساعة التي استغرقها مكوثهما في المقهى الشعبي. ودّعا الزبائن بحركات غامضة وهما يؤكّدان أنّ الملفّات في أيدٍ أمينة، وستصل إلى مَن يهمهم الأمر. وارتفعت الأصوات تدعو لهما بالتوفيق والصحة وطول العمر... التقط إدريس الثاني كأس ماء ممتلئة، وأفرغها في جوفه، ثمّ التفت يسأل صديقه هل شرب الماء هذا الصباح.

إدّيها في راسك. صحّتي أحسن من صحتك...

والقرحة؟

ما عندي حتّى قرحة ....

وباقي كتعرج؟

ما كنعرجش. إنت اللي كتعرج.

صبعي لكبير أصبح منفوخ...

وجلس إدريس الثاني من جديد. وخلع حذاءه وجوربه وظهرت الإصبع، زرقاء، منتفخة، متقيّحة.

أمّا سكّة الترام، فهي جديدة. وسينطلق الترام هذا النهار. اتّجها نحو المحطة، والمحفظة تتأرجح بينهما، في لباسهما المزركش، والذي يذكّر بلباس السَحَرة، أو العاملين في السيرك. سار نافع إلى جانبهما. تناسى أنّه ذاهب إلى السوق ليشتري الزوان لطيوره. إنّه يفضّل أن يجرّب الركوب في الترام. سألهما عن موعد إقلاعه، ولم يردّ عليه أحد. أمسك إدريس الثاني بيد صاحبه وشدّ عليها بقوّة، وهو يتساءل ممازحًا أو ساخرًا أو متعجّبًا: كيف أنّ الحبل الذي يجزان به رزنامة أيّامهما الثقيلة والعامرة لم ينقطع، عاجزًا بدوره عن العثور على الجواب المناسب... وساروا ثلاثتهم جنبًا إلى جنب... واستأنفوا سيرهم الصعب نحو محطّة الترام...

موزِّع الرَّسائل الذي يُسمَّى الرقَّاص

السبت 12 أبريل 1958

عملي هو التنقُّل: الذهابُ من مكان إلى مكان: أگادير؛ إيفني؛ گلميم، لأنَّني موزِّع رسائل، أو رقّاص، كما يقولون. وهي في الأغلب رسائل إداريَّة. أمضي الوقت عابرًا إقليمًا عريضًا. أغامر أحيانًا حتَّى تندوف. أقطع هذه الأقاليم راجلًا، وبمعدل أربعين كيلومترًا في اليوم، أو خمسين، بحسب مزاج اليوم. أقطع مثلًا المسافة بين گلميم وتيزنيت في يومين. والأمر نفسه بين گلميم وإيفني. وقد تستغرق الرحلة أربعة أيَّام بدلًا من اليومين المعهودين إذا كانت وجهتي أگادير، أو أكثر قليلًا إذا ما اضطررتُ إلى قضاء يومين إضافيَّين عند هذه المرأة أو تلك. أمَّا هنا، في أگادير، فلم أصادف أن كنت في حاجة ماسة إلى أيَّام إضافيَّة. إنَّني محبوس في هذه المدينة منذ أزيد من خمسة عشر يومًا، ولم يسبق لي أن أمضيت خارج گلميم مدَّة بهذا الطول، لا في هذه المدينة ولا في غيرها. والسَّبب؟ الشمس؟ البحر؟ تلك البنت؟ أم السَّبب هو الطائر؟ كانت جالسة ترسم على الرمل، مُطرِقةً رأسَها، غيرَ مبالية، كطفلة تلعب على الشاطئ، قريبًا من الماء. فكَّرتُ في أنَّها سترفع رأسها، وانتظرتُ، ثمَّ أومأتُ إليها بأن تأتي لنرسم معًا، فحركت رأسها رافضة. فجلستُ جلستَها نفسَها أرسم على الرمل، ثمَّ التفتُّ ثانية، وأومأت إليها بأن نذهب معًا لنغطس في الماء، فحرَّكت رأسها رافضة وهي تضحك. وضحكتُ بدوري، لأنَّه لا أحد منَّا يلبس لباس السَّباحة. تنُّورتها قصيرة، وتكشف ثيابُها عن ذراعيها النحيفتين وساقيها الأكثر نحافة، والعاريتين حتَّى ما فوق الركبتين. ثمَّ أمضيت وقتًا أرسم ما يشبه رغبات خفية تمحوها الريح قبل أن تظهر. وإذا بهذا الطائر الشارد يعبر السماء الزرقاء، الصافية، في رفرفات متأنِّية. ألوانه الحارَّة تعبر الفضاء اللَّازورديّ مشتعلةً فوقنا. كرة من لهب ومضت للحظة وتهاوت على بعد خطوتين منَّا. لم نرَ مثل هذا العجب من قبل. انحنينا على الطائر. الجسد الصغير سليم والعينان السوداوان تشعَّان بالحياة. وكما لو أنَّه بدوره يتأمَّلنا. والريش دافئ، ألوانه الحمر والصفر تتلألأ. ولا أثر لأيّ احتراق. هل اشتعل فعلًا؟ أم أنَّ أشعَّة الشمس هي التي لعبت بي. ولأتأكَّد سألتها هل رأت ما رأيتُ. لم تردّ. إنَّها غارقة في تأمُّل الطائر الميِّت، وأنا غارق في تأمُّل الذراعين العاريتين، البيضاوين، وأتصوَّر أنَّ لملمسهما إحساسَ ريش الطائر الذي بين يديها. الطائر نائم على كفِّها. إنَّه لم يمت. فتحت منقاره وصبَّت فيه قطرات من ريقها. ارتعش وفتح منقاره طالبًا

المزيد. أرضعته من ريقها حتَّى ارتوى، ثمَّ انتصب فوق الكفّ وهو يحرّك رأسه في كلّ الجهات. اشتعلت ألوانه مرَّة أخرى وطار. بقيتُ أنظر إليها مفتونًا. وحتَّى أستمرّ جالسًا إلى جانبها، قلت لها إنَّني أقلّد جميع الأصوات، من البومة حتَّى الجدجد، وثعلب الصحراء وابن آوى، والعندليب والكناري، والحبَاري الذي يجري في الصحاري. والطائر الطنَّان. تغريده متقطّع، وخفيف، وهشّ، ويشبه النسيم الذي يبدأ به النهار. ثمَّ رحت أقلّده وهي تنظر إليّ في حالة من الذهول يشبه الفزع. كأنَّما سحرَتْها الأصواتُ التي أطلقتُها. لم أذهب أبعد من هذا.

جلستُ في غرفتي أراجع التفاصيل. لا توجد تفاصيل يمكن الوقوف عندها. رأيتها مرَّة على الشاطئ، ومرَّتين في فندق السلام حيث تشتغل والدتها، واقفةً أمام باب الفندق أو عابرةً حديقتَه. وهما المرَّتان اللتان حملتُ فيهما رسائل إلى إدارة الفندق. شيء مَرِح ينبعث من شخصها، من ضحكتها أو طريقتها غير المبالية، وهي تتحرّك في ممرَّات الحديقة أو على رمل الشاطئ. ينبعث من عينيها البنّيتين في الأساس. إنَّها تضحك بكامل وجهها. في عينيها ذهولٌ دائم. وعيناها متسائلتان دومًا. عيناها دائمتا اللمعان، وعلى خدَّيها تشرق غمّازتان تشبهان نجمتين صغيرتين يزيدهما ضوء النهار تجلّيًا. جالسة أو واقفة، تعطي دائمًا الانطباع بأنَّها لا تنوي الانصراف. كأنَّما تنسى نفسها وتنسى حتَّى المكان الذي توجد فيه. كما حدث على الشاطئ، بعد أن اختفى الطائر وجلستُ أكثر من ساعتين ساهيةً، تتأمّل مذهولة كفَّها، حيث رقد الطائر. عندما فكَّرتُ في أنَّها لم تنطق بكلمة واحدة وأنَّني أمضيت الوقت في تعداد أنواع الطيور وحيوانات الصحراء وتقليد أصواتها، كأيّ مهرّج، استولى عليّ نوعٌ من الإحباط. ثمَّ قلت إنَّها لا تستأهل كلّ هذا العناء. لم يفت الوقت. أستطيع أن أتراجع. لا يزال كلّ شيء ممكنًا؛ أن أكفّ عن ملاحقتها، وأنَّني تأخَّرت في هذه المدينة بشكل غير مسبوق. تستطيع أن تذهب إلى گلميم منذ الآن. من سيمنعك؟ أقول هذا في اللَّيل، وأجدني في الصباح أحوم حول الفندق، وأنتظر ظهورها. ولا يهمّ أن تكلّمني. ولا يهمّ ألا تُلقي عليّ تحيةَ الصباح. ولا يهمّ أن تتجاهلني بالمرَّة. رغبتي هي أن أراها مرَّة أخرى وأملأ أذنيها بأصوات كلّ الطيور التي أعرفها قبل أن أعود إلى گلميم.

ألمَفتُ بجميع تحرُّكاتها في أيَّام معدودة. وهي خريطة محدودة في أيّ حال، ولا تتعدَّى المساحة الفاصلة بين الفندق والشاطئ الذي خلفه، ثمَّ الميناء، والبيت والسوق والحمّام. وفي الحالات التي أعثر عليها، وقد

حدث هذا ثلاث مرّات، لا أعرف كيف أثير انتباهها. هل أمرّ أمامها وأنفث في وجهها دخانَ سيجارتي، بنوعٍ من التجاهل، كما فكّرتُ وأنا ممدّد في السرير؟ لن تراني لأنّها دائمة الذهول. أتجاهل في بعض الأحيان وجودَها بدوري. أمرّ عليها وأنا ملتفت إلى الجهة الأخرى من الشارع، أو أراقب السماء وأنا أمسح قفاي كواحد يأكل العرقُ جلدَه. تتسارع في هذه اللّحظات دقاتُ قلبي كما لو كانت ترغب في أن تفضحني، فأبتعد مسرعَ الخطو كالهارب... لاحظت، مثلًا، أنّها لا تداوم على مرافقة والدتها إلى الفندق. تذهب إلى الحمّام يوم الأحد. وتخرج يوم الأربعاء مع فتاة أخرى أصغرَ سنًّا وتنزلان إلى الشاطئ. وأجلس آنذاك تحت شجرة أوكاليبتوس أراقبهما تلعبان بكرة صغيرة. وهي تجري وتضحك ونهداها الصغيران يهتزّان. كلُّ شيء فيها نحيف ومرهَف وشفّاف. وهي غير عالمة بوجودي. وهذا مثير في حدّ ذاته؛ مثير إلى حدّ كبير. لا تعود آنذاك امرأةً كما تصوّرت. إنّها طفلة تلعب. أمضيت الأسبوعين على هذه الحال. أقلّب أفكارًا لا تعلم عنها شيئًا. أحوم حول الفندق، وأجلس ساعات تحت الشجرة، أو أتعقّبها في السوق وهي تتنقّل بين محالّ الخضار والبهارات، غيرَ مدركة أنّ عينين نهمتين تلاحقانها في جهة ما من السوق. عدم الإدراك ذاك أصبحت أعتبره تجاهلًا مقصودًا، لذيذًا. ذلك بأنّها تلتفت حولها بعد كلّ عشر خطوات. وغير هذا، لا أعرف ما الذي قمت به خلال هذه الأيّام الغريبة... الغرفة والفندق وأجمة الأوكاليبتوس التي تفصل الشاطئ عن الفندق. يبدأ الشاطئ مباشرة بعد الأجمة. ويمتدّ بعيدًا في قوس ينتهي في الأفق المضبّب، الأرجوانيّ بفعل انسحاب الشمس. والسوق... صرت مثلها، متنقّلًا في الأماكن نفسها التي تمرّ بها...

هناك رسائل ينبغي لها أن تصل إلى أصحابها في گلميم أو في آسا، ولكنّها ستنتظر. لماذا لا تنتظر كما أنتظر؛ كما ينتظر جميع من على وجه الأرض؟ لن يحدث لهم مكروه إن لم يتسلّموا رسائلهم في الموعد. ليس هناك مواعيد لتسلُّم الرّسائل... أسبوع زائدٌ أو أسبوع ناقصٌ، لا يهمّ... لن يتغيّر العالم. القايد بوزيد يستطيع أن ينتظر ظهير تعيينه أسبوعًا آخر أو أسبوعين. إنّه يتصرّف كقايد حتّى من دون ظهير. يعيّن من يشاء ويطرد من يشاء. وسيظلّ دائمًا رجلًا ظالمًا، بالظهير أو من دونه... دخلت خلال هذه الأيّام فندقَ السّلام عدّةَ مرّات. الوجوه نفسها. السيّاح أنفسهم منتشرون على العشب، تحت أشجار الصفصاف الظليلة بعد أن طردهم صهد هذا النهار غير العاديّ من على جَنَبات المسبح. وتحت ظلّ الجدران، تجرّ والدتُها قدميها خلف عاملات النظافة. أمّا هي، فلا أثر لها. وقفتُ أمام

باب بيتها، منتظرًا أن تظهر جارتها. لا أثر للفتاة التي تلعب معها على الشاطئ يوم الأربعاء. أسترجع، في غرفتي، أحداثَ ذلك النهار على الشاطئ عندما هوى طائر من السماء. ماذا كان سيحدث لو أمسكتُ بيدها في تلك اللَّحظة التي ضحكتْ فيها؟ أو انحنيتُ عليها وقبّلتها عندما كانت فرِحة أكثر ممَّا ينبغي لها. لكنَّني، بدلًا من هذا، استمررتُ أقلِّد أصوات الطيور كأيّ بهلوان. منعني شيء ما من الاقتراب منها. لا أدري ما هو هذا الشيء. أعتقد أنَّني، أنا نفسي، تماديت في التهريج حتَّى لا أذهب بعيدًا في استيهاماتي.

ثمَّ ينست. وعادت إلى الظهور من جديد، بعد خمسة عشر يومًا، وأنا متَّجه إلى المحطة في بداية ظهيرة حامية. عندما قرَّرتُ أنَّني مكثت في أگادير أكثر ممَّا ينبغي لي، لم أقم بأيّ عمل، كما قلت طوال خمسة عشر يومًا. الغرفة، السوق، الغابة والفندق، ثمَّ الغرفة حيث أعيد شريط ما حدث. وماذا حدث؟ وألو. ثمَّ فجأة، حتَّى ينست، ها هي أمامي، في تنُّورتها القصيرة، مكشوفة الساقين والذراعين، والكعب الأحمر والمحارات التي تسوّر كاحلها الأيمن. منحتني مجرَّد رؤيتها ارتياحًا أنا في حاجة إليه. استرجعت جرأتي السابقة، متذكِّرًا الأخريات: فاطمة في تيزنيث وكلثوم في مراكش. لم يحدث لواحدة منهما أن كان لها عليّ مثلُ هذا السُلطان. ولا حبيبة في گلميم. رفعت يدي متعجِّبًا من الصُدفة التي ليست صُدفة بالمرَّة... ياه... هادي إنتي... مستغربًا تمامًا. ومن جهتها، فعلت الشيء نفسه، بعينيها. مشينا جنبًا إلى جنب، صامتَين في البداية. وأطلقتْ ما يشبه زقزقة قصيرة لتذكِّرني، أو كما لو أنَّها تستقبلني بتحية خاصَّة. وهكذا أرى أنَّنا تذكَّرنا، في اللَّحظة نفسها، اليومَ الذي أمضيناه على الشاطئ. ثمَّ سمعتُني أحكي عن طائر الرَمان من دون أن أدري، كما لو أنَّها الطريقة الوحيدة كي أشدّ انتباهها. أعلم تمامًا بأنَّني أتصرَّف من دون رغبتي، كأنَّما أتنازل عن جزء منِّي كي تستمرّ سائرة إلى جانبي. أليس هذا غريبًا؟ تسير راقصةً، ذاهلةً، في قميصها الفضفاض، وتبدو كما لو أنَّها ستنشر جناحيها وتطير وأنا أحكي كي أمنعها من مغادرة الأرض... هذا نوع من الطيور يظهر عندما ينضج الرَمَان. يُحدث ثقبًا في الرَمانة ويختفي. يعود إلى الشجرة بعد خمسة عشر يومًا، عندما يكون الرَمَان قد صار خمرًا، ويكون القمر في كامل استدارته. يحطّ فوق الرمّانة وينهل من ذلك النكتار، ويبدأ في الغناء. ما دام القمر طالعًا، وما دامت الخمرة تشعشع في رأسه، فإنَّه يغنِّي. يسكر ويغنِّي. والضوء يصير ضوءين: ضوءَ القمر وانعكاسه في قاع الرمانة. ويسكر ويغنِّي. والضوء يتوهَّج. يتلألأ تغريدُه

في الضوء الأزرق كعقدٍ من الماس. يسكر ويغنّي، ويسكر ويرتفع الغناء ويزيد توهُّجًا حتّى تنفجر حنجرته. حتّى عندما ينفجر الطائر يستمرّ الغناء في اللّيالي التالية. أفكّر، في نفسي، في أنّ وجوده برمته لا يساوي أكثر من هذه اللّحظات، عندما يصل غناؤه حدًّا من الكمال ولا يعود بعدها في حاجة إلى حياة أخرى؛ إلى يوم آخر؛ إلى ساعة أخرى. لقد اختفى الطائر. انفجرت حنجرته وبقي غناؤه يملأ رأسي إلى الأبد.

إنّها تفكّر الآن في الطائر السكران. قالت كلمات لم أفهمها. ربّما إنّها تريد أن تراه. قلت إنّه لن يعود قبل الخريف عندما ينضج الرّمّان. وهزّت رأسها موافقة. كنّا نسير على إيقاع الموسيقى نفسها، وإنّما من دون وجهة. الابتسامة في مكانها حيث تركتُها: في العينين، وعلى الفم والوجنتين. سنبقى سائرَين حتّى نضيع. هذه هي فكرتي. ولن تصل الرّسائل إلى أصحابها كما فكّرت في الصباح. ليس هناك مواعد معلومة لتسلُّم الرّسائل. جلسنا على سُور الفندق ثمّ تركناه وتسلّقنا مرتفَعًا يُطلّ على الميناء. جلسنا نستريح تحت ظلّ أرگانة، مطلّين على مراكب الصيد الراسية على الأرصفة وننتظر ما قد يرسله البحر من أَلَق. ثمّ فكّرت، ونحن ممدّدان على العشب اليابس، في أن أضع يدي على صدرها، ثمّ تراجعت لأنّ بشرتها أخذت تحمرّ. وهي غير مدركة ما يحدث. اكتست الذراعان العاريتان بالأحمر نفسه وظهرت عليهما دوائرُ صفر، وتزداد صُفرةً كلّما أمعنت النّظر إليها. كأنّما تلك الدوائر عيون، وهي التي أدركت نيّاتي. وقد تتحوّل إلى فقاعات إذا استمرّت اليد في مخطّطاتها. وكأنّما يدي هي الأخرى أدركتْ وتراجعتْ من تلقاء نفسها. صُعقتُ. فكرةُ الفقاعات، كما تصوّرتها في تلك اللّحظة، غريبةٌ ومثيرة في حدّ ذاتها. لم تعد دقات القلب منتظمةً كما كانت. نظرت إلى وجهها ولا أثر يدلّ على ما يتعرّض له جسدها من تحوُّل في تلك اللّحظة قبل أن أسحب يدي وتعودَ بشرتُها كما كانت صافيةً. ثمّ رأيت أنّ ظلًّا يعكّر صفاء وجهها: ظلًّا لثلاثة شبّان يقفون فوقنا شاهرين مسدساتهم.

ثلاثة شبان يحملون مسدسات بدلًا من بدلات الشرطة. يعلنون بها عن مهنتهم وأسمائهم ونيّاتهم. إنّهم من المقاومة، كما يقولون، على الرّغم من أنّهم لم يتعدّوا العشرين. ويتعقّبون الخارجين عن الطريق المستقيم، كما يقولون. الدولة الجديدة لا تقوم بما يجب. فخورون، متعالون، متعجّبون من أنّهم يستطيعون، في هذه السنّ، معاقبةَ الناس فقط لأنّهم يحملون سلاحًا. قال أحدهم إنّهم سيقودوننا حتّى مرأب يقع على رصيف الميناء، يقيمون فيه ما يشبه محكمةً موازية لأنّهم لا يثقون بالمحاكم

الجديدة، ولا بالقضاة الذين يسيّرونها. وهي واقفة إلى جانبي. وأنا أتمنّى ألا تجهش في البكاء. ولكنّها غير مهتمّة؛ غير معنية تمامًا. ثلاثة مسدسات سود بفوّهات صغيرة صامتة. ثلاثُ فوّهات مصوبةٌ إلى جهتنا وتنتظر أن نبكي ونتوسّلَ. تنتظر أن نركع طالبَين المغفرة من ثلاثة شبّان واقفين حولنا ويتناقشون في المصير الذي اختاروه لنا. ثمّ أصبحوا متردّدين عندما أخبرتهم بأنّني الرقّاص، صديقُهم، وأحمل الرّسائل إلى رؤسائهم، وعندي رسالةٌ شخصيّة إلى بَراهيم المعلم في آسا. وانتبهت إلى أنّني كنت أرتعد من الغضب والعجز. أمّا هي، فقد استمرّت في اللّامبالاة نفسها. وخطرت في بالي تصوُّراتٌ مضحكة؛ كأن أقلّد أمامهم غناءَ الكناري أو نشيدَ القبرة. والتمع معدن السيّارة الفارهة التي توقّفت غير بعيد عنّا، في اللّحظة التي أخرجت فيها الرّسائل. وأشار صاحب فندق السلام إليها، فجرَتْ نحو السيّارة من دون أن تلتفت. أطلقت ضحكة عالية وهي تركض حتّى اختفت داخل السيارة، وضحكتها الساخرة تتدحرج خلفها. وبقيت المسدسات تنظر إلى بعضها بعضًا خائبة، ثمّ إلى الجهة التي هربت منها وهي تقفز بين الشجر وتضحك. كأنّ لا شيء كان يتهدّدها منذ لحظة... والرّسائل في يدي لم يعد يهتمّ بها أحد.

ثمّ عبرتُ الطريق نفسه نازلًا، وحدي هذه المرّة، يُثقل مشيتي الخزيُ والوهنُ، معكّرَ المزاج، غاضبًا، ليس بسبب الخوف، وإنّما لأنّها رأت أنّني كنت أرتعد. هل ارتعدتُ فعلًا؟ وماذا كانت تنتظر منّي في مواجهة ثلاثة مسدّسات بفوّهات غادِرَة أتوقّع أن ترسل موتها في أيّ لحظة؟ فكّرت في أنّ أحسن ما يمكن أن يقع لابن آدم في حياته هو أن يكون تحت حزامه مسدس، من دون حاجة إلى استعماله أو إشهاره. مجرّد وجوده كافٍ. معدنه البارد يدغدغ روحي ويلعب بأفكاري. مجرّد التفكير فيه كافٍ. إنّه هنا، في مكان ما جهة القلب، ما دام هنا، متواريًا بين الجلد والثوب... أعددت كثيرًا من الكلام، في أثناء هبوطي نحو الفندق، حتّى أجعلها تنسى ما وقع، إذا ما عثرتُ عليها. وتبقى ولو ساعة أخرى. وربّما ذهبنا حتّى نهاية السُّور وجلسنا حتّى المساء. وأتساءل، بنوع من السُّخرية، عمّا قد يحدث لبشرتها إذا ما حكيت لها نكاتًا فاحشة كما أفعل مع المراكشيّة؟ النساء يروقهنّ هذا النوع من الكلام الذي يفجّر الشهوة المكبوتة؛ كلّ الكلام الذي يبقى محبوسًا في الحناجر سنوات ولا يُقال إلّا سرًّا وفي الأماكن المغلقة. لكنّني مررت بفندق السّلام من دون أن أتوقّف. رأيت في خيالي المحاراتِ التي تسوّر كاحلها الأيمن، الناصعَ البياض. وسمعت رنينها يدبّ في عروقي كالموسيقى. وصرت ناقمًا عليها أكثر من السابق. إنّها لا

تستأهل شخصًا مثلي. ربَّما هي الآن تحكي لصديقتها ما وقع، وتضحكان ساخرتين. كثير من الغضب تجمَّع في داخلي. لا أدري لماذا أجري وراء فتاة بشفتين رقيقتين كخطّ مرسوم تحت الأنف؟ تجاوزت باب الفندق والتفتُّ لأنَّني سمعت الرنين. قد تكون واقفة أمام الباب وخلفها أشعَّة الشمس الغاربة، والتي بدلًا من أن تبرزها ستجعلها أكثر غموضًا. لا، لا أحد عند الباب. قد يكون وقت طويل مرّ عليّ وأنا واقف عند نهاية السُّور أنتظر وأخمّن وأتوقَّع... ثمَّ عبرت حتَّى الغابة؛ حتَّى المكان الذي تلعب فيه كلّ أربعاء مع جارتها كنزة.

عدت إلى غرفتي منشرحًا. وأعتقد أنَّني نمت على هدهدة أفكار مشرقة. لقد قلت لها كلامًا كثيرًا لم أفكِّر فيه من قبل، وحدثتها عن مشاريع لم تخطر في بالي مطلقًا... أوَّلًا، عليّ أن أفكِّر في المستقبل. ثانيًا، تركتُ الماضي خلفي بلا رجعة. إنَّه مرَّ ولن يعود. وقلت لها ثالثًا: انتهى توزيع الرَّسائل. ورابعًا: مشروع بيع الطيور للإسبان في لاس بالماس مشروعٌ مُربح دائمًا. وخامسًا، لأنَّ الإسبان يحبُّون الطيور... أكركر بملء حنجرتي وحيدًا في غرفتي مع أفكاري الجديدة، وأقول: أيُّها العفريت... أقول هذا وأنا أتلوَّى في السَّرير. لا توجد حافلة ذاهبة إلى گلميم في هذه السَّاعة من اللَّيل. جولة أخيرة لتوزيع الرَّسائل الأخيرة. گلميم. آسا. وأعود إلى أگادير. غدًا يوم آخر. غدًا يوم جديد...

الرجال يأكلون الدُّخان. الدُّخان يدخل من الأفواه ويخرج من المناخِرِ كالسَّحاب. النساء لا يخرج من رؤوسهن دخان، لأنَّهن لسن كالرجال. الرجال هم الدخان في الرأس. والصدر فيه أصوات كلّ الطيور. الرجل في رأسه دخان وفي جوفه غابة، تزخر بالطيور والفراشات وكلّ الكائنات التي تغنّي في الغابات. وقفت قريبًا منها؛ الغابةِ التي في صدره، وسمعت زقزقتها. أمَّا ملمسها الناعم، فهو على كفّي. الطيور حمراء ذات أجنحة مشتعلة. الأجنحة حمراء مرقَّطة بالأصفر. الأصفر جميل دائمًا عندما يكون مرقَّطًا بالأحمر. في صدره طيور صغيرةٌ، صغيرةٌ في حجم حبَّات البرد. وإذا مددت يدي وأمسكت بها فسأنظِّمها عقدًا حول عنقي؛ عقدًا منظومًا من الطيور الصغيرة التي بنت أعشاشها في صدره. وهكذا تستطيع أن تغنّي في كلّ وقت. وهكذا أستطيع أن أسمع الغناء في كلّ وقت. ويصبح الغناء في أذني أيضًا، وأسمعه في المخدة عندما أنام.

مساعد ضابط الاستعلامات

الذي يسمّى إدريس الثاني

الأحد 20 أبريل 1958

أنا لا أشتغل في رمضان. ممنوع العمل. هذا ما قلته لإدريس. يستطيع أن يكون رئيسًا بالقدر الذي يشاء، ويستطيع أن يُصدر الأوامر بالقدر الذي يشاء، ولكنّه لن يجبرني على العمل في رمضان. لا هو ولا غيره. لا أحد يعمل في رمضان، قلت له... حتّى يخرج رمضان ونشوفو... وعندما رأيت أنّه متحمّس أكثر منّي، بقيت أسوّفه حتّى خرجنا من رمضان بخير، وعلى خير. أنا أعرف عيوبي. لا أتحكّم في نفسي، في رمضان. ثمّ إنّ مهمّتنا، هذه المرّة، ليست عاديةً. تلقّينا في الأسبوع الماضي معلوماتٍ، من قلب الجهاز، بأنّ القصر المَلَكيّ لم يتسلّم دفعة عبيده كاملةً. اللّائحة ينقصها عبدٌ لا أحد يعرف أين ضاع. مهمّتنا هي العثور عليه. قلت لإدريس مفتخرًا: من لا يحلم بإنجاز عمل لمصلحة القصر؟ وفركنا أيدينا. هذه فرصتنا؛ طريقُنا نحو المستقبل.

كنت دائمًا موظّفًا منضبطًا. يقول زملائي لي: أنت محظوظ يا إدريس لأنّك تحبّ النّظام. وليس هناك سرّ. لا أضع المحراث قبل الدابّة. مهمّتنا الجديدة يحلم بها كلّ موظّف لديه طموح: أن أجد نفسي مدفوعًا إلى الأمام في الرابعة والعشرين، في بداية مشواري الوظيفي، أمرٌ لم أكن أتوقّعه... المشكلة هي إدريس. كنت أفضّل أن يبقى صديقًا على أن يكون رئيسي في مهمّة من هذا النوع. لهذا أسمّيه الشّافْ بدلًا من أن أناديه باسمه، وحتّى أرفع معنوياته، وكي يشعر بنفسه رئيسًا بالفعل. فكرتي هي أنّ الرؤساء محدودون، ويرون أنفسهم أشخاصًا فوق الآخرين. رُتبهم العليا لا تسمح لهم بتخصيص وقت للنّظر حولهم. قلت له: إذن شافْ، إنّ رمضان ليس شهرًا ملائمًا لعمل يحتاج إلى تركيز وبحث وأسفار وتنقّلات بين الوجوه والأمكنة، اللّه وحده يعرف إلى أين ستقودنا. ثمّ إنّ رمضان يصلح للاعتكاف في المسجد وتلاوة القرآن، والنوم. وها نحن خرجنا منه، والحمد للّه. البارات تكون مغلقة في رمضان. هل يوجد عمل مُتقَن بلا بارات؟ ولهذا أتصرّف خلال هذا الشهر كما يتصرّف الزملاء. ألبس جلبابًا أبيضَ وأضع لبدة الصلاة تحت ذراعي وأذهب إلى المسجد، على الأقلّ. أمّا هو، فلم تلمس جبهتُه الأرضَ، لا في رمضان ولا في غير رمضان. مطّ الخبيثُ شفتيه والتفت إلى كأسه.

يقع البار في شارع بن تاشفين في مواجهة الثكنة العسكريّة لعين

البرجة؛ بار الطالب كما يسمُّونه. وهو البار الذي نتردَّد عليه منذ التحقنا بالعمل أنا وإدريس. وذهبنا إليه اليوم بمناسبة نهاية رمضان، واحتفالًا أيضًا بمهمَّتنا الجديدة. وهذا هو المهمّ في كلّ هذه القصَّة: أن يعترف الزملاء بأنَّنا قفزنا خطوة في الطريق الصَّحيح. وهم الذين ألحّوا على الاحتفال. هل نحن محظوظون إلى هذا الحدّ؟ بالإضافة إلى الحظّ، هناك طريقة العمل. جميعهم يعملون معنا في الكوميساريَّة السَّابعة. أغلبهم مقاومون سابقون التحقوا بقسم المخابرات بعد الاستقلال. متكبّرون، مفتخرون بإنجازاتهم، مزهوُّون جميعم بأنَّهم أكثر الموظفين وحشيةً في كلّ البلاد. شرسون. عصابة من القتلة. ولكلٍّ حكايةٌ عن كمين نصبه أو أرض سطا عليها. هذا هو الفرق. الحمد للّه، نحن لم نقتل أحدًا ولم نسطُ على أرض. أمضوا هذه السنوات الثلاث التي أعقبت الاستقلال في الاغتيالات وتصفية الحسابات. وأضرموا النار في أكثر من شخص. وجلسوا يتفرَّجون على جثته حتَّى انفجرت. وقد أحرقوا سنيغاليًا بالخطأ. وأطلقوا بالخطأ النارَ على زميل لنا اسمه سالم، سقط على عتبة بيته. ولحسن الحظ أنَّ الرصاصة لم تقتله، واكتفت بأن تذهب بعينه اليسرى. وهم في الحقيقة يتحرَّقون إلى معرفة نوعية مهمَّتنا الجديدة. وهذا سبب كَرمهم الطارئ. ونحن لا نقول شيئًا عن مهمَّتنا. نكتفي بإطلاق النكات، وقهقهاتٍ في غير محلّها. وهذا يُشعل فضولهم ويُثير غضبهم ويُضاعف حنقهم علينا. يذكّي شعورهم بتفوُّقنا خيبتَهم ويُشعل نار الضغينة والحسد في قلوبهم. وهي التي أفتت عليهم في هذا الاحتفال. وغير مستبعد أنَّهم يُعدّون خطة للإيقاع بنا. لا أعتقد أنَّ إدريس يشاطرني هذه الأفكار. إنَّه مهتمّ فقط بزبيدةَ، الجالسةِ أمام الكونتوار. كأنَّما هي المرَّة الأولى التي يراها مع أنَّها تتردَّد إلى البار بشكل منتظم. إنَّها تسترزق اللّه، وكلّ الزبائن هنا ناموا معها... لأنَّها تسكن فوق البار... تضع ساقًا على ساق، على كرسيّ عالٍ. تدخّن وترشف جرعات صغيرة من كأس النبيذ أمامها. شفتاها المكتنزتان مطليّتان بأحمر قانٍ، وشعرها الأسود قصير. تلبس ثريكو رماديًا، حاسرةً تنُّورتَها السَّوداء التي تفضح ساقين ببياض العجين، في الطرف الأقصى من الكونتوار، معزولةً عن الزبائن الآخرين، الذين يزعقون في أقصى الصالة.

لم يهتمّ بها أحد عدا إدريس. القاعة واسعة، وتبدو ضيّقة من كثرة الزبائن. كنَّا جميعًا محبوسين، ممنوعين من الشراب خلال هذا الشهر المبارك. والجميع فَرِحون لأنَّه رحل عنَّا لسنة أخرى؛ لسنة كاملة. يشربون ويدخّنون ويأكلون الشواء. على الموائد أكوامٌ من القناني والكؤوس

وعظام الخرفان التي التُهمت. وتوزَّعت العظام على الأرض أيضًا. والشيخات توزَّعن على الصالة، يغنّين بأصوات أعلى من الزعيق، وفوق العظام المبعثرة قبل أن يعدن إلى المصطبة المتواضعة. لا أحد يهتمّ بغنائهن. وهنَّ مبتهجات، مع ذلك، لأنَّهن يعملن في بارٍ محمي يرتاده زبائن من نوع خاص. تأتي رائحة الشواء من النافذة المطلّة على شارع بن تاشفين. أحمد الصغير، نسمّيه زعيم العصابة لأنَّه أعلى رتبةً منّا جميعًا، ولا أحد يعلم كيف حصل عليها. وهو الذي أتى برأس خروف لأنَّ إدريس يحبّه. لقد عثر على الطريقة المثاليّة لاستدراجه ودفعه إلى إطلاق لسانه. نزلت زبيدة من على كرسيها وجاءت إلى مائدتنا لنشعل لها سيجارتها. واغتنمت الفرصة لتنحني على إدريس وتوشوش في أذنه ثمَّ تعود إلى جلستها. التفتُّ إلى جهة إدريس. استمرَّ نظره معلّقًا بالمكان الذي توجد فيه المرأة، في أقصى الكونتوار. لا يحيد عنه، وهي مولية ظهرها جهتنا هذه المرَّة. كأنَّها مطمئنة إلى ما سيحدث بعد قليل؛ مطمئنة تمامًا. يتماوج دخان سيجارتها حول شعرها القصير في هدوء. والآخرون، عصابةُ المجرمين المتحلّقة حولنا، ما رأيُهم؟ لا أحد منهم تحرَّك أو التفت إلى جهتها. كما لو كانوا على علاقة مشبوهة بها. من غير المستبعد أنَّهم جنَّدوها هذه اللَّيلة للعمل لحسابهم. وما عجزت عنه العصابة الفاسدة، بكرمها المصطنع وطيبوبتها الملفَّقة، ستأخذه المرأة ذات الأحجام غير المتناسقة بلا مجهود، لأنَّ إدريس لا يكتم سرًّا عندما يتعلَّق الأمر بالنوم بين فخذي امرأة، والسُّكْر برائحة عرقها الحامض. وعلى الرَّغم من أنَّه الرَّئيس، فإنَّني أمضي وقتي في تنبيهه ولجم لسانه، لأنَّني أفكّر في المستقبل. وقد قلت له إنَّ هذا الحدث غير المنتظر سيسمح لنا بترقية سريعة، وعلينا أن ننجح، قبل أن يزاحمنا في الترقية الموظَّفون الجددُ والذين جُلب أغلبهم من الشارع، من ذوي السَّوابق والأميّين والمشبوهين. ولأوَّل مرَّة أرى أنَّه متَّفق مع وجهة نظري. وبلغ به اندفاعه درجةَ أنَّه صاح قبل أيَّام مهدّدًا بأنَّه سيقدّم استقالته ويعتصم في بيته إذا لم ننجح في مهمَّتنا.

ظلُّوا ينظرون إليها باحترام وهي تضع ذراعها الثقيلة على كتف إدريس. وهذا هو السُّؤال: ما هو هذا السَّبب الذي يجعل زمرة من الرجال الشرسين، المتهوّرين، الفاسقين، يحترمون امرأة إلى درجة أنَّهم لم يلتفتوا إلى جهتها مطلقًا؟ أعطِني سببًا واحدًا، عدا هذا الذي أتحدَّث عنه. لماذا ستحترم هذه المرأةَ بالذات، وليس أيّ امرأة أخرى، اه؟ امراة اسمها زبيدة، لا تختار حتَّى الزبون الذي سيسد فراغ فراشها لساعة أو لليلة، برأس

ضخم وذراعين كجذعَي شجرة؟ لأنَّها اللَّيلةَ مشاركةٌ في المؤامرة. هذا هو الكلام المعقول. إنَّها امرأة بلا أدنى جاذبية. الرأس ضخم، والذراعان سمينتان، والعينان جاحظتان، والشفتان غليظتان، والأسنان كبيرة. هذا عندما يحدث مصادفة أن تبتسم. كلّ شيء فيها مبالغ في حجمه. وإذا كان إدريس يتجاهل هذا الأمر، وهو يتجاهله فعلًا، فلأنَّ بصيرته تعمى عندما يجد نفسه على مشارف جسد أنثويّ. روائح المرأة السكرانة تشلّ حواسَّه. إنَّه يحبّ هذه العيّنة من النساء؛ النساء اللائي تفوح من جلودهنّ رائحةُ البارات والشراب الرخيص. طريقتها في التدخين ووضعِ الساق على الساق كافيةٌ لإتلاف بوصلته المتضعضعة أصلًا. وكما كنت أتوقَّع، نهض إدريس ليلتحق بها، وفي يده ما تبقّى من رأس الخروف. أراه ينحني على ذراعها التي تشبه السارية. وعندما تلتفت أرى أحمر شفتيها يتمظط. ثمَّ أرى إدريس ينحني عليها أكثر وأرى فمها يتَّسع، وأسنانها تزداد طولًا، كأنَّها مستعدَّةٌ لالتهامه هو ونصف رأس خروفه والأسرار التي نحاول أن نخفيها... إنَّه يتلوَّى حولها الآن، يتمايل سكرانَ، ليس من الشراب، وإنَّما من الرائحة؛ رائحتِها. كيف لا يدرك إدريس أنَّها من العصابة؟ وأنَّ الفخ حولنا مكتمل؟ ظلَّ أصحابنا يحرّكون رؤوسهم، متظاهرين بأنَّهم يحبُّون الغناء. ذلك بأنَّ خطَّتهم سائرة إلى التحقق.

البار قريب من المسالخ البلدية. روائح رَوْث البهائم ورائحة دمها تأتينا حتَّى هنا، سواء في اللَّيل أو النهار. عندما نرغب في أن نضحك فيما بيننا نقول إنَّنا نسكر بالشراب وبرائحة الدم. وكان الرجال الذين يعملون في المسالخ قد اقتحموا البار الحاديةَ عشرة ليلًا تقريبًا. رجال يلبسون بلوزات زرقاء أو رماديَّة ملطَّخة بالبعر وبقعِ الدم المسوَدّ، ويحملون في أحزمتهم سكاكين ذات أحجام متباينة، وينتعلون أحذية كاوتشو عالية. انحنى الجزّارون على أحذيتهم وأخرجوا الأكباد التي سرقوها من أجواف البهائم التي ذبحوها. إنَّهم يبيعونها لحَسَن، صاحبِ عربة الشواء المركونة أمام الباب.

لا يحتاج ابن آدم إلى الكثير من الشراب ليسكر بعد شهر من الصيام عنه. وهذه من حَسَنات رمضان. وهذا ما حدث لإدريس. بدا مركّزًا نظره في اللَّاشيء. وكواحد ينظر إلى داخل نفسه، أطلق تنهيدة طويلة ووضع رأسه على كفِّه وأغمض عينيه. نسي المرأة تمامًا. واستطعت أن أجرّه خارج البار وهو يتمايل ويتعجَّب من مَيَلانه المفرط والذي أصبح يُضحكنا معًا، وأنا أدفعه بعيدًا، قبل أن يتذكَّر. إنَّني الوحيد المهتمّ به، كما لو كنت

المسؤول عنه. وبالفعل، فإنّه لا يصلح لأيّ شيء. وينبغي لي مراقبته في كلّ الأوقات.

تركنا العصابة مطمئنة إلى مخططها. أحمد الصغير الأكثر دمويّة، يحكي عن ولده الذي جاء صباحًا بسلحفاة عثر عليها في الحديقة. سلحفاة في حجم البطيخة. رماها أحمد من الطابق الثاني كي يتخلّص منها، ولم تُصب بأذى خدش. ثمّ التقطها وعاد ليرميها من جديد، وظلّت هذه المرّة أيضًا جاثمةً وسط الزنقة وتمدّ عنقها صوبه. وصعد في المرّة الثالثة إلى السطح لتكون السقطة أقوى. وعندما نزل إلى الزنقة لم يعثر لها على أثر. ماذا حدث للسلحفاة. طارت؟ السلاحف لا تطير، إلّا هذه السلحفاة لأنّها مسكونة. وهذا معروف. عندما يتعذّر على الجانّ العثورُ على مسكن آدمي، فإنّهم يختبئون تحت قوقعة السلاحف... ثمّ ازداد الصّخب حول المائدة لأنّ الجميع سكارى... هل هذه حكاية يحكيها الناس في العيد؟ ولمَ لا؟ الجانّ يرافقوننا من المهد إلى اللّحد. ينفُذون داخلنا من كلّ ثقب يجدونه أمامهم. تركنا الضحكات السّكرى والأصوات السّاخرة تتعالى وخرجنا إلى الهواء المختّر برائحة الذبائح.

عندما سأعود إلى بار الطالب سنة 2008 بعد خمسين عامًا، سأجده في مكانه، ولكنّه تغيّر. البار كان رؤاده من ضبّاط المخابرات وضبّاط الثكنة العسكريّة المجاورة. والزبائن الجدد هم من عمّال المعامل المجاورة؛ معامل الشوكولاتة والخميرة، ومن أساتذة الثانوية المواجهة لمحطّة القطارات، أو الذين يأتون من الأحياء الفقيرة القريبة. وبدلًا من الموائد الأنيقة من الخشب الجيد وكراسي الخيزران أو الصفصاف، طاولاتٌ ذات قمطرات جلبها صاحب البار من المدارس التي أغلقت أبوابها. ولا تزال خربشات التلاميذ محفورة عليها، بالإضافة إلى رسومهم الفاحشة وتعليقاتهم اللّاذعة...

الإثنين 21 أبريل 1958

القطُ حيوان يتنبأ. هذا ما تقوله جدّتها كلّما نظرتْ إلى عينَي قطّتها... لأنّ القطّ يرى الأشياء التي لا نراها. تعتقد أنّه غير مهتمّ بما يدور حوله. أعمى؛ أو متكوّر على نفسه في الركن ويهز. لو منحتَ نفسك الوقت الكافي وتأمّلت عينيه مليًا لرأيتهما تنطقان بالفضيحة التي حدثت، قبل أن تحدث، تقول جدّتها. القطط هي هكذا دائمًا. مخلوقة لتتنبأ بالكوارث وتهرب أحيانًا قبل أن تقع، كما تفعل ليلة العيد الكبير، تختفي قبل المجزرة. عندما تحدث الكوارث ولا يراها الناس وهي تهبط على رؤوسهم، فلأنّهم ليسوا قطّا. النبوءات تسمّى نبوءات لأنّها بلا سبب، تقول جدّتها. وأنا أعتقد أنّها على حقّ. عملُها الجلوس على الفراش والتنبؤ بالكوارث. غرفتها مظلمة لأنّها بلا نوافذ. ترتدي جدّتها السواد، بحيث تبدو الغرفة فارغة كلّما أطلّلنا عليها أنا وهي. أستطيع، في أحيان كثيرة، أن أصل إلى نتائج مضحكة، فأقول مثلًا: إذن، لا أحد في الغرفة. لا توجد فيها لا الجدّةُ ولا قطّتُها السّوداء. لأنّهما لا تظهران في العتمة الكثيفة.

كلّ ما حدث قالته القطّة... هي وموزّعُ الرّسائل الأسود، والغابةُ حيث ضبطهما الشبّانُ الثلاثة، والنبأ الذي سرى في الحيّ حتّى قبل أن تعود إلى البيت.... ووالدتُها التي ظلّت تسأل كيف تعرّفت إليه. لم يعتبْ على بيتنا رجلٌ أسود في يوم من الأيّام. والدها لم يكن أسودَ. لا يوجد في العائلة وفي كلّ الشجرة مخلوقٌ أسود. تسأل والدتها من أين جاءت به إذن. كهمّ أخير لم تكن تنتظره. ثمّ نبوءة قطّة الجدّة الحاسمة... هذه البنت لن تبقى معنا... أنا لم أرَ على وجهها أثرًا للنبوءة خلال هذا الأسبوع، ولا هذا الصباح، عندما دخلتُ غرفتها وأيقظتها، منعتها والدتها، منذ الكارثة، من الخروج. وهي الآن ممدّدة في الفراش وترفض أن تتحرّك. تراقب السقف، لوقت طويل. وحولها على الوسادة يرقد شعرها الناعم، الأسود. وأنا أنتظر أن تطلب منّي أن أصفّفه. هل تفكّر في موزّع الرّسائل؟ لا شيء من هذا يظهر على وجهها. لا حزن ولا فرح. لا سبيل إلى معرفة نيّاتها. ربّما إنّها حزينة في داخلها، بعكس ما تحاول أن تبدو عليه. لأنّها هكذا، دائمًا، يرشح من وجهها عكس ما هي عليه. لا تعبير تستطيع أن تستشفّ منه هل هي سعيدة، أم فرحانة، أم أكثر، أم أقلّ. ربّما إنّها حزينة في داخلها لأنّها تفكّر كامرأة هجرها رجلها.

تقول والدتها إنّ عقلها غير مستقيم. وهذا لم يجعل وجهها يتغيّر.

ربّما إنّه ليس خبرًا كافيًا ليجعل وجه أيّ بنت، كيفما كانت، يتغيّر. لا أعرف اللّون أو التّعبير الذي سيأخذه وجهي لو كنت مكانها. أغلب الظنّ أنّني لن أكون فرِحة. أغلب الظنّ أنّه لن يبقى جامدًا كالوجه الغافي على الوسادة إلى جواري. لن أكون سعيدة، لو وضع الرجل ذاته، ساعي البريد، يدَه السوداء على يدي، بالطريقة الحانية نفسِها. لو كنت مكان البنت السّعيدة التي ترفض أن تبدو كذلك. ولن أفكّر في غيابه كما يحدث لها الآن، وخلال كلّ الأسبوع الذي مضى. ولن أتساءل هل سيعود؟ وعلى الرغم من أنّها لا تعرف في أيّ بقعة من الأرض يوجد، سألتها: واش بصّح غادي ثمشي؟ وهذا أيضًا لا تفهمه. لا تفهم أنّها ووالدتها ستغادران المدينة بسبب الفضيحة. أنا أصغر منها بستّ سنوات وأفهم هذه الأمور. عقلي أكبر من عقلها، لهذا تقول والدتها إنّها بلا عقل.

لم تتحرّك. عيناها على عوارض الخشب التي تكوّن السقف كأنّما تعدّ الساعات التي تفصلها عن موعد ذهابها هي ووالدتها. وهي لا تعلّق. لا تستنكر. لا تسأل من أين تنزل عليّ هذه الأفكار، محاولةً ألّا تبدو سعيدة كي لا أغتاظ. ربّما. أمّا بالنّسبة إليّ، فكأنّما لتعزّز النبوءة التي رأتها الجدّة في عينَيّ قطتها. رأت في عينيها ما لم تَقُلْه عيناها، ولن تقوله هذا الصباح. ستذهب ولن تعود. وهذه الفكرة جعلت الدموع تطلع إلى عينَيّ. وأنا أفكّر في أن عليّ منذ الآن أن أنزل إلى الشاطئ من دونها، وأن أصعد إلى الشجرة من دونها. وحتّى إذا صعدت، فلن أعثر على بَيْض لأنّ الأعشاش ستكون قد رحلت معها.

تحرّك رأسها، ويتحرّك شعرها أيضًا، ولا ترد بشيء، مضيفة حفنة غموض جديدة. أنتظر أن تمدّ إليّ المشط لأصفّف شعرها. أطلب منها أن نغادر الغرفة. منذ صارت حزينة وهي تحاول ألا تبدو كذلك كي لا أغتاظ. ولماذا سأغتاظ؟ كان من الممكن أن يحدث معي الشيءُ نفسه، وهما يجلسان على الرمل، ثمّ وهما يسيران حتّى نهاية الشارع، وحتّى فندق السّلام، وأنا أسير خلفهما. وأراه يهمس إليها. يدسّ في أذنها كلامًا لست في حاجة إلى سماعه لأدرك أنّها لن تفهمه. يبتعدان عن الفندق ويصعدان حتّى طرف الجبل، ويجلسان تحت الأركانة. والشبان الثلاثة وكلّ الأشياء التي وقعت... ستتوقّف جولاتنا عند هذا الحدّ. ولن نذهب إلى الشاطئ في الظهيرة، ولن نعبر الغابة مساءً.

إنّه لم يلتفت إلى جهتي مرّة واحدة، كما لو كان يتعمّد ذلك. يدسّ في أذنها سمومَه الفتّاكة، وأنا أردّد في سرّي أنّه لا يراني، ولا يرى ما

يحدث في عقلي، أو ما يحدث لدمي وهو يقفز تحت بشرتي. لا تطيق المرأة أن تبقى بعيدة عن الرجل، وخصوصًا عندما تستمرّ دموعها في النزول وتعتقد أنّه الفرح. الفرح لا يجلب الدموع. لا أحد يبكي من الفرح. هذه هي القاعدة. النساء يبكين دائمًا بسبب الغبن أو الحزن، أو بسبب أشياء يجهلنها. وأنا أقول إنّ الرجل هو السَّبب، دائمًا. هذا معروف. أشياء غريبة تقع في عقلها بسبب الرجل. أشياء لا تتحكّم فيها، ولا علاقة لها، لا بالحزن أو الفرح. مَن يدري؟ ربّما إنّ هذه هي السعادةُ. لا داعي لأهتمّ بالأمر أكثر ممّا يجب. لأنّه، كيفما تكن الحال، فإنّها أصبحت غريبة حتّى قبل أن تقول والدتها إنّ البنت مسكونة. أمّا الآن، بعد أسبوع على اختفائه ، فإنّني أقول: من حسن حظي أنّي لست في مكانها. ثمّ أنا أرى الآن أنّني لن أكون في مكانها أبدًا. ولا أرغب في هذا في أيّ حال من الأحوال. والدتها، التي ألّا خالتي منانة، منعتها من الخروج عندما أخبرتها، حتّى لا تنتشر الفضيحة التي تنبّأت بها قطة الجدّة. تكدّ والدتها في الفندق، ولا تعرف ما يدور في رأس ابنتها. أسوأ ما يتمتع به ابن آدم هو أنّ ما يدور في رأسه لا يعرفه أحد. لا جاره ولا صديقه ولا أمّه أو والده. لا أحد. هذا شيء شنيع. وأسوأ ما يتمتّع به ابن آدم هو ألّا يعرف أحد ما يدور في رأس الآخر. حتّى اللّحظة التي يفتح فيها فمه متعجّبًا أو قلقًا أو ساخطًا... كما حدث لوالدتها.

كانت في داخلي رغباتٌ صغيرة مثل رغباتها، ولكنّها زالت. تبخّرت مع كلّ الصور التي نسجتُ بشأن صعودهما إلى الجبل: الرمل الذي يبدو من ذلك العلوّ أشقرَ ناعمًا كالقمح المدقوق. والبحر وألوانه التي تتبدّل بفعل دقّات المساء المتسارعة. والأشياء التي قد تكون فعلتها معه. رغبتي هي ألّا يلمسني أحد، أو يمسك بي من ذراعي ويرفعني عاليًا وأنا أضحك، وخصوصًا رجلًا طويلًا وعريضًا وأسودَ كالرجل الذي تحلم به. وسيجدني خفيفة كالريشة. انتظرت أن يفعل طوال الأسبوعين اللذين ظلّ فيهما يمشي ويجيء، ويتظاهر بأنّه مهتمّ بها فقط... أيّام فتحت لي أبواب سعادة غريبة لم أعرف كيف نزلت عليّ، ولا كيف استمرّت حتّى بعد أن رحل. حتّى بعد أن فهمت أنّه لن يعود غدًا أو بعد غد. إنّها لا تدرك هذه الأمور. لا تفهمها على الرّغم من سنواتها العشرين التي تجاوزتها. غادرنا الغرفة أخيرًا وجلسنا على السلّم.

لا أفهم لماذا تقول الجدّة: هذه البنت خبز اللّه، يتبعها حُسن الطالع. نجمة سعد تحرسها. وأينما تضع قدميها تكنْ في أمان. ستكون عتبتها فيها

البركة دائمًا، وأشياء أخرى لا معنى لها. أسمع الجدَّة تناديها. نستمرّ جالستَين على السلّم، كفتاتين بلا هموم. نظلّ صامتتين كيتيمتين، والمشط يمرّ خفيفًا على شعرها، صامتًا، والشعر يلمع بفعل انعكاس ضوء النهار المنبعث من الكوّات الصغيرة؛ أو بهمّ واحد فقط. تطلبها جدَّتها وأنا أمرّر المشط على الشعر الناعم. يدي على كتفها كما لو كنت أحاول منعها من النهوض. وأراقبها. إنَّها غائبة، لا تسمع، خارج اهتمام العجوز. أنا لا أحبّها. أحبّ شعرها. وجدَّتها تحبّ نهديها الصغيرين. حلمتاهما بارزتان من تحت القميص بشكل مثير، بشكل مخيف، كفاكهتين تترنَّحان وستسقطان لأنَّهما نضجتا أكثر ممَّا يجب. جدَّتها تحبُّهما بسبب ارتعاشاتهما المثيرة، الأمر الذي يجعل يديها ترتعشان كلَّما اقتربتا منهما. وتحبّها من أجلهما، لأنَّها تأخذها في حجرها وتقرصهما. جدَّتها يعجبها أن تراهما تتحرَّكان فتصرخ فرحانة. تثيرها الاهتزازات الخفيفة تحت القميص فتفتح فمها عن آخره، كأنَّما لم تَرَ نهدًا في حياتها. وكلّ الأشياء الأخرى. جدَّتها تحب أن تلعب بنهديها. لست في حاجة لأمرر يدي على صدري لأنَّ جدَّتها لن تهتمّ به. ولكنَّها سترحل. حان الوقت. مع الأسف، انتهت الرحلة، والوشوشةُ، ومماحكةُ النهدين الصاخبين. حان موعد الهجرة التي تحدَّثت عنها قطتك. ستذهب ولن تعود. السنونوات تعود، وكذلك اللقالق. أمَّا هي، فلن تعود. ولا تعرف في أيّ عشّ ستنزل. قد أشتاق إليها في وقت لاحق، عندما تكون رحلت، ونأت بما فيه الكفاية. قد أحبّها وأرغب في صداقتها، وأستطيع حتَّى أن أرى لها خصالًا عديدة، وأنسى ما وقع فوق الجبل، وأتذكَّر جلستها ومشيتها وضحكتها، وشعرَها الأملس، الأسود، المنسدلَ على كتفيها من كثرة ما مشطته. وقد أرغب في أن أصدّقها عندما تقول إنَّ والدها يشتغل في الميناء مع الإسبان، وإنَّ في إيفني نفطًا يحتاج إلى خبرته... وكلّ الأشياء الأخرى. في قاع الغرفة المظلمة ينزّ الخشب الذي يحمل جدَّتها. إنَّها تخرج من سباتها شيئًا فشيئًا. ستنادي عليها من جديد لتمدّ إليها كأس ماء وتستغلّ الفرصة لتمدّ يدها إلى صدرها وتطلق ضحكتها الخاوية. كأنَّما لمسة الفاكهتين هي الدليل على أنَّ نهارها قد بدأ. أسمع الجدَّة تقول: بنتي ضْريفة... غادي ثجي ثقول لجدتها ضباخ الخير...

نفتح الباب ونذهب حتَّى الشجرة. أسمع نداء جدَّتها آتيًا من بعيد، غيرَ واضح هذه المرَّة. نقف تحت شجرة السنط. ترفع تنُّورتها وتقرفص. أرى أنَّ عقابًا فوقنا يلحس منقاره، بدلًا من السناجب التي تسكن الشجرة. أطلق صيحة وأراه يحملق فينا مندهشًا بدلًا من أن يهرب. تنتظر أن أفعل مثلها، ولكنَّني أرفض. تنتظر لحظة، ثمَّ تقف وتجمع سروالها. نتفرَّج على

البخار الصاعد من العشب الذي تبوّلت فوقه. لا أرى علامة تدلّ على أنّها صارت امرأة، كما أخمّن. وأنا في تلك اللّحظة، كنت أتساءل لماذا لا أتسلّق الشجرة لأرى ماذا سيحدث... ربّما رأيته قادمًا، مشيرًا إليّ بيديه بأن أبقى في مكاني حتّى يلحق بي... وأستمرّ أنتظر وصوله. وأسمع جدّتها القابعة في الغرفة المظلمة تصيح: شكونْ جا. ولا أردّ، لأنّني ليست لديّ جدّةٌ، تجرُّني من ذراعي ونسير صاعدتين حتّى الحديقة التي تحيط بفندق السلام، إلى جانب الطريق المكسوّ بالعشب الذي اصفرّ لأنّ لا أحد يسقيه. وهي لا تحبّ أن تجري، لأنّها أصبحت امرأة، مزهوّةً بكونها أصبحت امرأة. هذا ما أقول... النساء وحدهنّ يكرهن الجري... النساء لا يهرولن في الطريق العامّ...

تقول إنّ والدها يشتغل مع الإسبان، في الميناء. أمّا أنا، فأستطيع أن أرى والدي وقتما أشاء لأنّه يمدّ الطريق الذاهبة من أگادير إلى گلميم. وهذا الرجل الذي يشتغل مع الإسبان في ميناء إيفني، والذي تقول إنّه والدها، لم يزرهما في يوم من الأيّام، ولو مرّةً واحدة. لهذا أقول إنّ والدها لا وجود له. وتقول إنّهم في الميناء يستخرجون البترول. ربّما. بالبترول أو من دونه، فإنّ والدها لم يظهر له أثر. تخترع هذه الحكايةَ وحكاياتٍ أخرى غيرَها حتّى تظهر امرأةً عاقلة. نلفّ الحديقة ونسير فوق الحائط القصير. تنتفخ تنّورتها وتلعب الرّيح الباردة بين فخديها وهي تضحك. هل تفعل الرّيح الشيء نفسه بفخذيّ لو صعدت فوق السّور؟ وماذا سيقول الناس في هذه الحالة؟ من الأحسن ألّا أصعد فوق السّور. نعبر الحديقة في اتّجاه المطبخ. نسمع ضحك السيّاح في الشرفات المطلّة على المسبح. نسير دائمًا في هذا الاتّجاه لنسمع ضحكهم، ونرى أجسادهم العارية، والبيضاء. ولأنّ رائحة المطبخ قويّة في هذه الجهة من الفندق، فإنّ فمي يتريّق قبل أن نطلّ على باب المطبخ. تسير أمامي وأنا أتلكأ قليلًا لأنّني أتصوّر أنّ والدتها ستنهرها لأنّها غادرت البيت. عادة، عندما نقف عند باب المطبخ، في العصر، تأتينا مئّانة بخبز طويل مبلّل بالمَرَق وعامر باللّحم. وهذه هي الرّائحة التي أشمُّها الآن. رائحة المرق بالثوم ولحم البقر. نرى والدتها تعبر بهوًا وهي تدفع عربة عليها رزمٌ من المناشف والإزارات وأدوات النظافة، وكلّ الأشياء التي تحتاج إليها الغرفُ لتصبح نظيفة. نحبس ضحكنا حتّى لا نثير انتباهها، لأنّها تتحرّك بصعوبة. تكتع في مشيتها كما يفعل طائر البطريق. نعود معها، محمّلتين بأكياس الأكل الشهيّ الذي فاض على الزبائن. تجلس والدتها لتستريح، على الحائط القصير. نجلس إلى جانبها. تمسّد ساقيها. يسيل المرق بين أصابعنا لأنّ والدتها ملأت الخبز حتّى

فاض. ولهذا، تبرق عيوننا، ويضحك فموانا حتّى يسيل لعابنا. نأكل بأعيننا وسيقاننا، كأنّما نأكل بكامل جسدينا. نغتنم الفرصة لنفتح الأكياس ونشمّ رائحة الطبيخ. تضرب الحائط بحذائها الآن، في سعادة، كأنّما نسيت أنّنا حزينتان؛ كأنّما سهت عمّا تريد أن تبدو عليه. هذه هي السّعادة التي أتحدّث عنها، والتي تفاجئها الآن كما فاجأتني من قبل، عندما اعتقدتُ أنّ الرجل الأسود، ساعي البريد، يأتي من أجلي، مع أنّني لا أفهم الحالة التي يكون عليها ابن آدم عندما يكون سعيدًا. هل يضرب الحائط بقدميه؟ ولهذا، ظللتُ حتّى الآن أجد المشهد مضحكًا. هل هناك إنسان يستطيع أن يعبّر عن سعادته بهذه الطريقة؟ هل هناك طريقة؟ هل هناك كلمات؟ حتّى وهي تخرج من الفم... أنا سعيدة الآن... أليست هذه جملة تثير الضحك؟ احترقت إصبعي، منذ أيّام، وأنا أعدّ الشاي. وفيما بعد، عندما شعرت ببعض الألم واعتبرت أنّه سيرافقني طوال اللّيل، وجدتني أفكّر في الغد، عندما سأستيقظ وأرى أنّني أصبحت بخير، وأنّ الألم خفّ أو زال. وقلت إنّني سأكون سعيدة إذا حدث هذا. لم يضع ساعي البريد يدَه على يدي عندما كان هنا، جالسًا معها، على الحائط. وضع يده على اليد الأخرى. وظلّت يدي تنقر الحائط وتنتظر... والقلب الذي يخبط؛ والتصوُّرات التي تصاحب الدم وهو يفقد صوابه ويهبط بلا وجهة؛ والطريق؛ والسّحاب؛ وما تنبّأت به جدّتها؛ وما لم تتنبّأ به. وكأنّما قرّرت والدتها أنّ مهلة الراحة قد انتهت. وقفت وهي تتّكئ على كتفي. نستأنف السّير ليس كما بدأناه، صاعدتين هذه المرّة، ومن دون الرّيح التي كانت تهرش أفخاذنا قبل قليل.

أتركهما تسيران أمامي لأفكّر في السّعادة على خاطري. لأنّني أحاول أن أتصوّر الحالة التي يكون عليها الإنسان وهو سعيد، أو وهو قريب منها. لا يمكن أن تكون هذه هي حالها، مهما يكن، على الرّغم من أنّها كانت قبل قليل تضرب حائط الحديقة بنعليها العتيقين، الموحلين. الأمر غير معقّد في الحلم مثلًا، لأنّ الإنسان السّعيد يظهر دائمًا بجناحين، وحتّى بأربعة أجنحة إذا تعدّت سعادته الحدّ المعقول. وكلّ الأشياء الأخرى... وكنت تساءلت ونحن جالستان على الحائط القصير: هل أفتح ثيابها لأرى الجناحين؟ ربّما إنّها تخفيهما تحت القميص. هل تنبّأت القطّة بهذا أيضًا؟ القطط هي هكذا دائمًا. مخلوقة لتتنبأ بالأشياء السّعيدة أيضًا. وتأتي أفواجًا بهذه المناسبة لترقص أمام أبواب البيوت وواجهات الحوانيت المضاءة بالشموع.

رأيته في غياهب النوم: الآخرَ، الرجلَ، الذي جاء من بعيد. جلبابه أخضر وله قبّ مخروط الشكل عالٍ، وينتهي بمصباح يومض في قمته.

قال: من تريد أن تطلع معي إلى الشجرة لنقطف الخطاطيف؟ لا تحب كنزة الخطاطيف لأنّها تسرق شعر الفتيات وهي تمرّ قريبة من رؤوسهن. عدَدتُ حتّى ثلاثة وقفزتُ، لم أعثر على الخطاطيف في الشّجرة، لأنّها اختفت. وأمّي تقول لي أن أنزل حتّى لا يأكلني السُود لأنّهم يسكنون الأشجار. السُود لا يموتون، وليس لهم أرواح. هذا ما تقوله أمّي. وأنا أتصوّر ما تقوله أمّي: عندما يموتون، يتحوّلون إلى طيور سوداء تتّخذ من الأشجار مأوًى لها. سوداء، ولكن ليست شريرة، كما تقول أمّي، لأنّ الشرّ لا يسكن في الشجر.

ويسمُّونه أيضًا الجَمَل الذي لا عقلَ له

الثلاثاء 22 أبريل 1958

تكون في حوزتي غالبًا رسائلُ مكتوبة أو شفهيَّة، أو المكتوبة والشفهيَّة معًا. هذا هو عملي. وأتقاضى من أجله أجري من مكتب دحمان عندما كان قائدَ كلّ المنطقة. يعني قبل أن يذبحوه؛ أو من عند بوزيد الذي يبيع القمح في گلميم. لا يزال ينتظر ظهير تعيينه بعد أن ذبح الاستقلاليُّون القايد السابق؛ أو الشوريُّون؛ أو حزب المغرب الحرّ؛ أو هؤلاء الذين يجوبون الشوارع وهم يُطلقون الرصاص في الهواء، والذين يسمُّون أنفسهم أبطال الحرّيَّة المتوكّلة على اللّه... لم أستطع، في يوم من الأيّام، فكّ خيوط هذه الشبكة. ذبحوه قبل أن يلقي خطبته في السوق، وبسكين صدئ. الأعور الذي ذبحه لا يستقرّ على اسم بعينه أو منظمة بعينها، لأنّه لا يعرف إلى أيّ جهة كان ينتمي لم يبدُ مستغربًا، عندما اعتقلوه وهو يغسل السكين في الساقية؛ عندما وقف الدرك عند رأسه. استمرّ يغسل الدم العالق بالسّكين، كواحد ذبح دجاجة؛ أو إنّ استغرابه ظهر فيما بعد. وهو يدرك أنّهم جاؤوا لاعتقاله ولا يفهم السّبب. تنشط عصابات كثيرة في المنطقة الآن. وأنا أفضّل نقل الرّسائل المكتوبة، لأنّ الشفويَّة لا تصل إلى أصحابها كما هي. والرّسائل المكتوبة ثقيلة. ليس بسبب محتواها الذي يبقى متواريًا، وإنّما بسبب ما تتركه على وجه متسلّمها قبل أن يتسلّمها، ومن بعد. وهي بالنسبة إليّ دائمًا لحظةٌ عامرة بالمفاجآت. تشبه الرّسائل المكتوبة البَيْض. إنّه قابع في ظلمة جِرابك، محافظٌ على سرّه. ولا تنتبه إلى الخسارة الجاثمة في قاع سلّتك إلّا عندما تحرّكها، بحذر شديد، مخافة أن يُكسَر. حتّى الوقت الذي تخرج فيه البيضة من الجِراب لتتلقّفها يد متلهّفة. هذا هو عملي: نقل الأسرار. ولكن ليس هذا هو الجزء المهمّ فيه، ما دمت أنساه على امتداد الطريق ولا أتذكّره كيفما تكن الحال. وهذه مسألة ضروريَّة بالنسبة إلى كلّ واحد يمتهن هذه الحرفة ويرغب في أن يستمرّ فيها. إذن، خلال الأيّام الثلاثة أو السّتة التي تظلّ الرّسائل فيها سجينةَ الجِراب، فيمَ يفكّر الرقّاص؟ حتّى لا ينبش الأسرار التي تحملها رسائله؟ حتّى يداري الرغبة التي تفترسه، ماذا يفعل الرقّاص؟ الرقّاص يحلم. هذه هي مهنته الحقيقيَّة، الوجدانيَّة، كأنّما اختار هذه المهنة من أجل أن يحلم. هذه مهنته الثانية والتي لا يتقاضى عنها أجرًا. العمل المجدي، والذي يستأهل أن يسمَّى عملًا، هو العملُ الذي لا تتقاضى عنه أجرًا. هذا هو رأيي فيما يخصّ هذه المسألة. الأساسيّ في عملنا، نحن

الرقّاصين، هو أنَّ الحياة والمشي يتساويان. الحياة هي السير من نقطة إلى نقطة، ثمَّ إلى نقطة ثالثة، ثمَّ العودة إلى النقطة الأولى؛ أو الذهاب أبعد. ثمَّ هناك عزلة المشاء. العزلة التي نسبح فيها طوال الوقت، تساعد على الحلم. تنتقل في الأمكنة والأزمنة كما لو كنت تسير نائمًا، أو كما لو كانت حياتنا انتقالًا من حلم إلى حلم أوسع، أو أنَّها حلم متواصل لا ينقطع إلَّا لينتبه الحالم إلى أنَّه يحلم (عندما يرمي لقمة في فمه مثلًا أو يطلّ على بئر ليرى وجهه...). وسواء بالرَّسائل أو من دونها، فالمشي يبقى الشيء الوحيد الذي يشدّ حياة الرقَّاص. هذا هو الشرط الذي يجلب السكينة التي يحتاج إليها الحالم. اليوم في گلميم وغدًا في أسرير. أغامر أحيانًا حتَّى تندوف شرقًا، أو حتَّى مراكش شمالًا، على الرّغم من قطّاع الطرق واللُّصوص والعسكر ومرتزقته، والأحزاب وعصاباتها، والمخزن وزبانيته، وخصوصًا في هذه الأيّام المضطربة. ومع تكاثر قطّاع الطرق من كلّ نوع، أصبحت لا أعبر إقليمًا من دون العثور على جثث مشوَّهة، وأحيانًا بلا رؤوس.

لم أدخل گلميم، مفضِّلًا الانتقال إلى آسا أوَّلًا والتخلُّص من رسالة بوزيد. قطعت مئة كيلومتر في يومين وليلة، على غير العادة... انتصار لم يسبق لي أن حقَّقته. لم يسبق لي أن قطعت المسافة نفسها في هذا الوقت الوجيز، من گلميم حتَّى آسا. يومان، بالإضافة إلى اللَّيلة التي أمضيتها في خيمة حمادي، الجندي الذي يحمي بئر الحامية العسكريَّة. من حُسن الحظّ أنَّنا في شهر أبريل، وأنَّ الحرّ، على الرّغم من هجومه غير المعتاد، لم يصل بعدُ إلى ضراوته القصوى. ما زال الجحيم يرقد تحت التراب. انتصار حقيقي، لأنَّني أرى هذه المرَّة أنَّ الوصول إلى آسا مسألة بالغة الأهمِّيَّة. وفقط عندما رأيت البرج، منتصبًا في غبش الصباح، عندما لاحت حمرة أسواره أمامي، بين الجبال المحيطة، والمضبَّبة الملامح، فكَّرت في أنَّني لم أتوقَّف ولو مرَّةً واحدة خلال الشوط الأخير من الطريق، الممتدّ مسافة عشرين كيلومترًا على الأقلّ، فتوقَّفت. البرج سابح في غلالة بداية النهار البنفسجيَّة. صامت. تغلّفه شرنقة طمأنينة وديعة. توقَّفت واستنشقت كلّ الهواء المحيط. هواء مفعم بكلّ ما تلتقطه الصحراء في طريقها. وبلذة بالغة، في لهفة الوصول، قد أكون ركضت من دون أن أنتبه. توقَّفت لأتمعَّن في الطريق الطويلة التي خلَّفتها ورائي، والجبال التي قطعتها. كلّ هذه الطريق؟ بشعابها وأوديتها ومسالكها الوعرة. كأنَّما شعرت لحظتها بنشوة وحماسة فائضة، واعتزاز نهاية السباق، وبارتخاء حقيقي. توقَّفت، مسحت عرقي بكمّ قميصي. توقَّفت كواحد يرغب في أن يتأكَّد من أنَّ كلّ شيء لا

يزال في مكانه، ما عدا الثقب الهائل الذي أحدثته الطائرات في سُور البرج. بيوت المخازنيَّة الموزَّعة حوله لم تتعرَّض لخسارة كبرى. وبيوت الطين المنتشرة في الخلف. والحديقة تحت السور الذي فقد كثيرًا من هيبته. والمدرسة المطليّة بالجير الأبيض. كأنَّما طُليت بهذا اللَّون حتَّى أراها وأتعرَّف إليها. والمعلّم بَراهيم، ماذا يفعل الآن؟ عندما توقَّفت، إذن، ورأيت شبح البرج منتصبًا في الأفق المشتعل، وقلت في هذا الوقت من الصباح سيكون المعلم بَراهيم ينتظر الأطفال أمام حجرة الدرس. وسينزوي في بيته، بعد نهار عامر بالعمل، يراقب من نافذته أفول الشمس، وينتظر أن يهبط اللَّيل. وماذا يفعل المعلم بَراهيم عندما يهبط اللَّيل؟ ذلك بأنَّني دأبت على مراقبته منذ سمعت عن علاقاته الغامضة. عندما يكون باب البرج مقفلًا، يغادر غرفته الملاصقة لغرفتي ويتسلق الجدار ويعبر البرج، ماشيًا فوق بيوت المخازنيَّة على أطراف أصابعه كاللِّص. وأنا أراقب مشيته المحاذرة، متخفِّيًا خلف خصاص نافذة غرفتي، أو في ركن من أركان البرج. وهذه ظلّت دائمًا لحظة مثيرة بالنسبة إليّ، أو بالنسبة إلينا معًا، أنا وهو. ذلك بأنَّ المؤكَّد هو أنَّه عارف بوجودي. ضوء القمر يعكس شبحه ولا يُخفي شبحي. نبدو معًا ككائنين شاذَّين في هذا الوضع الغريب؛ مضحكين بعض الشيء. بَراهيم سائر فوق السقوف في قفزات صغيرة تحت الضوء الفضيّ، وأنا أتتبَّع تقدُّمه، محاذرَين معًا أن نوقظ سكان البرج، ومتيقنَين معًا من أن لا أحد يعرف السرّ الذي نتقاسمه، أو نصفَه على الأقلّ. أمَّا النصف الآخر، السرّ الأهمّ، فإنَّه يحتفظ به لنفسه...

نحن، حاملي الرَّسائل، نَحُلّ في مدن لا نعرف فيها أحدًا. وهي في الغالب مدن لا شيء فيها يثير الفضول أو يسترعي الانتباه. أزقتها متَّسخة؛ موحلة شتاءً ونتنة في الصيف. نتانتها مقرفة بالنسبة إلى واحد مثلي يمضي أيَّامه في عبور الصحاري. وهي مدن أحاول تجاهلها. أبادلها الاحتقار نفسه الذي تستقبل به العابرين. وأفكِّر في المغادرة بمجرد وصولي. وربَّما هذا راجع إلى السكان أنفسهم الذين ينظرون إليّ بنوع من التعالي غير المبرَّر تمامًا، وكثيرٍ من السُّخرية والازدراء. ربَّما إنَّ الأمر يعود إلى لوني الأسود، لونِ بابا، الوالد الذي نسمِّيه جميعًا بابا؛ لون الزنوج والحراطين. الناس من حولي يعتقدون أنَّني وُجدت لخدمتهم، وأنَّ اختلاف لوني دليلٌ كافٍ. الناس من حولي يعتقدون أنَّهم أعلى درجة ومقامًا. نعم، أنا مختلف عنهم في كلّ شيء. في طريقة العيش ومقاربة الأشياء؛ في جوهر الحياة والأساس الذي تقوم عليه، في الوقت الذي يُغمضون أعينهم عن الأساسيّ. مختلف عنهم في الأساس، أوَّلًا وأخيرًا في

اللّون (لوني أسود كالفحم). وعليّ ألّا أنسى هذا أبدًا. نحن، حاملي الرّسائل، لا نشبه بقية الناس. هذه هي الخلاصة. ولا يتعلّق الأمر باللّون إطلاقًا. على أيّ، فالمدن بشكل عامّ لا تساعد على إبرام صداقة دائمة، وحتّى موقّتة، كما يتمنّى كلُّ واحد في وضعيتي. المدن لا تساعد على إبرام أيّ صداقة من أيّ نوع كان. وأمرّ عليها وعلى ساكنيها من دون أن يثير أيّ منهم انتباهي. أبادلهم تجاهلًا بتجاهل. أمرّ عليهم كما أمرّ على هذا الحائط. أمرّ عليهم من دون أن يثيروا فيّ أيّ إحساس خاصّ. ولا يختلف الأمر عندما أجد نفسي في گلميم. مع أنّني أصلًا من هذه المدينة فلا أشعر تجاهها بأيّ تعاطف. إنّهم خاطئون في كلّ ما يصدر عنهم. يسمُّون هذه المدينة مثلًا بوابة الصحراء. هل يمكن أن يتصوَّر المرء أنّ للصحراء بابًا؟ الأمر نفسه يثير دهشتي عندما أسمعهم يتكلّمون على السّماوين الأولى والثانية... هل السّماء جدار يمكن إزاحته لتجد تحته أو فوقه جدارًا آخر؟ أو لوحًا يمكن لمسه؟ أو غلافًا يمكن طيّه مثلًا؟ يخرج من أفواه الناس كلامٌ لا معنًى له. السّماء هي كلّ هذا الامتداد الذي أراه عندما أرفع رأسي، والذي لا نهاية له. السّماء ليست شيئًا واسعًا... ولكن هذا أمر ثانٍ. ولا علاقة له بالمدينة نفسها. ما يربط الإنسان بمدينته لا علاقة له ببيوتها وأزقّتها. لا علاقة له بالمدينة كيفما يكن شكل منازلها وأبوابها ونوافذها. يتعلّق الأمر، بالنّسبة إليّ، بشيء يتعدّاه ويتعدّاها. نعم، تحتفظ العينان بالضوء الذي نفذ إليهما أوّلَ مرّة فُتحتا فيه على هذا المكان أو ذاك. وتحتفظ الرّئتان بالهواء نفسه الذي انتفخ فيهما أوّلَ مرّة تنشّقتا هواء هذا المكان أو ذاك. والرأس يحتفظ بالرجّة نفسها التي أحدثها سقوطه أوّلَ مرّة في هذا المكان، وليس في أيّ مكان آخر. هل هذا كافٍ؟ لا. ما ينقص، حتّى يتوحّد الإنسان بمكانه، شيءٌ غير موجود. ما يربط الإنسان بالمدينة، بأيّ مدينة، لا يعدو أن يكون حادثة صغيرة، عابرة، مرّت في حياته من دون أن يجد الوقت للانتباه إليها. هذا هو الأمر. الخلاصة هي أنّ الإنسان مرتبط بالمكان الذي حلم به أكثر من ارتباطه بالمكان الذي أمضى فيه حياته كاملة. كالمملكة البعيدة التي قال بابا إنّه جاء منها، والتي يسمّيها مملكة الداهومي. كلّ ما في الأمر هو أنّ الإنسان لا يعرف من أين جاء. لهذا يحلم. ثمّ، هل لهذا أهمّيّة تذكر؟ وخصوصًا عندما يتعلّق الأمر بمدينة كالمدن التي أعبرها، عارية، وكلّ شيء فيها مكشوف ومعروف؛ مدن بلا أسرار.

ومع ذلك، فحياة مثل هذه لا تخلو من مفاجآت سارّة. نحن، حاملي الرّسائل، لا ننزل في الفنادق. لا نسكن بيوت الكراء. ذلك بأنّ للرقّاص امرأةً

في كلّ مدينة أو مدشر. توجد دائمًا، وفي كلّ الأوقات، هذه المرأةُ المستعدَّة لتقاسمك العشاء والفراش. فاطمة في تيزنيث، أو كلثوم في مراكش. في هذه المدينة أو تلك. هناك دائمًا امرأة في انتظارك، بمفاجآتها؛ بأشيائها السارّة أو المحزنة. توجد دائمًا تلك المرأة المستعدَّة لاستقبالك. تهيّئ لك فراشًا على سطح البيت في الصيف؛ أو توقد لك الفحم في الموقد في الشتاء والدنيا في الخارج صقيعٌ وثلج. لائحة مطالبهن لا تنتهي، من المشط والكحل والحنّاء حتّى الزعفران أو الشاي أو هدهد لجلب السّعادة... وفي ليالي الصيف، غالبًا ما أنزل على عرس تحت خيمة أو على سطح دار. في هذه الحالة، لا أضمن لنفسي أنّني سأغادر قبل نهاية الاحتفالات وهي في الغالب تدوم يومين أو ثلاثة... ولهذا يسمُّونني أيضًا الجَمَل الذي لا عقل له، لأنّني أحبّ الغناء والطرب. أينما يكنْ جوّ الطرب والمرح تجذني هناك. أنسى نفسي أيّامًا وأسابيع.

وجدت حركة غير معتادة في ساحة البرج. حالة من الغليان استعرت به بسبب البزگادي مسعود الذي يدور في الساحة ويهدّد بأنّه سيذبح المعلّم. ولكنّ المعلّم غير موجود، لا في غرفته ولا في القسم. المعلّم بْراهيم ذهب برفقة أفراد سرّيّة المخازنية الذين خرجوا على جِمالهم فجرًا لمعاينة المنطقة. سيقتله عندما يعود. تتبعه من ركن إلى ركن دادا الزنجيّة، التي تعدّ الطعام للمخازْنيّة العزّاب، لتعيد إليه عقله. وتقول له: اللّه يهديك أ مسعود، أعطني الموسى... لأنّها رأته يكبر ويصير شابًّا أمام عينيها، ولأنّها تحبّه كأحد أولادها، ولأنّها لا تعرف ماذا ستفعل في المطبخ من دون سكين. وهو يهرب منها، مراوغًا مجهودَها الجبّار في الالتحاق به، عابرًا الساحةَ في كلّ اتّجاه، شاهرًا أمام الجميع سكينَ دادا. والدجاجات تقفز في كلّ اتّجاه كأنّها ستطير، معتقدةً أنّ البرگادي يجري وراء دمها... لم يهتمّ بتهديده أحد، ما عدا هذه المرأة الزنجيّة الغليظة التي تتدحرج خلفه كالبرميل. على الأقلّ حتّى الآن. والبزگادي كواحد يحمل في قلبه أملًا كبيرًا في أنّه سيستعيد المال الذي أودعه عند المعلّم على الرّغم من غيابه... أكثر من عامين وأنا كنعطيه ونعطيه... ودابا بغيث فلوسي... الشاوش أحمد وحشّاد البستاني والصحراوي حارس بوابة البرج جالسون يستظلّون تحت طرف السور الناجي من قنابل الطائرات المغربيّة وغير المغربيّة. الشاوش أحمد وحشّاد البستاني كفّا عن لعب الضّامة وراحا يراقبان البرگادي وهو يعبر الساحة مهرولًا ودادا خلفه. لأزيد من سنتين ظلّوا يقتطعون من أجورهم جزءًا ويودعونه عند المعلّم ليسترجعوه عند الطوارئ؛ عند الحاجة إلى طبيب أو دواء مثلًا، أو سفر أو شراء ناقة. وها

هو البزگادي مسعود يصرخ في الساحة بأنَّ المعلّم صرف ما جمعوه من عرقهم في شراء السّلاح لجيش لم يسمع به... مَن يعرفه؟ أين هو هذا الجيش؟ منذ عشرين عامًا وأنا في هذا الجنوب ولم أرَ جيشًا... وحتّى إذا كان هناك جيش تحرير هائم في الصحراء، ويطلق على نفسه أحد هذه الأسماء الغريبة، فإنَّ الطائرات المَلَكيَّة والأجنبيَّة أتت عليه بقنابلها طوال الشهور السابقة. وها هي الآن تقنبل منازلهم. ونحن لا نعرف حتّى أين يختفي هؤلاء الشياطين... عادت دادا تقف أمام بيتها تمسح عرقها وتنتظر أن تسترد سكينها... أكل بَراهيم المعلّم مالنا، والسلام. أكله أو شربه في كانْتينة دانيال. اللّه أعلم. إنّه يقف قريبًا منّا، محدّقًا في زرقة السماء، ساهمًا، ولم تعد سكينه مهدّدة. يكشط التراب بحذائه، نافد الصبر كحصان، غير مهتمّ بوجودنا. ثمَّ سمعناه يقول مناجيًا، مخاطبًا نفسه، بأنّه في حاجة إلى ماله وسيأخذه اليوم... اليوم... اليوم. ويضرب بنعله التراب: بَغيث نشري راديو... ويتكلّم غاضبًا من نفسه، وهو يشرح لنا الأسباب؟ لماذا يشرح لنا الأسباب؟ أو لبَراهيم، أو لغيره؟ البزگادي مسعود يريد ماله، والسّلام. هذا ما قاله للمعلّم عشرين مرّة. ولكنّ المعلّم غائب يا مسعود، والقسمَ فارغٌ، والأطفال يصطادون العقارب بدلًا من التعلُّم، أو يخرّبون بستان الخضر خلف البرج. ثمَّ بعد أن أنهكه العواء، جلس معنا يتفرَّج، تحت ظلّ السُّور، أو ما تبقّى منه، كواحد معني باللّعب إلى أقصى حدّ، يراقب تقدُّم القطع فوق اللّوح، وينتبه لمناورات اللاعبين. وتستطيع حتّى أن تستشفّ ملامح ابتسامة تطفو على شفتيه. وليس كواحد كان منذ قليل يهدّد بذبح المعلّم. وسمعناه، بعد لحظات، يسألنا هازئًا إن كنّا نعرف اسم هذا الجيش الذي يأكل مالنا؟ اسمه أبطال الحرّيَّة المتوكّلة على اللّه. هل هذا اسم معقول؟ هل هذا اسم يُطلقه محاربون على أنفسهم؟ هل هناك جماعة عاقلة تطلق على نفسها مثل هذا الاسم... ووقف وهو يطلق كركرة طويلة تشبه الشخير... حتّى إنّنا، جميعنا، شعرنا بالحرج. ننظر إليه كواحد لا نعرفه. وهو غير عابئ، عابرًا الساحة مرّة أخرى، مستمرًا في تهكُّمه الذي لم يعد يصلنا منه سوى همهمات غامضة...

لم يتجاوز المعلّم بَراهيم السادسة والعشرين. نحيف كالعُود. أسمعه يعبر الغرفة جيئةً وذهابًا في الأوقات التي يكون فيها حاضرًا. أسمع وقعَ خطوِه من خلف الجدار الذي يفصل بيننا؛ أو يقرأ في القاموس الفرنسيّ الذي لا يفارقه؛ أو يحرّك المواعين في وقت متأخّر من اللّيل. لا تتوقّف خربشته حتّى وقت متأخّر من اللّيل. لا أتصوّره من دون الضجيج الذي يصاحبه. وهو رجل غريب فعلًا. يرتدي الكوستيم، وعنده بيجاما مخطّطة،

كواحد من الفرنسيِّين. كنت، في الحقيقة، أراقبه حتَّى قبل مغامراته اللَّيليَّة. أطلّ عليه في وقت متأخِّر من اللَّيل فأجده منغمسًا في القاموس الفرنسي. يتجوَّل في النهار والقاموس الفرنسي تحت إبطه. وربَّما لا ينام قبل أن يضعه تحت وسادته. اختفاؤه وظهوره استمرَّا لغزًا يثير حنقي أيَّامًا عديدة، ويجعل الخيبة تنغِّص عليَّ الساعات التي يظلّ فيها غائبًا. حتَّى إنَّني قلت أخيرًا لماذا أتدخَّل في شؤونه؟ وبهذا الشكل الوقح؟ قلتها عندما يئست. عندما استعصى عليَ الذهاب أبعد في تحرِّياتي. وإذا بي أراه، بعد غياب دام ثلاثة أيَّام، يتقرَّب منِّي، من دون مقدِّمات. كأنَّما أدرك أنَّ لا مفرَ من أن نتقاسم ما تبقَّى من أسراره. كأنَّما أدرك أنَّنا معًا على قدم المساواة. ولن يُجْديه حذره. جرَّ ذات ليلة من تحت السرير صندوقًا قديمًا بنقوش ممسوحة، يشبه الصناديق المعروضة في بازارات مراكش. ملأتْ أنفي وعينيَّ رائحةٌ عطنة لأنَّ الصندوق ممتلئ حتَّى حافَّته بالشعير. رائحة الشعير قويَّة دائمًا، سواء داخل صندوق أو خارجه. غمس فيه يده حتَّى المِرفقين وأخرج خيشة مربوطة بالحبال. واستمرَّ يراقبني بعض الوقت وعيناه لا ترفَّان. وضعها أمامي... قال: افتح. فتحتها... أربع بنادق، خمسة مسدسات سوداء جديدة وتبرق تحت ضوء القنديل، وقنابلُ يدويَّة ومئاتُ الرصاصات، صفرتُها القاتلة تلمع في قاع الخيشة... لم يبدُ تصرُّفه غريبًا لعينيَّ بالمرَّة. بدا لي كما لو أنَّني تصوَّرت المشهد من قبل، أو حلمت به. لم أستغرب أن يكون في حوزة نراهيم المعلَّم كلُّ هذا القَدر من السلاح، بعد كلّ الذي سمعت، وحتَّى من دون أن أسمع. ولم أستغرب أن تقنبل الطائراتُ البرجَ بسبب هذا القَدر الهائل من السلاح. ذلك بأنَّه كان دائمًا إنسانًا غامضًا. مع أنَّني، حتَّى حدود تلك الساعة، لم أكن أعرف الغاية من وجود سلاح وسط صندوق قديم عامر بالشعير، ولا الغايةَ من وجودي في بيت نراهيم في وقت متأخِّر من اللَّيل. ماذا يفعل بهذه الترساتة، في هذا الخلاء التالف، المقهور تحت شموس الصحراء؟ يوجد ما يكفي من السّلاح لتفجير مدينة بكاملها. وهذا ما قاله لحظتها... قال، بدلًا من الحديث عن صيد الغزال والأروي: نحن سنفجر هذا البازار... ولم أدرِ ما الذي كان يقصده بهذه ال «نحن». قال إنَّ المغرب حصل على استقلال ناقص. كلّ الجنوب في أيدي الإسبان والفرنسيِّين. ما نصبو إليه هو التَّحرير الكامل. ولكنَّ طائرات القوات المسلَّحة المَلَكيَّة رمتنا بالقنابل وقتلت منَّا العشرات.

علاش؟

خائفون. إنَّهم خائفون من أن نحرِّر الصَّحراء ونزحف عليهم حتَّى

بيوتهم ونجرّهم من فوق أسرّتهم الوثيرة، لأنّنا سنصبح أكثر شعبيّة من الملك وأعوانه، من القصر وخدامه. أصبحنا قليلين بعد أطنان القنابل التي ألقتها الطائراتُ فوق رؤوسنا، ولكن إرادتنا قويّة وسننتصر. عيناه تبرقان. إنّه يتحدّث عن منظّمة اسمها أبطال الحرّيّة المتوكّلة على اللّه. وهذا الاسم أعجبني أكثر وهو يخرج من فم بَراهيم. كما لو كان هو من وضع هذا الاسم. ثمّ ما هو البازار الذي يريدون أن يفجّروه؟ هل كان يقصد البرج، أم آسا، أم البلد بكامله؟ قال وهو مهتاج: هل تفهم كيف أنّ بلادًا لا تريد أن تحرّر أرضها كاملة؟ بدلًا من أن يساعدهم الجيش المَلَكي على استكمال المعركة، ها هو يقنبلهم بالطائرات مستعينًا بالطائرات الفرنسيّة والإسبانيّة؟ قلت، حتّى أُرضيه، وحتّى يخفّ غضبه: هذا غير معقول. أراحه الرّد مع أنّه لا يكلّف شيئًا. كأنّما أصبحنا قريبين أكثر، أحدنا من الآخر. ثمّ قال: سنذهب ذات مرّة مُتخفّيَين لنزور إيفني ونرى التحصينات التي أقامها الإسبان هناك... إذن، لمَ فتح الخيشة أمامي تلك اللّيلة؟ ثمّ، لمَ وضع يده بعدها على كتفي وشدّ عليها بحرارة؟ وفي الأساس، لمَ قال إنّنا سنفجر هذا البزار؟ أصبحت مثله، وهذا ما كنت أرغب فيه من دون أن أعرف، أنتمي إلى الجهة التي ينتمي إليها. أنتمي إلى جهة ما، كيفما تكن؛ إلى شيء ما، كيفما يكن هذا الشيء. أغيّر مجرى حياتي دفعة واحدة.

لم أنم عندما عدت إلى غرفتي، في تلك اللّيلة التي رأيت فيها الخيشة في بيت بَراهيم المعلم، بسبب سرّ أصبحنا نتقاسمه؛ بسبب حبل الثقة الذي أصبح موصولًا بيننا. وأنا كما لو أنّني قبلته عن طيب خاطر. شعور جديد شغلني اللّيل بكامله: سنفجر هذا البزار. كأنّما رغبة المعلّم ورغبتي هما أن ندير ظهرينا لحياتينا السابقتين... استفزّتني مشاهدة السلاح من هذا القرب في تلك اللّيلة، وأثارتني وحرّكت فيّ حماسةً غريبة. بندقيات، خمسة مسدسات، وربّما أكثر، لأنّ المفاجأة جعلتني غير قادر على التدقيق بتمهُّل أكبر. كانت جديدة تبرق تحت ضوء القنديل. وقنابل يدويّة كثيرة ومئات الرصاصات، وربّما آلاف الرصاصات. رصاص كثير كالشعير الذي يلفّها. ما يكفي لتدمير مدينة گليم بالكامل، أو مدينةٍ أخرى أكبر. لا تهمّ الأسماء عندما يتعلّق الأمر بمشروع جادّ مثل تدمير مدينة أو بلد. هل لرؤية السلاح هذا التأثيرُ الفتّاك، الساحر، المدمّر؟ رؤية خيشة المعلّم هي السّبب. لم أنم، إذن، طوال تلك اللّيلة. ووجدتني في لحظة ما شاهرًا مسدّسين وهميّين، وسط الغرفة، وأطلق الرصاص على الشبان الثلاثة الذين فاجأنا سلاحهم على رأس الجبل المطلّ على ميناء أگادير. آش ظهر ليكم دابا؟ أطلق كلّ الرصاصات التي يحويها خزان المسدس، ثمّ أقفز

لأختبئ خلف السرير. ثمَّ أعود وسط الغرفة وقد عاد الصمت ومات المهاجمون، فأرى هذه المرَّة بِراهيم المنبهر بقدراتي الخارقة وأنا أهزّ رأسي مزهوًّا وأقول له: ما شفتي والو... إنَّني ماهر في استخدام كلّ أنواع الأسلحة وصناعة المتفجرات والقنابل. بِراهيم متعجِّب، منبهر، وتظهر في عينيه أماراتُ الحسد أيضًا... أمَّا اللَّيالي التي تلت، عندما أعود من جولاتي، فإنَّني أمضيها منتظرًا. رجلاي مغموستان في طست الماء الساخن وأتوقَّع ظهور بِراهيم. ليس بسبب الخيشة، وليس في غرفتي، وإنَّما على سطوح البرج، كما ظلّ يفعل في السَّابق. قد يظهر في أيّ وقت. لا أنسى الحفاظ على الضوء مشتعلًا، حتَّى يستمرّ خيط التواصل ممدودًا بيننا. ثمَّ أقول إنَّ من الأفضل أن أطفئ القنديل، حتَّى أعطيه الفرصة ليستأنف مشروعه اللَّيليّ الغامض. كأنَّما أخاف أن يثنيه الضوء أو يؤخِّر خروجه. ولا تخفّ حدَّة انتظاري، عندما يغلق الصحراويّ البوابة، عندما أسمع أزيز المزلاج الثقيل. ويزيد توقُّعي أن أسمع وقع خطاه فوق السطح. كالنمر وهو يسير على الشجرة. بِراهيم، كأي نمر حَذِر، لا يستعمل المسلك نفسه مرَّتين. ثمَّ إنَّني أعرف الصوت الذي يُحدثه نعلاه وهما يتحسَّسان طريقهما فوق السطوح وهو قادم من عالمه الغامض، بعد أن يكون قد أمضى اللَّيل يتناقش مع أصحابه في أمور بالغة الأهمِّيَّة، وعالية الخطورة: سنفجِّر هذا البازار... وغالبًا لا أسمع صوت وقع نعليه على السطح حتَّى يتجاوز اللَّيلُ ثلثيه. حتَّى يكون الماء بردَ في الطست الذي أضع فيه قدمي. ذات ليلة، خرجت أراقب السطح. ووجدتُ، بدلًا من المعلِّم، البرگادي مسعود جالسًا بصحبة الصحراوي أمام البوابة. يملك الصحراويّ مذياعًا في حجم الكفّ اشتراه له بِراهيم من سوق گلميم. كنت أجد الصَّحراويّ مستيقظًا وأذنه على المذياع تلتقط الأخبار، في أيّ وقت من اللَّيل عبرتُ فيه ساحة البرج. ألا ينام؟ يقول إنَّه كالجَمَل، ينام خمس دقائق. يرفع رأسه ليتأمَّل ما يجول حواليه ثمَّ يعود إلى هجعته القصيرة ليرفع رأسه من جديد. وهكذا... كالجَمَل... والمذياع على أذنه دائمًا. وهذه المرَّة انضاف إليه البرگادي مسعود الذي بدأ منذ تلك اللَّحظة يحلم هو الآخر بشراء مذياع. إنَّني أقف أمامهما تلك اللَّيلة بإحساس جديد، متسائلًا: ألا يوقظ وقوفي المريب شكوكهما. سيجعلهما وقوفي في هذا الوقت المتأخِّر ينتبهان إلى أنَّ أشياء غير عادية تحدث فوق رأسيهما. فتراجعت إلى غرفتي، كجنديّ يحمي ظهر صديقه في السلاح. إنَّها اللَّيلة التي انتابني فيها الإحساس القويّ بأنَّنا أصبحنا أنا وبِراهيم في الخندق نفسه.

دخلنا أنا والبستانيّ حشَّاذ، عند الظهر، بيتَ دادا لنتغدَّى. غرفة

واحدة للأكل والنوم والطبخ والدردشة. هذا هو بيت دادا. وجدنا البزگادي قد هدأ. اختفى غضبه كما اختفت السكين التي كانت في يده. لولا النفير العالي، والمتقطع، لقلنا إنَّ البرگادي مسعود رجلٌ رزين، مسالم، يجلس في عتمة غرفة باردة، منكبًا على صحن المرق، ويلتهم قطع البطاطا كأيّ عسكريّ بلا مشاكل. يمسح أنفه بكمه ليخفف من حدّة صوت نفيره المزعج، مهتمًا بالفعل بما يخرج من فم دادا. دادا جالسة جنبه وتقصّ عليه ما وقع لها مع دجاجها وأخبارًا أخرى تافهة، وتضحك معه حتّى تشيع حوله جوًّا مَرِحًا يُنسيه فكرة ذبح المعلّم. تضع دادا يدها على فمها عندما تضحك. ويهزّ الرجل رأسه وهو ينقّل بصره بينها وبين قطع البطاطا التي تختفي في فمه، الواحدة تلو الأخرى. ويعطي الانطباع بأنّه لن يذبح أحدًا. نافذة الغرفة الوحيدة مغلقة. فتحتها دادا عندما رأت أنّنا بقينا واقفين عند الباب. اقتحم الضوء عيني في عنف. لم يهتمّ البزگادي بدخولنا ولا بدخول ضوء النهار، كواحد لا يوجد معنا في الغرفة نفسها. أنا أعتبره رجلًا تافهًا. ولن أهتمّ به أكثر من هذا من الآن فصاعدًا. أعتبره عسكريًّا حقيرًا، لا أحد في البرج يعاشره أكثر من ربع ساعة. وأعتقد أنّ هذا التَّعِس يحتاج إلى من ينشره على بطنه ويشبعه سياطًا حتّى يستقيم. هذا ما هو في حاجة إليه حتّى يستعيد عقله... فكّر هذا الرجل مرّة في الزواج، وقلنا جميعًا إنّ البرگادي مسعود تبدّل. عندما رأيناه يصلّي، قلنا: استعاد الرجل عقله. فذهبنا معه لخطبة بنت من عائلة الشاوش أحمد نصبت خيمتها قريبًا من آسا. فتاة بارت من كثرة الانتظار. وقلنا لا بأس. إنّها توافق البرگادي الذي تعدّى الأربعين. لم يستغرق مقامنا عند تلك العائلة إلّا الوقتَ الكافي لشرب الشاي والتعارف بسبب زيارتنا. وعندما أردنا الانصراف انحنى مسعود على الشاوش أحمد: عمّي، ناخدوها فعانا... ناخدو فعانا شكون؟... لفرا... إينا فرا؟ لا أحد منّا أدرك ما يدور في رأس البرگادي مسعود آنذاك. إنّنا بالكاد تكلّمنا مع العائلة، ولا بدّ من الخطبة وانتظار اجتماع العائلة وقراءة الفاتحة: عمّي، نقراوها دابا... ثمّ إنّ الفتاة عند خالتها التي تقطن عند مصبّ نهر درعة... نهضنا. والبرگادي لم يتحرّك من مكانه. ينظر إلى حذائه المثقوب ويحكّ رأسه، ثمّ سمعناه يقول: ناخدوها فعانا أحسنْ... واستمرّ ينظر إلى حذائه، كأنّما ينتظر أن يأتيه الجواب من ثقبه. قال الشاوش أحمد مستعرًا غضبًا: ما كايناش هنا، كتفهم؟ واستمرّ، للحظات طويلة، منكبًا على وجهه يحكّ قفاه ويحرّك شفتيه مغمغمًا بكلام ندرك معناه ولا نسمعه: ولكنْ، من الأحسن ناخدوها فعانا... بغيتها دابا أ عمّي... ناخدوها فعانا أ عمي... ونحن الذين قتلَنا الضجرُ والخجلُ والعار، وقفنا عند باب

الخيمة نتساءل ماذا يفعل البرگادي؟ ولماذا لا يخرج؟ والشاوش أحمد يردّد: أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم. ولم تعد تأتينا همهمات البرگادي. وقلنا ربّما إنّ اللّه أشفق على حالنا. حتّى اللّحظة التي سمعنا فيها صراخه من جديد: عمّي، ناخدوها فعانا... كان يحمل في يده سكينًا. من أين جاء بها؟ يذهب ويجيء وسط الخيمة كحيوان محبوس. ويصرخ، في غضب، وقد نزع قميصه وانتصب عاري الصدر كأيّ مخبول، ويهدّد مطالبًا بالبنت التي راح يسمّيها امرأته الشرعيّة مع أنّه لم يَرَها بعد. لم يَرَها في حياته، ولا يعرف حتّى اسمها.

مسعود، اللّه يهديك.

نغيثها دابا أ عمّي... ناخدوها فعانا أ عمي.

دابا نجيبوها ليك.

إيمتا؟

الأسبوع الجاي...

لا، غدًا...

واخا، غدا...

واستمرّ واقفًا وسط الخيمة، يحدّق في الشاوش بعينين وقحتين، متبسّمًا، يرتدي قميصه بحركات بطيئة، هادئًا، كما هي حاله الآن، وهو جالس في بيت دادا، يستمع إلى ترهاتها التي لا تنقطع. ثمّ نسي الأمر. نسي أمر الزواج نهائيًا. نسي الموضوع نهائيًا بعد خروجنا من الخيمة. لم يعد إلى ذِكره لا في ذلك النهار ولا في الغد. لم يعد إلى ذِكره أبدًا. عدت إلى غرفتي بعد الغذاء عند دادا، معتبرًا الموضوع منتهيًا. أنا لم أركض طوال يومين من أجل هذا الموضوع التافه، ولا حتّى من أجل أن يتسلّم بوزيد ظهير تعيينه.

أتذكّر اللّحظة التي وقفت فيها صباحًا أمام هيكل البرج. كأنّما خفّ وزن جِرابي، واختفى ثقل ما يحمله من رسائل. ثمّ أتقدّم مستمتعًا بكلّ الأفكار التي أزهرت في طريقي، بين صفّ الدُّور الأولى، الوحيدة، الطينيّة، الواطئة، والتي احترقت تحت شمس الظهيرات العديدة التي مرت عليها... أفكّر في بَراهيم. أفكّر فيه بشكل محيّر، مقلق، مختلف. أفكّر فيه على ضوء ما رأيت في الخيشة... أجترُّ أفكاري، وأعيد اجترارها حتّى أهضمها جيّدًا، ناسيًا العَرَق الذي يتيبّس فوق جلدي؛ ناسيًا الطريق التي قطعتها، والسرعة التي اجتزتُها بها، غيرَ متعجّب من كلّ ما يخطر في بالي. كأنّما

رغبتي هي أن أعود إلى غرفة براهيم لأتفرّج من جديد على بضاعته الاستثنائيّة. ليس تحت ضوء القنديل الذي يزيد المشهدَ غموضًا، وإنّما في وضح ضوء النهار. وربّما ذهبنا أبعد هذه المرّة. لن يقتصر الأمر على مجرّد التفرُّج. قد يقترح عليّ براهيم مغامرةً ليليّة على شاكلة مغامراته، بكلّ الاستثارات الممكنة. هذا ما أنتظره فوق سطوح المخازنيّة... على أطراف الأصابع... كاللُّصوص... تحت ضوء القمر أو من دونه... في اتُّجاه مكان غامض... يجتمع فيه ليلًا رجال غامضون... ببنادقهم وقنابلهم... ولا نيّة لهم في صيد الغزال لأنّ لهم أهدافًا أخرى لا أعرفها حتّى هذه الساعة... سنفجّر هذا البزار... مجرّد التفكير فيها يجعل الدم يصعد في شراييني، ويستمرّ في الصعود بدلًا من أن يهبط. وهذا هو الذي جعل ساقَيّ تحملانني كلّ هذه المسافة من دون أن تتعثرا. ليس هناك سبب آخر.

كان البرگادي مسعود، مُسندًا ظهره إلى باب المعلّم، يعضّ على شفتيه، عندما عاد المخازنية بعد الظهر تتبعهم كلابهم، وماذا ساقيه أمامه ويلعب بحذائه، كواحد يتشمّس هانئَ البال. ولا ينظر إلى الثقب في حذائه وإنّما إلى باب البرج المشرَّع. يحمل رابح على كتفه غزالًا لم يبرد دمه، والكلاب تتبع رائحة الدم وتبصبص بذيولها. اثنا عشر مخزنيًا وأربعة كلاب وغزال ميّت لا تزال عيناه تلمعان بما تبقى فيهما من حياة، وإنّما من دون المعلّم براهيم: فينْ هو؟ شكون؟ براهيم... التفتوا حولهم، ثمّ خلفهم، إلى جهة الباب المشرَّع، كأنّما يبحثون عنه بدورهم، بين ذرّات الغبار التي خلّفوها في طريقهم، تحت شمس منتصف الظهيرة الحارقة. السّرّيّة التي كانت تجوب مناطق وادي نونْ عادت لتجد البرگادي أمام عناصرها، يسأل عن رجل لا يذكرون أنّه رافقهم، يلوك غيظه وهو يفتّش عنه في الفراغ الذي تركه تقدُّمهم داخل البرج. ركض حتّى تجاوز السُّور، معتقدًا أنّ المعلّم يختفي وراء البوابة أو تحت الحجر أو فوق النخل. لا يوجد معلّم لا داخل البرج ولا خارجه. أين أخفاه المخازنيّة الملاعين؟ فين هو؟ فين خبّيتوه؟ إنّهم متآمرون معه، أو يخافون منه... ولكنّ البرگادي لا يخاف أحدًا، وخصوصًا إذا كان هذا الأحد معلّمًا غامضًا يشتري السلاح بفلوسنا لأفراد ماتوا منذ شهرين تحت القنابل وما زالوا يطلقون على أنفسهم اسم أبطال الحرّيّة المتوكلة على الله، أو أبطال الانتقام، أو شي حاجة بحال هاكا... سيبلّغ عنه القايد أو البوليس أو أيّ هيئة تستطيع أن تمنع هذه الجماعة من تبديد فلوسه... قفز فوق سطوح البيوت، عندما همّوا بالقبض عليه، وقبل أن يمسكوا به، عاري الصدر طبعًا، كأنّما هذا هو الطقس الضروريّ والملائم لاشتعال العاصفة التي تسكنه. وعلا الساحة غبارُ تنقُّلهم خلفه، من

ركن إلى ركن، وهو يصرخ بأنّه لا يخاف المعلّم بَراهيم. لا يخاف أحدًا، وسيبلّغ عنهم جميعًا، بمن فيهم هذا الجيش الذي يأكل مالكم يا أولاد الحرام. علاش ما كتسولوش على فلوسكم فين مشاو؟ عرفتو فين مشاو؟ أكلهم الجيش الذي في بالكم... هاهاها... ما اسمه، الجيش الذي يزدرد رزقكم ورزق عيالكم يا أولاد الحرام؟ أبطال الانتقام... هاهاها... أو أبطال الحرّيّة المتوكّلة على اللّه؛ أو منظّمة الشهداء الأحياء... هاهاها... هل هذا اسم معقول يا أولاد الحرام؟ منظمة الشهداء الأحياء... هل هذا اسم يطلقه رجال لديهم عقول يفكّرون بها؟ هل هناك جماعة عاقلة تطلق على نفسها مثل هذا الاسم... كأنّما أعجبه الاسم فراح يردّده: الشهداء الأحياء... الشهداء الأحياء... وهو يقفز من سطح إلى سطح. وبدلًا من المخازنيّة، فإنّ الأطفال هم الذين يركضون في الساحة، يدورون كما يدور، مردّدين ما يردّد: الشهداء الأحياء... الشهداء الأحياء... جلس على حافة الحائط، عندما هدّه المجهود الذي بذله، ورمى قميصه على ظهره وبدأ يغنّي. غناؤه أقرب إلى النُّواح. غناء رجل أعزل، كئيب، منهَد. غناء رجل يتيم. غناء رجل يعرف أنّه لن يستعيد فلوسه ولن يشتري مذياعًا.

كأنّما عدنا إلى بداية الظهيرة. خيّم علينا وعلى البرج صمت مريح، عندما انقطع نُواح البرگادي. إنّه سكون المساء، وكآبته. وربّما هي التي جعلته يغادر عشه على السّطح ويطرق باب غرفتي. في المساء، يخفّ ضغط العالم المحيط. في المساء، يحنّ كلّ شيء إلى أن يُولَد من جديد. في المساء، تسكن الروحَ الهشاشةُ الآسرة نفسها التي تغلّف الكون. كان مسعود جالسًا على الكرسيّ القصير، منهَكًا، ويشرب الشاي الذي أعددته له بصوت مسموع، ويتحدّث بتلذُّذ عن الغزال الذي يُسلَخ على مشارف الغرفة، ضاحكًا، ناسيًا تمامًا العارَ الذي أغرقنا فيه طوال النهار، بينما الأطفال يكوّمون الحطب وسط الساحة. يتمايل ظلّه على الحائط على هوى شعلة فتيل القنديل. اتّسعت عيناه فجأة وجمدت الكأس في يده وتوقّف الظلّ خلفه عن الرقص. وخُيّل إليّ أنّ أذنيه انتصبتا كأذنَي كلب الصيد. فيمَ يفكّر البرگادي الآن، وهو على هذه الهيئة، جامدٌ في مكانه، منتصبُ الأذنين، جاحظُ العينين؟ هل يحمل معه سكينًا سرقها من مطبخ دادا؟ هززت كتفي عندما سمعته يسأل: آش كيديز دابا؟ تحزّك على أطراف أصابعه حتّى قاع الغرفة وأسند رأسه إلى الحائط وهو يُلقي عليّ نظراته المضطربة ثمّ يعود إلى السّؤال نفسه: آش كيديز دابا؟ والمعلّم، كما لو تعمّد هذه المرّة ألا يُحدث صوتًا. لا حركة تأتي، لا من هذه الجهة ولا من الجهة الأخرى من الجدار. استمرّت الحال على هذا المنوال مدّةً طويلة.

كأنّما فتحَ جبهةَ قتال ومكث ينتظر، غير مستعدّ ليكون البادئ. ثمَّ عاد وجلس هذه المرّةَ على حافّة السرير، محنيّ الظهر، محبَطًا، في أقصى حالات التعاسة... إنّه نادم على ما بدر منه، وعلى ما لفظه من كلام... سمعتيني آش كنت كنقول في الصباح؟ ومضت لحظة طويلة قبل أن أدرك معنى السؤال... انتصب البرگادي واقفًا وهو يشير بإصبعه إلى الجدار، عاجزًا عن الكلام أو الحركة، مرعوبًا تمامًا. وبدا وجهه أصفر، اختفى من على أديمه الدمُ، وهو ينصت، ينصت. حركة نعليه، وهي تكشط الأرضيّة كخربشة فأر، تحفر في رأس البرگادي رعبًا إضافيًا كأنّما هي آتية من غرفة المعلّم. ثمَّ انطلق في تمتمة تتخلّلها أصوات غريبة كقأقأة الدجاج... هئ هئ هئ... ما قلت والو ياك... كنت كنضحك... هئ هئ هئ... بزاهيم صاحبنا كلّنا... وانا كنت كنضحك... ويقهقه، محاكيًا القهقهة نفسها التي كان يطلقها وهو فوق سطوح المخازنيّة. شقاؤه لا حدود له. إنّه فقط كان يمزح، ولكنّ هؤلاء المخازنيّة الشياطين لا يفهمون المزاح. وما تفوّه به من سفاهات طوال النهار سيجد طريقه إلى غرفة المعلّم قبل أن تنطفئ شمعته. طرقتْ غرفة المعلّم، وأدركت أنّه لم يعد. كانت عودته تدور فقط في ذهن البرگادي، ومنها تسرّبت إليّ.

الأربعاء 23 أبريل 1958

توارت قصّة البرگادي وما خلّفت من تعاليق بمجيء القايد بوزيد. بوابة البرج مفتوحة على مصراعيها، والبرگادي مسعود لم يكن جالسًا أمامها يتشمّس على عادته، أو يلعب الضامة بصحبة الممرّض بوشعيب. دخل غرفته بالأمس وأغلق بابه ولم يفتحه. تسدُّ بوابةَ البرج السيّارةُ؛ سيارة التاجر بوزيد. الجميع يناديه هنا القايد بوزيد، منذ أصبح ينتظر ظهير تعيينه. مضت سنة وجاءت سنة ولم يأتِ الظهير، ثمَّ مضت سنة أخرى ودخلنا سنة جديدة وهو ينتظر. ويتصرّف الآن كواحد لا يهمّه أن يأتي ظهير تعيينه أو لا يأتي. الساحة خلفه غلّفتها ظلال جدران البرج العالية. يملك هذا الرجل محالَّ عديدة لبيع القمح في أگادير وگلميم وآسا وتزنيت ومناطق أخرى داخل الإقليم وخارجه، بالإضافة إلى ضِياع شاسعة وبيوت وأملاك كثيرة أخرى. وورثَ بعض العبيد عن أجداده، واستمرّوا يعملون في ضِياعه وفي محالّ تجارته. أمضى سنواته يوسّع أراضيه، يشتري ويقايض. وحاز أيّام الجفاف أراضيَ شاسعةً في مقابل أكياس قمح معدودة. لحسن حظّنا أنّ أولاده يأكلون ثروته وسيأتون عليها سريعًا، أسرع من الوقت الذي أمضاه في تجميعها. وهو، بالإضافة إلى كلّ هذا، يتاجر في بيض النعام. وفي سيارته نعامة رأسها يُطلّ من سقفها. النعامة

حيوان مضحك، برأسها الصغير وعنقها الطويل كالحبل. كل هذا لا يساوي شيئًا أمام ظهير التعيين. بالأمس فقط، كان في جرابي. لكنّه غادر الجراب هذا الصباح. وهو يقبع الآن في قاع جيبي الداخليّ. هذا الانتظار الطويل جعل شكله يتبدّل، ليس دفعةً واحدة، بل شيئًا فشيئًا، إلى أن اتّخذ شكله النهائيّ، الذي هو عليه الآن، بوجهه المربّع وأنفه المقوّس، والزغب الأبيض الكثيف يرتعش فوق الحاجبين، والأسنان الصفراء الكبيرة والبارزة بشكل مثير، بحيث أصبحت نظراته، عندما استقرّت على هذا الوضع النهائيّ، تشبه نظرات الطيور الجارحة التي لم تعثر على ما تأكل؛ تشبه نظرة عُقاب بلا فريسة. لقد شاخ الرجل. أنهكه طول الانتظار. إنّه واقف أمام سيّارة الجيب، كما قلت، يتنفّس بصعوبة، ويتحرّك بصعوبة وهو يمسح عرقه الكثير. والنظرة نظرة عُقاب هذا انتظار فريسة لا أثر لها (اشترى هذا النوع الضخم من السيّارات حتّى يُخفي وضعه الصحيّ المزري، ويجعل شكله يتلاءم مع الوضع الجديد الذي ظلّ يستعد له منذ سنتين من دون نتيجة). ولهذا يقف تلك الوقفة أمام بوابة البرج، بئيسًا، متّكئًا على سيّارته، في كامل هيبته الوهميّة. وهذا زاد في نقمتي عليه.

غاضب حتّى قبل أن أراه، وحتّى قبل أن أتذكّر ظهير التّعيين الذي يقبع في جِرابي. عبد ذليل ينشّ قرب رأسه بقطعة كارتون ليُبعد عنه الذباب بينما هو يسير نحو مكتبه. منظره بئيس. ويزداد تصميمي مع تفاقم نقمتي عليه... ليس معي رسالة تخصُّك يا سعادة القايد. وإذا كنت متعجّلًا لاستلام ظهير تعيينك، فما عليك إلّا الذهاب إلى أگادير. نعم، لماذا لا يذهب بنفسه لإحضاره إذا كان متعجّلًا إلى هذه الدرجة؟ وماذا تظنّ؟ سأهرول نحو أگادير من أجل ورقة بئيسة اسمها ظهير التّعيين؟ لمجرّد أنّ اسمك بوزيد؟ إذن، ما هو الحلّ؟ ماذا تتوقّع؟ فكّرت في ضحكة أطلقها في وجهه. يكرهني بوزيد لأنّ نساءه ذميمات غليظات شريرات... ليكرهني بالقَدر الذي يشاء. ليحتقرني بالقدر الذي يشاء. يكرهني بوزيد لأنّني ما زلت شابًا وأمامي الحياة كلّها. وها هو يستعدّ ليصعد فوق رؤوسنا حتّى من دون ظهير تعيينه. نعم، الثروة تجلب الثروة والفقر يجلب الفقر. لكن ثروته لن تفيده في شيء. وحتّى إذا لم يعصف به مرض، وحتّى إذا لم تعصف به جائحةٌ ما، فسيموت من الشيخوخة. وكلّما كان ذلك قريبًا كان أحسن. هذه هي الخلاصة.

باب مكتبه مضيء في هذا الوقت من الصباح لأنّه أوّل جدار تشرق عليه الشمس. يجلس خلف مكتبه المتداعي، بين خيشات القمح التي

تصعد حتّى السقف. وكعادته لا يهتمّ بحضوري، سواء مشيت خلفه أو أمامه. لا يشمّ رائحة عَرَقي الذي سال على الطرقات طوال أسبوع كامل لأجلب إليه رسائل إداريّة لن يقرأها. يحدّق في خشب المكتب بإصرار، شاردًا، مركّزًا في تضاريسه، ثمّ يأخذ القلم الذي تركه على مكتبه القايدُ السّابق ولا يخط سطرًا واحدًا لأنّه لا يعرف الكتابة. يتركه يسقط من بين أصابعه كاليائس، ولا يفتح رسالة واحدة لأنّه لا يعرف القراءة. يأخذ بدلًا من القلم ورقةً ويبرمها ويحشوها في أنفه. يعطس بصوت مرتفع، كما لو كان ينبح، سبعَ عطسات، ثمّ يأخذ مسطرة ويبدأ يخطّ على الخشب خطوطًا لا أراها. هذه طريقته الملتوية في التفكير. ربّما يفكّر في الحكمة وراء أمراضه العديدة التي ظلّت تحاصره منذ كان صغيرًا وهو يملك كلّ هذا الخير. أعبرُ المكان الذي كان مكتبًا قبل أن يتحوّل إلى مخزن للحبوب، متظاهرًا بأنّني لا أراه. تمامًا كما يفعلُ. أعطي نفسي هذا الحقّ، متحاشيًا دائمًا أن أمدّ إليه الرّسالة التي ينتظرها منذ دهر، أو حتّى مجرّد الإشارة إليها. إنّها نائمة، هذا الصباحَ، في مكان لن أدلّه عليه. في القاع، في المكان المظلم من جيبي. أمشي أحيانًا متباطئًا وأنا أرقص كي يكبر غيظه. هذه طريقتي في المشي منذ كنت أحبو يا سعادة القايد. هذا ما أستعدّ لأقوله له إذا ما سألني أو وجّه نظره جهتي. لكنّه لا يفعل، وخصوصًا الآن وهو شارد الدهن. أفرغ ما في جِرابي من رسائل فوق مكتبه ليرى جيّدًا أنّ ظهير تعيينه لم يصل، وأنّه ليس بالقايد الذي يظنّ. أجلس فوق خيشة قمح في قاع المخزن وأمسح جبهتي، وأنتظر أن يسأل نفسه عن أسباب تأخُّر الظهير، ولا يفعل. وأنتظر أن يسأل عن نوعيّة الرّسائل التي أمامه لأتقدّم وأفتحها وأعرض عليه مواضيعها. أعرض عليه عادة محتوياتِ لا علاقة لها بالرّسائل التي بين يديه... أخترع مواضيع مختلفة تمامًا بدلًا من أن أضيّع الوقت في قراءتها... شكاوى عن جَمَل مسروق بدلًا من نزاع بشأن قطعة أرض؛ أو حفر بئر سرّيّة بدلًا من طلب حفر بئر؛ أو أحكي قصصًا غريبة عن جِمال تأتي ليلًا لترعى في مراعي الدولة... ومن جهته، لا يقوم بأيّ مجهود ليعرف كلّ الرّسائل التي أحملها، ليس بينها واحدة تتحدّث عن جَمَل ضاع أو سُرق. وهذا لا يعنيه لأنّه مشغول البال بظهير تعيينه الذي لا يصل. وأخترع من جهتي هذه القصصَ لأنّها تسلّيني، مكتفيًا بنصف التفاتة تجاهه كي أضفي على قصصي الملفّقة المصداقيةَ المطلوبة... يكتفي الآن بهذه الجلسة المريبة بين صفوف الأكياس، خلف مكتبه القديم الذي تركه الفرنسيّون قبل رحيلهم. ولا يظهر عليه بوجهه المربّع والقاسي والمنفر، انفعالٌ أو غضب. ظلّ فكره شاردًا بعضَ الوقت

قبل أن يسأل عن نراهيم.

نراهيم المعلّم؟

وهذا ما لم أكن أنتظره: بلا توطئة، وبلا مقدّمة تخفّف فُجاءة السّؤال. نراهيم؟ لا أعرف شخصًا بهذا الاسم. لست قويًا في تذكُّر الأسماء. ربّما عرفت شخصًا اسمه نراهيم كان جارنا في گلميم. هل تتذكّره؟ أسأل نفسي، ونضحك معًا من غباء بوزيد. رفع يده مهدّدًا وهو ينبح، بدلًا من أن يفتّش جيوبي، كما خمّنت. الحزطاني؟ الرجل الذي ينتظر أن يصبح القايد بوزيد، يسمّيني الحرطاني في غضباته وفي لحظات مزاحه. يسمّيني دائمًا الحرطاني بسبب لون بشرتي، وبسبب ما يدّعي أنّها بلادةٌ متأصّلة في الجنس الأسود برمّته. وهذا الموضوع يجعله في الغالب مَرِحًا. الموضوع الوحيد الذي يجعله منشرحًا، منفتحًا، إنسانيًا. يضحك لساعات وهو يعدّد النكات التي تُحكى عن الحراطين، الذين بنوا بيتًا من دون باب أو نافذة... أو عن أولادهم الذين ارتدوا ملابس العيد في منتصف اللّيل لأنّ الصباح أبى أن يطلع... ولكنّه، الآن، لا يسأل عن النكات أو القصص التي تخصّ الحراطين. يسألني عن نراهيم المعلّم: ماذا أعرف عنه؟ وكلّ هذا من دون أن يرفع نظره عن لوح المكتب، مستمرًا في خربشاته، ومانحًا نفسه أبهة ليست له... نراهيم المعلّم؟ لا تربطني به قرابة أو صداقة. لا أعرف حتّى أنّ اسمه نراهيم... لنظرته الآن تهديدٌ خاص لم أرَه من قبل، ولم أكن أتوقّعه... كما لو كنت بكلامي شككت في ذكائه. آه، تقصد نراهيم الذي يعلّم الأطفال القراءة والكتابة؟ قد أكون التقيته، ولكنّني لا أعرفه. أعرف أخي بناصر... إنّه مشغول دائمًا بشاحنته وبزيجاته التي لا تستمرّ طويلًا... مشغول ببابا الذي أحرقت زوجته البيت الوحيد الذي امتلك في حياته. أمّا هموم الناس الأخرى فلا تعنيني... واللّه العظيم... لا أعرف حتّى أين يسكن المعلّم نراهيم...

ما اتلاقيتيش فعاه هاذ الأيام؟

كنلقاه في السوق مرة مرة.

ومن غير السوق؟

في الجامع؟

الجامع؟ نراهيم لا يعرف القبلة. نراهيم شيوعي كافر باللّه.

قلت إنّني ألتقيه في المدرسة أيضًا... عندما لا يكون هناك عمل ألتحق بالقسم وأجلس بين الأطفال لأتعلّم القراءة والكتابة لأنّها أشياء تنفع

موزِّع رسائل مثلي يحبّ التعلُّم... وتنفع كلّ الذين يرغبون في مقاومة الجهل...

كفّ عن تدوين خطوطه في هذه اللّحظة. كأنّما أغضبه تلميحي إلى القراءة والكتابة. أنا رجل يحب المزاح. ورأيت في اللّحظة نفسها ما الذي سيقع، تقريبًا. سرت وراءه وهو يغادر البرج ويتوجّه نحو المدرسة أوّلًا. جاء البرگادي مسعود، في هذه اللّحظة، وهو يركض كالكلب الذي يرى سيّده وأدّى له التحيّة العسكريّة. سأله القايد لماذا لا يسمع الأطفالَ في القسم يردّدون نشيد الحزب: من جبالنا طلع صوت الأحرار... إلخ. لأنّ المعلّم غائب. وهناك ثلاثة تلاميذ لم يظهروا منذ خمسة أيّام. وأنا، ماذا أصنع في هذه اللّحظات؟ أحكُّ قفاي، كواحد غير معنيّ بما يدور حوله. والقايد لا يهتمّ بي ولا بوقفتي. دخلنا، ثلاثتُنا، القسمَ وخرجنا منه. وأنا أردّد: بْراهيم المعلّم لا تربطني به قرابة أو صداقة. لا تربطني به أيّ علاقة من أيّ نوع كان. واللّه العظيم. ها هو مسعود شاهد. أشهد البرگادي مسعود حتّى أرفع قيمته لأنّه يحب هذا. ثمّ لأنّه لا يحبّ المعلّم، ولأنّه يحب أن يقوم بدور البيّاع. مولع بهذا الدور حتّى العبادة. كأنّما وُلد من أجل أن يكون بيّاعًا، لأنّه هو الآخر بلا قيمة في هذا البرج على الرّغم من أنّه يجهل ذلك. أرى ظهر القايد المحدودب قليلًا، ومشيتَه التي تشبه مشية البط... وأقول لمسعود بصوت مرتفع، إن بْراهيم هذا فعلًا إنسان غامض، كما قلتَ لي. يغادر البرج في أيّ وقت ويترك الأطفال بلا تعليم؟ ولا أعرف إن كان القايد ينصت. يسير أمامنا وهو يهزّ رأسه ويعبر ساحة البرج... توقّف عند السانية مرّة أخرى والتفت ناحيتي يسأل ما الذي قلته في مكتب البريد. وتوقّفت، بدوري، وبدأت أسوّي ياقة البرگادي مسعود (الذي لم أثق به في يوم من الأيّام. لماذا أثق بواحد لا ينام في اللّيل ويمضي نهاره يراقب الداخل والخارج متظاهرًا بأنّه يكنس الساحة؟) حتّى أتفادى وجه بوزيد المربّع الشكل، إنّما لا سبيل إلى تفادي السّؤال: ما الذي قلته في مكتب البريد؟ أحكّ قفاي متظاهرًا بأنّني أفكّر، بجدّ، فيما قد أكون قلته في مكتب البريد. وربّما أتذكّر شذرات ممّا قد يكون جرى في المكتب، قلت من الأحسن أن أبتعد إلى جهة البوابة. يده التي كانت بعيدة تشبّثت بكتفي كأنّما تخاف أن أهرب. وأنا لا أنظر إليه مخافة أن يضبط استهزائي. هل قلت شيئًا لا يليق برئيس المكتب؟ واللّه ما غقلتْ... وحتّى إذا قلت كلمة، فإنّني لا أتذكّر أين، ولا المناسبة. ربّما قلت كلمة أو كلمتين عن رسالة لم تصل إلى أهلها لأنّ العنوان كان مكتوبًا على ظهر المظروف. إنّها المهنة يا سعادة القايد. لأنّني، كما ترى، أحبّ المزاح يا سعادة القايد. لأنّ خادمك،

هذا الحرطاني، يجد في كلّ موضوع جانبه المضحك. ثمّ إنّني أحاول أن أتذكّر تفاصيل أخرى قد تنفعك في تحرياتك أنت وصديقي البرگادي مسعود الذي لا ينام حتّى يبقى برجنا محروسًا في اللّيل و النهار.

الخيشة التي في بيت المعلّم...

الخيشة؟

آش قلتي للناس في المكتب؟ تكلم آلحرطاني... ويده الملعونة تعصر عنقي...

الخيشة؟ آش من خيشة؟ لا أعرف غير خيش القمح في المخزن... قد تكون هناك خيشة لا أعلم بوجودها... ألتفت مجدّدًا ناحية البرگادي عندما سمعته يقول إنّنا قد نعثر عليها في غرفته... وربّما تحت سريره... وماذا يقول آلحرطاني... نعم. ماذا أقول... أتكلّم الآن كواحد يعرف عن المعلّم أشياء كثيرة... يختفي براهيم المعلّم كلّ ليلة ولا يعود حتّى الفجر... ودائمًا عبر سطوح البرج... ولكنّني لا أعرف أين يختفي... واللّه العظيم... ثمّ أصمت. يترك عنقي ويعبر الساحة. أسرع الخطو مندفعًا وراءهما كواحد يسعى إلى إثبات براءته المشكوك فيها واسترجاع كرامته الممرّغة في التراب، وكشاهد يريد أن يضيف شهادات أكثر أهمّيّة، وعليه أن يتأكّد من أنّ ما يقوله يصل إلى المستمع من دون تحريف... وعندما بدأت أتساءل ماذا أقول وماذا أخفي، بدا لي أنّني قلت كلّ شيء، وأنّه لم يعد لديّ ما أضيفه. ثمّ توقّف، في نهاية الساحة، القايد بوزيد يمدّ عنقه، كما يفعل العقاب تمامًا، ويُرخي أذنيه. أفعل مثله عندما يلتفت جهتي. أمدّ عنقي وأتنصّت على شيء لا أعرفه. ثمّ استأنف سيره. عرفت هذه المرّة أنّه يتّجه نحو بيت المعلّم... تبقى قضية الخيشة... نعم، عنده خيشة عامرة بالسلاح... بنادق جديدة ورشاشات ورصاص كثير، لأنّ هذا الرجل الغامض، هذا المعلّم براهيم، كما يحلو له أن يسمّي نفسه، رجلٌ غامض فعلًا، وقال لي إنّه يلتقي أشخاصًا غامضين مثله... إنّه، يا سعادة القايد، ينتظر الأوامر ليفجّر هذا البزار. الذي لا أعرفه هو عن أيّ بزار كان يتحدّث... كلّ هذا قلته في خاطري. وهكذا، عندما وقفنا أمام البيت لم يلتفت جهتي. سمعته فقط يقول: سِير جيب الخنشة. قال لي: سِير جيب الخنشة، ولكنّه أوّل من هجم على الغرفة. وفتشنا أركانها الظاهرة والخفيّة. وفتّشنا تحت السرير وفوق الدولاب. وهي ليست سوى خيشة واحدة، لا تحتمل ثلاثة رجال بشكوكهم وأحقادهم وضغائنهم. قال البرگادي، كأنّما يعتذر: السلاح يأتي من الشمال في الشاحنات حتّى گلميم

يا سعادة القايد. ثمَّ يُنقَل على ظهور الجِمال مخبَّأ بين صناديق الشاي حتَّى هنا، ولكن لا أحد يعرف أين يختفي بعد ذلك؟ أسمع كلامه ولا أستبعد أن يكون البرگادي مسعود هو الذي وشى بنا. وخرجنا من دون أن نعثر على شيء.

قفزت إلى ذهني هذه الفكرة؛ أن أقول للقايد بوزيد: بغيث ناخذ مياث فرنك من الشهريَّة ذيالي باش نشري راديو بحال البرگادي... مع يقيني بأنَّه سيرفض، وربَّما يرميني بأوَّل شيء تقع عليه يده. وهكذا تكبر نقمتي عليه، وخصوصًا أنَّ البرگادي مسعود هزَّ رأسه وهو يقول: هاذ الحرطاني ما عندو غقل. إلَّا أنَّ القايد أخذني إلى مكتبه ونزع من حول عنقي الجِراب الذي أضع فيه الرَّسائل، ونزع قميصي الذي يحتوي على ظهير تعيينه. فتَّشه ووضع الرِّسالة التي تتعلَّق به على المكتب، ثمَّ وجَّه إلى وجهي صفعة مؤلمة، ثمَّ قال: ما نبقاش نْشوفْ كفارتك قدامي، سمعتي... إنَّني إنسان تافه فعلًا، والعالم يستطيع الاستغناء عن أمثالي. حرطاني مثلي يعرف أنَّه تافه ولا ضرورة لوجوده على هذه الأرض، ويستطيع أيٌّ كان أن يشتمه ويصفعه ويضربه على قفاه... من الأحسن أن يصمت... لماذا لم أطالب، على الأقلّ، بأجرتي قبل أن أغادر مكتبه... مثلًا. هل خشيت صفعة ثانية ففضَّلت الهرب؟ مع أنَّه إنسان تافه وحقير ولديه امرأة تذهب إلى أماكن مشبوهة في غيبته وربَّما في حضوره... ومن جديد، رأيت نقمتي عليه تكبر. لست بليدًا. لست واحدًا من شخصيَّات النكات التي تشرح صدر القايد بوزيد. أستطيع أن أعمل عقلي كالبشر، وحتَّى أن تخطر في بالي أفكارٌ لا بأس بها.

كانت الشمس قد تربَّعت فوقنا عندما عدت إلى الغرفة لأجمع حوائجي. وجدت البرگادي عند الباب. ماذا يريد هذا المنحوس؟ جاء ليعتذر مرَّة أخرى على كلّ ما قاله عن المعلِّم بْراهيم... صديقنا بْراهيم... هذا رجل متعلِّم. وتذكَّر ولده، وقال بحنين جارف، وكأنَّما سيشرع في البكاء، إنَّ ولده إسماعيل أصبح يحسن الفرنسيَّة، بفضل المعلِّم. يتكلَّم بها في البيت وخارجه، طوال النهار. وعندما يأوي في المساء إلى فراشه يسمعه ينشد نشيد القبَرة: alouette gentille alouette. وبرقت دمعتان في ظلمة عينيه. وبدأت تأتي من النافذة رائحةُ لحم الغزال وهو يُشوى على النار. وترقص في الساحة غيومُ الدخان فوق المتحلِّقين حول دخان الشواء.

ضابط الاستعلامات الذي يسمّى إدريس الأوّل

الإثنين 28 أبريل 1958

كيف للحجر أن يدور؟ هل هناك إنسان عاقل يقبل هذا الكلام؟ هل تعرف أنت حجرًا يدور؟ الأرض لا تدور. هذا هو المعقول... منذ وصلنا إلى مراكش، قبل سبعة أيّام، وهو يُصمّ أذنيّ بكلامه الخاوي. ما يخرج من فم إدريس الثاني من هلوسات لم يعد يعنيني منذ مدّة، ولكنّه يستمرّ بصوت مرتفع، كما لو أنّه في الحمّام، غير آبه بما أفكّر فيه؛ غير آبه بالمهمّة الجسيمة التي جئنا من أجلها. الزبون الوحيد الذي يهتمّ بما يقول يحرّك طربوشه في بلاهة... لا أحد يدخل البار مرتديًا جلبابًا أسودَ وطربوشًا أحمر من دون ذرّة من بلاهة، كما هي حال الرجل الآن. وأنا جالس أمام الكونتوار، أحدّق في صاحبة البار ذات الشعر الذي تفوح منه رائحة الحنّاء المثيرة، وهي تلعب مع كلب ضخم أسود. بشرتها شاحبة لأنّ حياتها كحياة البار الذي تُسيّره. يسهران في اللّيل وينامان في النهار. تمدّ إلى الكلب جرادةً فيضع قائمتيه فوق الكونتوار، ثمّ تمدّ يدها عاليًا فتخرج من فمه زمجرةٌ تشبه غبطة الأطفال ولا تتوقّف حتّى تختفي الجرادة في فمه. وأسمع قهقهتها وقهقهات المتحلّقين حولها، وأنا أتساءل هل اسمها جانيت أم ماريت. والسّبب هو أنّني جالس بلا مرافق، بلا ضرورة، بلا فائدة، في بار شهرزاد، وأنتظر الرجل الذي انتقلنا إلى هنا من أجله. والرجل لا يبدو أنّه سيظهر. وإدريس الثاني غير مهتمّ تمامًا بأن يظهر أو لا يظهر. ثمّ أتلفّت إلى جهة السّاحة التي فرغت من مروّضي القرَدة وغيرهم وهجم عليها الشحّاذون والبؤساء والمتشرّدون والذين لا مأوى لهم.

لا أريده أن يعرف أيّ شيء عن حياتي الخاصّة، حتّى إذا كتب تقاريره، فعلى الأقلّ لن يمسّ سمعتي، لأنّني أعرف أنّه يرفع تقاريره إلى المسؤولين ويزيد إليها قليلًا. أعرفه جيّدًا حتّى لا أنخدع بمظاهر الحفاوة التي يستقبلني بها، والإذلال الذي يظهره أمامي. إنّه يستعمل كلّ خبرته وموهبته ولسانه ليحفر حفرة ويدفنني فيها حيًّا ليأخذ مكاني. هذا النوع من البشر لا يمكن الوثوق به أبدًا. ولهذا أقول إنّ حفْر حفرة ودفني فيها حيًّا هما أقلّ ما يخطر في بال عقل من هذه الشاكلة الحاقدة. معدنه من هذه الطينة الخسيسة.

منذ سبعة أيّام ونحن ننام في الغرفة نفسها. نستيقظ في الوقت ذاته، ونغادر الفندق في الوقت ذاته، ونذهب للبحث عن الرجل معًا. إنّه يسكن في حيّ من أحياء مراكش... جهة باب آيلان... هذا كلّ ما نعرفه

عنه. وهل هذا كافٍ للعثور عليه؟ طبعًا، لم نعثر عليه في العنوان المسطَّر في أوراقنا... انتقل... غيّر العنوان... ما بقاش كيسكن هنا من شحال هادي... لم نعثر على الرجل لا في الغد، ولا في الأيّام التي تلت. ولن نتمكّن، من دون العثور عليه، من وضع اليد على العبد الناقص في اللّائحة المَلَكيّة. وما لم نتمكّن من وضع اليد على العبد الناقص في اللائحة، فسنجرّ فشلنا معنا طوال حياتنا. لن نعود إلى عملنا من دون خسارات. بدأنا مهمَّتنا بالحديث عن المستقبل والحظّ، وإذا بنا نكتشف أنّنا في مهمَّة لن نستطيع الرجوع من دون إنجازها، لأنّ الأمر يتعلّق بالقصر الملكي. هذا هو الموضوع، باختصار. وإدريس الثاني، هل يدرك هذا؟ لا أظنّ. إنّه مُتمادٍ يحكي تزهاته لأحد السكّيرين... خُذْ، مثلًا، إنسانًا يصعد إلى الفضاء مئاتِ الأمتار... إيلا كانت الأرض كتدوز فسينزل في طنجة أو في البحر، أو في بلجيكا، بحسب المسافة التي قطعها وهو يصعد. ولأن الأرض لا تدور، فإنّه ينزل في المكان نفسه الذي انطلق منه... ويكركران... ويتعانقان... ويربّت كلٌّ منهما على كتف الآخر بحرارة، كصديقين قديمين... ثمَّ أخرج الرجل السكران من جيبه أوراقًا ماليّة ذاوية، متّسخة، متلاشية تقريبًا، وبعثرها فوق الكونتوار... ورمى إدريس الثاني جرادة مسلوقة في فمه.

نعتبر أنفسنا جنودًا، وإنّما من دون البذلة العسكريّة. ونياشيننا لا تبرق على أكتافنا. لهذا، أجدني دائمًا مصطدمًا مع المدنيّين. ولا أكنّ لهم، في قرارة نفسي، أيّ احترام. فهم يمضون الوقت، بدلًا من العمل، في الاحتجاج والانخراط في النقابات، حتّى يستمرّوا يتقاضون أجورهم وهم عاطلون عن العمل.

قال لنا أحد جيرانه السابقين، بعد أربعة أيّام من المرابطة أمام بابه، في النهاية تمامًا، حتّى يئسنا، ونحن ننتظر عربة تأخذنا إلى حيّ آخر لم نزره بعدُ... قال، كأنّما أشفق علينا، كأنّما أدرك المشاقّ التي قطعناها، إنّ الرجل الذي نبحث عنه، السي لمنبهي حارس المؤسّسة المختصّة بخصاء العبيد، لا يغادر بار شهرزاد في جامع لفنا. وها نحن في بار شهرزاد ولم نتقدّم خطوة. قال إنّنا سنعثر عليه في هذا البار. إنّما كيف نعرفه؟ كيف نعرف أنّه في البار، في حال كان موجودًا فيه؟ وإذا لم يكن موجودًا، فكيف سنتعرّف إليه إذا حضر؟ نحن لا نعرف لا وجهَه ولا شكلَه. لو سألنا جاره عن أوصافه أو هندامه، فعلى الأقلّ كنّا تقدّمنا. ولكنّ إدريس الثاني لا يملك البديهة الكافية لتخطر في باله أسئلة بمثل هذه الأهمّيّة. هذا المكان يفتح بابه مع حلول اللّيل، ويُغلقه مع رحيل آخر زبون عند طلوع الفجر.

ومنذ دخلنا وأنا أراقب الداخل والخارج. كلّما انفتح الباب أدور دورة كاملة، متوقّعًا أن أتعرّف إليه. جلسنا عند الكونتوار والقاعة فارغة. ثمّ بدأت تمتلئ، شيئًا فشيئًا، مع تقدُّم اللّيل. وفي منتصف اللّيل، كان الزبائن قد احتلّوا رقعة الكونتوار بكاملها. كانوا نحو ثلاثين، اجتمعوا في مكان ضيّق لا يحتمل أكثر من عشرين نفرًا. وتوزّع الباقون حول الموائد الأربع التي سدّت ما تبقى من مساحة الصالة، يتلذّذون بأكل الجراد المسلوق. وارتفعت الموسيقى الأوروبيّة وتشابكت خيوط الحديث. مع كلّ هذا الصخب، لا يغيب عن أذنَيّ صوتُ إدريس الثاني، عندما قلت بيني وبين نفسي، للمرّة الرابعة أو الخامسة، إنّه شخص ميؤوس منه تمامًا، وضربت على كتفه لأقول له إنّني غسلت منه يدي. وبدلًا من هذا طلبت منه أن يسأل صاحبة البار، على الأقلّ، ما دمنا واقفَين أمام الكونتوار. لم يفهم:

لاش؟

يقدز يكون الرجل اللّي كنقلبو عليه موجود هنا واحنا ما عارفينش...

لا يدرك إدريس الثاني معنى ما أقول، أو ربّما يتعمّد خضخضة أعصابي. ومع ذلك، استمررتُ أشرح له أن مشكلتنا هي التعرُّف إليه. أليس كذلك؟ الزبائن كثيرون. يشربون البراندي والبيرة ويأكلون الجراد المسلوق الذي يبيعه رجل مسنٌّ أمام البار. ولا أحد يبدو عليه أنّه كان يحرس مؤسّسة مكلّفة بخصاء العبيد المتوجّهين إلى القصر المَلَكي. ثمّ، كيف يكون شكل رجل ظلّت هذه مهمّته حتّى وقت قريب؟ هل يشبه بقية عباد الله؟

وضع إدريس الثاني رِجلًا فوق رِجل، منتظرًا من صاحب الطربوش أن يملأ له كأسه، ومستمرًّا في سرد قصّته التافهة... وهي أيضًا لا تدور. هل تعرف هذا؟ لو كانت تدور لسقطنا جميعًا. وأنا حتّى هذه الساعة لا أعرف شخصًا سقط على قفاه لأنّ الأرض مالت به. وحتّى لا يتمادى في هلوساته، جذبته من كمّه بانفعال ظاهر... أحسن حاجة نديرو هي نسؤلو هاذ الناس... فهمتي؟

لاش؟

العساس...

إينا عساس؟

لمنبهي... نسيتي؟ كيفاش غادي نعرفوه إيلا جا؟

ويلا كان هنا؟

فين هنا؟

في البار.

شفتيه؟

لنفرض أنّه في البار.

ثمَّ كأنّما أدرك أخيرًا، جال بنظره متفحّصًا المتحلّقين حول الكونتوار وهو يشرع فمه في ابتسامة عريضة. مرّر يده على شعره المدهون، وحطّ يده الأخرى على كتفي، وقال كواحد لا يعطي أهمّيّة للموضوع: اشربْ وانسَ الموضوع. وعاد إلى حديثه، فرِحًا، سعيدًا بسبب نظرياته الجديدة عن ثبات الأرض، والتي وجدت معجبًا يلبس جلبابًا أسود وطربوشًا أحمر. استمرّ في الحديث التافه الذي قطعته عليه: خذ مثلًا الطيور المهاجرة... اللقلاق أو السنونو أو البطّ... كيف ستتعرّف هذه الطيور المهاجرة إلى أعشاشها إذا كانت الأرض تدور؟ ستدوخ من كثرة البحث والدوران، ولن تعثر في النهاية على شيء. وهل تعرف لماذا لا تعثر على أعشاشها؟ لأنّها ستكون دائمًا أمامها أو خلفها... الطيور تدور والأرض تدور... والسّؤال هو هذا: هل تعود الطيور في نهاية رحلتها إلى أعشاشها القديمة؟ نعم. ولماذا؟ لأنّ الأعشاش تبقى في مكانها. لا تدور، ولا هم يحزنون. ثمَّ بدأ يرقص. ويدور حول نفسه، ويصيح: أنا أدور، والأرض لا تدور، أنا لا أدور، والأرض تدور... يصفّق السكّير، ويدور إدريس الثاني، ويصيح جَذِلًا: أنا أدور، والأرض لا تدور... وصاحبة البار ذات الشعر الأحمر تضحك، وكلبها الأسود يدور حوله... ومن الأحسن أن أفكّر في المرأة التي اسمها جانيت أو ماريت، أو في كلبها الأسود، أو في صحن الجراد المسلوق الذي أمامي. جراد بنّي سمين، ذيله في حجم الإصبع الوسطى. خطرت في بالي هذه الفكرة المضحكة حتّى لا أفكّر في جلوسنا المجانيّ، وفي صهد غرفة الفندق الذي سيأكل جسدي عندما نعود. الغرفة كالفزان ومزوّقة بالبقّ، حتّى في الشتاء، لأنّها بلا نوافذ. ثقوب صغيرة كثقوب الغربال. وفي كلّ ثقب بقّة أو أكثر. (إدريس الثاني يعجبه كلّ شيء، حتّى البقّ. يأخذ في الغرفة الشمعة ويُدنيها من الثقوب وينتظر أن يسمع انفجارالحشرة كما لو كان ينتظر دويّ مدفع العيد.) والرجل الذي نبحث عنه؟ ولماذا لا أفعل مثل إدريس؟ أشرب بدلًا من أن أبقى غاضبًا، وبدلًا من التفكير في الحارس وفي شكله ولونه... الساحة يغلّفها الآن لونُ الفجر الأزرق، وآخر الزبائن يغادرون. يتبعهم الرجل صاحب الجلباب الأسود، وإدريس، ثمَّ الكلبُ الذى

صار ضخمًا في حجم الجحش. ذلك بأنّه كلبه. ثمّ إنّ إدريس انحنى عليه عند الباب وباسَ فروته الكثيفة كما فكّرتُ في أنّه سيفعل. وأنا، ماذا أفعل؟ أتبعهم وأنا أقول إنّها ليلة أخرى مرّت، كما مرّت الأيّام التي سبقت، بلا نتيجة. البؤساء الممدّدون في الساحة، تحت الجدران، في ضوء النهار الطالع، ملفوفون في أسمالهم المتّسخة، كنفايات زائدة. نسير في الأزقة الضيّقة، أنا وإدريس الثاني والرجل وكلبه، ولا أعرف وجهتهما. أغالب النوم وهما مستمرّان في حديثهما، غير مباليين بما إذا كنت أتبعهما. هذه المرّة، كان الرجل هو الذي يتكلّم على صاحبة البار التي اسمها جانيت أو ماريت. إنّها مراكشية وليست فرنسيّة أو إنكليزيّة، وُلدت في مراكش وكبرت في مراكش. والدها هو الإنكليزيّ، ولكنّه ذهب ذات يوم إلى داكار ولم يَعُد. لم تقل لماذا سافر إلى داكار، ولماذا لم يَعُد، لأنّها لا تعرف الأسباب... وهل هذا مهمّ؟ أو غيره؛ أو غيره. تتلخص المسألة كلّها في هذا السؤال: هل نستطيع العودة من دون العبد؛ من دون ابن الحرام المخصيّ الناقص في اللّائحة المَلَكيّة؟ هذا ما أحاول أن أشرحه لإدريس ونحن واقفون أمام محل بائع الشواء والرؤوس المبخرة. زبائن البار أنفسهم يقفون أمام المحل ينتظر كلٌّ منهم دوره. أحدهم جالس على الطوار، وإلى جانبه رأس الخروف الفائر، وهو يتأمّله بابتهاج، كأنّما يستعدّ ليسأله من أين جاء. أدخل إصبعين في محجر الرأس وأخرج العين ورماها في فمه. وأنا أحاول مع إدريس الثاني الذي لا أعتقد أنّه مدرك ما أحاول شرحه: واش على الأقل سولتيه؟

سوّلت شكون؟

هاد الرجل.

علاش غادي نسولو؟

على العساس؟

إينا عساس؟

السّيد اللّي كنقلبو عليه هادي سبعة أيّام؟

هادا هو العساس (مشيرًا إلى صاحب الجلباب الأسود الذي يقف في الطابور).

هادا؟

إيه، هادا هو العساس ديال المؤسسة.

وعلاش ما قلتيها؟

ما سوّلتينيش.

وهو؟ سولتيه؟

علاش غادي نسؤلو؟ (ثمّ كأنّما أدرك ما الذي أقصد.) سولتو في البار.

واش قال؟ قال إنّ آخر عمليّة خصاء قامت بها المؤسّسة تعود إلى ثلاث أو أربع سنوات، والعبد الذي نبحث عنه؟ قال إنّ علينا أن نعود إلى مدير المؤسّسة. هو الذي يحتفظ بدفاتر المؤسّسة، والمفاتيح في حوزته. عاد الرجل صاحب الجلباب الأسود والطربوش الأحمر وهو يرقص، يحرّك رأسه في سعادة، والطربوش يتمايل فوقه. وقف أمامي ومدّ إليّ رأس خروف، بخارُه يطلع من الكاغيط الذي يلفّه. والكلب الأسود يدور حوله، ويبصبص ذيله، ويطلق حشرجات كاليتيم.

البنت التي نامت تحت الأرگانة

الثلاثاء 29 أبريل 1958

إنَّه أسعد يوم في حياتي؛ اليوم الجديد الذي يطلع علينا عند الضريح. الباب أخضر. كنت دائمًا متفائلة بالأضرحة ذات الأبواب الخضراء. الأبواب المصبوغة بالأخضر تبعث دائمًا على التفاؤل. ضريح سيدي اخماد، بابه الأخضر يوحي بالسكينة، وبكلّ ما تحمله أبواب الأضرحة من طمأنينة. المال القليل الذي ادّخرته أنفقته في الطريق. من أجل البنت لا يهمّ المال، لأنّني قلت في ضريح سيدي احماذ إنّي سأرى ما حدث لعقلها. تقصد النساء الوليّ ليتعرّفن إلى الشيطان الذي انقضّ على عقول بناتهن وأجسادهنّ. يقصدنه من كلّ النواحي عندما تضيق بهنّ الحال... ويئمن تحت شجرة الأرگان المباركة، غير بعيد عن الضريح. حول الشجرة رواقٌ مطليٌ بالجير بعدّة أقواس وبلا سقف، ومصطبة تدور حول الشجرة. بنات عديدات نمن تحتها وشُفين في الصباح. شجرة الأركان شجرة مباركة، لأنّها تشفي الأمراض، وتداوي الوهن والعجز. شجرتنا شجرة مباركة، قريبًا منها لا أحد يجوع، أو يصيبه قلق أو ضَيم، أو خوف، أو أرَق. وعندما تنام عند جذعها تحلم بكلّ ما وقع وما سيقع لك. شجرة الأركان شجرة مباركة، تحتها تحلم بكلّ شيء حَسَن، وتُشفى من العين والحسد وكلّ ما هو قبيح. فتيات كثيرات حلمن بأزواجهن قبل أن يلتقينهم، لأنّهنّ نمنّ تحتها. مباركة هذه الشجرة أيضًا لأنّها تعيد الغائب إلى ذويه، والضالّ إلى بيته. إذا اختفى شخص ولم يعد، فشجرة الأركان تدلّ على مكان وجوده، وتدلّ على وقت عودته، وكلّ الأشياء الجميلة التي ستقع في حياتيك القريبة والبعيدة، والأشياءِ القبيحة أيضًا... تحت شجرة الأركان، تحت حفيف أوراقها، تحت أشعّة القمر التي تتخلّلها، تمدّدتْ وأغمضت عينيها. ستنام بعد قليل. يرتفع الجسد النائم عن الأرض في منتصف اللّيل. وتصبح الفتاة، شيئًا فشيئًا، كأنّها ممدّدة في الهواء. يخترق ضوء القمر فروع الشجرة، بحيث تبدو الفتاة النائمة وثوبها الأبيض الذي يغلّفها وينتشر حولها كالجناحين، كأنّها سابحة في شرنقة شفافة فضّية... تتهادى على هفهفة ريح خفيّة وهي نائمة إن كانت طويتها نقية، أو تهتزّ بعنف إذا كان شيطان ما قد عبث بعقلها وجسدها. يخرج الكلام من فمها وهي لا نائمة ولا صاحية، أو صاحية بالقَذر الذي يجعل الشيطان الذي يسكنها يعترف بذنوبه... شجرة الأركان شجرة مباركة، تفضح الرجال الذين قطفوا نوّارات الفتيات الصغيرات... إذا كانت الفتاة قد فقدت زهرتها تهتزّ فروع الشجرة

فوقها، وتسمع أوراقها تنتحب. البنت غائبة، وفي غيابها تعترف بعارها... شجرة الأركان شجرة مباركة دائمًا...

لم تنطق بحرف واحد قبل أن تبلغ العاشرة. وبعد العاشرة، أصبحت تُصدر أصواتًا أو همهمات غير آدميَّة. وحتَّى عندما نطقت، فإنَّها لم تتعدَّ كلمات غير مفهومة، أو جُمَلًا تعني غير ما تريد الإفصاح عنه، ولا أفهمها في الكثير من الأحيان. لم أفهمها أبدًا، هذه البنت.

وصلنا مساء الأمس، بعد أن قطعنا مسافة طويلة. قطعت سيَّارة الجيب بنا نصف المسافة، ثمَّ أسعفنا فلاح. وما تبقى من الطريق قطعناه راجلتين، ولكنَّنا وصلنا في وقت غير وقت الموسم، إلَّا أنَّنا وصلنا أخيرًا. الساحة فارغة والضريح بابه الأخضر موارب. يملك حفدة الوليّ كثيرًا من العبيد، وهم منتشرون في كلّ مكان: في الحقول والبساتين؛ في الطرق وهم عائدون من الحقول المجاورة، أو تحت جدار المسجد وهم يستريحون؛ في الساحة يلعب أطفالهم العراة. رؤيتهم بهذا العدد أقلقت خاطري. ولماذا لا يكون الآن مندسًّا بينهم، الأسود الذي لعب بعقلها، متظاهرًا بأنَّه يفلح الأرض أو يفتح الساقية، أو جالسًا تحت الجدار، يحكّ قشرة قدمه، لامباليًا، ينظر إلينا شامتًا، أو ناسيًا بالمرَّة ما حدث؟ لماذا لا ينسى؟ لم يلحق به عار. لم يَفسَنه أذًى. أمَا أنا، فلم أجد مكانًا أولي إليه وجهي. حتَّى العمل في الفندق تركته ما دام الخبر قد وصل إلى كل غرفة فيه، ووصل حتَّى أقبيته الخاوية. تعكَّر مزاجي وأنا أتذكَّر ما قامت به ابنتي. غثيان مفاجئ حلَّ محل الدموع وحبستُ غصَّتي في حلقي. وهي غير مبالية. وهي لاهية تمسح كسوتها ممَّا علق بها من غبار الطريق. كانت ستشبه حمامة في غير هذا المكان. لم أنَم ليالي عديدة. وحين أُغمض عينَيَّ فإنَّما من التعب، ويكون الفجر قد بزغ. قد يكون شيطانًا تنكَّر في زيّ رجل أسود. من أين لعقلها أن تنبت فيه أفكارٌ منبوذة مثل هذه؟ رُمي سحر في طريقها، وهو الذي أعمى بصيرتها. والسحر فتَّاك، لا ينتظر إذنًا ليدخل عقل فتاة مسالمة مثلها. لا أذكر أنَّ بيتنا دخله رجل أسود. السود يبيعون الماء في الأسواق أو يمدُّون القنوات ويحفرون الآبار، أو يعملون في الحقول كهؤلاء العبيد المستريحين تحت ظلّ المسجد. وهم مقتنعون بحظهم، ومرتاحون إلى مصيرهم، وفرحون لأنَّهم يعملون عند عائلة عريقة تناقلت الإشراف على ضريح الوليّ منذ قرون. هذا هو الطبيعيّ. كي يبقى الموسم موسمًا، وتبقى التجارة تجارة، وتبقى الحياة حياة. طرقت بالي كلُّ الأفكار. ولم أجد فكرة معقولة تُهديني إلى ما حلَّ بالبنت غير فكرة السحر

الأسود. هو الذي يُعمي عقول البنات الصغيرات. إنَّها في العشرين وعقلها لم يتعدَّ الثانية عشرة، بتأتأتها وهمهماتها وجُمَلها غير المفهومة. سأل عن عمرها، الجنديُّ الذي أقلَّنا من أگادير، وتعجَّب... عشرون عامًا؟ جنديّ مغربيّ، ولكنَّه يعمل مع الإسبان. احمرَّت وجنتاه بسبب وجهه الأمرد وهو يسأل هل هي بكماء؟ وهل وُلدت من دون عضلة النطق، لأنَّها تبدو امرأة ناضجة. هذا هو سوء حظها. صارت امرأة من دون السلاح الذي تحتاج إليه المرأة. وفوق هذا، لا يحتويها بيت. لم أنتبه، في الوقت المناسب، إلى أنَّها تكره الجدران. وماذا كان في وسعي أن أفعل؟ لا ننتبه عادة لما يحدث حولنا. ننتبه له في الغد عندما لا يعود الحدثَ نفسه، عندما يكون قد أخذ صورة الماضي. فات وقت الخوف. كان عليّ أن أخاف عليها قبل أن تقع الواقعة. ماذا كان في وسعي أن أفعل؟ وأين تذهب عندما تغادر البيت؟ لماذا تحبّ الأمكنة حيث يجتمع الرجال، كما قالت جارتنا؟ أو بنت جارتنا؟ هربت من البيت وهي في الرابعة عشرة. وقفزت، في الثانية عشرة، من فوق عربة وهي سائرة، ولم تُصَبْ بكسر أو جرح لأنَّها بنت مسكونة... واختفت لليلة كاملة قبل ثلاث سنوات. عرفتُ من جارتنا أنَّها كانت تتجوَّل برفقة موظف في البلدية. كأنَّما اللّه خلق هذه البنت لتجعل شعر رأسي يشيب قبل أوانه.

هل أقول له إنَّها وديعة، وإنَّ عيبها أنَّها تحبّ أن تذهب حيث يجتمع الرجال. هل أحدّثه عن الأسود ليرى العار الذي يلطّخ وجوهنا؟ إنَّه يرميها بنظرات سريعة، قبل السؤال وبعده. اهتزَّت السيَّارة لأنَّ الطريق أمامنا مضبَّبة. ستار رماديّ هو ما نراه أمامنا وعلى جانبي الطريق. قال الجنديّ بصوت خفيض، كأنَّما يعتذر: قد نكون صدمنا أرنبًا تائهًا، وما نراه من ضباب سيزول. شريط الضباب يشبه سحابًا ثقيلًا يرقص على الطريق في موجات متعاقبة. يعلو وينخفض، يدور مع الهواء البارد ثمَّ يتوقَّف متردِّدًا، كأنَّما يبحث عن المكان الذي لم يُصبه التلف بعد. سنختفي جميعًا بعد قليل: الطريق والجبال والأرض والسماء. سأختفي بدوري بعد قليل في الضباب. هذا ما تمنَّيته لأستريح مرَّة واحدة وإلى الأبد. قال الجندي إنَّ هذه الطريق تعوم في ضباب حقيقيّ جلَّ أوقات السنة، لأنَّنا لم نبتعد بعدُ عن البحر. يبدو أنَّه شابّ مؤدَّب. بدلته مكويّة بعناية. لو أنَّها اختارت شابًّا مثله، بمهنته وحيائه والأشياء الأخرى. بنت سكن عقلَها شيطانٌ لا نعرف اسمه أو عنوانه. هل كانت في حال أفضل لو ظلَّ والدها معنا؟ أسئلة لا تنفع سوى في ازدياد آلام الركبتين. من الأفضل التركيز في الشجرة المباركة حيث تتمدَّد. ما عدا هذا، فإنَّها طفلة وديعة، تحبّ المرح واللَّعب.

أراقب نومها بحيث لا تفوتني حركة من حركاتها. نزعتُ فولارها وسوّيته بطريقة أحسن بحيث يدور حول الوجه، ويمرّ على حافتَي الأذنين، وينتهي بوردة صغيرة أسفل الذقن. حتّى تبدو كما أحبّ أن تكون: جميلةً ووديعة ونقيّة. كانت دائمًا فتاة هادئة، صامتة، كما الآن، ومنكفئة على صمتها تراقبني بعينين هادئتين، وديعتين. وتبقى ابنتي الطفلة نفسها التي أحبّ على الرّغم من حالها.

هل هي نائمة؟ هل بدأت أشباح ماضيها تتشكّل؟ تحرّكتْ ومالت على جنبها الأيمن، كأنّما حان الوقت لأرى وأفهم. هل ستنتحب الشجرة؟ هل ستهتزّ أوراقها الآن؟ أنتظر وأترقّب، قريبةً منها، عاضّةً على شفتَيّ، ومستعدّة للأسوأ. هل ستقفز وتبوح وتتألم؟ أنتظر أن أرى تفاصيل ما حدث خلف الفندق، أو على التلّ المطلّ على الميناء. ثمّ مالت على ظهرها. إنّها الوضعيّة المناسبة. القمر يرسل على وجهها شبكةً من الأضواء الأرجوانيّة. والصمت حولنا كثيف. واللّيل. إنّها الوضعية المناسبة. سيطفو بعد قليل جسدُها. سيهتزُّ بعد قليل الجسدُ بدلًا من أن يطفو، كما يحدث لكلّ المذنبات، وتنساب الاعترافات مع هدير نحيب الشجرة المباركة، تحت أشعّة القمر التي تعبث بوجهها. تداعب أشعّة القمر وجهها، كما لو كانت نائمة على سرير من الحرير. يسهّل سرير الحرير الاعترافاتِ الموجعةَ. هل سيرتفع الجسد الآن؟ وثوبها المزركش سيتمايل حولها كالجناحين؟ وهي تتهادى على هفهفة ريح خفيّة... وسيخرج الكلام من فمها وهي لا نائمة ولا صاحية، كالبنات المذنبات. لأنّ شجرة الأركان شجرة مباركة، تفضح الأسرار الدّفينة. ووجهها ظلّ صافيًا؛ ناعمًا.

اقتربتُ منها على أطراف أصابعي عندما اعتقدت أنّ اللّيل انتصف، وأنا أقول إنّها الساعة... إنّها الساعة... ووجهها مشرق تحت ضوء القمر. تتماوج ظلاله حولها تهدهد نومها الهادئ.

لم ينقصها شيء على الرّغم من أنّ والدها لم يتذكّرها منذ تركنا. لم أرَ وجهه القبيح منذ غادر البيت قبل عشر سنوات، بعد سنوات طويلة من الحياة المشتركة. وهي كثيرة وبلا مشاكل تُذكَر، لأنّه كان رجلًا طيّبًا، مسالمًا، لا تسمع صوته في البيت إلّا نادرًا. يجلب كلّ ما يحتاج إليهِ فندقُ السلام من سِلَع. هذا هو عمله. وهناك عرفته. وعندما جاءت ابنتنا إلى الوجود طارَ من الفرح، وظلّ يحبّها ويشتري لها ملابس العيد، وفي مناسبات أخرى غير العيد. وأنا أقول إنّه فرحان أكثر ممّا ينبغي لإنسان بلا خلفيات أن يفرح. حتّى قال إنّه حصل على عمل في ميناء إيفني. وذهب

ولم يعد. لم يكن عاطلًا ليبحث عن عمل جديد. عمله في الفندق عملٌ مريح. يذهب بسيّارة الفندق إلى السوق ويعود بالبضائع التي يحتاج إليها الفندق. كواحد يعمل لحسابه. لماذا يتحوَّل من عامل في فندق اسمه فندق السلام إلى مستخدَم يستخرج البترول في ميناء يبعد عنّا مئتي كيلومتر؟ المستقبل مضمون مع الإسبان، قال. المهمّ هو المستقبل. العمل مُتعِب في فندق السلام لأنّني أمضي النهار واقفة. ولم أنتبه إلّا مؤخَّرًا إلى العروق التي انتفخت في ساقَيّ واخضرَّت، ومالت في الآونة الأخيرة إلى زرقة قاتمة. وما أحصل عليه في الفندق لم يعد كافيًا، بعد أن كبرت البنت. ثمَّ هناك فلوس الدواء بعد أن لزمت والدتي الفراش. المهمّ دائمًا هو المستقبل. لم يكن ينقصنا شيء. الأكل والشراب متوفّران، وخصوصًا بعد أن حصلت على عمل في فندق السلام. والبنت، والحمد للّه، في صحة جيّدة، ولكن عقلها ليس في رأسها كسائر الرؤوس.

مَن يفهم ما يدور في عقل الرجل؟ لم يظهر له أثر بعد عامين على اختفائه، حتّى جاء الخبر بأنّه متزوّج، ولا يشتغل لا في الميناء ولا في البترول، ولن يظهر له أثر حتّى بعد قرن من الزمان لأنّه تزوَّج قبل أن يرحل معها إلى إيفني، عندما كان في أگادير. متزوّج حتّى، وهو يسكن معنا في البيت نفسه، وينام في السرير نفسه. حتّى وهو رجل طيّب، مسالم، لا تسمع صوته في البيت. متزوّج من امرأة ثانية، ولكن لا يظهر على وجهه شيء من هذا. ظلّ دائمًا مؤدّبًا، ويشتري كبش العيد، وللبنت ملابسَ جديدة مرّتين في العام، ومعاطفَ ثقيلة لفصل البرد، وكلَّ ما يحتاج إليه البيت، ومرآةَ حائط كبيرة، وراديو صغيرًا يغني في كلّ وقت. لكنّه لا يقول شيئًا عن عائلته الأخرى. هل يشتري لها المرآة الحائطيّة نفسَها؟ وراديو صغيرًا يغنّي في كلّ وقت؟ مَن يفهم ما يدور في عقل الرجل؟ يستطيع الرجل أن يذهب حيث يشاء، شريطة ألا ينسى أنَّ له عائلةً محتاجة إلى المال لتستمرّ في قيد الحياة، وبنتًا في حاجة إلى حضوره حتّى لا تضلّ الطريق، ليأتي في النهاية أيُّ عاطل أو مشرَّد ويُغويها لأنّها ظلّت بلا أب في الوقت الذي كانت في حاجة إليه. هذا ما كان ينبغي لي أن أقول له. المال يذهب ويأتي. المال ليس كالأب. عندما تبقى البنات بلا أب مدّة طويلة يطيش صوابهن، لأنّهن في حاجة إلى رجل، كيفما يكن هذا الرجل. المال ضروريّ أيضًا، ولكنّه لا يعوّض الأب، وخصوصًا في هذه الظروف. ليس من أجلي، وإنّما من أجل ابنته التي ضاعت.

كانت مستيقظة تمامًا عند بزوغ الفجر، وفرِحة، ومغسولة، وهادئة، وصافية، وضاحكة. أوراق الشجرة المباركة لم تهزّها ريحٌ. وفرحتُ. حمامة استحمت في نهر العافية، وزال كلّ الانقباض والكرب والتوجس. كلُّ ما غلَّف روحي منذ أيَّام، استمرَّ أكثر وجعًا في السيارة، أمام أسئلة الجنديّ المحرِجة، وفي العربة وأنا أتأرجح على إيقاع انحناءات الطريق وآلام ساقَيّ التي لا تمنحني لحظة راحة واحدةً... كلّ هذا اختفى الآن. ولم تبقَ غير ابنتي، طفلتي، ووجهها المشرق. حضنتُها وقبّلتُها، وقلت لها إنَّنا لن نعود إلى أگادير. سنذهب إلى گلميم عند خالتك... شجرة الأركان شجرة مباركة.

لن نذهب أنا وجدّتي إلى السنيما كلّ جمعة. كنت أتركها تكحّل عينيها وتكوي تنُّورتها، في الجمعات التي مضت، وأذهب إلى الفندق وأقول للوالدة: جدتي تسلّم عليك، وهي ترسلني من أجل النقود لأنّنا سنذهب إلى السوق. ولا نذهب إلى السوق. أمّا الوالد، فنخترع من أجله حكايات أخرى، عندما كان هناك والد، ويعمل في الفندق نفسه، قبل أن يذهب إلى إيفني للعمل في منصّات البترول. أقول له قبل أن تبتلعه منصّة البترول: جدّتي تسلم عليك، وتقول لك صباح الخير، وهي تريد أن تشتري خرقة تشدّ بها شعرها، أو كحلًا لعينها المريضة. ولكنّنا لا نذهب إلى السوق، ولا نشتري: لا خرقة ولا كحلًا من العطّار. عين جدّتي ليست مريضة. أتركها تُعِدّ الغداء، وأذهب أتقصّى أخبار الأفلام المعروضة، وأتمنّى ألّا تكون فرنسيّة، لأنّ خبزًا كهذا يُحزننا بقية النهار. تحبّ جدّتي الأفلام، تحبّ الأفلام الهنديّة، وأنا أيضًا، لأنّ فيها كثيرًا من الألوان. والنساء يرقصن كالفراشات. والموسيقى لها أجنحة تصعد بنا إلى السماء. نقصد سينما السلام القريبة من القيساريّة في الثانية ظهرًا. لا تلبس جدّتي الجلابيّة. أنا أيضًا لا أحبّ الجلابيّات. نعبر الطريق على موسيقى طقطقة كعبها. إنّها تحبّ اللّباس العصريّ. يعجبني حذاؤها العالي، وهو يقول: طق طق... طق طق... في الشارع وعلى مقربة من آذان المارة وأعينهم... وأنا أسير إلى جانب طقطقته على الطوار، مرتديةً تنُّورتها المكويّ وعلى خدّيها طبقةٌ فاضحة من العكر الفاسيّ وعطر قويّ. نجلس في الظلام نمضغ العلك ونضحك أو نبكي، ونعود ونحن نغنّي. أنا وجدّتي نحبّ الأغاني الهنديّة أكثر من أيّ شيء آخر. الأغاني الهنديّة فيها فرحٌ كثير... وفيها بكاءٌ كثير...

موزّع الرّسائل الذي يسمّى الرقّاص

الاثنين 5 مايو 1958

فكّرت في جرابي الذي بقي على مكتب بوزيد الملعون. يدان فارغتان خير من أن تحملا نجاسة اسمُها ظهير تعيين القايد بوزيد. قلت ممازحًا إنّ يديّ فارغتان وأستطيع منذ الآن أن أفعل بهما ما أشاء. لن تسلّما بعد اليوم رسائلَ إلى أيّ كان، وفي أيّ سوق كانت. انتهى موزّع الرّسائل. مرحبًا بالمشّاء الحالم. نهار مشرق. والشمس تلعب فوق الرمل بلا مبالاة، وتهبّ عليّ من جهة الصّحراء ريحٌ مفاجئة. هل لها علاقة بحياتي الجديدة؟ هذه واحدة من أفكاري الهازئة. على أيّ، فأنا لا أهتمّ بالرّيح التي تهبّ لأنّ أفكاري أصبحت واضحة، ومستعدّة لكلّ المفاجآت المرحة. نهارٌ كلُّ شيء فيه صافٍ، اللّونُ والضوءُ والهواءُ. نهارٌ تشتهي فيه أن تركض على الرمل وأنت عارٍ كأيّ هزّ؛ أو تتدحرج على الرّمل الأشقر كأيّ أفعوان يحبّ اللّهو. بسبب النهار أيضًا، لم أسمع الصوت الغريب، ولم أرَ الكتلة التي تُصدره. ذلك بأنّ الضوء كثير حولنا. الصوت يشبه الغناء الخافت، ولم أحدّد مصدره في البداية. الحيوان الذي يُطلقه لا يظهر لأنّه في لون الرمل، ومكوّمٌ على نفسه بحيث لا بدّ من الوقوف طويلًا والتدقيق في كلّ حبّة رمل ليظهر ما يشبه كومةً ضئيلة الحجم لا تتعدّى حجم كفّ الوالد عندما يفتحها. وحتّى هذا لم يكن ممكنًا قبل أن تظهر النقطتان السوداوان وهما تلمعان وسط الوجه الصغير، هناك، في منتصف التلّ الرّمليّ، تحت شجرة الطلح العارية من أوراقها. عندما غاصت قدماي في الرمل واقتربتُ محاولًا التعرّف إليه عن كثب، سار أمامي جذِلًا. يركض مسافة ويتوقّف في انتظار أن ألحق به. يتمرّغ في الرمل لحظة، ويلعب بقوائمه في الهواء وهو فرحان. ربّما إنّها طريقته في التّرحيب بالضيف. يلتفت إليّ ليرى إذا ما كنت اقتربت. ثمّ يقف على قائمتيه عندما يرى أنّني وصلت، ليدور حول نفسه عدّة دورات إلى أن يمسك بذيله. كما لو كان يعرض أمامي مهاراته الاستثنائيّة، ثمّ يتوقّف عن الحركة لحظة ليبدأ بهلوانيّات جديدة. وعندما يرى أنّني غير مهتمّ بأعماله الخارقة، يقفز ليصبح خلفي هذه المرّة، ملتفًا حولي في دورات متلاحقة وهو يوعوع كجروٍ مجروح. لم تُثرني وعوعته. لم يُثرني قفزه أو ركضه حتّى عندما مال يمينًا وصار في أعلى التلّ الرّمليّ ووقف يبصبص بذيله الطويل، وحتّى عندما اختفى خلف التلّ وعاد إلى الظهور. ثمّ استمرّ طويلًا على هذا النحو، يختفي ليظهر، ويظهر ليختفي، حتّى توقّفت متسائلًا أيّ لعب يلعب معي هذا الماكر. وانتظرت أن يظهر

من جديد. وانتظرت هذه المرّة مدّةً أطول قبل أن أرى أذنيه الهائلتين، ثمّ عينيه، نقطتين شديدتَي السّواد تضحكان في هذا المدى الناصع. لماذا يختفي كواحد يحاول أن يجذبك إلى شَرَك ما؟ أو كصديق يدعوك، بطريقته، إلى مأدبة فاخرة. ولمَ لا؟ مثل هذا التصرُّف لا يزال يحدث أحيانًا. وعندما وقفت في أعلى التلّ، غائصًا في الرمل حتّى كاحلَيّ، رأيت الخيمة، في الأسفل، من الجهة الأخرى. انحدرت في اتّجاهها وسمعت ما يشبه تصفيقًا موقّعًا أو ضربًا على آنية طبخ، خافتًا في البداية. وكلّما اقتربت من الخيمة ارتفع الإيقاع. أطللتُ من شقّ الباب ولم أرَ غير الظلام. الظلام أوّلًا، ثمّ عندما انقشعت الظلمة وصارت عتمة محتملة، رأيت المرأة المتوارية تحت الثوب الأزرق، مقرفصةً على ركبتيها ولا يظهر منها غير نتوءات حوافيها الأنثويّة. ثمّ رأيت الرجال الأربعة المتحلّقين حولها في دائرة ضيّقة، كأنّما ليُحكموا حولها الحصارَ. المرأة جامدة في وضعها الغريب، والإيقاع بطيء لا يثير فضولًا، والعتمة لا تساعد على التقدم خطوة داخل الخيمة. تتمايل أجساد الرجال على الإيقاع البطيء نفسه. تزداد شيئًا فشيئًا حدّةُ التصفيق والنقر على القِدر. والمرأة بدأت تتحرّك تحت ثوبها، بالإيقاع البطيء نفسه. تتحرّك وتتحرّك... تخرج شيئًا فشيئًا من سباتها... اجتزت الستار الأسود الذي يسدّ الباب واندسست بين الرجال الأربعة. استمرُّوا يصفّقون بأيديهم على إيقاع النقر على القِدر النحاسيّة، ولا أعرف هل انتبهوا إلى وجودي... وهي؟ المرأة؟ إنّها مستمرّة تتحرّك، كأنّما تتمطّى، أو أنّ هذه هي طريقتها في استقبال النهار، كما تفعل الزهرة وهي تتفتّح تحت شمس الصباح... الأصابع أوّلًا، ثمّ الكفّان اللّتان تغطيهما حمرةُ الحنّاء، ثمّ الذراعان البيضاوان. يرتفع الإيقاع وتتّضح عبارات الأصابع. يبدأ الرأس والجذع رقصتهما الآن، ثمّ تظهر الكتف. جعلنا هذا ننتصب على ركبنا، ونمدّ رقابنا، وأعيننا كائنات مستثارة، يجذبها ضوء البشرة اللّدنة وتيّار الحركات الرشيقة. الأصابع ليّنة، رشيقة، مطواعة... ثمّ الكتفان معًا. أفعل ما يفعلون. نحيط بها. نمدّ أيدينا نحو الجذع المتمايل. نكاد نلمسه ولا نجرؤ. لا نرى الوجه. إنّه تحت الحجاب. كأنّما رحلت وتركت لنا جسدها. أتصوّر العينين النائمتين، الغائبتين، والجذعَ يتمايل على إيقاع النقر. وكأنّما أسكرها هذا الدنق، كأنّما أسكرتها الرائحة التي تفرزها أجسادنا، أو الحرارةُ التي يلفظها جسدها، فبدأت تتخلّص من ثوبها، شيئًا فشيئًا، ومن حجابها. تنضو عنها زرقتها التي أصبحت تثقل عليها، بفعل الحرارة التي تلفّها من كلّ جانب. تستيقظ. تشتعل، مضيئة أرجاء الخيمة؛ مضيئة عتمتَنا الجوانيّة، كاشفةً فجأة عن صدرها اللّدن، الأبيض،

الحليبيّ. بياض صاعق، بياض النهدين، واستدارتهما، وثقلهما... شهقتُ شهقةً لم يسمعها غيري. أنا أشهق دائمًا عندما أشاهد امرأة نابضة بالحياة. كلّ ما يوحي بأنَّ الحياة من هنا تبدأ... قلبي يدقّ. سيخرج من قفصه الآن ويُغمى عليّ. دويّ هادر كالطنين يملأ رأسي... يصيبه دُوار وتصيب عينَيَّ غشاوةٌ. كأنّما لا تتحملان رقصة النهدين المدوَّرين، الممتلئين، الضاجّين بالحياة. وعيوننا ستحترق، لا محالة، إذا استمرَّت معرّضة لهذا المشهد الصاعق. لا أنا ولا هي ولا الرجال الأربعة المتحلّقون حولها. ذلك بأنَّ المرأة استمرت ترقص، غائبةً عنّا وعن أفكارنا؛ غائبةً عن كلّ ما يحدث خارجها، حتّى أُغميَ عليها. رمى عليها أحد الرجال ثيابَها، وحملها خلف الحاجز الذي يفصل الخيمة، وانسحبنا في صمت.

خرجت من الخيمة ليس كما دخلتُ. وأستطيع أن أجزم بأنَّ الهذيانات استمرت تلاحقني بفعل الفراغ الكبير الذي لحق بي بعد مغادرتي الوظيفة. جلست في أعلى التلّ الرَّمليّ أراقب ما يحدث لي، كطير نبت له جناحان ولا يعرف ما يفعل بهما. أغمضت عينَي لأنَّ دوخة خفيفة اعترتني، أو ربّما إنَّ اللّذة الطاغية التي اجتاحتني قبل قليل لم تتجلَّ إلّا الآن، وهي التي تثقل على عقلي وحواسّي، ثمَّ ملأت رئتي بنَفَسٍ عميق من هواء الصحراء، وأحسست بنَفسي على ما يرام. وقلت: أنا على ما يرام. واستقرَّت في داخلي سكينةٌ تشبه الرحمة. مزاجي رائق، وأستطيع أن أتصوَّر حتّى أنّها امرأة تعيسة في العمق. ولمَ لا؟ امرأة لم يعد في إمكانها أن ترقص بهذا الصدر العاري كالصحراء؟ هذا هو الرقص الملائم للصحراء. كلّ ما في الصحراء عارٍ ومكشوف. أصبحت الأشياء الممنوعة كثيرة. وهي تلجأ إلى هذه الخيمة عندما يكون هناك من يعشق رقصها الأصيل. معها حقّ. لا أفهم كيف يصفّق الرجال لامرأة ملفوفة في ثوبها. إنّها طريقة لا تُغري أحدًا: لا الرجال ولا النساء. أمّا أنا، فلم أتعب من النَّظر إلى صدرها، عندما كانت تعرضه كفاكهة لا تنبت في أيّ شجرة كانت. ومن جهة ثانية، لم يختفِ الاضطراب الذي سيطر عليّ وأنا تحت الخيمة. أمضيت وقتًا أتساءل فيه إن كان عليّ أن أعود إلى الخيمة لأرى ما رأيت. أهبط التل، ولا أرى هذه المرَّة خيمةً. اختفت الخيمة. لا أثر يدلّ على أن أوتادًا دُقَّت في هذا الرمل قبل قليل. ولم أجد الأمر غريبًا. أعود إلى مكاني في أعلى التلّ وأنا أركّز، هذه المرَّة، في العينين لأنسى الصدر. العينان ليستا سوداوين، ولا عسليتين. لهما لون البرقوق الطازج. أتفكّر في الفتاة التي رأيتها على الشاطئ قبل أسابيع. إنَّ لها العينين نفسيهما. لم أرَ لون عينيها، وأعتقد أنّهما في لون البرقوق أيضًا. أمّا الآن، وقد استيقظتُ من هذا الحلم؛ أمّا

الآن، بعد سنوات التسكُّع التي أمضيتها في هذه المهنة اللَّئيمة والتي انتهت بالطريقة التي انتهت بها؛ أمَّا الآن وقد انطبع في عينَيّ إلى الأبد بحرُ صدرها العاري، فالأمر محسوم. كلّ شيء تبدَّل، بالنسبة إليَّ على الأقل. موظف في عطلة لامحدودة. لم يقترح عليّ أحد عطلةً، طوال السنوات الستّ التي عملت فيها موزِّع رسائل. لا عطلة الصيف، ولا عطلة العيد، ولا عطلة مرض. لا أحد اهتمّ بي مريضًا أو معافًى. لا نقابة تدافع عنّي إذا تغيَّبت. غيرُ محسوب على مؤسَّسة أو إدارة أو أيّ هيئة أو وزارة. قد أسقط ميِّتًا هنا في عرض الطريق ولا أحد سيهتمّ، ولا أحد سيشعر باختفائي إذا ما اختفيت نهائيًا من على وجه الأرض. لن يقول أحد: ياه، لم نرَ فلانًا هذا الصباح، أو منذ شهر، أو منذ عام. مجرَّد حشرة تدبّ، وأقلّ من حشرة. ومن حسن الحظ أن لا أحد يعرف في أيّ رقعة من الأرض أوجد الآن. وحيد في هذا المدى اللَّامتناهي، مع أفكاري وأحلامي وهواجسي. كأنَّ عالمًا جديدًا لم يكن في الحساب، انفتح أمامي. ورأيت أنَّ أيَّامًا مشرقة على الأبواب. أحسست بهذا بشكل ملموس، ونهائيّ، ولا رجعة فيه. لم أعد في حاجة إلى أكل أو شراب، في تلك اللَّحظة الرهيبة، وأنا أرى اضطرابًا لذيذًا لا عهدَ لي به يستقرّ في داخلي. لم أعد في حاجة إلى عمل. لم أعد في حاجة إلى بَراهيم ومنظماته: أبطال الحرِّيَّة المتوكّلة على اللَّه أو المنظّمات الأخرى التي لم يسمع بها أحد. لم أعد في حاجة إلى أيّ شيء. مسدسه استعاده واستعاد ما بقي لديّ من رصاصاته التالفة، والسلام. انتهينا. والسيد بوزيد، الذي أصبح قائدًا، ولم يعد ينتظر ظهير تعيينه؟ نسيته. انمحى من خريطة فكري. والنساء السابقات؟ خرجن من عقلي نهائيًا. لا يوجد في عقلي الآن غيرُ البنت التي رأيت على الشاطئ. عيناها في لون البرقوق الطازج. والأمر في حدّ ذاته ليس غريبًا بالنسبة إلى الطريق الفقيرة التي سرت فيها حتَّى الآن، والغنيةِ بالأحلام في الآن نفسه. ما أحسّ به، بشكل لا يدع المجال لأيّ شكّ، في هذه اللَّحظة الاستثنائيّة، وأنا في أعلى التلّ، هو أنّني لم أعد أحبّ لا حبيبة من گلميم، ولا كلثوم المراكشية ذات البشرة السمراء... هذه الأخيرة تعرفت إليها وهي ترقص بين عازفَين، واحد على الكمنجة والثاني يضرب على البندير. وسط الحلقة في جامع لفنا، شهقتُ شهقة أضحكت جميع مَن في الحلقة. لا أعرف سبب هذا الضحك. أنا أشهق دائمًا عندما أشاهد امرأة نابضة بالحياة، كشجرة فاكهتُها نضجت أكثر من اللَّازم، ومتهوِّرةً، كأنّما تحمل قلبها على كفِّها لتعرضه على المتحلّقين حولها. هذا ما حدث لي في الحلم، داخل الخيمة، عندما بدأت تتلوَّى أمامي كأفعوان سخاءُ بشرته البيضاء

يُسكر القلب. كانت تنظر إلينا بجسدها بدلًا من العينين الغافيتين. ووضعت يدي، في هذه المرَّة أيضًا، على قلبي وشهقت... وأحسست بتعب شديد وأنا أنزل التلّ.

قد أكون مشيت ساعتين أو أكثر، وكنت بفعل الانفعالات السابقة كالسكران، عندما لمحت ثوبًا أخضر. بريق الحجر تحت شمس الظهيرة كالإبر، يجرح العين. وفي الأفق، على حافَّة الطريق الحجريّ، بين ضفتَي التلال الرمليَّة، والنتوءات الحجريَّة، والصمت الثقيل لبياض الشمس، ثوبٌ يرفرف كالراية. كأنَّما العقل يلعب بي مرَّة أخرى. هل هي امرأة الخيمة؟ مَن غير امرأة الخيمة سيحمل ثوباً بهذه الخفَة؟ حدسي لا يخطئ. كيفما تكنِ المسافة أميِّزِ المرأة من غيرها. أميِّزها من خلال مشيتها، والطريقة الراقصة التي يأخذها ثوبها وهو يتماوج حولها بالتماعات خفيفة. أميِّزها من هالة الرغبة التي نثرت حولها على طول الطريق التي عبرتها. أميِّزها من رائحتها الفريدة التي تتقافز خلفها، تاركة أثرًا لا يمحوه الزمن ولا المسافةُ، بحيث أقول إنَّ رائحتها هي التي تقودني الآن أكثر من لون ثوبها. لا أحب أن أجزم، تاركًا مسافةً معقولة للمفاجأة. مع أنَّ حدسي لا يخطئ عندما يتعلَّق الأمر بأيّ امرأة بيضاء البشرة. أوقفتني المفاجأة والتساؤل لمدة طويلة. أتساءل، في حمّى الهذيان اللَّذيذ نفسه، عمَّا يمكن أن يقود امرأة عزلاء إلى هذا الخلاء لترقص؟ أثوابها ترفرف بعيدًا كحلم خرج من العدم. أثوابها الخضراء ترقص من غير ريح.

منذ خرجتُ من آسا، خلال هذين اليومين، لم أصادف كائنًا حيًّا، ما عدا حمّادي، الجنديّ الذي يحرس بئر الحامية العسكريَّة، والذي أمضيتُ اللَّيلة تحت خيمته، كما يحدث عادة عندما أتنقَّل بين آسا وگلميم. ظلَّت هي هي، بالرتابة نفسها، الامتداداتُ الموزَّعة بين حجارة حمراء وجبال بنفسجيَّة ونتوءات صخريَّة، ما عدا العسكريّ وذَكَرَ الأروي. إضافة إلى امتدادات التلال الرمليَّة التي قطعتُها بعد أن اجتزت الوادي والتي لا توحي هي الأخرى بأدنى ذرَة من حياة. ظلَّ ذَكَرُ الأروي يراقبني من خلف صخرته، ويتساءل إذا كنت سأرميه بحجر أو أطلق عليه النار. قلت له ممازحًا ليس معي حجر أو رصاص... ليس معي سلاح... ها انت شوف... السلاح الوحيد الذي كان معي أعدته إلى بزاهيم... رفعت يدَيَّ عاليًا حتَّى يطمئن. ثمَّ صحتُ فيه مغتاظًا: حتَّى الرَّسائل التي أحملها إلى گلميم اختفت، والجرابُ، وكلّ شيء. أنا تغيَّرتُ، تخفَّفت. لم يزعزعه اعترافي الذي لم أبُح به لغيره... على أيّ، حتَّى لو كانت معي رسائلُ، فلن أعثر بينها

على رسالة تخصّك أيُّها الحيوان... ولم تزعزعه نقمتي. ظلَّ يرميني بشرر عينيه الذهبيتين، ويحرّك خياشيمه كأنّما يشك في نياتي؛ كأنّما يتشمَّم أفكاري الخفيّة، مستمرًا في مراقبة تدحرجي نحو الوادي، غيرَ واثق بصدق نيّتي. ثمَّ عندما اجتزت الوادي ونباتاته البريّة، ظهرت الطريق وبريق أحجارها المتلألئ، الخلّبيّ، والتلالُ الرمليّة المحيطة بها والتي تحاصرها، كأنّما تخاف أن يفيض بريق الحجر ويسيح عليها. وأشجارُ سنط بلا ظلال، موزّعة بغير تنسيق بين هذه التلال الرمليّة. ووسط كلّ هذا المدى المفتوح رفرفةُ الراية الخضراء.

تلك الراية الخضراء التي تتراقص كسراب مرح يتعذّر اللّحاق به. راية تحاكي شبح امرأة يرقص وسط بريق الحجارة المتلألئة. ليست سرابًا. وعلى الرّغم من تعب المشي طوال يومين، والعرقِ المالح الذي يحرق العينين ويضبّب الرؤية، فإنّني أستطيع أن أقول: هذه امرأة. ولكنْ، ماذا تفعل امرأة عزلاء في هذا الخلاء الموحش؟ امرأة موشّحة بالأخضر وتتحرّك بشكل بطيء لا يشي بحركتها. ذلك بأنّني، كلّما اقتربتُ ابتعدتْ، كأنّما تطير، بلا جناحين، بشكل لامحسوس، بفعل قوّة أرضيّة لا تُرى؛ أو تسبح على الرمل، يرافق تقدُّمَها رنينٌ خفيف كقرقعة الحصى. أغذّ السير، إذن. وبقدر ما أتقدّم أرى شبحها يبتعد، يتقلّص، يهرب، كأنّما الرّمال المحيطة آخذة في ابتلاعها شيئًا فشيئًا. ثمَّ أرى أنّني أركض لاهثًا وراءها؛ وراء رايتها الخضراء؛ وراء شبحها الأخضر، ورائحتها الخضراء، وموسيقى القرقعة الخفيفة، الخضراء هي الأخرى، ونثار الرغبة التي ما فتئت تزرعها في طريقها. أفعل هذا من دون نيّة، كما لو كنت أركض وراء أرنب أو هرّة. ثمَّ عندما اعتقدت أنّني اقتربت؛ ثمَّ عندما اعتقدت أنّني أدركتها، تلكأتْ، وتوقّفتْ بشكل مباغت. كأنّما كانت تنتظر بدورها هذه اللّحظة؛ كنوع من التّحدّي السافر، والوقح. وقفتُ أمام ما اعتقدتُه في بداية هذه المغامرة الفريدة رايةً تلعب بها ريحٌ لا وجود لها. فرحتُ لأنَّ حَدسي لم يخب. وعندما دنوت منها أكثر أدارت نحوي عينيها البارزتين وسط ثوب يحجب الوجه والرأس. لم تنظر إليّ، مكتفيةً بنصف التفاتة حتّى أتعرّف إلى عينين في لون البرقوق الطازج، ويرتجّ رأسي ويدور الدم في شراييني بعنف... وخطر في بالي من دون سبب واضح، أن أسمّيها البتول، لأنّني كنت دائمًا أحبّ هذا الاسم، ولم أعثر بعدُ على امرأة تستأهله. وهو أحسن من نجيمة أو كريمة أو حليمة، أو بنت أكّادير التي تصوّرتْ أنّني أتجوّل بمسدّس تحت حزامي، وانتظرتْ أن أشهره في وجوه الشبان الثلاثة الوقحين. سرت على الجانب الآخر من الطريق، على المستوى نفسه، محاكيًا مشيتها.

ثمَّ قلت بعد هذه الخطوة الجريئة: عليّ أن أختار لها زوجًا وبيتًا وعائلة. امرأة بهذه الهيبة لا يمكن أن تكون إلّا امرأة بوزيد؛ الرجلِ الخبيث الذي يتاجر في القمح في گلميم، والذي صار قائدًا بفضل الرّسالة التي حملتها له. ثمَّ التفتُّ إلى جهتها، بعد خطوات أخرى، متسائلًا عمَّا تفعل امرأة بوزيد في هذا الخلاء؟ امرأة لم أرَها خارج بيتها مطلقًا. حتَّى عندما أطرق الباب، تكتفي يدها بإطلالة قصيرة تتلقَّف خلالها الرَّسائل إن كانت هناك رسائل. ماذا تفعل البتولُ، امرأةُ القايد بوزيد، هنا بعيدًا عن گلميم بثلاثة كيلومترات على الأقلّ؟ إنَّها تُشبع رغبتها في خيمة أخرى فيها أربعة رجال. تظهر في البعيد، الحمرةُ الباهتة لبنايات گلميم، بين شتات النَّخل وبياض السماء الشاحب. ماذا يفعل النهدان الأبيضان تحت الثوب الآن؟ إنَّهما يتمايلان كجوهرتين معجونتين من ضوء النهار. وغير هذا، ماذا يفعلان؟ فيمَ يفكّران؟ هل يفكّران فيّ وفي حالتي المستنفرة؟ ومن جانبي، ماذا عليّ أن أفعل وأنا واقف أمامها؟ هل أفتح فمي منتظرًا أن يشرشر الحليب منهما؟ ثمَّ إنَّها لفّت الثوب الأخضر حول كتفها فسطع بياض ساعديها، واستأنفت سيرها كأنَّها لم تَرَني. كأنَّما وقفت لحظة لتتأمَّل الفراغ المحيط، هادئةً، مطمئنة، لامبالية، غير مضطربة بالمزّة. حتَّى قلت بيني وبين نفسي: ربَّما إنَّها لم ترني بالفعل. والقرقعة؟ وهي تتحرَّك أمامي، انحسر الثوب عن كاحلها لأرى المحارات. وأرى أنَّ القرقعة التي سمعتُها ليست سوى رنين المحارات حول الكاحل الأبيض. استعدت هدوئي، شيئًا فشيئًا، وأنا أسير خلفها، ودائمًا على الجانب الآخر من الطريق، حانقًا وساخرًا من تجاهلها المقصود، ومبتعدًا بالقَدر الكافي لأنَّها أصبحت امرأةَ رجل قويّ. هل أرفع صوتي بالصياح كالقرد؟ ذلك بأنَّ وجهي يشبه وجه القرد. ذلك بأنَّني أحاكي جيّدًا صياح القردة. ستكفّ عن تجاهلها المتعمَّد؟ مفكّرًا في أنَّها قد تفرّ مذعورة وتتعثَّر بين الحجارة وتسقط، وأهرع إليها وأرفعها بين يدَيّ وأنا أهدّدها بسبابتي معاتبًا، كما لو كنت وحشًا كاسرًا يعاتب طفلة مشاغبة. ثمَّ أحسب الخطوات التي تفصلني عنها وأنا أقتفي ظلَّها. أفكّر، بعد الخطوة العاشرة، في أنَّ ريحًا ستهبّ علينا من الشرق، وأنَّ حبتَي رمل ستنفذان إلى عينيها وستضطرّ إلى التوقُّف. وسأقترب منها وأمسك بوجهها وأتأمَّل عينيها المغمَّضتين، وجفنيها الأسودين، وأهدابها النائمة، وأتساءل هل عميث، وهي تنتظر أن أنفخ على عينها اليسرى وأنا لا أفعل. أفكّر في القبلة على الشفتين التي ستفاجئها، بدلًا من النَّفخة، وأنا أقهقه. قبلة واحدة فقط. أفكّر فيها عمياءَ، مستسلمةً، مهزومة. أنفخ نفخة في كلّ عين. هل تكفي نفخة واحدة لتزول الدوخة التي تُعميني؟ أنتظر الرّيح

وأقول ها هي ستهبّ الآن. وإذا لم تهبّ حتّى الساعة فلأنّها تحبّ أن تفاجئني. وأعدّ. ولا تأتي ريح. ولا أيأس. ستهبّ بعد قليل؛ أو بعد ساعة؛ أو بعد عامين... ماذا ستقول الآن وهي ترى أنّني لست في حاجة إلى سلاح؟ هذه المرأة لا تنتظر أن يدافع عنها موزّع رسائل، لأنّها امرأةُ رجلٍ قويّ، غاشم. حتّى لو كنت أحمل رسائل الآن فستكون بلا جدوى. إيه نعم، كان هذا عملي، أرادت البشريّة أم لم تُرد.... أفكّر أيضًا في الحظّ، وفي الصدفة. أشكر الصدفة التي قادتني إليك. إنّني مطرود من العمل بسبب رَجلك. وأنا مارٌّ بالصدفة. العثور عليك في هذه الظروف غير متوقّع بالمرّة. صدفة، واللّهِ العظيم. وفي هذه الطريق، وليس أيّ طريق أخرى، وظُهرَ الاثنين وليس ظُهرَ أيّ يوم آخر. نحن في الاثنين ياك؟ في هذا الاثنين وليس أيّ اثنين آخر. في هذه الساعة المباركة وليس أيّ ساعة أخرى. أم إنّه السبت؟ سيكون الأمر مختلفًا لو كنّا في الخميس أو السبت مثلًا... والحيوان الذي قادني قبل قليل حتّى باب خيمتك؟ هذه هي روح الصدفة، وهي لا تتكرّر مرّتين، وعناصرها لا تجتمع إلّا مرّة في العمر... واسمك البتول؟ ورَجلك هو بوزيد اللّعين الذي لا يستأهل شعرة واحدة من شعرك الناعم الذي يختفي تحت الثوب بلا سبب. عليك أن تتذكّري هذا أيضًا، ودائمًا.

لم أنتبه إلى أنّ المرأة التي سمّيتها البتول رفعت إيقاع سيرها، وأنّ المسافة بيننا اتّسعت. بدأتُ أركض خلفها وأنا أقفز كالقرد، وإنّما بلا صوت، حتّى تجاوزتها. رميتها بنظرة جامدة، قاسية، وأنا أمرّ أمامها، حتّى ترى أنّني لا أهتمّ بها ولا برَجلها القويّ، ولا بجنسها، وأنّني أمرّ بالصدفة عبر طريق يمرّ منها الجميع. ولماذا لا أسألها إن كانت تنتظرني حتّى أرى حمرة وجهها تخرج من تحت الحجاب، وحتّى أسمعها تهدّدني، وحتّى أقول لها إنّني لا أخاف منها ومن رَجلها قبيح الخِلقة، سمين البطن، والذي اسمه بوزيد؟ رَجلك هذا لا يخيفني... إيلا بغيتي ثعرفي... رَجلها لم يَرَها عارية تحت أيّ ضوء كان. عاشت بين الغرف. وُلدت وكبرت وطبخت ونامت وضاجعت وأنجبت بين الغرف. ولم يرَ جسدها ولو مرّة في حياته البئيسة... وتظاهرتُ بأنّني أفتح جِرابًا ليس معي، عندما أصبحتُ أمامها، وأبحث في داخله عن رسالة وهميّة، وأقول لها إنّني طرقت بابها ولم يُجبني أحد، لأنّ معي رسالة تخصّ رَجلها العزيز. وأضيف، بين قوسين، أنّني حلمت بها مرّة أو مرّتين تأخذ من يدي الرّسائل ويدها تقطر حليبًا، وأنا أجد الأمر طبيعيًا أن يقطر الحليب من بين أصابعها النّحيفة. وأقول لها، حتّى تظهر حمرةُ خجلها من تحت الحجاب، إنّني رأيتها في الحلم

عاريةً، بلا ثوب يحجب وجهها أو صدرها. ثمَّ بدا من الملحّ أن أقوم بعمل ما، كأن أسقط وأترنّح عند قدميها. إنّني فعلًا شخص مضحك. أمسح قفاي وأقول إنّها تراني الآن بالرّغم منها ومن كبريائها؛ بالرّغم من ازدرائها ونفوذ رَجلها. هذا الرجل، أيًا يكن اسمه، بوزيد أو زعطوط، فإنّه لا يستأهلها. لأنّه قصير ومنتفخ كالبرميل. وثراؤه لن يجعل قامته أطولَ ولا جثتَه أنحف. عندهم ما يكفي من المال ليكونوا سعداء، ولكنّهم ليسوا سعداء. وعلى الرّغم من هذه الأفكار السّوداء، فإنّني أستطيع أن أقول إنّ شيئًا ما تبدّل في داخلي. ولماذا لا أذهب حتّى محلّ الحبوب وأنتظر أن يسأل بوزيد عن رسالة أخرى يكون في انتظارها، وأعتذر إليه لأنّني قدّمت استقالتي إلى وزير البريد هذا الأسبوع... لولا هذا الطارئ لكنت حملت إليك مئات الرّسائل... مع الأسف... وأغتنم الفرصة لأتأمّل سحنته على خاطري؟ أتأمّلها على ضوء وضعي الجديد، وأقرأ فيها تفسُّخ عائلته عمًا قريب.

أنعشتني كلّ الأفكار الجميلة التي عبرت خيالي خلال الكيلومترات الثلاثة الأخيرة، كما لو كنت في حاجة إليها لتستمرّ الانفعالات الشيّقة في الوتيرة نفسها. ضحكت بصوت مرتفع، ثمّ بدا لي أنّ ما قمت به غريب، وشائن، مخزٍ، ومثير للاشمئزاز، ومثير أيضًا من ناحية أخرى. لماذا شهقتُ مرّة أخرى؟ فعلت ذلك من دون أن أشعر، ككلب عوى لأنّ العواء من طبعه... الآن وقد أدّيتُ دور المهرج ما يكفي من الوقت، أمام امرأة لا تربطني بها علاقة، ولا يربطني بها شيء؛ لم أرَها في حياتي؛ امرأة لا وجود لها. الآن، وبعد أن وصلت إلى گلميم؛ الآن وقد عبرت باب القصبة، وبقي صدى حفيف ثوب لا وجود له يرقص في رأسي، وفي أنفي العطرُ الضاجُّ الذي يفضح بياض بشرتها، وفي أذني الرنينُ الصافي لعقد المحارات في كاحلها الأيمن... الآن وقد اختفت المرأة من وجودي بشكل نهائيّ، بقيتُ واقفًا في عرض الطريق كغريب ينزل في هذه المدينة لأوّل مرّة. ولا أجد في نفسي الهدوءَ الذي خرجت به من آسا وعبرت به طريقًا طويلة. والدّليل هو الأسى الذي يستولي عليّ الآن، وأنا أقف في عرض طريق مُثرِبة وأرى أنّني لا أستطيع التحرّك. أنتظر ولا أعرف ماذا أنتظر، ويداي فارغتان كأنّما ضيّعتا شيئًا ثمينًا لا تعرفان ما هو...

توقّفت في گلميم تحت باب القصبة. أنعشني ظلّ القوس الذي وقفت تحته وبرودة الجدار الذي اتّكأت عليه، فهدأت فورةُ خيالي. أستطيع أن أتخيّل ما أشاء، وأنا في الحالة النفسيّة التي أجدني فيها هذا النهار، وحتّى أن أرى امرأة عارية الصدر ترقص أمام الرجال الأربعة

الملثّمين وهم يتهادون على إيقاع حركاتها البهيجة. لا بدّ من أنّهم عادوا إلى صحرائهم وفي عيونهم قَبَس من نورها، وفي قلوبهم قطعةٌ من بهائها. استمرزتُ واقفًا تحت باب القصبة، عاجزًا عن الحركة بسبب التعب الذي نزل عليّ فجأة. أستريح وأفكّر وأتفرّج على عصفور يقفز بين أرجل الموائد في المقهى المجاور. معه كلّ الحقّ في أن يقفز ويغرّد ويطير لأنّه في صحّة جيّدة. ريشه يرتعش بفعل الرّيح. فتحت عينَي وأدركت أنّني نمت واقفًا. وهذا لم يحدث لي من قبل.

مساعد ضابط الاستعلامات
الذي يسمّى إدريس الثاني

الأربعاء 7 مايو 1958

يسمّيني إدريس الثاني ليس لأنّه أكبر مرتبةً كما يحلو له أن يدّعي، وإنّما لأنّه فرض عليّ هذا الاسم بطريقة من الطرائق، حتّى يتباهى أمام الناس. يعتقد أنّني، بترديدي هذا الاسم، إدريس الأوّل، إدريس الأوّل، سأنتهي بأن أهضمه، وأقتنع به، وأرضخ له، وأتعامل معه كشيء طبيعيّ، كأمر واقع. أنا أدرك هذا تمامًا، وأتعامل مع إدريس هذا على قدر عقله. لا أعتقد أنّ هذا النوع من البشر يستأهل تقديرًا أو احترامًا من أيّ نوع كان. ولكن الأمر على هذا النحو أحسن في نهاية المطاف. حتّى لا نخلط بعضنا بعضًا، أو تختلط علينا أسماؤنا. في الأساس، حتّى لا يأخذني الاخرون على أنّني هو، في انتظار أن أحلّ محلّه قريبًا، عند أوّل هفوة، إن شاء اللّه. مع أنّني لا أحبّ أن أكون هو، في أيّ وجه من الوجوه. أتكلّم على شخصه. إدريس الأوّل قصير القامة وعيناه قبيحتان، خضراوان كعينَي الثعلب، وأنا لا أشبهه، ولا أحبّ أن أشبهه. إدريس الأوّل هو أصلًا من مراكش، وهو يعتقد أنّه يعرف المدينة حجرًا حجرًا. والنتيجة؟ نمضي يومًا كاملًا في أحد الأحياء التي اختارها بلا مبرّر، نطوف فيه، وعلى أكتافنا زربية أو أكثر. نفلّيه من أقصاه إلى أقصاه، ثمّ يختار محلًّا معينًا ويجلس يتحاور مع صاحبه ساعتين كاملتين، لأكتشف في النهاية أنّ صاحب الحانوت كان يحكي له عن جدّه الذي كان يبيع الصابون البلدي في هذا المحلّ قبل خمسين عامًا، أو عن جدّته التي كانت تغزل الصوف في هذه الخوينيتة. لا هو باع زربية، ولا أخذ معلومة مفيدة. ولهذا، لم نكن لنحصل على نتيجة ملموسة منذ وصلنا لولا طريقة عملي. لم نتقدّم خطوة واحدة على الرّغم من كلّ الأحياء التي فتّشناها لأنّ الأماكن التي جلسنا فيها لا علاقة لها بالرجل الذي نبحث عنه، ولا رغبة للناس في شراء الزرابيّ. ولو أنّها زرابيّ أصيلة من الخميسات أو تازناخت، فلا أحد يهتمّ بها. كلّ ما قمنا به خلال هذين الأسبوعين لا جدوى منه في نهاية المطاف. حتّى عثرنا، بفضل جهودي الخاصّة، على الرجل الذي وجهنا نحو المؤسّسة. لهذا قلت: لولا طريقة عملي. لماذا لم تخطر في باله فكرة الذهاب إلى المؤسّسة، مع أنّ هذا هو ما كان علينا القيام به قبل أيّ خطوة؟ ويقول في النهاية إنّه الشاف. الشاف ديال آش؟

يقول إنّني لم أفكّر في دوري في المؤسّسة عندما أواجهه بهذه

الحقائق الملموسة. هذا لا أعتبره خطئي. لا أعتبره خطأ أصلًا، لأنَّ عملنا قائم في الأساس على التدقيق والتَّحرّي الوافي. والخطأ هو الأساس في هذا النوع من العمل. لأنَّ الطُّرق الخاطئة هي التي تُفضي في النهاية إلى الطريق الصَّحيح. أليس كذلك؟ هكذا كان الأمر، وهكذا سيظلّ، في هذا النوع من العمل. ولكن إدريس الأوَّل لا يحبّ أن يُقرّ بالأمر حتَّى يحتفظ بامتيازه الوهميّ. منذ نَصَّب نفسه «شاف» من دون حقّ، وحتَّى يبقى ما يعتبره امتيازًا انتشاءه الوحيد. أفكّر في كلّ هذا، ونحن نفطر في بهو الفندق. لا أعرف فيما يفكّر إدريس الأوَّل هذا الصباح. فهو ساهِمٌ وينظر إلى الكأس بين يديه بعينين اختفى منهما كلُّ بريق. ويبدو، بعينيه المنطفئتين، كأنَّما لم يَنَمْ طوال اللَّيل.

كُلْ.

ما عنديش الخاطر.

يتكلم بصوت غير الصوت الذي كان صوتَه بالأمس قبل أن ينام. وعندما سألته: ما لك؟ لم يردّ. لم يفتح فمه. بدا كما لو أنَّه يعاني جراء مجزَّد محاولة زحزحة فكّيه. كثرة اللَّحم التي ابتلعها بالأمس هي التي أتت على مناعته. أكل إدريس الأوَّل رأس خروف بالكامل، بالعينين والأذنين والفروة. وتفوح من فمه هذا الصباح رائحةُ الشياط. واحد يأكل هذه المزبلة لا بدّ من أنَّه سيسقط مريضًا. سألته هل آخذه إلى المستشفى. قال إنَّه يفضِّل أن نذهب إلى المؤسَّسة. وبدلًا من المؤسَّسة قفز نحو المرحاض. وهكذا، فإنَّ مرضه جاء نتيجة عناده. نتشاجر، للمرة الثانية هذا الصباح، لمعرفة مَن خطرت في باله فكرةُ المؤسَّسة؛ المكانِ الذي قد نعثر فيه على الرجل الذي نبحث عنه، والوحيدِ الذي سيدلّنا على العبد الناقص في لائحة القصر المَلَكيّ. (لولا صاحب الكلب الأسود الذي تعرَّفتُ إليه في بار شهرزاد بطرائقي الخاصَّة لما وصلنا إلى أيّ نتيجة.) وها إنَّ ربّنا يجازيه بأن سلَّط عليه إسهالًا أتمنَّى أن يستمرّ حتَّى لا نتيه في الطريق كما تهنا في مراكش، لأنَّ إدريس الأوَّل لا يعرف المدينة كما يدّعي. والمثير للشفقة وللسخرية معًا، هو أنَّه يعتقد أنَّه بائع زرابي حاذق، وهو لا يعرف حتَّى نوعية الزربية التي يحملها على كتفه. وبدلًا من أن نبدأ بحثنا عن العبد الناقص من المؤسَّسة، مكثنا نتجوَّل في مراكش خمسة عشر يومًا كالعاطلين. وجاء الإسهال نتيجة نيَّته الناقصة أيضًا. هذه هي الحقيقة. والجدال العقيم نفسه الذي لا أساس له مستمرٌّ ونحن في الحافلة التي تأخذنا إلى مسفيوة، وهو يمسك بطنه بيديه، زامًّا شفتيه في تكشيرة قبيحة... لماذا لم نفكّر

في المؤسّسة... إنّنا نبحث عن المدير، وليس عن مؤسّسته... وأين سنعثر على المدير إذا لم نعثر عليه في المؤسّسة... وهكذا طول الطريق: هل نبحث عن المؤسّسة أم عن مديرها؟ لن نجد المدير إذا لم نجد المؤسّسة. لا يسكن المدير في المؤسّسة بالضرورة. لا توجد مؤسّسة بلا مدير، ولا توجد مؤسّسة بلا حارس أيضًا. ما علاقة الحارس بالمدير؟ وتزهات أخرى غرقنا فيها حتّى الباب عبر طريق ترابية طويلة ومحفوفة من كلا جانبيها بنبات الصبّار، بلا فاكهة. موسم التين الشوكيّ لا يزال بعيدًا. لو كنّا في الموسم لاقترحت على إدريس أكلَ ما عليها من فاكهة حتّى يلزم الفراش بشكل نهائيّ. وقفنا أمام المؤسّسة المغلقة الأبواب، ولم نعثر على أحد نسأله، ولو حتّى على عابر يعطينا إشارة إلى أنّ المؤسّسة لا تزال تعمل، أو توقّفت عن العمل. البناية مغلقة، مهجورة، كأنّ أحدًا لم يسكنها في يوم من الأيّام. الباب الحديديّ مغلَق وعلاه الغبار وشبكات العناكب علق بها ذبابٌ جفّ بلا جدوى. وبقينا لمدّة نراقب، من بعيد، نوافذَ البناية الموصدة، كيتيمين. وكي أجعله يعتقد أنّه هو الرئيس، سرت محاذيًا السور وأنا أقفز كلّ خطوتين لأرى إذا كانت في الداخل ذرّةُ حياة. وعندما التفتُّ إلى جهة إدريس الأوّل رأيته يجري ويختفي خلف السور. ازدادت حالته سوءًا. ومشقّة المجيء حتّى هنا ليست فكرتي في كلّ حال. ها هي المؤسّسة. وها نحن واقفان أمام بابها. وبعدُ؟ ثمّ عاد وهو يحزم سرواله، ويداه على بطنه.

نْقلبو على شي بيت لما؟

فين؟

هنا... يبدو أنّ إدريس الأوّل قد ضيّع آخر خيط يربطه بالواقع. والواقع هو أنّنا في الخلاء، أمام بناية مغلقة الأبواب. أين تريدنا أن نعثر على مرحاض في هذا الخلاء؟ وهو واقف ينظر إلى قدميه، زامًّا ما بين ساقيه حتّى لا تخرج قذارته من تحت السروال. وعلى وجهه تكشيرةٌ تشبه حالة البكاء. إنّه يشعر بالخجل. انهارت دفعة واحدة نظراته المتعالية، في الأساس، عندما تراجعت إلى الوراء خطوتين، حتّى أجعله يعتقد أنّني شممت رائحة إفرازاته المقزّزة. هذه إحدى مزايا الإسهال. صار دفعة واحدة متواضعًا، بئيسًا. ولا أعتقد أنّه سينهض من كبوته قريبًا. قلت له هل تريد، يا صديقي إدريس الأوّل، أن أحملك على كتفيّ حتّى أعثر لك على مرحاض يليق بك؟ التفتُّ إلى جهة الطريق. هذا هو إدريس الأوّل: رجلٌ سيّئ النيّة؛ سيّئ النيّة في كلّ المناسبات.

تنعطف الطريق متّجهة صوب أوريكا، قبل أن ينتهي خط الصبّار. تنتصب عند المنعطف معصرةٌ، بين ظلال الزيتون. صاحبها هو الذي أخبرنا بأنَّ المؤسّسة نادرًا ما تفتح، وأنَّ السي المقري؛ المديرَ الذي نبحث عنه، عاد من الحجّ قبل يومين فقط. ليس الحجّ الذي تعرفونه، بل حجّ المساكين. هل تعرفون حجّ المساكين؟ في نواحي عبدة يوجد الوليّ سيدي كشكال. ومَن يُرِد أن يحجّ بثمن زهيد، وبلا تعب المسافات، وبلا طقوس معقّدة، يقصده. وقدّم إلينا خبزًا وصحنَ زيت، وهو يقول هذا خبز سيدي كشكال. وهذا زيتون سيدي كشكال. وراح يعدّد منافع زيت الزيتون، وأنّه يعالج الأمراض جميعها، بما فيها الإسهال، وأنّه مذكور في القرآن... وفهمت، بعد حديثه الطويل، أنَّ الرجل الذي يقف أمامنا هو المدير الذي نبحث عنه، وأنّه يتكلّم على نفسه كما لو كان غائبًا حتّى لا نطالبه بأيّ عمل، وحتّى لا يقوم بأيّ مجهود، قبل أن أدرك أنّها طريقته في الكلام. قد يكون في الستّين. يلبس وزرة زرقاء يمسح بها يديه قبل أن يتكلّم... لا يفتح السي المقري المؤسّسة لأيّ كان... ولكن بالنسبة إلى شخصين مثلكما، جاءا من العاصمة، بقي إدريس الأوّل عند الباب ممسكًا ببطنه وغير قادر على التقدُّم خطوة، وأنا أتعمّد إطالة الحديث... أتمنّى لصاحب المعصرة أن يكون محصول زيت الموسم القادم في الجودة نفسها حتّى نتمتع جميعًا ببركة سيدي كشكال. وإنَّ الله منح زيتونه هذه الجودةَ لأنَّ الحجّ من دون تكاليف حجٌّ مبارك دائمًا... وكثير من الترّهات التي أُحسن نسجَها أحسنَ من إدريس الأوّل... ثمَّ أشرت إلى إدريس بأن يدخل بابًا في قاع المعصرة، مكتوبًا عليه بيت الراحة. وأعتقد أنّه لن يفتح فمه بكلمة بعد الآن. على الأقلّ خلال يومين أو ثلاثة لأنّني أعرف ما في بطنه.

لا شيء يدلّ على أنَّ عملية خصاء العبيد المتوجّهين إلى القصر المَلَكيّ كانت فعلًا تتمّ في هذه القاعة. القاعة رماديّة وكئيبة، تشبه مكاتب الكوميساريات. ويلزم عدّة دقائق لتتوضّح الرؤية. قاعة تجمّعت على أرضيّتها طبقةٌ سميكة من الأوساخ. سرير اسودّ وعلته قشرةٌ تشبه الصدأ تتدلّى من جوانبه عدّةُ أحزمة. دولاب حديديّ؛ مغسلة؛ صنبور؛ والكلّ في آخر مرحلة من التفسّخ. والروائح؛ الفورمول والدواء الأحمر والرطوبة وروائحُ أخرى غامضة تشبه رائحة الكافور من دون أن تكون كذلك. وربّما هي رائحة صياح العبيد الذين تمّ إخصاؤهم في هذه القاعة. وفي الزاوية عدّة ملفات مغبرة مكدّسة، بعضها فوق بعض. المدير السي المقري مُنكبّ على الملفات ينفض عنها الغبار... اختفى الرجل الذي يعصر الزيتون وحلّ محلّه دليلٌ سياحيّ: هذه المؤسّسة قديمة، تعود إلى القرن التاسع عشر.

أغلقت أبوابها مدّة طويلة، ولمّا فتحتها قبل تسع سنوات، جاؤوا بالسي المقري لحراستها... عائلات من الرباط وفاس كانت ولا تزال متخصّصة بتزويد القصر المَلَكيّ بالعبيد. هذه العائلات هي التي اشترت المؤسّسات القديمة المتخصّصة بإخصاء العبيد المتوجّهين إلى القصر، وشغّلتها من جديد. وأكبرها هذه التي نحن فيها الآن. كثير من هؤلاء العبيد المحظوظين يعملون في القصر الآن... ثمّ وضع السي المقري عدّة ملفّات جانبًا وهو يسأل: اسمه فرج قلتو؟

نعم، فرج هو اسمه. ولكن السي المقري يقول لكما إنّ هذا الاسم قد يكون موجودًا في اللّائحة فقط، لأنّ أسماء العبيد تتبدّل، بحسب هذا السيد أو ذاك. فرج... رجب... حمّان... دحمان... أسماء العبيد تتبدّل... كلشي مسجّل هنا... ويغتنم الفرصة ليمزّق الكناش الذي لا يعثر فيه على الاسم ويرميه خلفه، ثمّ... لا يقوم السي المقري بهذا العمل مع أيّ كان... ولكن حينت جيتو من العاصمة... كلشي مسجّل هنا... حتّى حاجة ما كتضيع هنا... جئتم من العاصمة وتقولون إنّ لائحتكم ناقصة... ويعود إلى الأوراق الممزّقة... فرج... فرج... ويحكّ أذنه ويُغمض عينيه في حالة تركيز قصوى. ثمّ أخيرًا، وهو ينفض الغبار عن ملف آخر ويفتحه وتسقط منه عدّة أوراق... وصراصير... وفئران: نعم، هذا الولد مسجّل عند السي المقري... لا يضيع حرف في كنانيش السي المقري... وضع الملفّ فوق السرير وقلب عدّة أوراق وهو يقول متفلسفًا: لا يساوي الإنسان أكثر من الطريق التي عبرها. ثمّ ينفض التراب عن ثيابه ويديه كأنّما أنهى عرضًا ضروريًا، ليقول في النهاية: الولد الذي اسمه فرج لم يصمد في العمليّة ومات، قبل سنة ونصف سنة... اللّه يرحمو... لم يصمد فرج في العمليّة ومات... كان هنا... هذه آخر عمليّة قام بها السي المقري قبل أن يذهب إلى الحجّ في تلك السنة... إنّه يسافر إلى الحجّ كلّ عام... ليس الحجّ الذي تعرفونه... هل تعرفون حجّ المساكين؟ حجّ المساكين يدوم عشرة أيّام... كان من الممكن العثور عليه حيًا لو وصلنا قبل سنة ونصف سنة... وسأل أين كنّا طوال هذه المدة...

مسكين... اللّه يرحمو... ثمّ فتح الدولاب ووضع أمامنا الكرتين الصغيرتين المكمّشتين: بيضتيه... بيضتَي فرج... تعومان في قارورة صغيرة من الفورمول. وهو يقول هذا ما تبقّى منه. خصيتاه... ثمّ راح يفتح القمطرات ويرمي بالقناني على الأرض. وتختلط الخصيتان بالفورمول والدم وجثث الفئران النافقة وقشرة الأوساخ السميكة، وسط

غيوم من غبار ترتفع عن الأرض وتغلّف المدير وأشياءه، في دفعات متلاحقة... ثمَّ ينحني عليها ليداعب خصية وراء خصية، وينتحب: مساكن... مساكن... ويرفع نحونا عينيه، بين لحظة وأخرى، وهو يحرّك رأسه الأصلع، الصغير، كشخص لا يصدّق ما يرى... ربّما كان يبكي...

وهكذا، مرَّ أسبوعان من الدوران، مثّلنا فيهما دور بائعيَ الزرابي، وطفنا أحياء كاملة بزرابي ثقيلة على أكتافنا بلا نتيجة؛ أو بهذه النتيجة الضئيلة: خصيتين تسبحان في قارورة فورمول وضعها إدريس الأوَّل في جيبه، كأنّما عثر على بغيته. ثمَّ أشار علينا المدير، وهو يرى خيبتنا، بالذهاب إلى گلميم. لماذا گلميم؟ عنده أخ يشبهه... اسمه؟ اسمه نافع... يوزّع الرَّسائل بين أگادير وگلميم... يمكن العثور عليه بسهولة... لاخز ماث... فرج الذي تبحثون عنه مات. موزّع الرَّسائل هو الحلّ. هو الذي يستطيع أن يملأ الثغرة الموجودة في لائحتكم... والسلام. وهكذا، عثرنا على المؤسَّسة، وعلى حارس المؤسَّسة، وعلى مدير المؤسَّسة، بلا نتيجة، لأنَّ لا أحد في مكانه في هذه البلاد؛ أو بهذه النتيجة الضئيلة: عنده أخ يشبهه ويستطيع ملء الثغرة الموجودة في اللَّائحة... وغدًا، أو بعد غد، سيقول إدريس الأوَّل إنَّه صاحب فكرة السفر إلى گلميم.

موزِّع الرَّسائل الذي يسمَّى الرقَّاص

الخميس 8 مايو 1958

صرت أفهم كلامها المبتور في وقت وجيز. أفهم نيّاتها لأنَّ الكلام عندها لا يُعَدّ ضرورة. صرت أنطق مثلها الراء لامًا، واختفى من لغتي حرفُ القاف تمامًا. أذرع الخيمة في انتظار وصولها وأنا أقول ضاحكًا: كنغلف بدلًا من كنَعرف، والطليي بدلًا من الطريق، كما قالت عندما خشيتُ ألَّا تتبيَّن الطريق إلى خيمة حمّادي. ولكنَّها ألحَت: كنَعلف الطليي... كنَعلف الطليي... هل أفلحتُ في العثور على الطريق؟ أتصوَّرها أحيانًا جادَّةَ السير نحو هدفها، تقودها حاسّة لا يملكها غيرها. وضائعةً أحيانًا بين كثبان الرمل. بالأمس، عندما وقفت أمامها، في ذلك المنعطف الضيّق، متعجِّبًا مبهوتًا، فكَّرت أوَّل ما فكَّرت في لون بشرتها الذي سيتبدَّل لمجرَّد أنَّ عينَيَّ وقعتا على كتفها العارية. وبقيت متردِّدًا، متجاهلًا إيَّاها، أتعرَّف إليها شيئًا فشيئًا، قطعةً قطعة: تنُّورتها الحمراء، القصيرة، مكشوفة الذراعين. والساقان الراقصتان على إيقاع المحارات التي تسوّر كاحلها. والكعب الأحمر الذي رسا في ذهني خلال فترة سابقة. وخفضت بصري قليلًا، حتَّى يدخل بياض الكاحل عينَيَّ ويستمرّ متلألئًا الوقتَ الكافي لأعدّ نفسي وأستأنس. وحتَّى أتحاشى المشهد الغريب، متماديًا في تجاهلي، ومشدوهًا وأنا أقول إنَّ العثور عليها في هذا الوقت، وفي گلميم بالذات، سيكون أمرًا خارقًا. وحتَّى عندما عرفتُ أنَّها الكسوة نفسها، والمحارات نفسها، لم يهتزّ قلبي أكثر من المعتاد، منتظرًا أن تنطق الراء لامًا لأتأكَّد. لم أندفع نحوها، كما فعلت في أگادير، في ذلك اليوم الذي تبدَّل فيه لونُها، ونحن على المرتفع المطلّ على الميناء. حتَّى وأنا أتعرَّف إليها، فكَّرت في كلّ الصور القبيحة التي قد تجعل نظرتي إليها مختلفة... كان عليَّ، في ذلك النهار، أن أهرب بثيابها. أتركها على الشاطئ عاريةً، كما ولدتها أمها، وبشرتُها البيضاء تُشوى تحت لهيب القيظ. فيمَ سينفعها بياض بشرتها ولمعانُها وهي تجري مذعورة، ولا تجد حتَّى مَن يسترها؟ وليس كما تقف الآن، هادئةً مطمئنة، في زنقة ضيّقة، غارقةً في صمت الظهيرة السَّميك والحارّ. وكما لو أنَّها تقول بقيتُ في المراقبة، الوجه ثمَّ بياض الذراع ثمَّ العنق والجبهة. هل أضع إصبعي على كتفها العارية؟ لن يمضي وقت طويل حتَّى تبدأ البشرة تحوُّلَها، كما حدث من قبل. لم تتردَّد يدي مع ذلك. تتقدَّم بحذر. ولما اقتربتْ، لم تزَ تغييرًا ولم تشعر باهتزاز التجربة السابقة. ثمَّ حطَّت اليد على الكتف. ولم تعد الأصابع تفكّر في التراجع، أو تتوقَّف في منتصف

الطريق. وقلت إنَّها على هذا الأساس تفكّر فيّ الآن بطريقة مغايرة.

وصلتُ إلى الخيمة في نهاية الصباح. رغبت في الوصول قبلها حتَّى يتسنَى لي أن أنتظرها وأتلذَّذ قليلًا بحرقة الانتظار ولهفة الترقب ومتعة الوصول. ذهب حمادي لزيارة زوجته في طاطا. نظفتُ الخيمة ورتَّبت ما فيها من أثاث قليل ورفعت حوافّها حتَّى أرى الامتدادات الذهبيَّة المحيطة بي، وأتصوَّر قدومها كما لو أنَّها ستفيض عليّ من كلّ الجهات. خيمتي منصوبة في عرض المحيط، وتتساءل هي الأخرى من أيّ جهة ستشرق سفينتها. جلستُ أتدرَّب على اللُّغة الجديدة، المبتورة. بترتُ حرفين، إلى حدّ الساعة، وبدا لي ما أقول مفهومًا. بترتُ حرفًا ثالثًا ولم يتغيَّر المعنى. وقد أستمرّ حتَّى لا يبقى غير سبعة حروف، العدد الضروريّ ليتحوَّل الكلام إلى موسيقى. وحتَّى أقطع الخيط الوحيد الذي لا يزال يربطني بالآخرين، أيًّا يكن لون بشرتهم، حتَّى يزول عدم الارتياح الذي يشلّ فكري منذ عدت إلى گلميم. عدم ارتياح شامل. حالة أقرب إلى الانهيار. كان يومُ أمس اليومَ الأسوأ. قبل أن ألتقيها في أحد المنعطفات، هل كانت بدورها تبحث عنّي في حيّ السود؟

كنت كلَّما اصطدت عصفورًا، عندما كنت صغيرًا، أضعه في صندوق خُضَر مغلَّف بشباك من السلك. أعود إلى السطح في الغد لأجد العصفور ممدَّدًا على جنبه أو بقائمتين معلَّقتين في الهواء. لا أحد من تلك العصافير نجا. لا أحد منها امتدَّت حياته حتَّى آخر النهار، لأنَّ العصافير مخلوقة لتبقى طليقة، خارج أيّ صندوق أو جدار أو تجمُّع سكني، ومن دون أن تكون مهمَّتها في الأساس توزيع الرَّسائل. أمضيت نهار الأمس أمشي في أزقة گلميم كما لو كنت أتحرَّك داخل الصندوق نفسه المسيَّج بأسلاك الحذر والتوجُّس والاستياء، واللَّاجدوى. كشخص لم يعد ينتظر شيئًا. لا يهمّ أن ألوي عند هذا المنعطف أو عند المنعطف القادم؛ أن أجلس في هذا المقهى أو المقهى الملاصق للطاحونة. لن أسلّم رسالة إلى أيّ كان. لن يعرف هذا الرجل الذي يمر أمامي أنَّ ولده سيتزوَّج في الشهر المقبل؛ أو أنَّ الفيضان أتى على محصوله الزراعيّ. ولن تعرف هذه المرأة أنَّ ولدها البكر سيعود من الخارج بعد خمس سنوات من الغياب. ستخفى أمور كثيرة عنهم ابتداءً من الآن، كما خفي عنهم أنَّ بوزيد تسلَّم ظهير تعيينه، وأنَّه سيأتي غدًا ليأكلهم ويجفِّف منابع رزقهم، من زقاق إلى زقاق، مخترقًا الساحة، ومكتشفًا أنَّ لا أحد يعرفني ويقف للسلام عليّ والسؤال عن أحوالي. أتوقَّف كسائح يدخل المدينة لأوَّل مرَّة؛ سائح من فندق السلام في أگادير

مثلًا وجاء ليتعرَّف إلى مدينة تاريخيَّة سمع بها، اسمها گلميم. أتحايل على نفسي وأقنعها بأنَّني لا أعرف هذا الجزء من المدينة. أقتحمه وأقول للسيَّاح الخياليِّين، الذين يسرحون إلى جانبي، إنَّنا نقوم بمغامرة استثنائيَّة هذا النهار ونحن نتعرَّف إلى حيّ السود، فأوقِدوا مصابيحكم لأنَّ الظلام يخيِّم عليه حتَّى في عزّ الظهيرة. وقد تسقطون لأنَّ الأرض محفورة. هذا حيّ لا يمكن مغادرة المدينة من دون زيارته. ستبقى رحلتكم ناقصة من دون إطلالة، ولو سريعة، على هذا الحيّ، حيّ السود؛ هذا المَعلَم التاريخيّ. كلّ تاريخ المدينة هنا، خلف هذه الجدران، كنهاية لا تكتمل الرحلة من دونها. الأزقة الضيّقة والدهاليز المعتمة التي يسكنها السود. لا جنس غير الجنس الأسود. يحلّ اللَّيل بمجرَّد الإطلالة عليه. حيّ كامل لا يسكنه غير السود، كما هي الحال في زاكورة أو وارزازات، وفي كلّ المدن التي مرَّت بها قوافل العبيد تجرّ أغلالها وسؤالها الأبديّ في العيون: لماذا؟ كما هي الحال في الحكايات الشعبيَّة. بعافية تخضّهم وأمراض تخضّهم. وروائحهم والثياب السَّوداء التي تغلفهم. يخيِّم الظلام خارج البيوت وداخلها. منفيون، مختبئون، كأنَّما يخجلون من ماضيهم ويخشون أن يُباغتهم حاضرُهم. الحياة تسبح في ليل طويل. ثلاثُ نعاج وأطفالٌ عراة بعيون يسدّها الرَّمد، ونساءٌ عند عتبات البيوت يغزلن السَّواد. وكثيرٌ من الذباب. كلّ شيء أسود مظلم. وأزيز الدعائم التي تشدّ السقوف، لا أتصوَّر أنَّ الأمور ستستمرّ على هذا النحو إلى ما لا نهاية. أقولها حتَّى أخفِّف الكآبة التي غشيت وجوه السيَّاح، وهم يهزّون رؤوسهم. نمشي أنا والسيَّاح الخياليُّون حذرين حتَّى لا يسقط السقف. أقول: احذروا السقوف. إنَّها واطئة جدًّا. مجرَّد مرورنا قد يعجّل في سقوطها فوق الرؤوس. نخرج من حيّ السُّود. وللتَّخفيف من وطأة الظلام على أرواحهم الهشَّة، أسألهم: هل ندخل سوق التوابل الآن، أم نتركها لمغامرة قادمة؟

ثمَّ أقول: سأجرب الجلوس على دكَّة الطاحونة أو المقهى الشعبيّ، بين البشر، وأرى ما سيحدث. لن يحدث شيء. وأنظر بدوري إلى حيث ينظرون؛ الجهة التي ظلُّوا ينظرون إليها طوال هذه السنوات: الساحة؛ حوانيت الخياطين وبائعي الأقمشة؛ فندق الحظّ السعيد؛ حوانيت تجار الشاي بالجملة؛ مقهى آخر، والجبال في الخلف. لا شيء يستأهل أن تمضي عمرًا كاملًا وأنت تحدّق فيه. جالسون في الوضعيَّة نفسها التي جلسوا فيها قبل ثماني سنوات، ينظرون إلى الجهة نفسها، بالترقُّب والانتظار نفسيهما، وببلاهة العيون ذاتها، وبالجلباب المتَّسخ ذاته، وتحته ياقة القميص نفسها التي اسودَّت من القذارة. خلال السنوات الثماني التي

أمضيتها أركض بين المدن والصحاري، والأودية والجبال، لم يجتمع على كلّ ملابسي ما يجتمع الآن على قميص واحد من عفونة وأوحال وبؤس. ربّما ينتظرون أن تبتلعهم قذارتهم، أو تأكلهم من الداخل، شيئًا فشيئًا، من دون أن ينتبهوا، كما تفعل العثّة في الخشب، شيئًا فشيئًا، حتّى يتفتّتوا ويضمحلّوا، ويستمرّ حقدي عليهم إلى الأبد.

إنّني في صحّة جيدة. في إمكاني أن أرفع ثورًا فوق ظهري أو أن أكسر خابية بضربة واحدة من رأسي. ولا أسير مطأطئ الرأس، أو أقف موليًا وجهي إلى الحائط حتّى يمرّ الآخرون كما ظلّ الوالد يفعل؛ الرجل الذي نسمّيه بابا. واستمرّ مطأطئ الرأس بفعل العادة. لا أهتمّ بأيّ كان. كنت أشتغل عند القايد بوزيد إن كنتَ لا تعلم، وأقرأ رسائله بالمقلوب حتّى يستمرّ في اعتداده بجهله. واشتغلت عند القايد دخمان قبل أن يغتاله الاستقلاليّون شديدو بياض البشرة. ولستُ مجبرًا على ردّ السّلام على أيّ كان. وأنتظر بنتًا بترتْ حرفين من لغتها حتّى لا يشبهها أحد، وحتّى لا يفهمها أحد. وسأفهمها عندما ستتكلّم على قلبها أو روحها. لن أكون في حاجة إلى كلام عندما ستعرضهما عليّ، عندما ستضعهما على كفّي وتكون حروفي القليلة كافية لأقرأهما. وأنتظر في خيمة حمّادي أن تظهر. وبعد العصر لم تظهر. وبعد العصر لم تظهر في الأفق راية أو سفينة. لا رايةٌ ترفرف في الأفق كما رفرفت في خيالي مرّات عديدة وأنا أعبر الصحاري، ولا نتوء يخدش الامتدادات الناعمة للرمل. جلبت الماء من بئر الحامية العسكريّة، وشربت وخلعت قميصي وغسلت رأسي، وجلست على الرّمل أخربش خربشات تشبه لغتي الجديدة. ودرت حول الخيمة وأنا أصفّر. ثمّ صفّرت بصوت عالٍ حتّى تسمعني إذا كانت قد تاهت. ثمّ ابتعدتُ عن الخيمة في اتّجاه گلميم. ثمّ رجعت وأنا أصفّر. ثمّ سرت في الاتّجاهات الأخرى وأنا أنادي باسمها، وأسمع الصدى، وألعب معه فترة. أنادي على الاسم وأنصت لما يُرجعه الصدى. الطريق غير مرسومة بالدقّة الكافية. ولكنّها قالت: كنعلف الطليني... كنعلف الطليني... واستعدتُ هدوئي ومرحي وأنا أتذكّر كلامها المبتور. لم تدم حالة الرضى طويلًا، عندما بدأت أتصوّرها وقد هاجمتها الثعابين والذئاب أو حيوانات وهميّة لا وجود لها سوى في عقلي. وفكّرت في أن أعدّ الشاي حتّى أبتعد عن أفكاري المدمّرة، وحتّى أترك لها الوقت لتأتي. گلميم ليست أگادير. والفتاة لا تخرج من البيت وقتما شاءت. الفتاة لا تخرج من البيت، ولا تغادره إلّا للذهاب إلى الحمّام أو المقبرة. القادم من خارج گلميم، ولو كان كلامه غير مبتور، لن يمشي في الشارع ويده في يد الفتاة التي يحبّ. لن يسيرا متعانقين، أو

ممسكين، أحدهما بيد الآخر، في نوع من اللامبالاة والاسترخاء، كما في أكادير. في گلميم أو في أيّ مدينة تشبهها، لا يسير الجنسان، أحدهما جنب الآخر، من دون أن يتعرّضا لشتائم الرجال وكيد النساء واستهزاء الأطفال. في گلميم أو في أيّ مدينة تشبهها، لا يلتقي الجنسان إلّا سرًّا. وفي أماكن نائية، ومعزولة كخيمة حمادي البعيدة عن گلميم عشرين كيلومترًا؛ أو في بيوت سرّيّة كبيت أمّي حبيبة. أخرجتْ دلو ماء من بئر الحامية التي يحرسها حمادي، وصببته فوق رأسي، ورأيت أنّ الشمس مالت إلى الجانب الآخر من الصحراء عندما ظهرتْ.

السبت 10 مايو 1958

غرقت في شرنقة الأفكار المتضاربة، على امتداد ساعات اللّيلة التي أعقبت لقاءنا في الزقاق الضيّق، بدلًا من أن أنام. لماذا ظهرت؟ وهل ستختفي من جديد؟ وهل ستهتدي إلى الخيمة؟ وهل ستأتي إذا كانت تعرف طريقها؟ لم أتمدّد، ولم أجلس. أمضيت اللّيل أتحرّك في البهو وأتحاور معها بلغتنا الجديدة التي لا يفهمها غيرنا. تتعقّد الثواني والساعات أن تزحف بطيئة كبحر لا شاطئ له. واللّيل ساحة لكلّ الكوابيس والرجاءات. والشمس بعيدة في الجهة الأخرى من الأرض. وهذا الغد لن يطلع أبدًا. وأسمع بابا في الغرفة المجاورة يطلق أصواتًا ما بين الشخير والفحيح. الكلام الذي يخرج من فمه يشبه الهواء، لأنّ طقم أسنانه بعيد عنه، قابعٌ في الإناء، يلمع في الظلمة. إنّه يضحك بملء أسنانه الغارقة في الماء وهو يتفرّج عليّ أذرع الفناء المظلم. أغمضت عينيّ أخيرًا، عند الفجر. لم أسمع طَرقًا على باب بيتنا. لم أسمع حديثًا أو ضجيجًا. لم أسمع طَرقًا على أيّ باب، أو ربّما سمعت ما يشبهه في الحلم. أمّا الشخصان المتخفّيان خلف الباب، واللذان نشرا أمام بابا ذلك الخبر، فلم أرَهما ولم أسمع صوتيهما. رأيتهما في حركات بابا القلقة وسمعت صوتيهما في الرجّة التي ضربت عقله مع بداية الصباح. والخبر يقول: سيأتي فرج قريبًا... وأصبحنا فجأة في الغد لأنّ الخبر قلب الدار أسفلها عاليها. وأنا تركت البيت في الحالة نفسها من الفوضى. وتركت بابا يبرطم، بلا أسنان، وخرجت.

بقيتُ جالسًا على الحصير أراقب مشيتها الوئيدة نحو البئر، عندما نهضت لتغتسل، في وقت متقدّم من اللّيل. ردفاها يتمايلان، يتنقّلان بين الظلّ والضوء، كما لو كانت تسير في خيالي. يرسل ضوء القمر أشعّة بلّوريّة على الشعر الأسود وعلى حوافّ الجسد العاري، النحيف، في تقدّمه المتمايل على الرمل. على أصابعي نقطتان من الدم الذي سال منها.

خرجت من الخيمة لأراهما تلمعان تحت ضوء القمر، ومسحتهما في شعر رأسي. ثمَّ أغمضت عينَيّ لأراها بوضوح أكبر، ولأسمع موسيقى اندلاق الماء على الجسد اليانع، ولأراها باليقين الكافي هذه المرّة، وليس كما حدث لي في مرّات عديدة. كادت شرايين دماغي تحترق من كثرة التفكير فيها حتّى إنّني أصبحت أراها في كلّ الهيئات. كما تراءت لي عارية الصدر تحت الخيمة وراية خضراء تلعب بها ريح الصحراء...

الأحد 11 مايو 1958

يُمضي الوالد، الذي نسمّيه بابا، وقتَه يعدُّ أوراقه المالية وهو يحرّك فكّيه لأنّ طاقم الأسنان لا يثبت في مكانه. يدفعه في حركات مقززة خارج فمه ليعيده إلى مكانه وهو يمصمص. قليلة أوراقه المالية أو كثيرة، فقد ظلّ يعدّها منذ بدأ يحفر في رأسه مشروعَ أن يصبح ملّاكًا، كما لو أنّها الطريق الوحيدة ليرى نفسه بشكل مغاير. أمّا الآن، فهو يعدّ الساعات، والدقائق، والثواني، في ثياب جديدة لم أرَها عليه من قبل. قميص أحمر فوقه جلباب أخضر من الصوف، كعازفي الأعراس الشعبيّة... قال الرجلان من خلف الباب إنّه في الطريق، أخانا فرج. جمعنا الوالد الذي نسمّيه بابا حوله كي نحتفل. أنا وأخي بناصر وأختي زهيرة وأولادها الأربعة، ما عدا رَجلها عبد الرحمن الذي نادرًا ما يظهر في فضائنا؛ كلّ العائلة؛ في نهاية الصباح لم يظهر له أثر، أخونا فرَج. جالسون في ساحة الدار المعتمة، قريبًا من النعجات الثلاث، وتحت ظلال الذباب الكثير. مجبَرون على الانتظار، أمام مائدة عليها سَفن وعسل وزيت زيتون وخبز شعير... وشاي يصبّه وهو فرحان، يرفع البزّاد عاليًا حتّى نسمع شرشرة الشاي، ويقول إنّ عليه أن يجمع أولاده ليروه؛ فرج... ولده فرج الذي يعمل الآن في القصر المَلَكي. هكذا قال الرجلان اللذان يبيعان الزرابي الإيرانيّة للقصر الملكي، واللذان جاءا من العاصمة. وقال أيضًا إنّه سيكون تقريبًا في سنّك نفسها يا نافع، واضعًا يده على كتفي، كأنّما يكتشف لأوّل مرّة في حياته أنّ له أولادًا يمكن أن يفتخر بهم، وعائلةً يمكن أن يضع يده على كتف أحد أفرادها، في حالة من الهياج والبلبلة غير المسبوقين. هكذا قال الرجلان. جاءا من العاصمة لهذه الغاية. يبيعان الزرابي الإيرانيّة للقصر الملكي، والتقيا فَرَج. زاراه في بيته الواسع، والمطلّ على نهر بورقراق، واطلّعا على النعيم الذي يرفل فيه... هذا أيضًا كلام الرجلين. وهو، الرجل الذي نسمّيه بابا، يمسح عينيه من فرط التأثُّر. الوالدة جالسة إلى جانبه، في فمها طقم الأسنان ذاته. لا تعرف ما يحدث. لا يشغلها ما يشغل بابا. تحرّك طقم أسنانها بالطريقة المقززة نفسها. إنّما تعد موتاها بدلًا من انتظار الأحياء.

ظلّت الوالدة تنام والضوء مشتعل حتّى لا ترى موتاها: الذين ماتوا في الطريق، والذين حصدتهم مجاعة أو فيضان، والذين غرقوا في البئر التي حفروها، أو ماتوا على أفرشتهم، مرتاحين أخيرًا. كلُّهم مدفونون في مقبرة العبيد خارج گلميم. تذكُرهم واحدًا واحدًا: أسماءَهم وحِرَفَهم والأسيادَ الذين اشتغلوا في بيوتهم وحقولِهم، أو ماتوا تحت عجلات عرباتهم أو تحت سياطهم. ما إن ينطفئ الضوء حتّى يبدأوا في عبور مخيّلتها، مصطفّين الواحد وراء الآخر، بغبارهم ومَعاولهم وأيديهم المشقَّقة، معلنين عن الطريقة التي أتت على كلّ واحد منهم. أحيانًا بالأكفان وأحيانًا من دونها. وحتّى يكملوا مسيرتهم المجلجلة، يظلّ الضوء مشتعلًا في اللّيل والنهار. واستمرّ كذلك لشهور، لأكثر من سنة، حتّى جاء اليوم الذي احترق فيه البيت عن آخره. بيت بناه حَجرًا حجرًا، بعيدًا، على ضفّة نهر تالمعذرث، حتّى يبتعد عن گلميم، غيرَ مهتمّ بما يقوله المازة، وحتّى يعتقد أنّه أصبح آخَرَ، بأملاكه، لبعض الوقت، برجولته ونخوته، لبعض الوقت فقط، قبل أن تأكله النيران؛ بعيدًا أيضًا عن العين والحسد. لقد تنبّأ الجميع بالنهاية المفجعة لبيتنا لأنّهم لم يروا من قبل عبدًا قادمًا في الأغلال من بلاد بعيدة يبني بيتًا لم يبنِه آباؤهم. استمرّ مفتخرًا ببنايته لأنّها الشيء الوحيد الذي امتلكه. بناها حجرًا حجرًا. اعتنى بها ونمّقها، وزرع فيها مشماشة لم تجد الوقت لتزهر. أمام البيت عريشةٌ تظلّلها داليةٌ من العنب. ووضع على جنباتها أصص أزهار حتّى يراها العابرون. لا يمضي يوم من دون أن يضيف تنميقًا أو زخرفة في ركن من الأركان. والذين يمرُّون عليه يقولون: مبارك مسعوذ أ بابا... ويرد، معلّقًا على سلَم، أو منتصبًا فوق حافّة حائط: اللّه يبارك فيك... ولكنّ الوالدة لم تنسَ موتاها حتّى بعد أن احترق البيت، حتّى ونحن نعود إلى البيت القديم، إلى الحيّ القديم؛ حيّ السود. أموات نسيناهم: أخوال وأعمام، وآخرون لا نعرفهم؛ أجداد وجدّات... هل ماتوا في صحّة جيدة؟ هل هم مرتاحون في رقدتهم الأخيرة؟ ناسية أنّ لائحة موتاها ناقصة. ينقصها فرج. لا تعرف الوالدة إلى حدّ الساعة في أيّ خانة تضعه، فنسيته. وهكذا، فهي لا تدرك ما يقع للبيت. لا تفهم الجَلَبة التي تحدث حولها، ساهيةً عمّا يدور حولها. ساهية. أصبحت تنسى كثيرًا، ما عدا الموتى. وتخلط بين الوقائع. تتذكّر وقائع قديمة تعتقد أنّها وقعت قبل يومين، أو تخلط بين الأشخاص. تعتقد أحيانًا أنّ أخي بناصر لم يتزوّج في حياته مع أنّه تزوّج مرّتين. كما أنّها لا تدرك ما يقع لبابا وهو يرفع البزّاد عاليًا، وما يحدث لنا نحن المتحلّقين حوله. تسمع الاسم ولا تدرك معناه. ثمّ مَن هو فرج هذا؟ نسيتُه بدوري.

والوالد الذي نسمّيه بابا؟ فجأة اخشوشن صوتُه الرقيق الذي ظلّ يشبه صوتًا أنثويًا؟ لن يجرحنا صوته هذا الصباح. اختفى الخنوع الذي ظلّ يسكنه. اختفت المذلّة التي ظلّت تسكن الغرف والجدران والهواء الذي نتنفّسه، لأنّه ظلّ دائمًا لا يحبّ صوته، ولا يحبّ جِلده ولونه. وشعره الأكرث، كأنّما جلبه من الحرام. اختفى كلّ هذا الآن. أصبح صوته خشنًا فجأة. كسته صلابة منسيّة وهو يشرح منافع العائلة المجتمعة، لأنّ الوالد يرغب، في هذه اللّحظة، في أن يراه الجميع، فَرِحًا، سعيدًا بهذا الذي يحدث والذي لم يكن يتوقّعه، من دون أن ينسى أن يحشر أصابعه في فمه ليثبّت طقم الأسنان الذي يطلّ كلّما ظهرت له فرصة التحرُّر من لغطه... أخونا فرج... قد يكون الآن مرتاحًا في مقصورة من مقصورات أحد القصور الموزّعة في طول البلاد، يهشّ الذباب أو يقدّم سطل الوضوء... ويجمع الفلوس ويكدّس العقارات... هكذا حدثه الرجلان. والهبات لن تتأخّر في الوصول:المؤونة الشهريّة والهِبات والاعتبار... نعم، ابتداءً من هذه اللّحظة، سيأخذنا الناس بعين الاعتبار، قال بابا. أنا وبناصر مكتفيان بالإنصات إليه... ولا نعرف كيف نميّز الصحيح من غيره في هذا السيل من الكلام المتحمّس؛ مكتفيان بالإنصات إليه ومراقبة تصرُّفاته الجديدة، والعنايةِ التي يوليها لمشيته وحركات رأسه ولهندامه، والابتسامةِ الرزينة التي عوّضت قهقهاته الهازئة، ومشيتِه التي أصبحت حركات راقصة. قميص أحمر فوقه جلباب صوفي أخضر في لون الفستق، لأنّه لن يستقبل ولده بثياب لا تليق بمقامه الجديد. وها هو يفكّر في البيت الذي أكلته النيران. يفكّر في ترميمه وطلائه، وربّما بنى غرفًا كثيرة للضيوف الذين سيفدون، بأبواب جديدة ونوافذ بسياجات من حديد وذات زخارف ملتوية وملوّنة كذيل الطاووس. لأنّه لن يستقبل ولده العائد من القصر المَلَكي في هذه الخِزبة التي تشبه عشّ الغراب. لم تدم هذه الحماسة أكثر من يوم ونصف يوم.

هناك في الطريق بين گلميم وأگادير ضيعةٌ مترامية الأطراف يملكها رجل اسمه الحاج العابد. نحن لا نعرفه. أين هو الآن هذا الحاج العابد؟ قال بابا إنّه يجلس في ضيعته وحيدًا، أعمى، مُعدَمًا. هكذا وجده عندما ذهب آخر مرّة يسأل عن ولده قبل خمس سنوات. وجده وَحدَه أعمى ومعدَمًا، ولكنّه يذكر الولد. يذكر السنة التي باع عبيده في أثناء المجاعة التي ضربت المنطقة في سنة 1945. ويذكر بابا الذي كان عبدًا عنده قبل أن يفلس في السنة نفسها ويبيع أملاكه وضيعته ويسرّح عبيده الخمسين. هذا الرجل، الحاج العابد، الذي عمي الآن، هو الذي قال إنّه باعه للمؤسّسة.

وقال أيضًا: اطلب زهرك إيلا ما كانوش رَسلوه إلى قصر من القصور المنسيّة في مكناس أو تازة. من الممكن جدًا، على ما أذكر، من الممكن أنّهم أرسلوه إلى فاس أو الرّباط. أمّا العائلة، فقد استمرّت تنادي الطفل باسم لم تختره له: فرج. وظلّ بابا يعمل خارج الأوقات، في الصيف والشتاء، لاسترداد ولده، في الجمعات والأعياد. ثمّ نسي أنّ له ولدًا اسمه فرج. واستمرّ يشتغل حتّى بعد أن أصبح حرًا؛ حتّى بعد أن نسي أسباب عمله؛ حتّى بعد أن نسي أن يتساءل لماذا يشتغل كلّ هذه الساعات، متنقّلًا من ضيعة إلى ضيعة، حافرًا بئرًا أو ماذًا قناةَ ريّ، مشيدًا بيوتًا ومخازن. ظلّ يعمل في الأعياد والجمعات، حتّى في أثناء الأوقات العصيبة التي مرت عليه، مستمرًا فقط بفعل العادة. لم يستجدِ مساعدة. لم يطلب من أحد أن يساعده في شقّ ساقية، أو حفر بئر. حياة كاملة من الحفر والسقي والزرع، ومدّ السواقي وحفرِ الآبار، وتشييد البيوت وشقّ الطُرق، وحرق النباتات الضارة، وكلّ ما تطلب الأرض لتبقى حيّة، وكلّ ما تطلب البهائم ليزيد حليبُها ويكتنز لحمها. حتّى بعد أن أصبح يعمل لحسابه خلال الأعوام الأربعة عشر الأخيرة، بعد أن باع الرجل الذي عمي الآن ولده فرج. والنتيجة؟ احترق البيت الذي بناه بابا حجرًا حجرًا، عندما أصبح في إمكانه أن يعمل في المقابل في الضِياع الكبيرة. والنتيجة الأخرى؟ لم يعد ضوء الشمعة يشتعل، عندما عدنا إلى البيت القديم، إلى الحيّ القديم. والنتيجة الأخيرة؟ عدنا إلى البداية. وأصبح للموتى وجودٌ مستمرّ في حياتنا جميعًا، ما عدا فرخ. الوالدة نسيته لأنّها لا تعرف في أيّ خانة تضعه. نسيناه جميعًا.

لم يحدث شيء بعد الظهر. لم يطرق بابنا أحد، لا فرج ولا الرجلان اللّذان أكدا: فعلًا الولد يعمل في القصر المَلَكيّ. واستقرّت زهيرة في المطبخ، بطفلاتها الأربع، ووجهها المزرورق بالكَدَمات. إنّها تُعدّ الأكل الذي سنتناوله بصحبة أخينا فرج الذي لم يأت بالأمس، وربّما سيأتي اليوم. الوالدة تقلي الباذنجان. باذنجان مقليّ ستطحنه مخلوطًا بالثوم والقزبر والمعدنوس والخلّ، وتضعه فوق لحم الجدي الذي ينضج على النار... طاجين باللّحم والباذنجان، كما كنّا نحبّه عندما كنّا صغارًا... وهذه رائحته. كانت والدتنا دائمًا طبّاخة رفيعة تتخاطفها العائلات. طبخت في الأعراس وحفلات العائلات الكبيرة. تعتقد للمرّة الثانية أنّ أولاد زهيرة هم أولاد بناصر، فتسأله عنهم، وتقول إنّها لم ترَ أولاده منذ سنتين. وأقول لها إنّ هؤلاء أولاد زهيرة، فتضحك وهي تقول متعجّبة: ياه... أو تغنّي، ثمّ تتوقّف عن الغناء وتسأل: وشحال عندها من ولد؟ ربعة... ياه... وتمرّر

يدها على شعرها النادر، كما تفعل الآن، وهي مقرفصة تعدّ الطعام، عارية الرأس... ثمَّ تلتفت إليّ لتسألني لماذا لا أتزوَّج زهيرة. إنَّها تحسن الطبخ. وأقول لها إنَّ زهيرة أختي... ياه، ضاحكة مرَّة أخرى من نسيانها... ثمَّ تلتفت لتسأل بناصر هل هم أولاده الذين يتصايحون في الخارج. لا أقول لها هذه المرَّة إنَّهنّ طفلات زهيرة. إنَّهن في الخارج يقفزن فوق غطاء محرّك الشاحنة، أو يمررن من تحتها وهن يتصايحن كالقِرَدة. وذهب بابا في أثناء هذا، إلى محطة الحافلات، وعاد. ذهب ثلاث مرَّات، وعاد. ووقف مرَّة أخرى عند الباب، صامتًا، بلا تعليق، بقميصه الأحمر وجلبابه الأخضر. لم أرَ شعر الوالدة من هذا القرب إلَّا عندما اقتربت ورحت أتفحَّصه شعرة شعرة، وهي تضحك. شعر الوالدة قليل، احمرّ من كثرة ما شاب. اقترب بناصر بدوره ثمَّ تراجع مفضّلًا الجلوس على صندوق عند مدخل المطبخ من دون أن يكفّ عن النَّظر ناحية زهيرة المشوَّهة التقاسيم، متسائلًا بعينيه ويديه وشفتيه: والآن، ماذا علينا أن نفعل؟

آثار الكدمات على جبهتها وحول عينيها وعلى فمها. وهي تعدّ الطعام وتبكي. يعتقد بابا أنَّ عبد الرحمن، رجلَ زهيرة، أبيضُ لأنَّ سواده فاتح. وأصبح يضرب زهيرة ويهدّدها بالطلاق حتَّى يثير انتباه بابا إلى اختلاف لون بشرته، ويقول إنَّه تزوَّجها لأنَّها قبيحة، ولا أحد يرغب فيها، معتبرًا زواجه بزهيرة أكبرَ تضحية قام بها في حياته. ولأنَّه أصبح يعتقد أنَّه أبيض، لأنَّ سواده فاتح، فهذا يعطيه الحقّ في أن يضربها على وجهها. وعلينا أن نفرح ونفتخر. ومن حقّه أن ينغّص علينا الحياة لأنَّه خلَّصنا من بنت لا يرغب فيها أحد. وهي صدَّقت كلامه مع أنَّها كانت في الخامسة عشرة عندما انتقلت إلى بيته. وهذا سبب نقمتها علينا جميعًا. ثمَّ أصبح بابا يهتمّ به بسبب لونه الفاتح، كأنَّما اقتنع أخيرًا: يقول إنَّه ليس أبيضَ تمامًا، ولكنْ على الأقلّ، إنَّه الوحيد الذي يستطيع أن يرفع معنويات العائلة، مع أنَّ لونه يشبه لون الخراء. وأصبح يعتني به ويتكلَّف بمصاريفه. بقدر ما يتفنَّن عبد الرحمن في نهبه، يعلو في عينيه. كلّ المال الذي يُغدقه عليه، إنَّما يذهب به إلى البارات في إيفني. وبدا كما لو أنَّه معجَب به حتَّى عندما يضرب زهيرة. وجود هذا الذَّكَر الفريد في العائلة، ضمن سلالته، أصبح يبدو ضروريًا، كضرورة أن يحبّه، ويفتخر به عندما يسمع أنَّه بدّد أمواله في بارات إيفني. ويحبّ كلّ ما يقوم به، حتَّى وهو يكسّر فكّ ابنته مرَّتين في الأسبوع. لم تزرنا عائلته قط. لم توافق أبدًا على زواجه من بنت سوداء مع أنَّ أفرادها يشبهوننا في كلّ شيء. هو أيضًا لم نَرَه في بيتنا إلَّا نادرًا. يزورنا عندما يحتاج إلى أموال بابا كما هي حاله دائمًا.

ظللنا نسمّيه دائمًا بابا. جاء من مملكة بعيدة لم تعد موجودة في أيّ خريطة، اسمها مملكة الداهومي. تجارُ عبيدٌ مغاربة جلبوه إلى هنا بعد الفوضى التي أعقبت الإطاحة بآخر ملوكها في سنة 1900. ربّما كان في الثانية عشرة. كيف سيتذكّر السنة وهو لا يذكر حتّى أنّه سبق له أن كان طفلًا، ولا أنّه كان يلهو بلُعَبِ الأطفال وضحكهم وشيطناتهم. بشرته في لون العقيق الفاحم. بابا عالي البنية، عريض كالباب. الكفان كمجرفتين، والساقان اللّتان تحملانه ظلّ دائمًا يفتخر بأنّهما أطول ساقين في الدنيا. الصدر عالٍ والكتفان عريضتان. هذا الجبل الصغير الذي يتوقّف حتّى يمرّ الآخرون، جازمًا فيما بعد أنّه كان يخجل من أن يسير في الطريق لأنّ عافيته تُحرج الناس. وإذا لم تحرجهم، فإنّها تخيفهم، جميع الناس، الكبير والصغير، فيضطرّ إلى أن يتريّث، أو يتوقّف. ويدير أحيانًا وجهه إلى الجدار حتّى يمرّ العابر. ولتستمرّ هذه الكتلة الآدميّة الضخمة، حيّةً تتنفّس، فإنّها تستهلك كثيرًا من اللّحم. كان بابا يحبّ اللّحم بكلّ أنواعه، شريطة أن يكون صلبًا. يحب أن ينهشه؛ أن يغرس أنيابه فيه حتّى يطير الدم، كما يفعل الذئب. وقد سقطت أسنانه عندما لم تعثر على لحم يغذي نهمها. عوّضها، فيما بعد، بطقم بدائيّ وضعه صانع أسنان إسباني متجوّل. نسمّيه بابا لأنّه لم يعد يذكر اسمه من كثرة ما تعاقبت عليه الأسماء. لا يتذكّر حتّى ديانته من كثرة ما تعاقبت عليه الديانات. كان مسيحيًا عندما هجم على قريتهم الجنود الفرنسيّون وقالوا للسكان المذعورين نحن جئنا من الشمال، مبعوثين من طرف رئيسنا. ورئيسنا رجل عظيم يملك جيشًا كبيرًا وسلاحًا قويًّا، ويحكم مناطق واسعة، وهو يمنحكم صداقته ومستعدّ لحمايتكم والدفاع عنكم حتّى لا يأكلكم جيرانكم... ثمّ عاد إلى ديانته القديمة بعد أن تمكّن من الهرب. ثمّ صار مسلمًا بعد أن سقط في أيدي تجّار العبيد المغاربة الذين قالوا له: نحن جئنا من الشمال، مبعوثين من طرف ملكنا. وملكنا، الذي نحن رعاياه، رجلٌ عظيم يملك جيشًا كبيرًا، وغنيّ جدًّا، ويملك عددًا كبيرًا من القصور، ويحكم مناطق واسعة تمتدّ حتّى البحر المتوسط... وهو يمنحكم صداقته، ومستعدّ لحمايتكم والدّفاع عنكم حتّى لا يأكلكم جيرانكم... ثمّ غدا مسيحيًا من جديد ثمّ مسلمًا من جديد. وما زال حتّى الآن لا يعرف كيف ينسى الديانات الأخرى ليتعلّق بديانة واحدة. تاجر العبيد الأخير، المدعوّ الحاج العابد، يضع تحت بصره ثوبًا مزوّقًا بورود حمراء، كي يدخل قليلًا من الإيمان إلى قلبه، ويسأله كيف وصلت هذه الزهرات إلى الثوب ولصقت به. يبحلق بابا في القماش ويقلّبه بين يديه. ويعيد تاجر العبيد السؤال بإلحاح: من وضع هذه الأزهار

فوق الثوب؟ مثل هذه الأشياء لا يصنعها غير الله. إنّما عقل بابا، عقلُ الغابات والحركات الخفيّة للرياح، لا يستطيع أن يدرك أشياء معقّدة كهذه. وعندما يرى أنّ التعاليم الإسلاميّة لا تدخل رأسه بالسرعة المطلوبة، يشتعل غضب تاجر العبيد الحاج العابد، الذي عمي الآن، فيضغط على رأسه بنعله، وهو يصيح مهتاجًا: الجبهة خضها تمس الأرض... الجبهة خضها تمس الأرض... نسمّيه بابا. أمّا أسماؤه الأخرى، فقد ضيّعها في الطريق الطويلة والمتعرّجة التي عبرها، من وراء نهر ألبورو في مملكة غابرة اسمها الداهومي حتّى گلميم. بِيعَ في أكثر من سوق، وقُيّد بأكثر من سلسلة. وبلق السوطُ ظهرَه. مقيّد اليدين بالأصفاد. القدمان حافيتان، ومنفرجتان لأنّ الحديدة التي تربطهما طويلة وعريضة. يقطع الأميال التي تفصله عن سوق العبيد في مراكش، وهو يحمل فوق رأسه أنياب فِيَلة، أو أكياسَ شعير، أو فقط حجرًا ثقيلًا ينزع من فكره كلّ رغبة في الهرب. قال بابا: الصيادون كانوا كثيرين في تلك الفترة. فرنسيُون وبلجيكيُون ومغاربة وزنوج يبيعون أولادهم أيّام المجاعات، وزنوج يصطادون بعضهم بعضًا، ويبيعونهم للعائلات الرباطيّة والفاسيّة ليعمروا بهم الأسواق العلنيّة والسرّيّة، وبيوت الأثرياء الذين في حاجة إلى بشرة مشدودة العضلات تشدّ توازن بشرتهم التي تشبه العجين. وآخرون يصيرون مسيحيّين للعمل في الحقول بدلًا من الأسر، أو يصبحون مسلمين للهرب من السّوط. وبعد نجاته من الأوبئة والجوع والأمراض، والسّوط والكيّ بالحديد والنار، بعد مسيرة طويلة من القهر، من الداهومي حتّى گلميم، استبدت به لعنة الأكل، كالمرض. إنّه مرض غريب، مجهول، ليس كالجدريّ أو البرص، مرض بأعراض أخرى وعلامات أخرى. لأنّ بابا ظلّ ينمو واستمرّ ينمو بشكل غير طبيعيّ. ليس لوجود لحم يأكله، وإنّما بسبب رغبة تعذّرت تلبيتها. وكلّما كبر ازداد هوسه في افتراس اللّحم؛ هوسه هو الذي جعله يستمرّ في النمو حتّى وهو في الخمسين، ثمّ في الستين، عندما تآكل هوسه وتقلّصت رغبته في العثور على لحم ينهشه ففقد كلّ أسنانه، دفعةً واحدة.

الوالد الذي نسمّيه بابا ما زال يحتفظ في جيبه بالأوراق التي بيع بها؛ بكلّ التفاصيل. الثمن مكتوب أمام كلّ صفقة. المكان وتاريخ الصفقة وثمنها. كلّ شيء مسجّل. (منذ الصفقة الأولى في سنة 1900 حتّى آخر صفقة في سنة 1924). وحتّى بعد هذه السنة، فإنّه ظلّ ينتقل لسنوات بين أسواق العبيد السرّيّة بعد أن أصبحت السوق الرسميّة مهجورة. يُعرَض للبيع على تجّار نهمين وبثمن أغلى ممّا هو مسجّل في كناشه إلى أن استقرّ أخيرًا في ضيعة الحاج العابد، وفيها تزوّج وأنجب أربعة أولاد... يتكلّم

الآن على أحد أولاده. ولده الذي اسمه فرج؛ آخر أبنائه، والذي باعه الحاج العابد في سنة 1945 ضمن العبيد الذين باعهم في مقابل ديونه. وهي السنة نفسها التي أفلس فيها وسرّح الوالد ومعه العائلة. اشتغل الرجل الذي يسمُّونه بابا طوال الأعوام الأربعة عشر التالية، كلَّ أيّام السنة، وكلَّ ساعات النهار، وجزءًا من ساعات اللّيل، ليجمع المبلغ الكافي ليسترد ولده الذي لم يكن يتجاوز الخامسة عندما باعه الرجل الذي كان يملكه ويملك بابا ويملك العائلة كلّها؛ الرجلُ الذي كان يملكنا. يملك حياتنا وحيوات أولادنا؛ الرجلُ الذي عمي بلا مناسبة؛ السيدُ الذي كان يملك رزقنا ورزق أولادنا، وأسماءَنا وأسماء أولادنا، وهو الذي سمّاه فرج. لقد عمي الآن ويجلس في ركن لا يهمّه أن يكون مظلمًا. لا أنا ولا بناصر نعرف الهيئة، التي يوجد عليها الآن. لا نعرف الهيئة التي انتهى إليها إلّا من خلال ما يقوله بابا. أمّا في تلك الظهيرة التي باع فيها فرج لتأدية ديونه، فقد كان وجهه مربّعًا، عريضًا ومربّعًا. لحيته سوداء تدور حول وجهه كقطعة من الكاواتشو، ودينار الصلاة الأسود وسط جبهته. لا أحد يذكره. كان صغيرًا عندما باعه الحاج العابد: خمس سنين. ولكنّه ولد محظوظ، لأنّه لم يعش حياة البؤس التي عاشها أبوه. لم يقتله وباء أو سلاح. هل تعرفون أين هو الآن؟ إنّه يعمل في القصر الملكي. هكذا قال تاجرا الزرابي الإيرانيّة. وهذا ما لم يكن ليخطر في بالكم... يكتشف بابا الآن فقط ميزةَ الأولاد. يكتشف الآن فقط أنَّ الكارثة لم تكن كارثة، والبؤسَ لم يكن بؤسًا. والبيت الذي سيضمّ شمل العائلة من جديد ها هو. ولم يعد ينقص غير الوقت... لن يستطيع إتمام الترميم في الموعد... وإنّما لا أحد يذكر هذا الذي كان أخانا، والذي اسمه فرج، والذي يُخرج الوالد، بمناسبة عودته، ملابسَه الجديدة وأدواتِه لترميم بيت كانت النيران قد التهمته. إنّه في أحسن حال، وينسى الغيظ الذي ظللنا نسبّبه له بسبب لون جلدتنا وشكل شعرنا.

لم نعد نعرف من قال ماذا في نهاية الظهيرة: بابا، أم الرجلان تاجرا الزرابي، أم الحاج العابد تاجر العبيد... فرج، العبد الصغير، ولد محظوظ. كما لو أنَّ اللّه وهبكم إيّاه حتّى تصيروا أغنياء. من البؤس إلى الثراء، دفعة واحدة. نعم، صفقة لن تنسوها ما حييتم. حياة البؤس انتهت. أخوكم محظوظ. كلُّنا محظوظون. الولد الذي كان صغيرًا كَبُرَ الآن. صار رجلًا في غيبة ذويه. حان وقت عودته. فقدناه وهو في الخامسة، ولكنّه استمرّ يكبر حتّى لا ننساه؛ حتّى لا ينساه أحد... وكانت الشمس قد بدأت تتوارى خلف الجبل. وبابا، بعد أن أعياه الانتظار، تمدّد جنب صينيّة الشاي البارد ونام لأوّل مرّة بطقم أسنانه، ثمّ نسينا الموضوع تمامًا.

الاثنين 12 مايو 1958

الشجرة عتيقة وباسقة. قليلة هي أشجار الأرگان التي تكون في مثل هذا السمو. غصونها ملتوية ومعقودة وممدودة في اتِّجاهات غريبة، ولا نعرف هل توقَّفت عن النموّ أم إنَّها لا تزال تنمو. أفكر في الشجرة حتَّى أنسى العائلة. شجرة الأرگان شجرة صحراويَّة، تتفتَّح في السرّ، وتزهر في السرّ، وتتمدَّد في السرّ. هكذا أراها دائمًا، مكتفيةً ومنطوية على نفسها ولا تضحك سوى مع نفسها. ربَّما لأنَّها تكبر من دون حاجة إلى ماء. وبالنسبة إليّ، هذه الشجرة هي باب الصحراء، ومدن الصحراء، وأسواق الصحراء. ما إن أراها حتَّى أعرف أنَّني وصلت، عندما كنت أوزِّع الرَّسائل. سأرى بعد جبلين الامتدادَ الرَّمليّ وأفرح. وليس صدفة أنَّني وُجدت في بداية هذه الظهيرة واقفًا تحتها، محتميًا من الشمس وأتفرَّج على الجِمال، تحت شجرة الأركان نفسها التي أحتمي بها كلَّما جئت إلى هذه السوق. ورأيته يقف إلى جانبي، كظلّ عبر طرف عيني واختفى، أو ربَّما سمعته فقط. لم يُثر وقوفه اهتمامي بعد. بقي على هامش انشغالاتي، واستمرّ هكذا حتَّى اللَّحظة التي سمعته يسألني هل أبحث عن جَمَل ضاع منّي. الجَمل لا يضيع في الصَّحراء، لأنَّه في مكانه. الجَمَل هو الحيوان الوحيد الذي يعرف أين هو. ولم أتعرَّف إليه حتَّى عندما التفتُّ. كيف سأتعرَّف إليه برأس حليق وحاجبين منتوفين؟ إنَّه يشبه أيّ شخص غامض، وعلى شفتيه مكر الأشخاص الغامضين. كلّ ما فيه يبعث على الريبة. هذا الرجل لا أعرفه قلت، لم أرَه قبل الآن. وهو ليس من گلميم. هيئته ليست هيئة واحد من گلميم، أو من الناحية. لهذا اعتقدت خطأً أنَّه قد يكون تاجر جِمال جاء من الشمال، من مراكش وربَّما أبعد. وحتَّى عندما التفتُّ، وحتَّى عندما انتبهت إلى أنَّه كان يبتسم، كان لا بدّ لي من وقت إضافيّ حتَّى أتعرَّف إليه (ثمَّ إنَّ هندامه لا يساعد كثيرًا على التعرُّف إليه)، وأقول إنَّه بْراهيم المعلم. يلبس سروالًا بنيًّا من القطيفة وقميصًا كاكيًّا، وينتعل حذاءً رياضيًّا، كواحد من السيَّاح الذين يشاهدون جِمالًا لأوَّل مرَّة في حياتهم... منظره غريب فعلًا، ومثير للريبة. قال إنَّه كان في تطوان، كأنَّما ليعتذر عن الغياب الطويل غير المبرَّر؛ كأنَّما لا يدرك أنَّني لم أهتمّ لا بحضوره ولا بغيابه. نسيت أنَّ هناك شخصًا اسمه بْراهيم كان معلِّمًا في آسا، ويحمل تحت ذراعه القاموس الفرنسي، وتحدَّث معي طوال ليالٍ عن السلاح والمعارك، والطائرات التي قنبلت البرج وهم نيام. ثمَّ ما علاقة وجوده في تطوان برأس بلا شعر وحاجبين أجردين؟ لا يوجد شخص يذهب حتَّى الشمال ليعود وليس في حصيلته غيرُ رأس حليق وحاجبين منتوفين. أخرج الأوراق الماليَّة التي

في جيوبه وأشهرها أمامي. كأنّما هي الشاهد على أنّه كان في تطوان لشيء آخر غير حلاقة الرأس أو نتف الحاجبين. أراه الآن بالوضوح الكافي. هذا هو بِراهيم المعلّم، كما عرفته: ببشرته الشاحبة البياض والابتسامة الغامضة التي ارتسمت على وجهه وهو يفتح صندوقًا غامضًا، وإنّما من دون المال الكثير الذي يوجد في جيوبه الآن. كيفما يكن الشمال الذي أتى منه، يبقَ منظره مثيرًا للقلق في أيّ حال. بالمال أو من دونه، بالشمال أو من دونه، فإنّه سيبقى بِراهيم الذي عرفته؛ الرجلَ الغامض الذي عرفته.

بِراهيم صديقي. وثقت به منذ اللّيلة التي اجتمعنا فيها حول الصندوق. لا ضرورة كانت تدفعه ليُطلعني على سرّه، لولا الصداقة التي تجمعنا. وهو الذي سيدلّني على الطريق؛ الطريق الوحيدة التي عليّ أن أسير فيها، لأنّه إنسان متعلّم؛ عارف. الطريق التي تقود إلى كلّ ما لم أفكّر فيه، أو أحلم به، أو ربّما فكّرت فيه بشكل غامض. وهذه هي اللّحظة العجيبة التي يشعر فيها المرء بأنّه على مقربة من شيء مهمّ، جديد، أساسي، كالحياة عندما تطلّ عليها من شرفة خياليّة. وقلت: لم تعد نائيةً هذه الحياةُ، ما دمت التقيتها أوّلًا، ثمّ بِراهيم. بِراهيم المعلّم هو صديقي الوحيد. الصداقة هي كلّ شيء في الحياة؛ أهمّ شيء على وجه الأرض. حياة جديدة تنفتح أمامي. إلى جانب صديقي بِراهيم أستطيع أن أخوض كلّ الحروب، الممكنة وغير الممكنة. حان الوقت لأنال نصيبي، ثمّ سيأتي وقت لن أكون فيه في حاجة إلى بِراهيم أو غيره. كلّ واحد في هذه البلاد، كيفما يكن شكله أو لونه، له النصيب الذي ينتظره، وعليه أن يبحث عنه وينتزعه قبل فوات الأوان، إذا كان محظوظًا وعثر على الشخص المناسب، والذي سيأخذه من يده ويقوده عبر دروب الحياة المفخّخة.

جلسنا نستريح تحت حائط مركز الحامية الإسبانيّة القديم. شجيرات العُشر يابسة. نشفت ثمراتها وأصبحت كالشريحة. ظهرت ثلاث غزالات في الآن نفسه، تمدّ أعناقها، وتراقب حركاتنا كما نراقب حركاتها، على بعد عشرات الأمتار. رشيقة، تقفز بين الصخور، كما لو أنّها خائفة من أن تتلف قوائمها الهشّة، خفيفة وناعمة، في بداية المساء المنتشر، وقد أصبح لظلالها امتدادٌ غريب. ويزيد لون السماء امتدادَها غموضًا، والصرير الرتيب للحصى تحت قوائمها. إنّها تمشي وتجيء، متدثّرة بلون المساء البنفسجي. ونحن نراقبها، تحت حائط مركز الحامية الإسبانيّة المهجور، وهي على مقربة منّا، هادئة، في وقفتها الاستثارةُ نفسها، وفي عينيها

السؤالُ ذاته... وأنا الذي كنت أنتظر أن يهبَ بِراهيم وينتشل المسدَّس... لكنَّه لم يفعل، مكتفيًا بالتفاتة واحدة؛ التفاتة واحدة ناحيتي كافية لأنهض وأسير نحوها، نحو الغزالات، محاذرًا، مراوغًا، منتقلًا بين الحائط وشجيرات العشر، حتَّى النخلة القريبة، بالحذر نفسه، تحت ظلّ الحائط، خطوة في إثر خطوة، حتَّى إنَّ الوقت الذي قطعت به هذه الأمتارَ القليلة، ما بين الشجيرات والنخلة، بدا طويلًا، طويلًا جدًا... إنَّني مُقْدِم على خطوة حاسمة؛ منتقل من حياة إلى حياة. مددت يدي والمسدس في طرفها، كما يفعل صيّادون متدرِّبون، بين أصابعي تنبض حياة المعدن البارد. لبرودته لذَّةٌ نادرة. اخترت الغزالة التي سأقتلها، من بين الغزالات الثلاث. اخترت هذه التي سأطلق عليها النار. غزالة صهباء مرقَّطة بالأبيض، هشَّة، وديعة، يافعة، في عنفوان حياتها وستسقط قتيلة فقط لأنَّني اخترتها، وقرَّرت أنَّها ستموت من دون أن تعرف ذلك. قبل أن أطلق النار، قبل أن أحبس نَفَسي، تساءلت عمَّا إذا كان من الأحسن لها أن تعرف مَن وراء الطلقة المميتة. وسمعت، لأوَّل مرَّة، صدغي يدقّ في عنف. وضغطت، مختزلًا كلّ السنوات الماضية في هذه الحركة. وفرَّت الغزالات. طارت. تلاشت. وعدت تحت الحائط. بِراهيم غير مهتمّ بما وقع، حتَّى عندما تعثَّرتُ خائبًا بين الأحجار. إنَّه يدخِّن، غيرَ مهتمّ بتاتًا. كأنَّما كان يعرف النتيجة مسبقًا. ولا بدّ من أنَّه يتلذَّذ الآن وهو يمجّ مجّاته الطويلة، ويفكِّر في أنَّني إنسان لا فائدة منه؛ إنسان تافه وفاشل ولا يصلح لشيء، ولا يعرف كيف يستعمل مسدَّسًا قديمًا استخدمه أناس آخرون قبله، وأزهقوا به أرواحًا عديدة. عملية عادية لا تتطلَّب أكثر من الضغط على الزناد.

الثلاثاء 13 مايو 1958

يطلع الصباح في الصحراء من جوف الأرض. زاد حنقي على بِراهيم أكثر من الأمس، وأنا أرى كتفيه تتراقصان على إيقاع اهتزاز السيارة. كيف يستطيع أن يعتقد أنَّني لن أطلق عليه النار، ومسدسُه في جيبي؟ متيقِّنًا، ومبالغًا في ثقته بأنَّني حتَّى إذا ما أطلقت النار فسأخطئه. هكذا مضى بي هذا الصباح، متقلِّبًا بين فكرة سوداء وأخرى أكثر حلكة. لا يُنقص من حلكتها سوى ذكرى ليلة أمضيتها تحت خيمة حمادي. لن نستطيع العودة إليها قريبًا. وهذه خيبة أخرى. إنَّه لا يصلح لي. إنَّه ليس من النوع الذي أحبّ أن أعاشره وأمنحه ثقتي. هذا هو ما توصَّلت إليه. البشر لا أهمِّيَّة لهم. وتعويضه بغيره لا يكلِّف شيئًا، في البيت أو الشارع أو العمل. على الرَّغم من كلّ المجهود الذي يبذل، فمن يزعم أنَّه لا يعوَّض؟ على الرَّغم من

كلّ الجهود الذي يبذلها كي يبدو ضروريًا، استثنائيًا، ونافعًا. وهو يرى في العيون والإشارات والأفعال أنّ لا فائدة منه، ولا أهمّيّة له، سواء اشتغل أو لم يشتغل، وسواء غيّر مكانه أو مكث في المكان نفسه. سيوجد دائمًا ابن آدم الذي يطمع في الجلوس على مقعده، والسطوِ على عمله، والنومِ في فراشه، والزواجِ من امرأته، وتبنّي أولاده. سيوجد دائمًا ابن آدم المستعدُّ لأيّ فعل لمحوِه من الوجود نهائيًا. وعلى الرّغم من اعتقاد بْراهيم الرّاسخ أنّه رجل نافع، لطيف، وكريم، وذكيّ، وحاذق، وواحد من رجالات المقاومة العتاة، فلا يوجد رجل واحد على وجه الأرض لا يمكن تعويضه، نافع أو غير نافع. لا يوجد رجل واحد لا يمكن التخلُّص منه بطريقة أو بأخرى. هذه هي الخلاصة التي توصّلت إليها بعد لقائي بْراهيم الذي لم يعد معلّمًا. لقد فتح ورشة لإصلاح كهرباء السيّارات، ولكن بدلًا من إصلاح الكهرباء، يصنع القنابل، كهذه القنبلة المدسوسة في الحقيبة، والتي سنفجّر بها غدًا المستوصفَ الذي يُديره طبيب فرنسيّ. وتذكّرت: سنفجّر هذا البزار. وعاد بْراهيم الذي عرفتُ.

الأربعاء 14 مايو 1958

ثلاث نخلات ونهر جاف وقنطرة، وسيّارة خضراء، وريح الصباح منعشة. نطلّ على گلميم كأنّما نراها لأوّل مرّة، ونتساءل، أنا وبْراهيم، هل حان الوقت. لا يقول هذا أحدنا للآخر. نعرفه من خلال وقوفنا وترقُّبنا وما ينتظرنا هذه اللّيلة. يعود بْراهيم قرب السيّارة ليتأكّد من أنّ الحقيبة لا تزال في مكانها. حقيبة عادية وديعة ومستسلمة على الأرضيّة الخلفية للسيّارة. أتبعه كأنّما لأتأكّد بدوري. أقترب منها لأسمع تكتكة القنبلة، مدركًا تمامًا أنّني لن أسمعها. نعود إلى الجلوس على كومة تراب تحت النخل. أمسح العرق بينما ينظر بْراهيم إلى ساعته. أمضينا النهار نتنقّل من مكان إلى مكان، خارج گلميم. نطوف حولها. نبتعد عنها حتّى نعتقد أنّنا لن نعود إليها ثمّ نُقفل راجعين حتّى مشارفها. ولا ندخل طريق بويزاكارن أو طريق إيفني، أو آسا، أو أيّ طريق تُبعدنا عن هدفنا. نتناوب على سرد تفاصيل العمليّة التي تنتظرنا، أنا وبْراهيم. نُزجي الوقت بهذه الطريقة الفذّة ريثما نمسك بطرف النهار الذي يبدو بعيدًا كلّما اقتربنا منه. وفي كلّ مرّة، نقول إنّ الوقت لم يحن بعد. نتنقّل أحيانًا من ظلّ إلى ظلّ؛ من نخلة إلى نخلة أكثر ارتفاعًا، رحيمة، وارفة الظلّ، بعيدين دائمًا عن هدفنا ما أمكن. كأنّما هي الطريقة الوحيدة لنتأكّد من أنّنا لن نتراجع، متحاشين الوقوف في الطرق الآهلة. أصبحنا خطرين، متحاشين دخول أبواب المدينة أو الاقتراب منها، كالهاربين، تقريبًا، ثمّ فيما بعد، متعمّدين، نسيان ما ينتظرنا

عندما تكون الشمس قد انطفأت. عندما تكون الدنيا أظلمت ولا نبقى غير أنا وبراهيم وما نتوقّع هذه اللّيلة. شهر مايو شديد الحرارة هذا العام، ويبدو نهاره أطول ممّا ينبغي للنهارات أن تكون عليه. والأماكن الظليلة قليلة خارج گلميم. مررنا في القرية المجاورة بالسوق البلديّة، واشترينا بعض الفواكه بثمن مرتفع بسبب الجفاف، وخرجنا مسرعين كما دخلنا. أمضى براهيم جزءًا من النهار ينقل السيّارة من ظلّ إلى ظلّ. يركنها تحت ظلّ بيت معزول لا يسكنه أحد، لينقلها إلى تحت جدار طيني لبيت تداعى ويبدو ظلّه أكثر إملاقًا. فضّلنا أن نبقى بعيدين عن الناس حتّى لا يتعرّف إلينا أحد. براهيم يسهل التعرُّف إليه برأسه الحليق وحاجبيه المنتوفين. كأنّما اختار شكلًا يفضحه بدلًا من أن يستره. غادر آسا وهجر التعليم واستقرّ وسط گلميم وفتح جنب بيته ورشة لإصلاح كهرباء السيّارات، حتّى يعرف جميع الناس أنّه آخر، وأنّ مهنته الأولى والأخيرة هي إصلاح كهرباء السيّارات. ثمّ ها هو يحلق رأسه وينتف حاجبيه حتّى لا يتعرّف إليه أحد. لا أفهم الطريقة التي يفكّر فيها براهيم. ربّما هي الطريقة المثلى لنقوم بعملنا على خير وجه: التخفّي بالظهور أكثر ممّا يجب، ثمّ الظهور متخفّيًا أكثر ممّا يجب. براهيم هو الذي يفهم أمورًا معقّدة كهذه. عندما قال إنّها الخامسة بدت الشمس مخيّبة للآمال. هي فوقنا كأنّما لم تتحرّك منذ الظُّهر. لا تزال واقفة فوقنا أشدّ وهجًا، ولا نيّة لها في المَيَلان قليلًا حتّى نقول إنّ الجزء المهمّ من النهار قد ولّى. يلبس براهيم لباس الصيف، أمّا أنا فما زلت في الشتاء، بثريكو من الصوف ومعطف وفكرة غامضة عن الصيف القادم. أين سنكون، وماذا سأفعل لأُرضيها مثلًا، وأسئلة من هذا النوع أصبحت تشغلني كلّما فكّرت فيها. أنا شخصيًا لا أحبّ الصيف، ولا أعرف لمَ وُجد، وأقول إنّنا سنكون أفضل من دون صيف. أكتفي بأن أنظر إلى براهيم يدخّن وأتطلّع إلى أبعد من نهاية هذا النهار؛ إلى أبعد من اللّيلة القادمة، بعد أن يكون كلّ شيء قد انتهى، ليس بسبب الخوف. أنا لا أخاف أصلًا. وبراهيم يدخّن ولا يبدو عليه خوف. يداه هادئتان، وتبدوان على هذا الشكل أكثر تهديدًا. يداه الهادئتان ذكّرتاني بالحقيبة المركونة على الأرضيّة الخلفيّة للسيّارة.

الحقيبة من خشب. وبراهيم هو الذي صنعها في ورشة إصلاح كهرباء السيّارت التي افتتحها بقصد التمويه. صنع القنبلة التي وضعها في داخلها، لأنّه يفهم في الخشب، وفي الحديد، وفي الكهرباء، وفي صناعة القنابل. يفهم براهيم في كلّ شيء. ويداه هادئتان لأنّهما غاطستان طوال النهار في هذه المواد المعقّدة والمحتاجة إلى مهارة نادرة، وهما اللتان

تتناوبان على حمل الحقيبة الآن، ونحن واقفان قبالة المستوصف، يفصلنا عنه شارع وظلمة، وبضع دُور. نراقب مدخل المستوصف الذي اشتعلت داخله الأضواء منذ ساعة. رايات مغربيّة وأخرى فرنسيّة معلّقة فوق بابه؛ تحت السقيفة حيث وقفنا نراقب الضيوف، مغاربة وأجانب، مصحوبين بنسائهم وصخبهم. والذين جاؤوا من قبل كانوا يتحرّكون تحت أضواء الصالون، أو يرقصون. أغلبهم باللّباس العسكريّ. مدّ إليّ بزاهيم الحقيبة وعاد قرب السيّارة من دون أن أسمع صوت انسحابه. والحقيبة لم تعد خفيفة كما بدت، وهي موضوعة في السيّارة، أو وهي تتنقّل بين يدَيْ بزاهيم الهادئتين. ألتفتُ إلى جهة السيّارة ولا أرى بزاهيم. لا بدّ من أنّه جالس في داخلها ويتفرّج، وينتظر. فتحت الحقيبة وضغطت على الزرّ وأعدت إقفالها، ثمّ حملتها واتّجهت نحو مدخل المستوصف. في داخل صالون المستوصف أقواسٌ مضاءة، وتوزّعت تحتها الموائد التي يجلس إليها الضيوف. الضيوف كثيرون، ومشغولون، يرقصون ويشربون ويضحكون، ويتبادلون القصص، معطّرين، متورّدي الخدود، كما لو أنّهم خرجوا قبل قليل من الحمّام، ولا أثر لروائح الدواء الأحمر والنيفتالين. على الموائد صحون مملوءة وقنانٍ وأزهار القرنفل. فاجأتني رائحتها بدلًا من روائح الدواء التي كنت أتوقّعها، وأنا أضع الحقيبة تحت إحدى الموائد وسط الصالون، بحيث يأتي انفجارها على أغلب المدعوّين؛ تحت المائدة الأقرب إلى العسكريّين الذين تزدهر على أكتافهم نجوم الضباط الذهبيّة... رأيت البطون تنفجر والمصارين تملأ الصحون بدلًا من الخُضَر والفواكه. وعدت تحت السقيفة، متمهّلًا كما ذهبت. خرج بزاهيم من الظلمة وعانقني وهو فَرِح، كأنّما كان يتوقّع أن أذهب مع الانفجار. رقرقت في عينيه دمعتان، شقتا في ليل عينيه وفي اللّيل المحيط بنا كنجمتين صغيرتين، نائيتين. وسَرَتْ في داخلي قشعريرةٌ غامضة، كأنّما أدركت فجأة أنّني لا أفهم بزاهيم، وأنّه فعلًا رجل غامض. أخذ بزاهيم بيدي واتّجهنا نحو السيّارة. ضغَطَ قبضة يده على معصمي يترك دائمًا أثرًا يدوم طويلًا. جلسنا في داخل السيّارة نحدق في مدخل الواجهة الزجاجيّة، ونتصوّر وهج النار والدويّ الذي سيخلّفه الانفجار، ونحدّق أيضًا في الفراغ الذي تركه غياب الحقيبة خلف ظهرينا. كأنّما بقي منها شيء في داخلي. في داخلي حنين يشدّني إليها. وتذكّرت ما حكاه بزاهيم عن الضفادع. كان يضع أمامها جمرات مشتعلة، تلتهمها وتبدأ تنطّ كالسكرى، وتنفجر الواحدة تلو الأخرى، كالأسهم الناريّة، بعد قفزتين أو ثلاث قفزات. طاف طاف طاف. لا ينبعث من الصالون إلى حدّ الساعة غيرُ وهج الأضواء القويّة

وصخبُ الموسيقى الذي ازداد ارتفاعًا. لن يبقى بعد قليل من كلّ هذه البهرجة غيرُ الهباء. تتحرّك الأجساد خلف الواجهة في طمأنينة مبالغ فيها. لم نسمع حتى هذه الساعة الانفجارَ المرتقب، ولا رأينا الأشلاء التي عوّلنا على أنّها ستتناثر أمامنا، والمصارين في الصحون، والرّعب والصراخ والهرولة. التفتُّ إلى بزاهيم. فتحت الباب فأمسك بيدي. منعتني يده الهادئة من مغادرة السيّارة. استمررتُ مدةً أخرى أفكّر في الرجوع إلى المستوصف والعودة بالحقيبة، ولا أعرف فيما يفكّر بزاهيم. ربّما يعتقد أنّ الانفجار لا يزال ممكنًا. وهكذا، ظللنا لمدّة طويلة، مشدودين معًا إلى التوقُّع المضطرب نفسه؛ إلى الخيبة نفسها التي أصبحت متوقَّعة. غادرتُ السيّارة في المرّة الثانية، عندما لم تعد يد بزاهيم ممسكةً بمعصمي، وبقي على معصمي آثارُ ضغط قبضته التي تشبه احتراقًا سارحًا على البشرة، أو تيّارًا كهربائيًا حملته معي كأنّما لا يزال بزاهيم، حتّى وأنا أبتعد عنه، قابضًا عليّ.

رفعتُ ياقة معطفي بفعل ريح عبرت رأسي، وقفلتُ راجعًا إلى المستوصف. يبدو الآن بعيدًا، في الطرف الآخر من الشارع، معزولًا بفعل هالة الضوء التي يسبح فيها. ويبدو حاضرًا أكثر ممّا كان بفعل اندثاره الذي لم يعد متوقّعًا. أتساءل عمّا تفعله الحقيبة تحت المائدة في هذه اللّحظة. إلى أيّ حدّ وصلت خيبتها هي الأخرى؟ وأتساءل عمّا يفعله بزاهيم في السيّارة، وأيّ فكرة يكوّنها عن نفسه، وماذا يفعل خارج السيّارة، وفي بيته، وفي ورشته. يفهم بزاهيم في صناعة القنابل التي لا تنفجر. يفهم في كلّ شيء، ما عدا صناعة القنابل. بزاهيم معلم فاشل، ومصلح كهرباء سيارات فاشل. هو شخص فاشل في كلّ ما يفعل. يداه لا تصلحان لشيء. ماذا يفعل في ورشته طوال النهار عدا إعداد قنابل فاسدة؟ مُصلح كهرباء سيّارات، قال، مع أنّه لا توجد في كلّ گلميم سوى ثلاث سيّارات وجيبات العسكر التي تخترق المدينة من دون أن تتوقّف. تكبر نقمتي عليه كلّما تقدّمت نحو بناية المستوصف. اللّه وحده يعلم ما يفعله في ورشته طوال النهار. ربّما يظلّ يصلح محرّك سيّارته الذي يصاب بالعطب مرّتين في النهار، وإنّما لا علاقة له بالقنابل وصناعتها. يداه تصلحان للبناء أو الحرث، وربّما صلحتا لقتل الضفادع كما كان يفعل عندما كان صغيرًا. صناعة القنابل، قال... صناعة لخرا... الضوء قليل بين الباب الرئيسيّ وباب البناية. يقف رجل الآن أمام الباب الخارجيّ. لم يكن موجودًا في المرّة السّابقة. قد يكون واحدًا من المدعوّين خرج يدخّن أو يشمّ الهواء فوق الطوار، أو كواحد نجا من حادث لم يقع. وهو غير

محظوظ لأنّه لن يجد ما يحكيه في الغد؛ أو حارس المستوصف عاد يحتلّ مكانه المناسب، مع أنّه لا يلبس لباس الوظيفة، ولا لباس المخازنيّة الكاكيّ؛ أو هو طفيليّ شمّ رائحة الوليمة؛ أو بوليس سريّ اكتشف الحقيبة ويتوقّع عودة واضعها لانتشالها قبل أن يُفتضح الأمر... ولماذا أغامر بنفسي لاستعادة حقيبة لا تصلح؟ لاستعادة قنبلة لم تنفجر؟ الحياة في الداخل مستمرّة، بكلّ صخبها السابق، معاندةً، مصرّة على أن تستمرّ كما كانت عندما دخلت قبل قليل. موسيقى راقصة وضحك معربد، وظلال البدلات العسكريّة التي تلمع خلف الواجهة الزجاجيّة. سلّمت على الرجل من دون أن ألتفت إليه، مارًّا أمامه من دون أن أنظر إلى جهته، وأنا أحثّ الخطوَ كواحد من الضيوف المتأخّرين، وكواحد عائد إلى مكان يعرفه؛ كواحد أصبح يفهم في أساليب المراوغة والتمويه. أنفخ في يدي كواحد عضّه القرّ. في وقت غير هذا كنت سلّمت عليه ووقفت معه لبعض الوقت نتحدّث عن المطر الذي تأخّر، وعن الشتاء والصيف، وأنواع الأمراض وطرائق علاجها. وربّما طلبت منه أن يجلب لي الحقيبة. إنّها تحت المائدة، في الوسط تمامًا... إلخ. صاحبتني هذه الفكرة المضحكة حتّى اجتزت الباب. الأكل والشراب مستمرّان، والرقص والضحك والعربدة. والحقيبة في مكانها تراقبني من تحت المائدة، فارغة من تهديدها السابق. مجرّد حقيبة خشبيّة ككلّ الحقائب الخشبيّة، لم يهتم بها أحدٌ، ولن يهتمّ بها أحد حتّى لو وضعتها فوق المائدة.

لم أجد بَراهيم ولا سيّارته عندما رجعتُ. توغلت في الظلام أبحث عنه في الأزقّة العموديّة المتفرّعة في الشارع. اختفيا. لم أعثر عليه حيث كانت السيّارة مركونة. هل كان بَراهيم سينجح بصحبة شخص آخر غير هذا الأسود؟ أنا شخص لا يصلح سوى للمشي وعبور المسافات الطويلة كأيّ دابّة، والقيام بعمل لا يتطلّب مهارة استثنائيّة كتوزيع الرّسائل. أسود تافه. الأسود لا ينجح في أيّ شيء يحتاج إلى ذكاء وتركيز كوضع قنبلة في مكان آهل بالمدعوّين. هذه هي الخلاصة. قد أكون وضعت الصندوق بالمقلوب. ولمَ لا؟ هذا أمر وارد أيضًا، وسيكون أمرًا مضحكًا... هادا واحذ الضّراوي حظ الصندوق بالمقلوب... وقد أكون حرّكته أكثر ممّا يجب وأنا أعبر الزنقة المظلمة. كلّ هذا ممكن، لأنّني شخص لا يُحسن أيّ عمل يتطلّب التفكير. نظرت إلى كفّيّ وقلبتهما عدّة مرّات وأنا أقول: أنا إنسان تافه فعلًا. وإذا كان بَراهيم قد اختفى فلا بدّ من أن شيئًا قد وقع. هذه الفكرة غير صحيحة تمامًا. يستطيع بَراهيم أن يختفي حتّى لو لم تعترضه حادثة. يستطيع أن يختفي بالضبط في اللّحظة التي تعتقد فيها أنّه لن

يختفي، كالريح والمطر والغيوم؛ ككلّ شيء هشّ؛ كالضباب. نعم، بدا لي لحظتها كما لو أنّني كنت أتوقّع منه أمرًا كهذا. ليس بسبب خيبته أو فشل قنبلته، وربّما بلا سبب وجيه. فقط لأنّه بِراهيم؛ الرجلُ الغامض نفسه الذي عرفته عندما كنت موزّع رسائل. لا يحضر عندما تكون معوّلًا على حضوره. لا يدلّك على عنوان المكان الذي تسأل عنه. لا تعرف متى يكون صادقًا ومتى يمزح. مع بِراهيم كلُّ شيء ممكن، ومنتظَر، ومتوقَّع. البرد زادت لسعاته، ولن أشعر بدفء زائد إن أنا رفعت ياقة معطفي مرّة أخرى. واقف في الشارع الفارغ، والحقيبة في يدي، كمسافر نسي العنوان الذي كان يقصده؛ والموسيقى مستمرّة هناك بعيدًا، في نهاية الشارع، في مكان صار مجهولًا ولم تعد تربطه بنا علاقةٌ واضحة. انتهت عمليّة هذا اليوم الاستثنائيّ من دون أن تنتهي. إنّها لم تنتهِ. لا تزال الحقيبة في يدي. ربّما فتحها بِراهيم في ورشته المزعومة وأصلحها وعدتُ بها إلى المستوصف، إلى المكان نفسه، إنّما بلا مدعوّين، وبلا موائد، وبلا احتفال، لأنّه سيكون انتهى، بلا موسيقى ورقص. وازداد الضجيج في هذه اللّحظة. إنّها اللّحظة المناسبة، حتّى لا يسمع أحد دويّ الانفجار الهائل. أصختُ السمع كما لو أنّ الحقيبة لا تزال في مكانها تحت المائدة؛ كما لو أنّ كلّ شيء لا يزال ممكنًا. ولكن بِراهيم اختفى هو والسيّارة. وحتّى إذا ظهر الآن، فلن تزيد الحكاية على أن تصبح مضحكة، لأنّه سيُطلّ من داخل الحقيبة ويفتح فاه متعجّبًا وهو يقول إنّه لا يفهم لماذا تعطّل العدّاد. وفي حال أنّه أصلحها، وعدت بها مرّة أخرى إلى المستوصف، مَن قال إنّها ستنفجر هذه المرّة؟ سنجلس داخل السيّارة ولن نكون أقلّ تفاهة ونحن ننتظر أن يقع هذا الشيء الذي لم يقع في المرّة الأولى، والذي لن يقع في المرّة القادمة أيضًا، ولا في أيّ مرّة أخرى، لأنّ بِراهيم لا يفهم في أيّ شيء. لا يعرف غير منظّمة اسمها أبطال الحرّيّة المتوكّلة على اللّه، والتي لم يسمع بها أحد، وربّما لا وجود لها سوى في ذهنه. وماذا سيقول في هذه الحالة؟ هل سيقول لا أفهم لماذا تعطّل العدّاد، أم إنّ شحنة البارود انقطعت عن الفتيلة؛ أم إنّ البارود فاسد من أصله... أم سيصرّ على أن نعيدها إلى الورشة لنعرف سبب العطب. وفي جميع الحالات، فإنّه لن يعتذر. لن يقول أبدًا إنّه لا يفهم في هذه الصناعة، ولا في أيّ صناعة أخرى. لن يقول إنّه إنسان تافه ولا تصلح مرافقته إلى أيّ مكان، ولو إلى الحمّام... وفي جميع الحالات، سيظلّ بِراهيم شخصًا لا يفهم، لا في صناعة القنابل، ولا في إصلاح أعطابها، ولا في إصلاح أعطاب السيّارات، ولا في أيّ شيء... رفعت ياقة معطفي واتّجهت إلى الورشة مرتميًا في أوّل زنقة متربة حتّى لا أسمع وقع

خطواتي خلفي على الأسفلت، أو خطوات أخرى أكثر تهديدًا. لا أتوقّع أن أعثر على براهيم في ورشته. أتوجّه إلى الورشة ولا أتوقّع أن أرى السيّارة مركونةً أمامها، ولن أجدها أمام بيته الملاصق للورشة. هذا أيضًا وارد. ولا أعرف مكانًا آخر أتوجّه إليه، عدا بيت بناصر، ولكنّه مغلَق لأنّه عاد إلى بيت الوالد، وعليّ قبل كلّ شيء أن أفكّر في التخلُّص من الحقيبة بدلًا من أن أضيّع الوقت في البحث عنه.

الدنيا مضاءة خارج گلميم. أنتبه، لأوّل مرّة، إلى أنّ القمر فوقي كامل الاستدارة، وأنّ الأرض حولي تعجّ بآلاف الحيوات الخفيّة. تزحف التماعات أجنحتها على وجه الأرض. تسمعها تدبّ حولك وتحت التراب الذي تتحرّك عليه، أم هو تكتكة القنبلة في داخل الحقيبة؟ أتوقّف عن المشي وأتنصت. تختلط عليّ أصوات الصمت. أنحني عليها وَجِلًا وأضع أذني على الخشب البارد، وأسمع القنبلة تحيا من جديد. تك تاك تك تاك تك تاك... تستيقظ متأخِّرة، أم في الوقت المناسب الذي حدَّده لها براهيم. أنعشها ضوء القمر، وجدَّد حرارتها التي فقدتها عندما كنّا في حاجة إليها. تك تاك تك تاك تك تاك... يستطيع براهيم أن يضبطها على زمن آخر غير زمن المستوصف. يستطيع أن يفعل هذا أيضًا، ومن الأحسن أن أبقى بعيدًا عنه. ومن الأحسن أن أبقى معه لأعرف ما يدبّر. هذا ما كنت أقوله دائمًا. براهيم تحرّكه الألعاب المبهَمة منذ كان طفلًا، كتفجير الضفادع، أو أشياء أخرى أكثر لؤمًا. سيظلّ، بالنسبة إليّ، إنسانًا ملتبِسًا لا يمكن الوثوق به. ومن الأحسن تجنُّبه، عكس ما كنت أقول في السّابق، لأنّه لا ملّة له ولا دين. يفجر ضفادع لسنا في حاجة إلى انفجارها، ويصنع قنابل لا تنفجر عند الحاجة إلى انفجارها، ويضبط انفجار القنبلة على زمن آخر غير زمن المستوصف حتّى أنفجر معها. أضع الحقيبة على الأرض وأبتعد. تأخذ الحقيبة شكلًا مهدّدًا تحت ضوء القمر الفضيّ الزرقة. هضبة أو جبل أو بركان. أبقى مأخوذًا مدّة طويلة بوضع لم أكن أتوقّعه، وأصيخ السّمع، أتنصّت على دبيب الأرض حولي وحول الحقيبة التي أصبح منظرها أكثر جاذبيةً ممّا هو في الواقع. أفكّر في براهيم من جديد، وأقول إنّه يراقبني الآن من مكان ما. عيناه مخترقتان ستارَ الظلمة؛ متربِّصتان؛ مترصّدتان حركاتي. وأنتظر أن يظهر في الوقت الذي تهتزّ فيه الواحة بكاملها على دويّ الانفجار، وتنسحب كلّ الحيوانات اللّيليّة مذعورة. لا أعرف في أيّ ساعة وصلت تحت القنطرة، مهدودًا من المشي والتفكير في المشي؛ مهدودًا من تركة نهار زائد لا ضرورة له. فتحت الحقيبة وفَصَلت أجزاء القنبلة، بعضها عن بعض. لمست الفتيلة. هذه فكرة أخرى لا أعرف إلى أيّ

مدى هي مضحكة؛ أن تنفجر القنبلة بين يدَيّ وتطير أطرافي بدلًا من أطراف ضيوف المستوصف الذين سيستمرُّون حتَّى الصباح يرقصون ويضحكون ويأكلون ويشربون ويتبادلون النكات بالفرنسيَّة، إنَّما من دوني. ولن تكتمل فرحة بَراهيم لأنَّه لن يرى أشلائي وهي ترقص في رياح الصحراء اللَّيليَّة.

الخميس 15 مايو 1958

وصلت إلى البيت على غير ما كنتُ عندما غادرته، مشوَّشَ الذهن. وانتبهت، باستغراب مفاجئ، إلى أنَّني غادرته بالأمس، وأنَّنا أصبحنا في الغد. مرَّ يوم كامل من دون أن أنتبه إلى مروره. طويل بلا فائدة. لم يأتِ الغد كما كنت أتوقَّع، عامرًا بالتوقُّعات، فارغًا على الرَّغم من ذلك. وقفت في الفناء المظلم. ينام العجوزان وباب غرفتهما مفتوح. وهذه رائحتهما، ساخنةٌ كالبخار. رائحة قديمة، حامضة، منفرة، رائحة البلى تفيض في الغرفة لتنتشر في الأركان الأخرى. رائحة كلّ شيء منتهي الصلاحية. بقيت لمدَّة طويلة واقفًا في الظلمة. تهديد ما رافقني منذ غادرت القنطرة. دخل معي البيتَ وسكن في أجوائه. استقرَّ في ثناياه، واستقرَّ في العينين والأذنين وتحت البشرة. ينام بناصر في الطابق الأعلى. أتوقَّف عن التنفُّس حتَّى أرى ما يحدث حولي، وأتتبَّع ما يقع وراء الجدران. العجوزان كأنَّما يتنفَّسان من خلال حنجرة مفتوحة. يشبه شخيرهما حشرجة شخصين مذبوحين. فمواهما فارغان من الأسنان، لأنَّ الطقمين يرقدان في كأسين على الدولاب، بحيث يمضيان اللَّيل وهما يتفرَّجان على العجوزين المضحكين ويتبادلان لكز أحدهما الآخر، ويُصدران أصواتًا غريبة؛ همهمةً بهيميَّة آتية من جنح اللَّيل. وربَّما كان العجوز ينام بالملابس الجديدة التي ارتداها بمناسبة انتظار شخص سيأتي في الغد، إلَّا أنَّ الغد غير موجود. لا، لقد نسيه، ولم يعد يذكر لماذا يرتدي الملابس الجديدة التي وضعها على ظهره قبل خمسة أيَّام. لا ينير خطواتي بين الغرف والبهو غيرُ الضوء الآتي من الخارج. سمعت طَرقًا خافتًا على الباب، مع انتشار ضياء الصباح الأولى، وتسمَّرتُ في مكاني مراوحًا بين الخوف والدَّهشة، ذلك بأنَّني لم أسمع محرِّك سيَّارة كي أقول إنَّه بَراهيم. وشاحنة بناصر تركتها واقفة عند الباب قبل أن أدخل. ولم أسمع وقع خطوات هادئة، متفائلة، حتَّى أقول إنَّه شخص يريد بي خيرًا. فتحت الباب ولم أجد أحدًا. ريح باردة تمرّ. ريح طلائع الفجر. خطوتُ خارج البيت ووقفت لمدَّة أنظر في الاتِّجاهين، وأفكِّر فيما تركه الطَّرْقُ على الباب من تساؤل، ومن فراغ. أغلقت الباب وعدت إلى وسط البهو. وأشعلت هذه المرَّة كلّ الأضواء، بما فيها ضوءُ المرحاض،

وجلست في داخله، ومسحت عَرَقًا غير موجود، وغسلت وجهي، ثمَّ غادرت المرحاض ورحت أعبر بهو البيت من جديد. فتحت في المرَّة الثانية البابَ من دون أن أسمع طَزقًا، أو ربَّما سمعته أو تخيَّلته. وتحوَّلت رهبتي هذه المرَّة إلى رعب حقيقي. قد يكون أحد اكتشف الحقيبة تحت المائدة على الرَغم من أنَّني انتشلتها وكسرتها قطعًا صغيرة ورميتها تحت القنطرة. وقد تكون القنبلة انفجرت على الرَغم من أنَّني فتَّتُّ الفتيلة ونثرت البارود في الريح. ولماذا لا يكونان الرجلين المشبوهين؟ تذكَّرت ما قاله بِراهيم المعلّم في أثناء رحلة الصيد غير المثمرة، عندما هربت الغزالات. سألني هل طَرَق بابَنا رجلان مدَّعيان أنَّهما يبيعان الزرابي. هذان صيَّادان متدرِّبان، قال. وهل تعرف أيّ نوع من الحيوان يصطادان؟ إنَّهما متخصِّصان باصطياد العبيد. يعرف بِراهيم هذا أيضًا، لأنَّ له علاقات بكلّ الدوائر. تغيب عنه التفاصيل، كما قال، ولكنَّهما جاءا للعثور على عبد ناقص في لائحة عبيد القصر المَلَكي. تركت الباب مفتوحًا. لم يضحك بِراهيم. لماذا أسمع، إذن، كركرته المجلجلة وراء ظهري وأنا أركض مبتعدًا عن البيت، ومفكِّرًا في أنَّ أحسن ما قد يقع لي هو أن أبقى راكضًا إلى ما لا نهاية.

محطة الترام

الأربعاء 12 نوفمبر 2012

ظلا يمضيان في السّابق، النهارَ وجزءًا من اللّيل، في بهو محطة القطار منذ أن تقاعدا عن العمل. اشتغلا في الجهاز لعقود إلى درجة أنّهما وجدا نفسيهما عاجزَين عن الجلوس من دون عمل يكون في مستوى عملهما السابق، بالصرامة نفسها والنجاعة واليقين ذاتيهما. يراقبان العابرين في المحطة. المسافرون في محطات القطار ليسوا الأشخاص الرزينين أنفسهم، والعاقلين، والذين كانوا قبل قليل يتحدّثون إلى ذويهم. ما إن وصلوا إلى المحطة حتّى شملهم التغيير الذي يشمل كلّ عابر محطة. ينتاب عابري المحطّات نوعٌ من النزق والطيش والخفّة، والميل إلى البوح. تستطيع هنا أن تلتقط الأخبار وهي طازجة. تأتيك الأخبار وهي ترقص. انتقلا من بهو محطّة القطارات إلى محطّة الحافلات. وهي محطّة جديدة وواسعة ومريحة بُنيت على أرض تسقي أولاد زيّان. إنّه المكان الوحيد الذي لا تُغلَق أبوابه. على أيّ، لا توجد فيه أبواب حتّى تُغلَق. وهو المكان الوحيد الذي يمرّ فيه الناس بهذا العدد وهذا القَدر من الاختلاف، أكثر ممّا كانت عليه الحال في محطّة القطارات. يتفرّجان على الحافلات وهي تغادر أو تعود محمّلة بالمسافرين، في اللّيل والنهار. يمرّ من هنا فقراء البلاد بأفكارهم الهدّامة، ونيّاتهم المخرّبة... يخفّفان عمل كلّ واحد وسنّه وانتماءه الجغرافي أو القبلي، ويختلفان فيما يتعلّق بتواطئه في عمل لا يُبيحه القانون، وفي درجة العقوبة التي يستحقّها... هذا ما بقي لهما من عمريهما الطويلين والحافلين: ملفّاتٌ مرتجلة وأحكامٌ ملفّقة وأرقٌ مزمن. لقد أصبحوا ثلاثة الآن بعد أن انضاف إليهم موزّع الرّسائل السّابق؛ بوابُ إحدى العمارات في شارع يقود إلى محطّة القطار، قرب محطّة بنزين مهجورة. شقّته صغيرة جنب المصعد. فيها كلّ ما يحتاج إليه رجل متزوّج ومن دون أولاد. فرن علاه الصّدأ وثلاجة صغيرة، ورفّ عليه مجلّات قديمة. ولديه عدّة أصص أزهار تزيّن مدخل العمارة، وتسعة أقفاص تصدح فيها طيور الكاناري والحساسين حتّى الرابعة ظهرًا عندما تنتقل الشمس إلى الجهة الأخرى من الشارع. ينتقل إلى الحيّ المحمديّ ليشتري لها الزوان من ماله الخاصّ لأنّه أرخص في هذه الحوانيت الشعبيّة، وحتّى يتريّض قليلًا. أصحاب الشقق سعداء، لأنّه بالإضافة إلى حراسته العمارة وسقي الأصص وإطعام الطيور، يأخذ خبزهم إلى الفرن ويغسل سيّاراتهم ويُفرغ سطولَ القمامة ويغسلها، ويضحك مع أطفالهم عندما يسألونه لماذا

لا تشبه بشرته لون بشراتهم. محظوظون لأنَّ لهم مثلَ هذا الرجل الحاذق، والمخلص، والمتمتّع بخصال العبيد القديمة، والمتفاني. يقولون فقط عندما يحاولون العثور على عيب فيه: خسارة أنَّه لا يصلّي... لا يسمع نافع ما يقولون. حاسّة السمع نالها الوهن. لم تلحق بالجسد خسائرُ فادحة، ما عدا ضغط الدم المحتاج إلى حبوب مدى الحياة. أمّا حاسّة السّمع، فإنّه لم يعد في حاجة إليها، كما اللّمسُ والذوق والنّظر. كلّ الحواس زائدة الآن. ولكنْ، لا أحد منهم يعرف. كلّ الذين يسكنون فوقه؛ أصحاب الشقق العصريّة والعربات ذات المكيّفات الهوائيّة، والمهرّبة من الجمارك بلا رسوم، والأطفال الجميلون الذين يتابعون دراستهم في مدارس البعثات الأجنبيّة، وكلابُهم المدلّلة ذاتُ الفرو الناعم والهابط حتّى الأرض ويلزمه حلّاق ماهر في شارع محمّد الخامس حتّى يبقى ناعمًا ونازلًا حتّى الأرض، وقططُهم الفارسيّة التي تأكل في صحون من الخَزَف مستورَدة من ليموج... جاء من گلميم قبل نصف قرن، متجوّلًا بين المدن، متنقّلًا من عمل إلى عمل، حتّى رسا في هذا العشّ المتواضع.

كانوا ثلاثتهم واقفين في العاشرة صباحًا على رصيف السكة، يستعدُّون ليستقلُّوا الترام. ثلاثة مهرّجين في ملابسهم الفلكلوريّة. هم لا يقصدون أيّ مكان. لن يذهبِ إدريس الأوّل وإدريس الثاني إلى محطّة الحافلات هذا النهار. لن يعرفا، استثناءً اليومَ، التحرّكاتِ المشبوهةَ التي ستحدث داخل المحطّة وحولها. ولن يذهب موزّع الرّسائل إلى السوق لشراء الزوان. لن يضيّعوا فرصة ركوب القاطرة العصريّة مجّانًا. على وجوههم هشاشةُ الذين يستعدُّون لتغيير الجوّ ونفض الغبار عن القشرة العتيقة التي تكبس عليهم. يقفون بصعوبة، كما قطعوا بصعوبة المسافة ما بين اليوم الذي أشعل رجلٌ النارَ في جسده احتجاجًا على أمر لم يعد من الضروريّ الاتّفاقُ بشأنه، واليومِ الذي سينطلق فيه ترامُ الدار البيضاء.

خرج إدريس الثاني متنكّرًا في زيّ بائع ثلج، في تلك اللّيلة البعيدة؛ آخرِ ليلة لهما في گلميم. لأوّل مرّة ولآخر مرّة، توقف أمام دكّتي الطاحونة حيث جلس الشبان، قادمين من الأحياء المحيطة. ليست المرّة الأولى التي يراهم فيها جالسين على الدكّة نفسها، قبالة فندق الحظ السعيد، وفي نهاية ظهيرة مثل هذه. إنّهم اليوم أكثر صخبًا. ينتظرون أن تطلّ عليهم الفتاة ليملأوا خزان ذاكرتهم القاحل، معتقدين، في كلّ جلسة، أنّها المرّة الأخيرة التي يرون فيها ذراعين وساقين وشعرًا طويلًا، حتّى يمرّ نهارهم بخير، ومجتمعين مع ذلك حول فكرة غامضة. توازُنُهم مختلّ أكثر من

المعتاد. في أذهانهم صورةٌ مقلقة لفتاة غريبة، قادمة من أگادير، من البحر، من الشاطئ الذهبي، المشمس. لا تشبه فتيات گلميم، ولا تشبه فتيات النواحي، ولا تشبه أيّ فتاة. يرون لأوّل مرّة في تاريخهم الحافل بالاحتلام المضطرب، جسدًا ينتمي إليهم ومختلفًا عنهم، ويسير بلا خوف بمحاذاة رغباتهم المؤجّلة. لم يروا جسد امرأة في حياتهم. حتّى عندما ينامون مع نسائهم، فإنّهم يُطفئون الضوء مفضّلين الصورة التي في أذهانهم، أو محلّقين مع أجساد مبهَمة، لا يعرفون لمن تكون. ينامون مع جسدين: الحقيقي، الذي يظلّ متدثّرًا، متواريًا خلف ظلامين، اللّيل والثوب الأسود؛ والآخر، الفاتن، القمريّ اللّون، والذي يسبح في خيالهم، ويذكّي شهوتهم ويؤجّج نار شبقيتهم. سعداء وهم ممدّدون بين جسدين، بين فكرتين، بين عصرين. لا تشبه هذه الفتاة نساءهم. تلبس مثل الفرنسيّين، التنّورةَ القصيرة والحذاء العالي، وتقرقع الضحكة الطلقة، وترتدي قميصًا بلا كمّين. وسترافقهم هذه الصورة هذا المساءَ وجزءًا من اللّيل، يسهرون معها، يهدهدونها، يغنّون لها أناشيد الغرام ليأخذوها إلى فراشهم في نهاية السهرة. زادهم الاستثنائي، لأنّنا في يوم استثنائي، وقسطُهم لهذا النهار من قبس الضوء قبل أن ينطفئ؛ صورةُ المرأة النابضة بالحياة بدلًا من الثوب الذي يغلّفها.

واجهة فندق الحظّ السّعيد مضاءة أكثر من المعتاد. وعُلّقت حول الباب الرايات الفرنسيّة والمغربيّة والبالونات الملوّنة، لأنّ صاحبة الفندق محتفلة بالعيد الوطني الفرنسي. وبدأت الموسيقى الراقصة تصدح باكرًا. فرنسيّو المدينة، موظّفين وجنودًا ومرتزقةً، يذهبون إلى الشارع ويدخلون الفندق، تتأبّط أذرعهم فتياتٌ أجنبيّات يلبسن تنانير قصيرة تكشف عن ربلاتهنّ السّمينة. واليوم يومُ احتفال، والسهرة طويلة، والواجهة مضاءة بحيث يستطيعون أن يروها، من مكانهم على الدكّتين، أو على كراسيّ المقهى الشعبي، مقتفين حركاتها من خلال صدى ضحكاتها، متنبّئين باللّحظات التي ستزهر فيها ضحكاتٌ أخرى، في جهة ما من الفندق. ضحكات لم تأتِ بعدُ، ولكن وعودها حاضرة كهذه النجوم المتلألئة في السّماء. وجاء بعض الجنود الإسبان حتّى من إيفني ليشاركوا في الاحتفال. وهذه معجزة أخرى لم يكن يتوقّعها أحد. معجزة صغيرة. سيّارة الجيب التي جاءت بالجنود الإسبان وقفت وسط الساحة ووضعت على الأرض قصعتي كسكس كبيرتين. أكلوا محتواهما في وقت قياسي، وعادوا إلى جلستهم تحت طاحونة لم تطحن زرعًا كثيرًا هذه السنة. وظهر، آنذاك فقط، الجوعُ الذي يعضّ أحشاءهم. نسوا تمامًا أنّهم جائعون. أليست هذه

معجزة حقيقيّة؟ وهذا الكسكس اللّعين أيقظ وحشًا غافيًا. يستطيعون، في هذه اللّحظة، أن يأكلوا المدينة، بناسها ونخلها ومبانيها. ومزّ بائع الثلج، الذي ليس سوى إدريس الثاني في أثناء عمله، ليضع على موائد المقهى الشعبي قطعًا ثلجيّة تروي عطشهم. ليجلس بينهم كأيّ بائع تمرّ أو لوز أو زعتر. واستغلّها بعضُ الزبائن ليضعوا بعض الثلج فوق رؤوسهم حتّى تخفّ درجة الحمّى التي تُلهب عقولهم. وعادوا إلى دكّتهم. إنّهم يحتفلون بطريقتهم. أمّا إدريس الأوّل فإنّه بعد أن صحا من سكرة استمرّت ليلة كاملة، التحقَ بالفندق واعتلى كرسيًا في ركن الكونتوار ليتفرّج على جيجي وهي تمشي وتجيء أمامه من دون أن تتصدّق عليه بالتفاتة واحدة، كما في العديد من اللّيالي التي سبقت. الطاحونة صامتة لأنّه لم يعد هناك ما يُطحَن. تكون حرارة الطقس قد خفّت في هذه السّاعات الأولى من اللّيل. ويهبّ من جهة الغرب نسيمٌ بحريّ جاهد ليصل من إيفني حتّى هنا. هل جاء مقتفيًا أثر السيّارة الإسبانيّة؟ بائع الثلج جالس على سطيحة المقهى الشعبي المظلّلة بالقصب، جنب الطاحونة. إنّه يفكّر في الوضعيّة الحرجة التي وصلا إليها، بعد ثلاثة أشهر من التحرّي، لا يزالان في البداية. لن يستطيعا العودة من دون العبد، في أيّ حال. والحلّ؟ لا يوجد حلّ. ومن يقُلْ لا توجد مشكلة من دون حلّ يكذبْ. ومَنْ يقُلْ إنّ الحلّ موجود دائمًا يكذبْ على نفسه أوّلًا. ولماذا لم يقع اختيارهما على أيّ واحد من السّود الموجودين في المدينة؟ أو هنا على سطيحة المقهى؟ فثمّة ثلاثة سود يتوزّعون بين كراسي المقهى والدكّتين. أيّ واحد من هؤلاء كان سيقوم مقام العبد الناقص في لائحتهم. لماذا اكتفيا بالجري وراء هذه العائلة المنحوسة؟ كان هذا اقتراحه منذ البدء. ولكن إدريس الأوّل لا يحبّ الاقتراحات التي تأتي من جهته. وإذا كان هناك شخص يتحمّل مسؤوليّة فشلهما...

عرجوا على المحلبة قبل الوصول إلى محطة الترام، واشترى إدريس الأوّل حلوًى لأنّه يشعر بثقب كبير في المعدة... هذه القرحة... مجبر على أن يبتلع شيئًا كلّ أربع ساعات، كما نصحه الطبيب. وقال له صديقه إنّه ليس من مصلحته أن يبتلع هذه القمامة لأنّ جسمه تنخره كلّ أمراض الدنيا... ثمّ عندما رأى أنّه غير مهتمّ، متذكّرًا فجأة أنّه كان يأكل رأس خروف كاملًا بعينيه وأذنيه، أضاف: عندك كرش ولا زبالة؟ ثمّ: وانت آش كتاكل؟ هذا السّؤال موجّه إلى نافع؛ الرجلِ صاحب المعطف الرماديّ والطاقية المذهّبة، موزّع الرّسائل السّابق...

ما كناكلش... فيا القبض... هادي ثلث أيّام ما...

وفي الأيّام الأخرى؟

قال نافع: الشعير... في الصباح وفي اللّيل... أنا وامرأتي... بحال البغال.

استغلّ موزّع الرّسائل السّابق، والذي يعمل الآن بوابًا لعمارة من سبعة طوابق، المناسبةَ ليطلب كأس ماء قبل أن يُخرج من جيبه علبة دواء ضغط الدم ليرمي في فمه حبّة منها، ثمّ يسأل التاجر هل يوجد دكان قريب يبيع الزوان...

لا، الزوان في السوق أخاي...

وضحكوا مرّة ثانية. يحرّك إدريس الأوّل شدقيه بصعوبة، من دون شهيّة. تقطّع أصابعُ اليد السليمة الحلوى، مرتعشةً، كأنّما لمَ تعد تعرف لم تَصلح الأصابع. تصعد في حركات مضطربة في اتّجاه الفم المشرّع، بينما يسقط الفتات على صدره فوق المعطف ذي المربّعات الخضراء والصفراء... في حين أنّ اليد الأخرى، الميّتة، نائمة جنبه بلا حراك. يد البواب، هي التي تحرّكت لتنفض الفتات وهو يتساءل هل وُلد الرجل ويده معطوبة؟ وقال نافع وهو ينفض الفتات: الصحة هي كلشي...

وسأله إدريس الثاني هل عنده أولاد؟

لا...

إنّهم الآن ينتظرون الترام الذي قد يظهر في الجهة الأخرى من الشارع، متسائلين، شأنُهم شأنُ جميع الواقفين، عن شكل القاطرة العصريّة التي ستظهر بعد قليل، وعن لونها وسرعتها. يسخر الواقفون جنبهم من تأخُّر الترام. إذا كان هناك ترام حقيقة، وإذا كان فعلًا سينقل ركّابًا، فإنّ النهار لن ينتهي حتّى يكون دهس بعض المارة، أو بعض العربات بحميرها. إدريس الأوّل وإدريس الثاني غير راضيين. ما زلنا في اليوم الأوّل، وقد بدأ يظهر على جوانب المحطّة بعضُ الباعة المتجوّلين وعددٌ كبير من السُّود الذين عبروا الصحراء حتّى محطّة الترام ليشحذوا قُوتًا لم يعثروا عليه في بلدهم. لن يمرّ الشهر حتّى تكون جنبات المحطّة قد احتلّها السُّود بالكامل، بالإضافة إلى الشحاذين المحترفين من أصحاب العاهات، والبغايا والشذّاذ مثل الذين كانوا يداهمون عزلتهما في الأقبية السفلى لمحطة الطرق أولاد زيان. وسمع ناقوس الترام وهو يرنّ في اللّحظة نفسها. وظهر في رأس الشارع، مقدمتُه أوّلًا، وهو خارج من بين المباني، يزحف على

بطنه كالثعبان...

مساعد ضابط الاستعلامات
الذي يسمّى إدريس الثاني

السبت 17 مايو 1958

اكتشفنا أنا وإدريس الجثّة باكرًا، تحت السور، بحيث يصعب رؤيتها على الذين يدخلون من الأبواب، وغرضهم شراء جَمَل وليس البحث عن جثّة مرمية بين العشب اليابس والورق المستعمَل والقناني الفارغة، وبين قوائم الحمير المربوطة خارج السوق، وسط بعرها وبولها ونهيقها. الجِمال الموريتانيّة والماليّة معروضة في الزريبة قبل طلوع الفجر، والزريبة في مكانها المعهود، في أقصى السوق، قريبة من السور. ولكنّ الذين سيذهبون حتّى السور ويُطلّون من خلفه ويفغرون أفواههم من الدّهشة أو الذهول، مشغولون الآن. جالسون تحت الشجر يساومون على ثمن هذا الجمل الأحمر، السديس، الذي شاهد حروب المنطقة كاملة... أو يحاولون أن يعثروا على الجمل النادر، ليس الموريتاني، بل الجَمل المالي الذي يشمّ موقع الماء على بعد مسافات بعيدة... والآخرون، في الجهات الأخرى من السوق، مشغولون بعرض مزايا بضائعهم والتنبّؤ منذ الآن بما سيؤول إليه النهار... سيكون يومًا حارًّا كسائر الأيّام التي سبقت. وبدورنا، أمضينا بعض الوقت ونحن نرفع قائمة هذا الجمل أو ذاك لنعاين صلابة الخفّ وعرضه، كتاجري جِمال محترفَين، باللّباس والعبارات والروائح والأشياء الأخرى. والجثّة لن تعلن عن نفسها، لا من خلال الرائحة التي لم تتجسّد بعدُ على شكل ذرّات كريهة كتلك التي تطلقها جثث الكلاب، ولا من خلال الصوت الذي بقي محبوسًا في الحنجرة ولم يجد الوقت ليبدأ عمله هذا النهار... ها الزاگوري جا... إنّه تحت السور؛ الرجلُ القادم من زاگورة البعيدة. آخر نهار في حياته على هذه الأرض. الفم مفتوح والعينان جاحظتان إلى حدّ بعيد، ليس إلى حدّهما الأقصى، كأنّما لا يزال أمامهما المجال للاتّساع أكثر؛ كأنّما لم ينتهيا بعد من التساؤل عمّا تعرّض له الجسد الذي ظلّ يحتضنهما. القليلون الذين تجمّعوا حول الجثّة لم تجذبهم الجثّة بقدر ما جذبهم شكلها الغريب: عارية، ملطّخة بالتراب، والدم يغطي الخصر وقد كوّن قشرة ثخينة غامقة فوق البشرة السوداء؛ قشرة سوداء ثانية حول الخصر وحول الفخذين. والقبضتان مضمومتان، والأظافر انغرزت في لحم الكفّ كأنّما لا تزال تعاني حرّ الألم، برِجل مثنيّة تحت الساق. لم نرَ الثقب المَهول إلّا عندما حرّكنا الجثّة ووضعناها تحت ظلّ الشجرة. كما لو أنّ حيوانًا مفترسًا نهش خصيتيه واقتلعهما من جذورهما. وحتّى عندما رمينا على الجثة ثوبًا

استمرَّ الثقب بما فيه من دم أسود مختلط بسائل لزج أصفر يهبط من تحت الذَّكَر في قطرات ثخينة، يلمع في الأذهان، مفتوحًا، وأكثر خواءً، وغائرًا. ماذا وقع للزاگوري بائع التمر؟ السُّؤال لم يطرحه أحد. ثملنا جميعنا بالمنظر الموفور بسخاء تحت أبصارنا، ولن تجدي الكلمات وكلّ ما يخرج من الأفواه من استنكار وسخط ومواساة. وتدلّ الهمهمات على هول الكارثة، خارج كلّ شرح، بعيدًا عن كلّ رؤية واعية. استمررنا مصدومين لأنَّنا نعرف الرجل؛ بائعَ التمر القادم من زاگورة. اتَّفقنا، جميعنا على أنَّ السوق لا يبدأ صباحها حتَّى نسمع صوته العالي متردِّدًا في السوق وخارجها... ها الزاگوري جا... لم يترك سوقًا لم يُسمع فيه صوتُه. وقد سبق لي أن سمعت الصوت في أقصى الشمال، ذات سبت، في سوق واد لاو... ها الزاگوري جا... ماذا وقع له في اللَّيل والناس نيامٌ؟ ما الذي أتى به حتَّى سور السوق؟ ربَّما غادر خيمته ليقضي حاجته كما يفعل الجميع، ولم ينتبه إلى القاتل المختفي خلف الشجرة. وقال إدريس الأوَّل، وربَّما إنَّه لم يمت في المكان نفسه الذي عثرنا فيه على جثَّته. قد يكون مات بعيدًا، وجرّه قاتله، للتمويه، حتَّى هذا المكان.

نتذكَّر الآن مزاياه. رجل مسالم يتاجر في كلّ أنواع التمور بلا غش، متنقِّلًا عبر كلّ الأسواق بسلعته المتميِّزة والمتنوِّعة: بوفقوس والجيهل والبوسثحقي، وبصوته العالي، الرنَّان: ها الزاگوري جا... ها الزاگوري جا... نذكر أيضًا وحدته. رجل أعزل، لم نره بصحبة مساعد أو شريك. ثمَّ انكببنا نعاين الجثَّة من جديد قبل أن ننقلها على ظهر عربة إلى الخيمة التي يبيع فيها تمره في انتظار أن يجيء جار يعرفه أو قريب... الجسد بلا رضوض أو جروح، أو حتَّى خدوش تُستَشَفُ منها معركةٌ أو مقاومة. سليم تقريبًا لولا ما حلّ بأسفل الخصر. هذه ليست فعلة ضبع أو ذئب أو أفعى. فكَّرنا في كلّ حيوانات المنطقة، ولم نعثر على حيوان يعشق من جسد الإنسان الخصيتين من دون غيرهما. قد تكون تصفية حساب بين زوج وعشيق اكتُشف نهارًا في سرير الزوجيَّة لأنَّ الرجل عاد من العمل في وقت لم يكن يتوقَّعه العشيق أو المعشوقة. ممدَّدان في الفراش الذي ظلَّ فراشك لأكثر من عشر سنوات، مرتاحا البال، والعشيق يضع يديه تحت رأسه، سعيدًا، يستمع إلى امرأتك وهي تحكي له النِّكاتِ عن بخلك أو رائحة فمك أو عن عَجزك. تصوَّب، في لحظة هياج وسعار لا يُحتملان، سكينك الكبيرة نحو المكان الحساس، المرتكِب للجريمة. وهل السِّلاحُ سكّين؟ ولماذا لا يكون مسدَّسًا؟ لا يترك المسدس فرصة لأيّ مقاومة، وهو القادر على إحداث حفرة في هذا الحجم، وبهذا الخراب. صوَّب الرجل المخذول فوَّهة

مسدّسه إلى المكان المناسب. أصبح العثور على مسدس أسهل من العثور على سكّين، وخصوصًا في هذه الأيّام التي ينتشر فيها السلاح بشكل لم نرَه من قبل. في إمكان أيّ كان أن يوقفك في هذه الأيّام. في إمكان أيّ شخص لا تعرفه أن يعرض عليك سلاحه، ويقول لك إنّه ينتمي إلى منظمة كذا وكذا، ولديه أسلحة أخرى أكثر فتكًا من هذا المسدس الصغير الذي بين يديك. في إمكانه حتّى أن يتركه في بيتك يومين أو ثلاثة أيّام حتّى تقتنع بأنّك شخص نادر وشجاع، وعليك بالمشاركة إلى جانبه في العملية التي يعرضها عليك لأنّك لا تتحمل القايد، أو لأنّك لا تحبّ المسؤولين. إنّه جنديّ هارب من الجندية ويعرض عليك سلاحه أمام باب السوق. وقد يكون مقاومًا علا سلاحه الصدأ لأنّ الاستقلال فاجأه حتّى قبل أن يجرّب سلاحه، ولا يجد الآن من يقاوم. انتهى زمن وبدأ زمن. الآن كلّ شيء ممكن. يكفي أن تعثر على العدوّ المناسب؛ عدوّ هشّ وأعزل وفي متناول مخلبك الفتاك. رصاصة أو سكّين. رأيت في السابق قطًّا يُخرج مخالبه محاولًا الانقضاض على صرصار هزيل، ولكنّه لا يجرؤ، على الرّغم من المخالب الفتّاكة التي تقترب ثمّ تتراجع، متسائلة عن نوعية العدوّ. وبدأ القط آنذاك يتسلّى ويلعب بضحيّته كما يشاء، عندما التصقت بذهنه أخيرًا صورتُه الهشّة، وأنّ الأمر يتعلّق بصرصار مسكين لا يعرف حتّى كيف يستعمل جناحيه الكبيرين. إلّا أنّ القاتل لم يلعب بضحيّته كما يفعل القطّ. لم يلعب بسكّينه في الجسد الخائف، المستسلم. لم يخدشه في أيّ جزء من جسده. اكتفى بنزع الخصيتين... وأضفت أنّ هذا العمل يشبه عمل العجائز السخارات. يكتفين بيد الميّت، لأنّ الغرض هو إعداد الكسكس الذي سيتناوله الضحية. والمتّفق عليه، عند المرأة السخارة وعند غيرها، هو أن يُفتَل الكسكس بيد الميّت، ولا غرض لهن ببقيّة الجسد.

ساخطان أنا وإدريس أكثر من الجميع، منذدان بالمصيبة الغريبة والاستثنائيّة التي تضربنا، لأنّنا نعرف الزاگوري كما تعرفونه، ولا يستأهل نهاية كارثيّة كهذه. ممدّد على اللّوح الذي كان سيعرض فوقه جزءًا من سلعته. في هذه الساعة من الصباح، كانت قطع اللّوح ستعرض علينا تمرًا نضج على مهله على نخل عالٍ، تحت شمس زاگورة، بوفقوس أو الجيهل أو البوشحمّي، بدلًا من الجثّة المشوّهة للأسود الفاغر الفم من الاندهاش أو الغضب. وقد بدأت ترشح نقاط من دمه وتسرح على الغطاء الأبيض كبقعة زيت حمراء ليرى المتحلّقون بشاعة الجريمة. كثيرون الآن خارج البيع والشراء؛ خارج منطق السوق، والألم؟ الجزء الضئيل من الألم الذي أحسّ به الميّت يخز بيضاتهم كالإبر، مطمئنين مع ذلك إلى أنّهم نجوا من

ميتة شنيعة. خرج في هذه اللّحظة طفلٌ من تحت الخشب الذي يحمل الميّت. كان في السّابعة أو الثامنة من العمر، وصاح شخص: هذا ولده. وانضافت دهشة أخرى، ليس لأنّ الطفل بدا جاهلًا ما يدور حوله، وليس لأنّه يقف كطفل لا علم له بما حلّ بوالده، في قميصه الأبيض المتّسخ والذي يصل حتّى الركبتين، ولكن بسبب وجوده أصلًا، وهو واقف في براءة عفوية، متواضعة، كما لو كان ينتظر أن يسمع الصوت الأليف: ها الزاگوري جا... ها الزاگوري جا...

ومَن جاء هو القايد بوزيد، محاطًا بأربعة حرّاس حليقي الرؤوس، يحملون الرشاشات الثقيلة، حفاة، بسراويل قصيرة وأقمصة بلا أكمام يلطَخها العرق. كما لو أنّهم عثروا على هذا الزيّ في الخردة أو المزبلة. تراجعنا إلى الخلف عندما وقفت سيّارة أولدزموبيل جديدة يسوقها الحسين أصغر أولاده. سيّارة فارهة، جديدة تمامًا، ولكن واجهتها الأماميّة مدعوسة لأنّ الولد الصغير لا يحبّ العمل في المخازن كأخويه. هذا البزهوش مهووس بالسيّارات. إنّها الرابعة التي يغيرها في أقلّ من سنة. بوزيد، لا يبدو على وجهه سيماءُ فرح. ليس بسبب الحسين الذي يصدم أن يرمي سيّارات والده بالجدران، وإنّما لأنّ هذا الزاگوري الكلب ممنوع من دخول السوق. ثمّ مَن هو الكلب الآخر الذي سمح له بالدخول. السوق صغيرة ولا تتّسع لبائع يعرض سلعته نفسها. ولهذا، يجب حجزها. وها هو يعد الخيشات المكدّسة في عمق الخيمة وتحت الألواح، بينما ينقّب الصعاليك الأربعة في محتوياتها بالسّخط والهياج نفسيهما. لم يلتفت بوزيد إلى الميّت. لا يبدو عليه أنّه رآه، أو حتّى سمع به. لا وجود لميّت في الخيمة، ولا لولد في الثامنة لا يزال يغالب النوم، وعيناه مغمضتان تقريبًا. كان التمر المعروض على الألواح الأخرى قد اختفى بدوره، في الوقت نفسه الذي غادرت فيه خيشات الزاگوري المحجوزة الخيمةَ، محمّلةً على أكتاف الصعاليك الأربعة. وربّما إنّ كومات التمر كانت قد بدأت تتقلّص بشكل جليّ قبل هذه اللّحظة، لأنّ المتحلّقين حول الميّت، بائعين ومشترين أو مجرّد متسكعين، كانوا قد بدأوا في نهب تمر الزاگوري حتّى قبل ظهور سيّارة القايد بوزيد. والأطفال يلتقطون ما سقط على الأرض ليختفي في أفواههم أو في جيوبهم الصغيرة، فرحين بوليمة غير متوقّعة. سيبقى يومًا مشهودًا، استثنائيًا، لم يهتمّ فيه أحد ببيع أو شراء، ولا بما قد يحمل إلى بيته من ضروريّات. صمتت الأصوات في المحالّ القريبة والبعيدة. صمت بائعو الدواء والأعشاب والثياب المستعملة؛ كلُّ الذين لا تروّج بضاعتهم بغير الصياح. الصمت شامل، لأنّ غضب بوزيد لم يخفْ، ولا

برطمته، ولا حنقه على الجميع؛ هؤلاء المنافقين الذين يسبّون الميّت وهم سائرون في جنازته؛ جماعةِ اللصوص، ناكري الجميل الذين يبوسون اليد التي تُطعمهم وهم يحلمون بقطعها... بينما هم يهزُّون الرؤوس في أدب، في تفهُّم، في احترام وتقدير لكلّ ما يُقال وما لا يُقال. تُلامس الرؤوسُ الصدورَ من فرط الانحناء. إنّهم منهمكون أيضًا في مضغ التمر ورمي النويات على الأرض. يرمونها بعيدًا عن الميّت احترامًا لحرمته، ثمَّ اختفت السيّارة في الجلبة نفسها التي ظهرت بها. وكنّا، بدورنا، ناقمين ولا نفهم الغلَّ الذي يسكن قلب القايد بوزيد. لأنَّ هذا الرجل، المسجَّى على اللَّوح، والقادمَ من بعيد، ببقعة دم عريضة غطّت نصف الثوب الذي يستره، وبلغز لم يتساءل عن كنهه أحدٌ، ظلَّ دائمًا مستقيمًا ويحبّ الخير للناس. سلعته دائمًا متميّزة. لم يسجّل أحد سُوسًا في تمره، أو مذاقًا غير مذاق التمر الجيد، الناضجِ تحت الشمس الصحراويّة. ولم يلتفت القايد إليه ولو بكلمة عزاء واحدة. لم يلتفت إليه. وقال إدريس الأوَّل: على الأقلّ نهتمّ بولده. نفعل الخير في هذا الولد اليتيم. نسجّله في إحدى الجمعيّات المكلّفة بأبناء الشهداء. الأكل والكسوة والتربية الحَسَنة بالمجانّ. على الأقلّ، الزاگوري يستأهل أكثر من هذا. على الأقلّ، نضمن مستقبلًا لولده، بعيدًا عن الأيّام المظلمة التي عرفها والده، رحمه اللّه. على الرّغم من صوته الرنّان، سنذكره دائمًا، ونذكر صوته: ها الزاگوري جا... ها الزاگوري جا... ظهرت العديد من الجمعيّات في الرباط والدار البيضاء ومدن أخرى همُّها أن تتكفّل بهذا النوع الجديد من الأطفال. وهناك جمعيات أخرى مكلّفة ببنات الشهداء؛ بالتنُّورة الزرقاء النازلة حتّى الركبتين والقميص الأبيض. نعم، أصبح كلّ هذا ممكنًا الآن. ربّما التقى واحدة منهن وتزوَّجها، وكوَّنا لنا في المستقبل زوجًا صالحًا يدرك معنى الاستشهاد. أقسم باللّه إنَّ الفكرة نفسها راجت في مخّي، ولكن إدريس الأوَّل سبقني وأعلنها. ما عليهش... لن تنقصني أفكار من هذا النوع. التسابق في الخير فضيلة. والخير دائمًا أمام. عندما بدأنا ننسحب، لأنّنا لا نريد مشاكل مع القايد بوزيد وعصابته، تاركين الميّت تحت خيمته الفارغة، برزت، على نحو غير متوقّع، امرأةٌ من وسط الحشد وأمسكت الطفل وراحت تجرّه من أذنه وهي تصرخ وتلطم خدها. قد تكون بائعة حساء خرجت تقضي حاجتها عند الفجر، وعندما عادت إلى خيمتها لم تعثر لولدها على أثر.

موزّع الرّسائل الذي يسمّى الرقّاص

الخميس 22 مايو 1958

كما لو كنت جالسًا على شرفة عالية، أتفرّج عليها وهي تعبر، في كسوتها القصيرة، والمزوّقة بفراشات ذهبيّة اللّون، متظاهرًا بأنّني لا أعرفها. تمرّ أمامنا ولا أنهض إن كنت جالسًا، ولا ألتفت إن كنت واقفًا. ولكنّها، مع ذلك، أيّام بهيجة، مسلّية. ذلك بأنّنا اتّفقنا على أنّنا موقّتان، وهذه أيّامنا الأخيرة. أيّام محتملة ومقبولة وضروريّة ما دامت الأخيرة. بعد أسبوع سنكون رحلنا. أجلس على دكّة المطحنة أتفرّج على الخطاطيف حتّى لا أرى أنّها تمرّ. لا تعبر الخطاطيف السماء قبل الخامسة، وهي الساعة التي تمرّ فيها برفقة فراشاتها. أستمرّ قاعدًا مع أنّه ليس لي زرع أطحنه، لا في هذا النهار ولا في النهارات السابقة. وأجلس، مع ذلك، على دكّة الطاحونة مستأنسًا بهدير محرّكها وهو يدور، أتفرّج على الخارجين من الطاحونة معفّرين بالدقيق من الرأس حتّى القدمين. يغطّي الطحين الأبيض الرموش والحواجب والشعر، كما لو أنّهم أمضوا وقتهم يلعبون في الثلج؛ أو أراقب الوافدين وهم يترجّلون عن حميرهم ويرصّون خيشاتهم أمام الباب. يتفرّج المغادرون على الوافدين، والوافدون ينتظرون المغادرين، في رقصة لولبيّة تُفضي إلى دكّتي الطاحونة. لا الوافدون ولا المغادرون يذهبون أبعد من الدكّة حيث أجلس. يتظاهرون بأنّهم مشغولون بنهاية الزاكوري حتّى ينسوا فتاة الخامسة، رافعين أصواتهم حتّى لا يسمعوا رنين المحارات حول الكاحل الأيمن... يتعلّق الأمر باختفاء جثّته... شخص ما دفنها في اللّيل وانتهت القضّة... لا، لم يدفنها أحد. يتعلّق الأمر بميتة غريبة، مخالفة لما عرفناه في السّابق... تعتقد أنّهم مكدّسون حول الطاحونة بسبب ميتة الزاكوري. ما يظهر في العيون فضول من نوع جديد تمامًا. كأنّ الذي حدث بيني وبينها لم يدخل بعدُ دائرة الممكن. ما زال من الممكن ترميم التصدّع الذي أصابهم. علاقتي بها لا تعدو خطأً يجب تصحيحه. ها هم يستعدّون ليحتلّوا مكاني، ويشطبوني من لائحة المنافسين المحتملين حتّى لا يختلّ التوازن الذي يشدّهم، ويستمرّوا في النقاش بشأن الجثّة حتّى يتحاشوا النّظر إلى الذراعين العاريتين... جثّة على تلك الهيئة لم يعتادوا عليها أبدًا... لقد رأوا جثثًا عديدة في حياتهم: جثث الأهل والأصدقاء، وجثث الأعداء؛ جثث الذين لا مأوى لهم. أمّا مثل تلك الجثّة، المرميّة وراء السور، بين قوائم الدواب والعشب اليابس، والذبّان ترقص سكرى حول السّائل اللّزج الذي يسيل من الثقب الفاغر

فاه... أمّا هذا الشيء المرعب، المقزّز، الكابوسي، فلم يروه، محاولين أن يبدوا كما لو أنّ لا فتاة تعبر الطريق، تعبر خيالهم، بنيات مخالفة وماضٍ مخالف ومستقبل لم يعد من الممكن التنبؤ به أو التحكّم فيه... والجثة مشوّهة، ناقصة، منزوعة الخصيتين... كما لو أنّ التوافدَ على المطحنة وانتظار أن يُطحن ما تبقّى في المخازن والبيوت من زرع قليل، ليسا سوى ذريعة ليمذوا دهشتهم واستغرابهم واستنكارهم وتآزرهم في جلستهم على الدكّة، مستنكرين، في صمتهم الثقيل، ما يقع في حياتهم وعلى هامشها. يشغلهم ما يشغل بالي، مكتفين برؤية طيفها وهو يعبر. وقفتُ هذه المرّة، والتفتُّ إلى الجهة التي لا تمرّ منها، وانتظرتُ حتّى تختفي من ذاكرتهم. ثمّ أخذت الوجهة المعاكسة، كالهارب.

تركت آسا مُقسمًا ألّا أعود إليها بعد حادثة بوزيد؛ مقسمًا ألّا أرى وجهه المشؤوم نهائيًا، وألّا أعود إلى أيّ عمل لا يجلب ثروة ولا يُبقي على صحّة مثل موزّع الرّسائل. قلّة الصحّة والمالُ لا يلتقيان. ماذا تفعل بالمال وأنت عليل، ممصوص، تمشي بصعوبة وتتكلّم بصعوبة وتتنفّس بصعوبة، كالقايد بوزيد؟ هذا الرجل، صاحب المتاجر العديدة والضّياع الشاسعة، صاحب السواقي الجارية فوق الأرض والمياه النائمة تحتها، لا يتنقل من دون سيّارة حتّى وهو في ساحة البرج، لأنّ قدميه متورّمتان. فيمَ ستنفعه مخازنه العامرة؟ عندما كنت أقف أمامه عند باب المكتب، كنت أحزر أصابع قدميّ بشكل مبالغ فيه حتّى يدرك جيّدًا ما حلّ بأصابعه المهترئة. وغالبًا ما يبقى مشدوهًا، مشدودًا إليها، يتقزّح على أصابع قدميّ. أظافري موحلة، سوداء كأظافر الخماسين، ولكنّها في صحّة جيّدة، محشورة في نعلين ممزّقين، ولكنّها تتحرّك أمامه في كامل عافيتها، كقطط صغيرة تنقب عن ثدي أمّها لترضع. أعتقد أنّ هذا المنظر يثير اشمئزازه وحسده أيضًا، ولهذا السّبب أصررتُ على المحافظة عليه، حتّى أدفعه إلى حافّة اليأس ولا يجد أيّ غضاضة في طردي من العمل، أو تغيير أصابعه. وهو فضّل الحلّ الأوّل. والأمر نفسه عندما يتعلّق الأمر بالصحّة وأنت بلا عمل. وهذا هو الأمر الثاني. ماذا تفعل بالصحّة إذا كنت مُدقعًا، ومفلسًا ترتدي نصف قميص ونصف سروال؟ اللّهم إلّا إذا كان عملًا مثيرًا ويجلب للنّفس رضًا ما، كتفجير مستوصف وطمر المدعوّين المحتفلين تحت أنقاضه، مثلًا. هذا ما دار في خاطري من أفكار قبل أن أنبذها تمامًا، وأنبذ معها كلّ ما يتعلّق بإبراهيم ومخطّطاته الفاشلة. أسير في الجهة المعاكسة للتي سارت فيها، وأسمع محاراتها ترنّ في أذني ويزداد رنينها كلّما ابتعدتُ. دسستُ رأسي في ثيابها تحت الخيمة، في تلك اللّيلة المقمرة، بدلًا من أن أهرب بثيابها

كما كنت أفعل على الشاطئ عندما كنت صغيرًا، وعفّرت وجهي بكلّ روائحها، وبقيت مكبًّا على وجهي حتّى امتلأت.

عبرت أزقّة المدينة كي ألتقيها، وخرجت ودرت من خلف السور دورةً امتدّت حتّى الجانب الآخر من المدينة. المارة متعدمون في هذا الوقت، وأبواب البيوت موضدة. فتحات ضيّقة داخل الجدران كالوجار، وداخلها رجل جالس يدخّن، أو آخر ممدّد يفرك بين أصابعه سبحةً، وعند قدميه الميزان الذي سيزن به خُضَرًا غير موجودة لمشترين لم يحضروا بعد.

أفكّر، وأنا أسير إلى جانبها، في رحيلنا الوشيك. أصبحت، بفضلها، أفكّر في الحياة بشكل مختلف. البحث عن عمل؛ هذه فكرة صائبة. العمل مع الإسبان في إيفني، أو في إحدى الجزر. كلّ الجزر قريبة. لاس بالماس مثلًا. هذا مكان يليق برجل وامرأة حديثي العهد بالزواج. وبيعُ الطيور فكرةٌ أكثر صوابًا. يحبّ الإسبان السمك والبيرة والطيور التي تملأ شرفاتهم غناءً حتّى الغروب. هذه حياة تستأهل أن يحياها الإنسان، ويموت وهو فرح ورأسه مليء بالغناء. أليس كذلك؟ عندما ننتهي من العمل في محلّ بيع الطيور، ونحن جالسان في شرفتنا، ونتذكّر الأهل الذين خلّفناهم وراء البحر بكثير من الشوق والحنين، ونعدُّ لائحة المشتريات التي سنحملها معنا عند زيارتنا الأولى، في فصل الربيع القادم مثلًا: قلادة تتباهى بها الوالدة وهي تُعِدّ موتاها، ولبناصر قطع غيار للشاحنة حتّى يبتعد عن التفكير في امرأة أخرى قد تمضّ ما بقي فيه من حياة، ودببة لبنات أختي زهيرة، وسفن وطائرات صغيرة... ونضحك ونحن نسترجع اللّحظات القاسية، عندما كنّا لا نجد مكانًا نأوي إليه، ما عدا خيمة حمادي؛ مكانًا نتمدّد فيه أحدنا إلى جب الآخر، عاريين متصوّرين أنّنا نعبر اللّيل على سطح كوكب بعيد.

تسير هذه المرّة بصحبة فتاة أخرى. صرت أسير خلفهما متلكّئًا عندما اقتربتْ منهما، ثمّ أمشي أمامهما في قفزات خفيفة مضحكة، ثمّ إلى جانب البنت الأخرى، والتي لا أعرفها. هذه البنت التي قالت إنّها بنت خالتها، وإنّ اسمها الطاووسة، ظلّت مرتبكة واستمرّت كذلك حتّى ونحن نتوغل في الأزقّة الموحشة، بعيدًا عن العيون المفترسة. أجمع غضبي وأركزه في ضحكة بنت الخالة. أمّا الضحكة الأخرى، فأنا أعرفها. مجلجلة دائمًا، وواضحة، وصافية، ولا تحمل أكثر من معناها. ثمّ أفكّر في طريقة تجعل بنت الخالة تفقد أعصابها. هل أحكي للطاووسة عن الرائحة، حتّى

أجعلها تهرب. هذه فكرة جديرة بالتجريب. ماذا سترد الطاووسة عندما أخبرها بأنَّ صديقتها تعرفها: رائحتي، لا تختلف عن رائحة الشجر، وأحيانًا رائحة التراب المبلَّل. لم يهطل مطر هذه السنة لأضع أمام أنفها الحساس نموذجًا منها. ولهذا، ستبقى رائحتي السوداء ساكنة تحت الجلد الأسود حتَّى العام المقبل، شرط أن يهطل مطر كثير. وهذا هو المؤسف في الأمر. يكبر حنقي عليها لأنَّني أدركت، منذ البداية، أنَّها تشعر بالحرج، والخجل. يكفي أن أحدّق في عينيها لأرى ما تسبّبه لها هذه الخطوات إلى جانبنا من بؤس.

كنت قبل أيّام فرحان لأنَّني أمضيت النهار أطلق النار على الحجر والنخل والغربان الكثيرة العدد، والتي لم أُصِب منها غيرَ واحد. أفضل هذا ألفَ مرَّة على العمل عند هذا الديّوث الذي اسمه بوزيد. أهداني بزاهيم المسدَّس القديم الذي فشل في إصابة الغزالة، وعلبةَ رصاص، وأمضيت نهارًا بكامله أطلق النار على كلّ شيء. وهو نهار لن أنساه في حياتي، ولن ينساه الغراب الذي ظلَّ يحوم حولي. كلَّما أطلقت عليه رصاصة صاح واختفى، ثمَّ عاد إلى الظهور فوق حجر أو نخلة، وهو يضحك بملء منقاره المقزَّز، وبعينيه شديدتي الدهاء: هاء هاء هاء... وهذا أدخل إلى نفسي انشراحًا بدلًا من أن يُغيظني، فصرت أضحك مثله: هاء هاء هاء... كأنَّنا نلعب، حتَّى الوقت الذي سها أو نسي، فسددت إليه الضربة القاتلة. انتهى اللَّعب يا لون الشؤم، ولن أنسى الأيّام التي تلت، والتي ستأتي بعدها، سواء كنت جالسًا أو ممدَّدًا، وسواء كنت واقفًا أو سائرًا، وسواء كان من انتزع خصيتي الزاگوري آدميٌ أو حيوانٌ مفترس، وسواء كان صيادا العبيد اللَّذان يبيعان الزرابي الإيرانيَّة واللَّذان تحدث عنهما بزاهيم يحومان قريبًا منّي، جالسين على الدكَّة نفسها يتنظران حصادًا مختلفًا، أم بعيدين في منطقة أخرى، فإنَّ الحديد البارد للمسدَّس، وهو يرتاح في جيبي أو يدغدغ بشرتي، كافٍ لينزع عن قلبي الغلَّ الذي رأيته في عيون الجالسين على الدكَّة، والذين يتظاهرون بأنَّ سبب غلّهم هو الجثَّةُ المشوَّهة المرميَّة خلف السوق.

أمام السوق فارغ بدوره، عندما مررنا به. ثمَّة بعض الأطفال فقط يلتقطون، وسط ركام الأزبال التي تركها الباعة والمشترون، تينةً فاسدة أو تفاحةً متعفِّنة. أكلنا منها الكثير أنا وأخي بناصر بعد نهاية السوق ورحيل الباعة، عندما كنَّا صغارًا، أطفالًا عراةً تمامًا كما كنَّا، وأصواتهم مرحة كما كانت أصواتنا. وتمتدّ بعد السوق أشجارُ الزيتون والرّمان، ثمَّ الجبالُ أمامنا

يغلّفها رداء أخضر تتلاشى حوافّه كلّما ارتفعت. أحاط بنا شابان لم نرَ من أيّ جهة قدما. يلبسان جلابيتين قصيرتين خشنتين. الرأس حليق وينتهي بكتلة من الشعر مدلّاة من الخلف كذيل الحصان. والوقفة صارمة كأنّما يحاولان أن يبدوَا مهدّدين أكثر ممّا يستطيعان.

كتعرف هاد لبنات؟

سؤالهما الأوّل هذا لم أردّ عليه. كنت أفكّر فيما إذا كنت رأيتهما من قبل على دكّة الطاحونة، وهل لهما علاقة ببائعَي الزرابي اللّذين تحدث عنهما بَراهيم، وكنت في وضعيّة مريحة تمامًا وأنا أضع أصابعي على المسدس. هل أفاجئهما الآن؟ ليس بعد. أحبّذ الاحتفاظ بقدرتي على المفاجأة حتّى آخر لحظة. أحكّ شعر رأسي وأمرّر يدي على قفاي. ثمّ قال أحدهما إنّه لم يشاهدني من قبل في هذه المنطقة، فأنا لست من حومتهم. من أيّ جائحة نزلتُ؟ وماذا أفعل مع بنات حيّهم في الخلاء؟ لا يبدو من خلقتي ومن لون بشرتي أنّني من العائلة. أخ مهاجر أو ابن عم جاء من مدينة بعيدة؟ إذن؟

ما كنديرو والو... غير كنهضرو.

ومن بعد الهضرة؟

وقال الذي يبدو أنّه رئيس العصابة إن أحسن ما يمكن أن أختاره هو أن أنجو بعظامي... والبنات؟

غادي ينقاو معانا... وقفا كما لو أصدرا الحكم ويستعدّان لتنفيذه. وأنا لا أفكّر في هذا الأمر على هذا النحو. ما زال هناك متّسع من الوقت للمراوغة والتحرّك والمفاجأة. لم نصل بعدُ إلى الحدّ الأقصى من الإثارة. مشغول أيضًا بكلامهما السابق، لأنّني نسيت، حتّى هذه الساعة، لونَ بشرتي، وخجلت من أجل البنت الأخرى، وأنا أراها تبكي، مع ازدياد تهكّمهما، وارتفاع حدّة تهديدهما. ثمّ وأنا أرى الخطاطيف تعبر قريبًا من رؤوسنا، تأمّلت علوّها لحظة ثمّ حككت أذني على مهل، وأخرجت المسدّس، وصوّبت نحوها. فرّت الخطاطيف المسكينة مرعوبةً. طغى أزيز الرصاصة للحظات على زقزقة الطيور المحلّقة عندما سقط أحدها غير بعيد. راقبناه جميعًا وهو يترنّح. ساح دمه على راحتي عندما التقطته ووضعته عليها، ومررت يدي على ريشه الدافئ، ذلك بأنّني أصبت جناحه الأيمن. لا يزال قلبه يخفق. كان مصرًّا على الحياة، كعينيه السّوداوين. قلت لهما عادة لا أغتال هذا النوع من الكائنات. قتلت عشرات الخونة

والجنود، إسبانًا وغيرَ إسبان، لأنَّني مقاوم، في منظمة اسمها أبطال الحرِّيَّة المتوكِّلة على اللّه... لماذا لا ينخرطان فيها مثلي ليعطيا حياتهما معنًى، بدلًا من أن يمضيا أيَّامهما جالسَين على دكَّة الطاحونة يتفرَّجان على مؤخَرات العابرات... سيرو لتيزگي... هناك في تيزكي منظَّمات عديدة تنتظر سواعدهم الفتيَّة: جيش تحرير الجنوب؛ أبطال الحرِّيَّة المتوكِّلة على اللّه؛ منظَّمة الشهداء الأحياء... إلخ. سيكون أعضاؤها فرحين بانضمامكما إليها أيُّها الملعونان... الراتب والمؤونة مضمونان، والعمل قليل. ستصطادان في النهار الغزلان، وستأكلان في اللَّيل الشواء وترقصان على نغمات البارود. وانتبهت إلى أنَّ حنقي تحوَّل إلى غضب صمّ أذني، حتَّى إنَّني لم أعد أسمع ما أقول، لأنَّهما ظلّا صامتين، ووجلين، يراقبان حركاتي وأنا أضع الطائر عند ساق الشجرة. هل يفكِّر الطائر في جناحه المكسور؟ لا يعرف أنَّ له جناحين حتَّى وهو محلِّق في الأعالي. لهذا، لن يفكِّر في أنَّهما قد يخذلانه في يوم ما، ولو كمجرَّد احتمال، حتَّى عندما يرى نفسه، في نهاية كهذه، بعد عمر طويل، في نهاية استعراضه البهلواني فوق رؤوسنا. في استعراضه الغريب والضاجّ بالحركة، لن يدرك أبدًا أنَّ حياته، بطولها وعرضها، بصخبها ونزقها، متوقِّفةٌ على بضع ريشات، لن يفكِّر في جناحيه حتَّى وهو يتهاوى نحو القاع.

كانت تنظر إلى المسدس بعينيها الهادئتين، وأنا أقلِّبه في يدي، مصوِّبًا إيَّاه في اتِّجاههما، من دون قصد، تقريبًا، لأراهما يوليان إلينا ظهريهما ويتقهقران، وأنادي عليهما كي يرجعا لأدلَّهما على الطريق نحو تيزكي. ربَّما تريد أن تجرب حظَّها مع المسدَّس. قرأت على وجه الطاووسة رعبًا قاهرًا قبل أن تولينا ظهرها وتنصرف. أمَّا هي، فقد أخرجت مرآة صغيرة وراحت تتأمَّل وجهها. وهناك كلمات في حلقي أحبسها حتَّى لا تخرجَ فتضحك منها: إنَّها جميلة من دون المرآة. مثلًا؛ أو كلمات مشابهة، ورغبة في أن أمسك بيدها. هي التي أمسكت بيدي وشدَّت على أصابعي بحرارة. امتلأ قلبي سعادة، وطفحت إلى عينَيَّ الدُّموعُ، والتفتُّ إلى الطائر عند جذع الشجرة، ويدي في يدها. إنَّه ينظر إلينا ولا يجد الكلمات ليهنِّئنا أو يواسينا، أو يسخر من الوضع البئيس الذي رحنا نغرق فيه جميعًا.

اليد في اليد. ويدي الأخرى، حين ترتفع، فإنَّها تحطّ على الكتف. والرأس مستقرٌّ في منتصف الطريق. تحت الضلوع يضجّ بالغناء. لن أذهب أبعد. قامته طويلة وستكلِّفني وقتًا إضافيًا. وأنا لست في حاجة إلى تضييع الوقت. المسافة حتَّى الكتف بعيدة. أقف عند الصدر، كواحدة

تتجوّل في حديقتها، مكتفيةً بهذا الجزء من الحديقة؛ مكتفية بهذا الجزء من الغابة حيث طيوري المفضّلة. وهو جزء غنيّ بمفاجآت أخرى لا تخطر في بال. كأنّما أستريح من مشقّة صعود جبل عالٍ. أتنشّق أريج النباتات المحيطة، وأرى الفراشات الشفّافة تقفز من نبتة إلى نبتة. وأنفي لم يعد مكتفيًا برائحة التراب المبلّل، أو مكتفيًا بها ريثما تصل إليه باقةُ الروائح الأخرى، التي ستهبّ عليه من أعلى... يدي عرقانة، وتنبعث منها الحرارة نفسها التي تنبعث من يده وصدره... هل كلّ الأيادي البشريّة تختزن حرارة من هذا النوع؟ هل كلّ الصدور تخفي هذا الكمّ من الغناء؟

مساعد ضابط الاستعلامات
الذي يسمّى إدريس الثاني

الأحد 1 يونيو 1958

يكفي أن أفكّر في أنّنا منذ خمسة أيّام نراه يمشي ويجيء أمامنا بلا خوف، أو يجلس على دكّة الطاحونة بلا أدنى حذر، لأقول في كلّ مرّة إنّها اللّحظة المؤاتية، وربّما لن تأتي فرصة أخرى بعدها. كفاي تأكلانني وأنا أراه يعبر الساحة هانئ البال، مطمئنًا، بلا أدنى احتياط. كأنّ وجودنا غير كاف لتهديده. أهرشهما وأنا أتلفّت إلى جهة إدريس الأوّل، عند كلّ مرور، سواء في المقهى الشعبيّ أو الساحة، أو ونحن نتعقّبه عبر زقاق ضيّق ومظلم وهو يدخّن في هدوء يفتّت الأعصاب. ثمّ كما لو أنّ همًّا ثقيلًا أزيح من على كتفي ونحن نمسك به أخيرًا، على الرّغم من أنّ إدريس الأوّل يُبدي أنانية مبالغًا فيها وهو يضرب كفًّا بكفّ، مزهوًّا، معجَبًا بنفسه، بسبب ما يعتبره إنجازه الكبير. كأنّنا لم نشارك معًا في القبض عليه؛ في تعقُّبه أوّلًا من مدينة إلى مدينة؛ كأنّنا لم نُمضِ شهرًا كاملًا متنقلين بين الفنادق المضرّة بالصحّة، والغرفِ الرديئة التهوية، والمنازلِ التي تشبه الكهوف، والطرق غير الآمنة، حتّى گلميم، بمهنة جديدة وتنكّر مختلف في كلّ مرّة. ثمّ ها نحن في بار فندق الحظّ السعيد، عندما وضعنا أيدينا عليه أخيرًا، وأجلسناه بيننا، مطمئنين تمامًا إلى أنّه الرجل الذي نجري وراءه، على الرّغم من كلّ ما يقوله إدريس الأوّل، متحمّسًا، مبالغًا في حماسته التافهة، وهو يضرب كفًّا بكفّ، ويقول، الآن، وقد وضع اليد على الحزطاني، فإنّه يعتبر مهمّته أو الجزء الأهمّ فيها انتهت بنجاح. الحمد للّه. ويقول أيضًا إنّه محظوظ وهو يعثر على أكثر رجل سوادًا في العالم. ويضحك. ويلتفت إليه ويربّت على كتفه، متعجّبًا أيضًا وهو ينحني على الذراع ويمرّر أصابعه على البشرة مفتونًا، ذلك بأنّه لم يرَ بشرة بهذا السواد. محظوظ أيضًا لأنّه يعوّض الرجل الناقص في اللّائحة بأحسن منه. أوّلًا، لأنّه أخوه. الوجه نفسه، والدم نفسه، والعمر نفسه تقريبًا. وثانيًا، لأنّنا لن نعثر على أحسن من هذا السواد الفاحم؛ سواد يلمع. هذا هو العبد المثاليّ بالنسبة إلى العمل الذي ينتظره. إدريس الأوّل منتفخ الصدر أمام كأسه وأمام جيجي، وإلى جانب ما يعتبره إنجازه الكبير... هذا هو إدريس الذي يسمّي نفسه إدريس الأوّل. كيفما يكن المجهود الذي أقوم به، فإنّه لا يعطيه أيّ قيمة، على الرّغم من كلّ المجهود الذي بذلت والذي أبذل كي يسير عملنا المشترك بطريقة مُرضية إلى حدّ معقول. يتعمّد هذا الرجل ألّا يلتفت إليّ وهو

يتكلّم، كأنّ وجودي من عدمه سيّان. إنسان زائد، وعليّ في هذه الحالة أن ألجأ إلى كلّ الحِيَل لأثبت له أنّني موجود، وعملي مهمّ أكثر ممّا يتصوَّر، لأنّني أعرف أين يذهب عندما يتسلّل خفيةً خارج البيت. أعرف مع من يلتقي، وأعرف حتّى الأفكار التي لا يبوح بها لأحد. كلّ شيء مسجّل في التقارير التي أرفعها. هذه مهمّتي التي لا تخطر في باله. لهذا، أتركه يسبح فيما يعتقده حديقته الخاصّة. أضع يدي على كتف نافع وأشدّ عليها بحرارة... بينما يرسم نافع بأصابعه على الكونتوار صورةَ الفتاة التي لا تزال تخبّ في عقله. وإدريس يحدّق في جيجي بعينين مخبولتين. إنّني أعرف ببساطة عنه أشياء لا يعرفها.

لا أزال أتساءل حتّى الساعة إلى أين وصلنا. ظلّت فكرتي، بعد عملية الزاگوري الفاشلة، هي أن نمسك بالرجل بلا تأجيل، ما دام في متناول أيدينا. أمّا فكرة إدريس الأوّل، فهي أن ننتظر. نجرّب العمليّة مرّة ثانية. من قال إنّها ستنجح مرّة أخرى وهي لم تنجح مع الزاگوري؟ وهكذا، قرّر قبل أسبوعين، أنّ من حقّه أن يغضب ويُضرب عن الكلام، معتبرًا موت الزاكوري مسؤوليّتي مع أنّ الخصاء مهنتنا معًا واختصاصنا معًا. قلت إنّه لا يدرك أنّه يُريحني من محنة مشاركته في الطعام والكلام. لا يدرك أنّها الوضعيّة المريحة لي. ربّما يعتقد إدريس الأوّل أنّها عملية سهلة. نمسك بسكين حادّة ونقطع الخصيتين وانتهى الأمر. إنّها عمليّة معقّدة. لهذا، يموت العشرات قبل النجاح في خصاء واحد بطريقة مُرضية. هل لديه، ولو فكرة صغيرة، عن الطريقة التي نُخصي فيها العبيد؟ إنّهم يوثقون الخصيتين بخيط يُشَدّ جيّدًا حتّى تتدلّيا. وفي كلّ مرّة، يُشَدّ الخيط أكثر حتّى تجفّا وتسقطا من تلقاء نفسيهما. هذه طريقة قديمة، وأكثر إيلامًا وتتطلب وقتًا طويلًا. أمّا العمليّة الثانية، المعاصرة، السريعة، فإنّها تتطلّب مِشرطًا ومقصًّا ومخدّرًا قويًّا وأدوية وبعض اللّوازم الضروريّة لعمليّات من هذا النوع... وهي تنجح في الغالب. لكنّنا جرّبناها مع الزاگوري ولم تنفع، مع الأسف.

أصبحت أتصرّف، في البيت، بعد إضرابه عن الكلام، كما يشتهي أيُّ ابن آدم أن يتصرّف، من دون أن يشغل باله بالعينين اللّتين تراقبانه والأذنين اللتين تتجسّسان عليه. أتجوّل بسروال قصير أو أمشي حافيًا إن كانت هذه رغبتي، وأغنّي عندما يعنّ لي الغناء، وأسبقه إلى السرير الوحيد الموجود في البيت، وأختار الوسادة الأكثر نعومة. هل هناك أفضل من هذه الوضعيّة؟ ونسير في الشارع كأنّ حائطًا بيننا. وأتمنّى أن تستمرّ هذه

الوضعيّة إلى ما لا نهاية. استمرّت هذه الوضعيّة أسبوعًا كاملًا، وانتهت ببساطة، قبل ستّة أيّام، عندما حمل خيشة وقال اتبعني، وتظاهرت بأنّني لم أسمع. ثمّ تعمّدت إضاعة كثير من الوقت بين الدخول إلى بيت النظافة والبحث عن جوربين لست في حاجة إليهما، قبل أن ألحق به. وسرت إلى جانبه من دون أن أسأل إلى أين نمضي، كما كنت سأفعل في أوقات عادية، أو من دون أن أسأله لمَ يُصلح الخيشة التي يحمل، لأنّني أعتبر أنّه المسؤول الوحيد عن الجدار المنتصب بيننا، ولن أحرّك إصبعًا لإزاحته. ليبقَ قائمًا إلى يوم الدين. لن تغيّره كلمة اتبعني. لن يغيّره أمر أو حتّى عشرة أوامر. وعلى الرّغم من أنّه يحاول، فإنّه لا يترك مناسبة تمرّ من دون أن يسعى لزحزحة الجدار الذي نصبه بنفسه بيننا بإطلاق نكتة أو تعليق فجّ. مصمّم على ألّا أعطيه الفرصة. بالعكس، هذا الموقف هو سبيلي إلى التخلُّص منه ومن احتقاره. حتّى عندما وقفنا أمام فندق الحظّ السعيد والتفتَ إلى جهتي وهو يحاول أن يرسم على شفتيه ابتسامة متواطئة، ابتسامته التي أعرف، ذات الطعم الغثّ، فإنّني لم أشغل بالي بما يدور في رأسه من مكائد. أنا غير معني يا صاحبي. ستبقى تتلوّى في شبكة ازدراءاتك الدّنيئة حتّى تختنق بها أو تموت غارقًا وسط سمومها. البار فارغ في هذه الساعة. جيجي لا تستيقظ قبل الواحدة ظهرًا. والباب مشرّع والكراسيّ على جانبي الباب مرصوصة بعضها فوق بعض، لأنّ المرأتين المكلّفتين بالنّظافة مهتمتان بالغرف، تنظفانها من مخلّفات ليلة طويلة وعامرة بكلّ ما يترك المعربدون وراءهم من نفايات.

قال إدريس الأوّل، مكبًّا جهتي، وهامسًا في أذني، من خلف ظهر نافع الجالس بيننا والذي ما زال يخربش على الكونتوار... قال ما يعتبره رأيه، مصطنِعًا تواضعًا مزيّفًا... رأيه هو أن نذهب أنا والحزطاني وننتظره في البيت... ولم يبدُ عليّ أنّني سمعت ما قال. رأيي هو أن نبقى جميعًا أو نغادر جميعًا. لماذا أتركه ورائي، غارقًا في بحبوحة تهتُّكه مع جيجي. ألتفت إلى نافع. أراه كما ظللت أراه خلال الأيّام السابقة، مشدودًا إلى تلك الفتاة، غارقًا في عشقها. في مثل الحالة التي رأيته عليها ونحن نتعقّبه، غالبًا ما يكون ابن آدم خارج كلّ حماية، وهشًّا إلى درجة أنّك تستطيع أن تأخذه معك حيث تشاء. إنّه مرفوع، محلّق في سماء لا يوجد فيها غيرهما، هو والفتاة التي ترافق خياله. انتهى الحذر والحيطة. راقبناه وهو يودّعها. تقدّمنا منه وإدريس يسندني وأنا لا أكاد أخطو من شدّة الانكسار، وقلت له إنّني أحسده. وقلت إنّ صديقتي تركتني، ولم أذق النعمة ولم أر النوم منذ ثلاثة أيّام. وقال له إدريس مواسيًا إنّني سأموت في ظرف ثلاثة أيّام إذا

بقيت ممتنعًا حتَّى من شرب الماء. وهو يهزّني بعنف ويردّد: الماء ضروريّ للحياة... وذرف دمعتين، وذرفت دمعتين. وكدت أسقط من الوهن. وتعانقنا وبكينا ثلاثتنا. وأدركت أنَّ المصيدة أطبقت عليه وأنا أرى التأثُّر على وجهه... ثمَّ أخرجت من جيبي، ونحن نعبر عتبة فندق الحظّ السعيد، حفنةَ كاوكاو ودسستها في يد نافع، وهمست إلى إدريس: في حالة الحزن التي هو عليها، والتأثُّر البالغ يشعّ في عينيه، بلا مواراة، كأنَّه هو من تعرَّض للهجر الكاذب، من الأحسن أن نتركه يتنفَّس... يشرب كأسًا أو كأسين قبل أن نأخذه إلى البيت... عندما قلت لإدريس الأوَّل، على سبيل التجريب فقط: نتركه يتنفَّس... يشرب كأسًا أو كأسين، جاء الردّ جاهزًا: ولكن صاحبنا ما كيشربش... في الحالة التي هو عليها، كما قلت في السَّابق، حزين كما قلت، سيشرب البحر إذا قدَّمناه إليه. واكتفى هذه المرَّة بالنَّظرة التي أتوقَّع؛ نظرة الاحتقار التي تسبقه كلَّما سار الأمر على غير هواه، لأنَّ إدريس هذا لا يحبّ اقتراح أحد، ولا يثق بأحد، ولم يواسِ أحدًا في حياته. لم أسمع كلمة طيّبة تخرج من فمه. خذ هذه القصَّة مثلًا. عندما اكترينا بيتًا قريبًا من البيت الذي يسكنه هذا الحرطاني، ظلَّ يحتجّ مدَّعيًا أنَّ المكان مظلم ومليء بالبقّ بدلًا من أن يعترف بأنَّه المكان المناسب لكلّ تحرُّكاتنا القادمة. ولم يمنعه هذا من النوم عشر ساعات متواصلة. وهذا لم يمنعه أيضًا من الاستحواذ على السرير الوحيد الموجود في البيت وجسّ الوسادات لاختيار أحسنها. هذا هو إدريس الذي يحبّ أن أناديه إدريس الأوَّل. وهو لا أوَّلُ ولا آخرُ. رجل بذيء لا أحترمه وأبادله الاحتقار نفسه، والسلام. ثمَّ أخذت الكأس وتوجَّهت إلى نافع. اسمه نافع هذا الحرطاني... اشرب أصاحبي... الشراب مزيان، يزيد الحياة... وهو، نافع، العبدُ الفحميّ اللَّون، في حالة أفقدته حاسة الكلام وحاسة التمييز. رأسه في السحاب، يرقص على الكرسيّ، واستولت عليه من جديد دوخةُ الحبّ الذي كان يسبح فيه قبل استدراجه إلى البار. لا يرى الكأس الممدودة أمامه، كالمنوّم. دلقها في فمه من دون أن يشعر... إذا استمرَّ على هذه الحال فسيسكر سريعًا... إنَّه يحدّق الآن في الصورة المعلَّقة على المرآة خلف الكونتوار. أخذت الصورة أمام الفندق. صورة جماعة من الرجال، منتشين، رافعين كؤوسهم ويتمدَّد تحتهم خنزير هائل، ميّت تمامًا. قال نافع، مشيرًا إلى الصورة: الرجل الذي يقف إلى يسار الصورة هو أنا. جاءت جيجي ووقفت مشدوهة أمام الصورة، مذهولة، وقالت مرسلة لكنتَها الأجنبيَّة التي لا يعرف أحد من أين أتت بها: واللَّه حتَّى هو... كان قد جاء برسالة إلى الفندق قبل سبع أو ثماني سنوات، ووجدهم يستعدُّون لأخذ الصورة

ووقف إلى جانبهم. أمّا الصياد فهو رجل جيجي. إنّه غائب عن الصورة. قالت جيجي إنّ الحيوان الممدّد في أسفل الصورة هو الذي قتله. داهمه قبل أن يسلم الرّوح. وبينما كان الزبائن يأخذون الصورة التذكاريّة أمام الفندق، مع حيوان لم يصطادوه، ناسين الميّت صاحب فندق الحظ السعيد، كانت جيجي في الطابق الأوّل تتأمّل الثقب الكبير في بطنه؛ بطن الصياد الذي كان رجلَها قبل أن يداهمه الخنزير. وها نحن ننظر إليه جميعنا، غيرَ مصدّقين. واغرورقت عيناه بالدّموع كأنّما أشفق على حاله، بعد سنوات من صورته، أو على حال الحيوان المسجّى عند قدميه، أو على رأس الخنزير الذي ظلّ منذ تلك الفترة معلّقًا فوق المرآة. الرأس مثير دائمًا، وهو منفصل عن الجسد، سواء تعلّق الأمر برأس آدميّ أو برأس خنزير. عيناه تضيئهما شعلة تستمرّ ثاوية في داخله. كأنّما تنتظران أن تطرق بابهما حياةٌ جديدة، أو كأنّما لا تزالان تحملان في بؤبؤيهما حياتهما وحياة الجسد الذي فقدتاه. وأعتقد أنّ الأمل في العثور على الحياة الجديدة لا يغادره حتّى وهو معلّق على الحائط، ومعرّض لتعليقات السكارى وسخريّتهم. لهذا يبدو الرأس أكثر حياة ممّا لو كان ملتصقًا بجذعه، مختبئًا في كهف أو غابة. ويبدو من جهة أخرى أكثر عدوانيّة. العدوانيّة المحشّشة في الرأس قبل الانفصال تضاعفت. كأنّما تقول ما زال هناك متّسع من الوقت للهجوم والمراوغة، وأمامنا كلّ الوقت لاستعادة ما كان. النابان بارزان، فكّاكان، مهدّدان، مستعدّان لاستئناف المعركة.

هذه الحادثة، الصورة والذكريات التي جلبتها معها، والدّموع التي لمعت في قاع عينيه، أرست نوعًا من الودّ بيننا وأنا أحاول أن أواسيه بالكلام، وهو يهزّ رأسه، وأقنعه بأنّ أفضل ما يمكن أن يقع لحيوان قذر، مثل الخنزير، هو هذه الرصاصة، وأنّه لم يكن من الممكن أن يفعل أكثر ممّا فعل الصيّاد الذي ترك روحه في الغابة من أجل إنجاز كهذا، وأنّ الأحسن له هو أن ينسى ما وقع للصياد وللحيوان مغا، نهائيًا، لأنّ القصّة لا تستدعي كلّ هذا الحزن يا صديقي. لا، إنّه حزين، لأنّه لا يتحمّل فراقها لحظة واحدة. وأنا أقول له إنّه يحبّ امرأة تستأهل كلّ الذي فعله ويفعله من أجلها. أقرّب الكأس إلى أنف نافع حتّى تصعد الرائحة إلى دماغه، ومن شفتيه... اشرب أصاحبي... ما كاين ما احسن من الشراب... وأخبط على كتفه وأهزّ رأسه بقوّة هذه المرّة لأرى ردّ فعله، وبدلًا من أن يتمرّد على حركتي العنيفة، ويحتجّ احتجاجات ولو واهنة، لمجرّد إثبات موقف، ظلّ ساكنًا كأيّ عبد يعرف مسبقًا وعن اقتناع لاجدوى المقاومة... اشرب... وهذه المرّة نزع الكأس من يدي وأفرغها في جوفه دفعة واحدة، كما لو

كان يشرب اللّبن. وطلبت من جيجي زجاجة أخرى.

جيجي قصيرة وسمينة كفرس النهر؛ فرس نهر رشيق على الرغم من ذلك. لم تكن بمثل هذه السمنة قبل أن تسكن كليم، وتستأنس بأكل لحم الحلوف الذي يصطاده الرجل الفرنسي الذي سيصبح زوجها. فندقها بيت تقليدي، جدرانه مطليّة بالجير. وسط الدار شجرةُ تين وارفة تمتدّ أغصانها حتّى الشرفة الخشبيّة التي تطلّ على الصحن. خرجت جيجي من الدار البيضاء قبل عشر سنوات واشتغلت في فنادق مراكش وأگادير قبل أن تتزوّج بالفرنسي صاحب فندق الحظّ السعيد، تراودها فكرة أن ترافقه إلى فرنسا عندما يحين الوقت. وفي حمى نشوتها الموقّتة، نسيت الخنزير الذي ينتظره في الغابة المجاورة. يخرج ليلًا يشحذ نابيه في حقول الذُّرة، ويعود فجرًا إلى غابته ينتظر موعده مع رجلها الفرنسي. صورتها وهي نحيفة كما كانت، قبل خمس سنوات، واقفة على حافّة المسبح، بالبيكيني والابتسامة الراضية المطمئنة إلى غدها، معلّقةٌ خلفها وسط الكؤوس، ومحاطةٌ بالضوء والورود البلاستيكيّة والزجاجات الملوّنة. قالت جيجي وهي ترنو على فرو كلبها: اليوم بدلًا من التاگليي عندنا لحم الغنم. لم يعد كلبها الأحمر اللّون يجلس على مؤخّرته بعد العمليّة. فارقته روح الدعابة، ولكنّه حي، وحاضر، إنّما ككلب من الخزف. وبالفعل، انتشرت في الجوّ رائحة الثوم والقزبر والزعفران، في فندق الحظّ السعيد، في غرفه وباره، في يهوه وممرّاته. رائحة لحم الغنم بالبرقوق واللّوز وزعفران ثليوين تعدّت المطبخ، وانتشرت في أرجاء الحانة. أشمّها كواحد لا يملك غير هذه الرائحة ليتسلّى. وانتبهت إلى الكلب لأوّل مرّة منذ دخلنا، عندما انحنت عليه جيجي. ورأيت أنّه يتصرّف كحيوان لم يخضع لعمليّة خصاء قبل أيّام. لم يعد يقعي على قائمتيه الخلفيّتين بالطبع، ولكنّه بخير. تمدّد على بطنه، ناصبًا أذنيه، كأي حيوان من الخزف أو التبن.

أعود إلى قصّة الخيشة. كان على بار الفندق أن يقدّم خدماته قبل العاشرة حتّى أستطيع أن أقول إنّ إدريس جاء يطلب حصّته اليوميّة من الشراب. لكنّ البار لا يبدأ في تقديم خدماته إلّا بعد الحادية عشرة. ثمّ إنّه يحمل تحت إبطه خيشة كبيرة لا توحي بأنّه يقصد الفندق بهدف الشراب. وكان على جيجي أن تكون منهمكة في مساعدة عاملتي النظافة بدلًا من أن تستمرّ في غطيطها طافيةً فوق روائح الشراب والدخان التي ملأت جوفها خلال ساعات العمل الطويلة، حتّى أستطيع أن أقول إنّه جاء من أجلها. إنّه يمازح المرأة المبلّلة الثياب، ويتبعها وهي تتنقّل بسطلها من ركن

إلى ركن، يختفيان عند الدَّرَج مرَّة، ومرَّة بين الممرَّات. وحتَّى الساعة، فإنَّني لا أفهم نيّاته، أو فهمتها بشكل متأخِّر، عندما دخلنا البار وأخرج إدريس من جيبه قطعة لحم، ونزع الخرقة التي تلفّها ووضعها فوق الكونتوار وهو يَصُوت بين جنبات البار: ماكس، ماكس، ماكس... ها أنا أدرك أخيرًا نيّاته.

لم يظهر الكلب بعد ربع ساعة من الانتظار. المرأة الثانية، التي كانت تنظِّف مدخل الفندق، يئست من أن يضاحكها إدريس الأوَّل، فاختفت بين الممرَّات. وأنا أتصوَّر الكلب يغط في نوم عميق بين نهدي جيجي الكبيرين. وفي انتظار أن يظهر، فإنَّ إدريس يفتح الخيشة ويعيد إغلاقها، كما لو أنَّ هذه الحركات هي التي ستوقظ الكلب من إغفاءة جميلة صباح يوم مشمس. ثمَّ قرَّرنا أن نساعد المرأة التي ظهرت من جديد، وبدأنا في رص الموائد في أمكنتها ووضع الكراسي حولها. لم ينتبه إدريس إلى الكلب فوق الكونتوار. إنَّه يفترس قطعة اللَّحم في صمت. هل أنبّهه؟ أم أتركه غافلًا حتَّى تختفي اللَّحمة ويضيع معها مخطّطه؟ أمسكت بالخيشة واقتربت من الكلب الوديع الذي ألفناه من كثرة ما شاهدناه برفقة جيجي. ربَّتُّ على فروته الحمراء، الأنيقة، وبدأت أسمع خرخرته. دبدبة مقززة تسري تحت فروته. أنا أصلًا لا أحبّ الكلاب. غرضي أن يرى إدريس، الذي يسمِّي نفسه إدريس الأوَّل، أنَّه لا تقوم له قائمة من دوني، وأنَّ شراكه مهما بلغت من الحذق فإنَّها لا تُنجز من دون مساهمتي. اختفت اللَّحمة في جوف الحيوان واستسلم لدغدغاتي. اقترب إدريس في هذه اللَّحظة وبدأ يتلوَّى، مشيرًا عليَّ بالانقضاض عليه. وأنا أتسلَّى باللَّعب معه، والكلب يتشقلب على ظهره ويرفع قوائمه في الهواء ويضحك، وإدريس يتحرَّق من الغضب والإثارة ويهمّ بالهجوم ولا يهجم لأنَّني أصبحت أتحكَّم في سير العمليَّة؛ لأنَّني ببساطة انتصرت عليه، كما يحدث دائمًا، لأنَّني أذكى منه، على الرَّغم من أنَّه لا يعترف بذكائي. لم يشكل هذا همًّا من همومي في يوم ما. هذا الكلب الذي يطلق على نفسه إدريس الأوَّل، عندما يتعلَّق الأمر بالجرأة والتخطيط والمبادرة، فإنَّه متخلّف دائمًا. في النهاية، عندما تعبنا من اللَّعب أنا والكلب، أمسكته من جلدة عنقه ورميته في الخيشة وخرجت، وإدريس يجرّ قدميه خلفي، مخذولًا، منهزمًا، خائبًا.

الأيَّام الخمسة التي أمضاها ماكس في بيتنا بعد العمليَّة لم تكن كافية ليستعيد الكلب ثقته السَّابقة، لأنَّ إدريس خذله، حتَّى إنَّه يرفض مجرَّد الاقتراب من دائرته. يهرب تحت السرير بمجرَّد أن يرى خياله أو

يشمّ رائحته. وأن يناديه أو يضع له قطعة لحم على الزليج، كلّ هذا لم يعد ينفع. يتنكّر أحيانًا له في واحد من أزيائنا التنكُّريَّة المعلَّقة على الجدار، ويضيف واحدة من اللّحى العديدة المعلَّقة في المطبخ، فيزداد الكلب رعبًا ويهرب تحت السرير بدلًا من أن ينشرح. وعندما يمدّ إدريس الأوَّل يده وهو يناديه «ماكس»، يسمع زمجرته الكئيبة آتيةً من ظلمة مخبئه، فينفجر إدريس في كركرة عالية. ويذكي تصرُّف الكلب البئيس حماسته بدلًا من أن يثنيه، فيمدّ يده مرَّة أخرى: ماكس، ماكس... ليسمع زمجرة الكلب من جديد. يبقى الكلب قابعًا في مكانه حتَّى عندما يتظاهر إدريس بأنَّه غادر الغرفة، لأنَّ هذه الحيل الصبيانيَّة لم تعد تنطلي عليه. يبقى رابضًا في ظلمته تحت السرير حتَّى بعد أن يكون إدريس قد غادر الغرفة والبيت بمدَّة طويلة. إنَّه لم يعد الكلب الذي كان. هو أيضًا فقد الثقة التي كانت تشدّ كيانه، ربَّما إلى الأبد.

اكتفينا بإطعامه في اليوم الأوَّل، حتَّى يشعر الكلب بأنَّه في بيته، وبين أصدقائه، وليس في حاجة إلى جيجي، ولا في حاجة إلى سكّيرين يمسحون أصابعهم الملطَّخة بالمَرَق بفروته الجميلة، الناعمة، ذات اللَّون الذي يشبه لون الحناء. وهو فعلًا من النوع المهذَّب؛ من فصيلة الكلاب المسالمة التي تستقرّ أينما وجدت رزقها. ظلّ ممدَّدًا في سريري طوال الظهيرة وحتَّى المساء، هادئًا، كواحد في بيته. في عينيه وداعةُ الذي يفكّر في أهله الطيّبين الذين تركهم بعيدًا. ثمَّ دخل المطبخ يبحث عن أكله بنفسه، ويقفز فوق الطبليَّة الإسمنتيَّة التي نستعملها لإعداد الطعام، كما لو أنَّه في بيته تمامًا. وفي المساء، وأنا أشعل القنديل وأتساءل عن المزايا العديدة التي يوفِّرها وجود الكلاب في البيوت، أخرج إدريس من محفظته المعداتِ والقواريرَ ووضعها فوق المائدة. ترسانة من الآلات والأدوية أخذناها معنا يوم خرجنا من الكوميساريَّة السابعة في الدار البيضاء، وهي التي استعملناها في عمليَّة الزاگوري التي لم تنجح. جاء الكلب من المطبخ وتمدَّد على المائدة نفسها، وراح يشتمّ الأدوات التي سنستعملها لاجتثاث خصيتيه. يتشمَّمها ويدور حولها، ويتشقلب ويلعب ببعضها. أضحكتنا هذه الصورة معًا، وأدخلت عليَّ نوعًا من الاطمئنان. وتصالحنا بهذه المناسبة، وتبادلنا كلامًا كثيرًا، وبلغة أخرى، أكثر حميميَّة، إلى درجة أنَّني بدأت أعيد النظر في علاقتي المتوتّرة بإدريس وأنا أرى المجهود الذي يبذله حتَّى نستمرّ متحدَين. والدليل هو العمليَّة التي يستعدّ للقيام بها، من أجلي، كما شرح لي، حتَّى أتمكَّن من استعادة ثقتي بنفسي. إدريس مستعدّ للقيام بالعمليَّة بمفرده. مستعدّ لأن يُعفيني من الحضور إذا كانت العمليَّة ستؤثّر

في معنوياتي كما في المرّة السابقة، وفي الأساس في فحولتي، كما قال متهكّمًا. لأوّل مرّة أرى أنّ إدريس يفهمني، إلى هذه الدرجة؛ يتفهّمني تمامًا. وكونه شخصًا لا يبعث على الثقة، فهذه مسألة أخرى. وقال أيضًا إنّ عليّ أن آكل خصيتي الكلب، إن أردت التغلُّبَ على القلق والوهن الذي قد يستولي عليّ وأنا أفكّر في العمليّة الأخرى، الأساسية، عندما نقبض على الحرطاني الذي نتعقّبه منذ أيّام. ليس فقط لأنّ كلب جيجي حيوان من النوع الأصيل، وإنّما أيضًا لأنّها وصفة موجودة في كتب الطبّ القديم. لم أعلّق من جانبي على الفكرة. تذكّرت فقط قصّة قديمة: عندما جلب الوالد إلى البيت هدهدًا، اعتقدنا نحن الصغار أنّنا سنلعب معه. لكنّ الوالد أدخل إصبعيه في منقاره وأخرج قلبه ورماه في فمي. ابتلعته لأنّ قلب الهدهد ينقّي الذكاء. وإذا كان قلب الهدهد ينقّي الذكاء، كما قال الوالد، فإنّ خصيتَي الكلب تنقّيان الفحولة، كما يقول إدريس الأوّل. أليس كذلك؟ استمرّ إدريس في تنظيف أدواته زمنًا طويلًا. مشغول تمامًا. يرصّها بعناية إلى جانب بعضها البعض. ورأيت في تلك اللّحظة أنّه ليس من مصلحتي أن أتركه يستفرد بالعمليّة، على الرّغم من النيّة الطيّبة التي أبداها، والكلام المعسول الذي فاه به. بالعكس، عليّ أن أحتاط. من أهمّ الدروس التي تعلّمناها في هذه المهنة تغييرُ الخطة بشكل مستمرّ لتخدير العدوّ والانقضاض عليه عند أوّل بادرة سهو أو وهن. إنّه يرغب في أن يستعيد أمامي مكانةَ الريادة التي يعرف أنّه ضيّعها. هذا هو كلّ همّه.

استيقظنا باكرًا في اليوم الثاني، متحمّسين، فَرِحين، كالأطفال صبيحة العيد. كان إدريس قد سبقني إلى المطبخ عندما غادرت الفراش، ووضع للكلب مع مرق اللّحم مقدارَ المخدر اللّازم، لأنّ الحيوان تمطّى لحظات قصيرة، عندما دخلت، وأطل عليّ بنصف عين، ثمّ نام على جنبه فوق الطبليّة الإسمنتيّة، مبتسمًا، وفمه مفتوح قليلًا، كما لو أنّه حبس نكتة كان سيحكيها لولا أنّ المادة المنوّمة فاجأته قبل الكلمة الأولى. إنّه وديع الآن، نائم كالرضيع. تود بدورك لو تتوسّد فروته الحمراء في لون الحناء، وتنام وسط القوارير وأدوات الخصاء، بلا حاجة إلى دغدغة، وبلا حاجة إلى لحم أو حليب. قلت باسم اللّه، ورفعت قائمتيه الخلفيتين وفتحتهما عن آخرهما. وبعد أن بلّل إدريس جزءًا من الغشاء الذي يغلف البيضتين بالماء والصابون، أخذ شفرة الحلاقة وحلق الجلدة التي صارت بيضاء ناصعة، ثمّ أمسك بالمشرط وضرب ضربة واحدة، حادّة، قاطعة: ضربة واضحة، نظيفة، كالمتمرّس، كالخبير بأمور الخصاء. الألم الذي شغل بالي قبل ضربة المشرط، جاء أشدّ مضاءً ممّا توقّعت. عصر ساقَيّ حتّى أسفل

القدمين أكثر من المرّة السابقة، حتّى إنّني أغمضت عينَيّ، ضاغطًا على جفنَيّ بقوّة إلى أن فاضت منهما الدموع، ولعنت إدريس في خاطري لأنّ هذه أعمال لا يقوم بها غير الشيطان. عندما فتحتهما، رأيت الدم الغامق اللّون والذي ساح على الإسمنت وكوّن بقعة صغيرة حول الكلب. عزل إدريس البيضتين ونزعهما بالمشرط نفسه، ووضعهما في صحن أبيض نظيف. إنّه يرشّ الآن موضع الجرح بسائل أحمر، وأنا أطلّ على الكلب المحتفظ بالرزانة والتعقُّل نفسيهما. فالذي يسري على الكلب لا يسري على ابن آدم. الكلب حيوان أليف. لو أنّ ابن آدم كلب، تستطيع أن تفعل به ما تشاء. أفرغ إدريس قارورة كاملة من السائل الأحمر لينظف الجرح، وانتظرنا حتّى ينحبس الدم. لا يبدو على إدريس أيّ تأثر، وهو فعلًا شخص لا يعرف الشفقة. أشعل سيجارة وراح يمجّها وينفث الدخان من منخريه، ويخيط في الوقت نفسه الغشاءَ. عيناه نصف مغمضتين لأنّ الدخان يزعجهما، ثمّ مسح الجلد في مكان العمليّة. لا تزال قطرات دم تنزّ من بين فتحات الخيط. أعاد الأدوات إلى المحفظة ريثما ينقطع الدم تمامًا، بالعناية نفسها التي بذلها في أثناء العمليّة. أتأمّل الكلب المسجّى. إنّه يحلم. بمَ سيحلم كلب مخدَّر، وبلا خصيتين؟ إنّه يحلم بأنّه يعضّنا... التفتَ إليّ آنذاك فقط، كأنّما تذكّر وجودي فجأة، وقال... دابا نقدرو نفطرو... وكنت آنذاك أهرول نحو بيت النظافة. صببتُ الماء على رأسي وغسلت وجهي عدّة مرّات. وعندما عدت وجدته هيّأ المائدة. خبز شعير وشاي، وصحن بيض مقلي، ووسط أصفر البيض خصيتا الكلب بيضاوان، مغسولتان ونظيفتان.

استمرّ الكلب نائمًا في اليوم التالي، لكن تنفُّسه هادئ لا يثير أيّ قلق. أمضينا الصبيحة نفكّر في الزيّ الذي سنخرج به هذا النهار. المرحلة المتقدّمة التي وصلنا إليها في مهمّتنا لم تعد تسمح بزيّ بائع الزرابي. استهلكناه في المحطة الطرقيّة والمقاهي. وكذلك زيّ تجار الجمال، تضاءلت هيبته في السوق الأخيرة بعد موت الزاگوري. وتعقبنا الحرطاني في الأيّام الأخيرة ونحن نلبس لباس الرهبان، بلحية طويلة حمراء مضحكة تكاد تطير مع كلّ حركة من حركات كلٍّ منّا. ثمّ ملابس سائحين جاءا من الدار البيضاء ليتعرّفا إلى الإقليم وما يزخر به من مآثر تاريخيّة. قرّرنا أخيرًا أن نستقرّ نهائيًا على ملابس بائعَي ثلج نظرًا إلى الإمكانيّات الهائلة التي تتيحها مهنة كهذه. وكنت أتوقّع بعد الظهيرة أن ينهض إدريس ويغادر ويتركني مع الكلب، لكنّه استمرّ جالسًا واعترته كآبة مفاجئة. إنّه يفكّر في جيجي صاحبة فندق الحظ السّعيد. قال إنّها أمضت الأيّام

السَّابقة بلا عزاء، ولم تكفَّ عن البكاء. لم تنفع مواساة الزبائن، وخصوصًا عندما يُغزون اختفاء الكلب إلى المجاعة، لأنَّ المجاعة دفعت الناس إلى أكل أطفالهم، فلماذا لا يسرقون كلبها ويأكلونه. حيوان جميل ونظيف وأحمر في لون الحناء مثل كلبها؛ أجمل كلب في العالم.

لم يستيقظ الكلب من العمليَّة في اليوم الثالث. ظلَّ ممدَّدًا في ركن الغرفة التي نتناول فيها الطعام، وأنا جالس قربه كما لو أنَّني أعود مريضًا عزيزًا. إدريس متفائل على الرَّغم من أنَّ الكلب لا يزال ممدَّدًا في مكانه فاقدًا كلَّ حركة. لولا بطنه الذي يصعد ويهبط لقلنا إنَّه مات. يبدو أحيانًا كما لو أنَّ تنفُّسه انقطع، فأطلّ عليه وألمسه لأنَّني لا أنتظر معجزة، متسائلًا هل مات أخيرًا لنرميه خلف السور، في المكان الذي رمينا فيه الزاگوري. ومن الأحسن ألَّا يكون يومَ سُوق. لم أغادر البيت لليوم الثالث. استيقظ كلب جيجي أخيرًا، في بداية الظهيرة، وهو اليوم الرابع الذي أمضاه في بيتنا. قفز مذعورًا بمجرَّد أن فتح عينيه. وقف وسط الغرفة، ونبح مرَّات عديدةً، لكنَّه نباح يشبه النُّواح، وحنون في الوقت نفسه، وكئيب، جعل قشعريرة خفيفة تسرح على جلدتي. أحضرت له صحنًا من الحليب، فلم يقربه. ربَّما شمَّ أنَّه الصحن الذي قلى فيه إدريس بيضتيه. ثمَّ بدأ يدور حول نفسه، كما لو أنَّه انتبه إلى أنَّ أمرًا غير عادي حدث في أثناء نومه. تعجَّبت من أنَّه لا يتألم، أو ربَّما إنَّه يتألَّم في صمت. لا بدَ من أنَّ هناك طريقة ما تدرك بها الكلاب مصائبها. ولهذا، فهو يلتفت إلى ذيله ويحاول أن يعضَّه. بدأ الكلب يبكي بكاءً حقيقيًا قبل أن أنتهي من هذه الأفكار السوداء، ثمَّ يتلوَى من الألم، أو ربَّما من الغضب، ويُصدر أصواتًا تشبه العويل. وهذا هو الطبيعيّ بالنسبة إلى واحد أحس بالخذلان. ثمَّ كفَّ عن الصراخ فجأة، ولكنَّني أرى أنَّ ثقته تزعزعت نهائيًا. وهذا يقع لكلّ واحد عاشر هذا الرجل الذي يطلق على نفسه: إدريس الأوَّل.

تمكنَّا أخيرًا، بالأمس، من إعادته إلى الفندق. أخذته بين يدي برفق بالغ، ونحن في الطريق إلى فندق جيجي، ولاطفته بكلّ الكلام الجميل الذي يمكن أن يقال في مناسبة مؤلمة كهذه. وضعناه قريبًا من الفندق ودخلنا، وانتظرنا طويلًا قبل أن يظهر، واقفًا عند الباب ويتلفَّت حوله كواحد يتفَّقد بيته بعد سفر دام خمسة أيَّام. بكت جيجي عندما رأته، وبكينا معها. وهو الآخر، وهو يقترب من الكونتوار، أطلق النباح الحزين نفسه الذي استقبلنا به عندما استيقظ. انتظرت جيجي أن يقفز فوق الكونتوار كعادته، ولكنَّه لم يفعل. ظلَّ رافعًا عينيه الحزينتين ناحيتها، ثمَّ

تمدّد تحت الكونتوار وأرخى أذنيه.

تقلّصت حيويته إلى الحدّ الأدنى. ظلّ ممدّدًا على بطنه كما تركناه بالأمس، بعيدًا ما أمكن عن إدريس الأوّل، وغيرَ مبال بصخب السكارى. وعندما انحنيتُ ومررت يدي على رأسه، ظلّ الحيوان جامدًا يبحلق حوله كواحد لم يعد يهتمّ. أضحكتنا وضعيته البئيسة كثيرًا، وقلنا لجيجي إنّ كلبها المسكين مريض. وكنت هذه المرّة أفكّر فيه ككائن يستطيع الكلام كالبشر، وسيروي في اللّيل لجيجي ما حدث له في بيتنا. قلت لإدريس، مستمرًّا في استثمار الجوّ الرائق الذي يسود بيننا الآن: ماذا سيحدث عندما سيصادف كلبة في طريقه. هل سيتعذّب صامتًا، وهو يفكّر في مغامراته السّابقة فوق السطوح، وبين عجلات السيّارات؟ أم يهرب ليُلقي بنفسه في أول بئر يصادفها؟

مرت جيجي أمام إدريس الأوّل وهي تهبّ لاستقبال ثلاث فتيات دخلنَ للتوّ، فأرسل إليها قبلة عبر أطراف الأصابع، وملأث كأسًا أخرى لنافع: كأسه الرابعة أو الخامسة. كان إدريس يتلوّى في مكانه كما لو أنّه يجلس على الشوك، ثمّ ينزل عن كرسيه وينتقل إلى جهة الموقد تحت شجرة التين، ويقف خلف جيجي التي أخذت تحرّك ما في داخل الطنجرة بمغرفة كبيرة من الخشب. قال لها إدريس: كتطبخي مزيان أمدام جيجي...

وكنْدير خوايخ أخرى أحسنْ من الطبخ... قالتها متبوعة بضحكة عالية. إنّه الآن يتعقّبها من ركن إلى ركن، في قفطانها البرتقالي، وقد لوت حول شعرها الأشقر فولارًا مزركشًا. قهقهة جيجي شقراء كشعرها، عالية، مبحوحة قليلًا، مجلجلة، كحجارة تتدحرج مع السيل. خطرت في بالي هذه الفكرة، وهي ليست فكرة واضحة تمامًا: الرّغبةُ في إضرام النار فيها، في جيجي وفندق جيجي. أدرت رأسي ووضعت خدي على الجدار حتّى تبرد الحمّى التي تلهبه. ولا أستطيع أن أوجّه فكري وجهةً أخرى غير تلك التي تسير فيها جيجي وإدريس الذي يلاحقها. وهي ترُدّ على ملاحقته لها بالفرنسيّة، وهو مستمرّ يلاحقها من الكونتوار حتّى قاع الحانة، ثمّ حتّى الكونتوار من جديد، سكرانَ تمامًا وهو يلعب بأصابعها، كأيّ مراهق، فرحان بغنيمته الثانية لهذا النهار. أدرت له ظهري حتّى يرى أنّني لا أتفرّج على سخافاته مع امرأة في الأربعين. جيجي متربّعة الآن على كرسيها العالي وراء الكونتوار، غارقة في حساباتها، وإدريس الأوّل يلحس أصابعها كأيّ مراهق، فرحان بصيده، لأن غرضه الأخير؛ رغبته الحقيقيّة هي أن يلعب بأصابع امرأة في الأربعين، لا أن يفكّر في الكيفيّة الناجعة لأخذ الحرطاني

إلى البيت والانتهاء من هذه المهمَّة المدمّرة للأعصاب... ونافع؟ إنَّه مُسندٌ رأسه إلى الجدارِ، ومسترخٍ، وغارقٌ في لجج عشقه الحديث. غادرته البهجةُ التي كانت تنعش خلاياه قبل قليل. والآن، فيمَ يفكّر هذا الرجل الذي لا يعرف المصير الذي ينتظره. نزل لحظتها عن الكرسيّ. يبدو أحسن حالًا، وقد حلّق بعيدًا عن لحظات يأسه السّابقة. أيّ أفكار تراوده الآن؟ لن تكون أفكارًا عادية في أيّ حال، كالرّغبة في الأكل مثلًا، أو الذهاب إلى الحمام مع أنَّ السّاعة متأخّرة والحمّامات أغلقت أبوابها منذ ساعتين على الأقلّ. ثمَّ إنَّها أفكار لا تخطر في بال شخص يسكر لأوّل مرّة في حياته. يبدو أنَّه أدرك أنَّه في حالة لم يسبق أن عرفها من قبل، وهي التي تجعله، لأوّل مرّة، متحرّرًا، هوائيًا، خفيفًا، فارتمى على كأسه وأفرغها في فمه دفعةً واحدة...

ثمَّ رأيته يصعد فوق مائدة ويقف على يديه ويلعب برِجليه في الهواء. امتلأ صحن الحانة بالضجيج والحركة. الفتيات الثلاث اللائي كن يتنقّلن من ركن إلى ركن ويزقزقن كالعصافير جارّاتٍ وراءهن روائحَ الحنّاء والقرنفل وماء الخزامى ودغدغة بخار الماء الساخن الذي دلقن فوقهن قبل قليل، تحلّقن حوله عندما بدأ الزبائن يراهنون على سقوطه الوشيك. لم يسقط. نزل بخفّة ووضع كرسيًا على المائدة ووقف عليه، تلعب رِجلاه في الهواء دائمًا. يضحك وجهه المقلوب ضحكةً غريبة، مقلوبة هي الأخرى، لاآدمية. وخرجت جيجي من خلف الكونتوار تسأل عمّا يحدث في حانتها، هادئة، كواحدة استأنست منذ مدّة بهذا النوع من الوقائع. لم تنفع احتجاجاتها ولا تهديداتها، وهي تراه في هذا الوضع. واستمرّ الرهان والعربدة والصخب والتصفيقات المشجّعة عندما أضاف نافع كرسيًا ثانيًا. وهذه المرّة أيضًا لم يسقط كما توقّعت. لم يسقط نافع وهو منتصب على الكرسيّ الأوّل. لم يسقط وهو منتصب على الكرسيّ الثاني. لم يسقط وهو يلعب برجليه في الهواء. لقد سقط أخيرًا وهو يحاول أن يقف على يد واحدة، ليس لأنَّه بهلوان محترف كبهلوانات جامع لفنا خذلته ثقته في آخر لحظة، وإنّما لأنَّه سكران. عاد إدريس يمسك بأصابع جيجي من جديد، غارقًا في تأمّل الأنامل، كأنّما يسبر أغوار قارّة لم يكتشفها أحد. كنت أنتظر أن يسألني عن الحرطاني الذي نقله الزبائن إلى المطبخ. نسيه تمامًا. وحتّى عندما قفزت إلى المطبخ ووجدته فارغًا إلّا من نقاط الدم المزوعة على الزليج، وحتّى عندما عدت لأخبره بأنَّ الحرطاني هرب، فإنَّه استمرّ يتأمّل جيجي ذات الأعوام الأربعين، ويمصّ أصابعها السمينة والمفعمة بروائح التبغ والمَرَق.

أنا أقول دائمًا: عملنا هو الأهمّ. العائلة والصداقة والعلاقات مسألة ثانية، ثانوية. لا شيء له أهمّيّة خارج هذه الدائرة. نزلنا في مئات الفنادق، وعبرنا مئات الفنادق الراقية والحانات البئيسة، وأرى دائمًا ما يخلّفه مرورنا في النفوس من خشية واضطراب وإعجاب. وأراهم، من دون أن ألتفت، يمدّون أعناقهم ويسأل أحدهم الآخر هل يعرف السيدين اللذين يعبران الممرّ... ويسري النبأ في كلّ الفضاء قبل أن نعبره. وهذه متعة لا تضاهيها متعة. هذه واحدة من اللّحظات النادرة التي أكبر فيها أمام نفسي. وأتساءل ما دمت أعتبر نفسي جدّيًا إلى هذا الحدّ: كيف وجدت نفسي مرافقًا هذا الذي يحمل اسمي من دون أن يفيَه حقَّه. والشيء نفسه في البيت. إنّني أشبه نفسي. السلوك المتّزن نفسه دائمًا. الهيئة الرزينة نفسها، التي تبعث على الاحترام، حتّى يكبر الأولاد وهم مدركون أهمّيّتهم ويمشون مرفوعي الرأس، لأنّ والدهم هيّأ لهم كلّ الظروف ليعرفوا الاحترام في عملهم وخارجه. عندما أرى كيف يتعامل إدريس الأوّل مع امرأته وأولاده، أكاد أختنق من الغيظ.

موزع الرّسائل الذي يسمّى الرقّاص

الاثنين 2 يونيو 1958

هارب في أزقّة فارغة. لا قطة تعبث بالقمامة، ولا كلب يبحث عن ذيله تحت ضوء القمر الكامل الاستدارة. وأنا أسمع وقع الخطى ورائي تجدّ في اللّحاق بي، وغيظ المجرمين يطاردني ولعنات تلاحقني. أسمعهما يتوعّدان بقلع بيضتيّ بأظافرهما ويعلّقانهما حول عنقي كناقوسين. أغذّ الخطى، ماسحًا الجدران حتّى لا يظهر أثر لظلّي وهو يجري على الأرض، حابسًا الأنفاس، هاربًا في اللّيل بلا وجهة محدّدة، في البداية على الأقلّ، قبل أن أجدني متسلّلًا إلى بيت إبراهيم. بيت إبراهيم الذي أصبح ورشته عندما علّق فوق بابها محلّ إصلاح السيّارات أو محلّ إصلاح كهرباء السيّارات. لم يختف ألمُ الضربة التي شجّت رأسي عندما سقطت على الأرض، إنّما لا يساوي شيئًا أمام الآلام الأخرى التي خلّفتها رؤيةُ الرجلين وأنا فوق المائدة والكرسيّين. كنت، ولا أزال، رجلًا متوجّسًا. أقارب الأشياء بحذر، وخصوصًا إذا صادف أن وقفت على شيء غير مألوف، كما حدث لي في الفندق، وأنا منتصب فوق مائدة وكرسيّين، رأسي تحتُ ورجلاي فوق. ورأيتهما مقلوبين، على حقيقتهما. وعرفت فيهما المجرمين اللذين تحدث عنهما إبراهيم. واحد بعينين تشبهان عيني الثعلب، والآخر بحاجبيه الشبيهين بحزمتين من التبن. العينان تبرقان والحاجبان يرتعشان، متذكّرًا اللّحظات السّابقة، منذ بادرني أحدهما بالحديث عن صاحبته الهاربة... حتّى دخلنا فندق الحظ السّعيد، وأنا بينهما. وهما يشدّان على يديّ بقوّة. يُخرج أحدهما حبّات كاوكاو ويضعها في يدي، كأنّما يدسّ فيهما كلّ الحرارة التي يحتاج إليها ابن آدم ليطمئنّ. ثمّ وهو يرمي حبّة في الهواء عاليًا، ثمّ يتلقّفها بفمه في مهارة، ثمّ حبّة أخرى، ثمّ ثالثة. والانشراح الذي عمّ بيننا. ثمّ وهو ينتهي من لعبه البهلواني ويتّكئ على الكونتوار ليشرح لي كيف أنّ جده كان يأتي إلى البيت مرّة في السنة. وكان ينتظر، في كلّ مرّة، حتّى يبدأ الجدّ في سرد مغامراته الخارقة، فيجلس إلى جانبه ويدسّ يده في جيبه ويُخرج حبّات الكاوكاو، واحدة واحدة، والجدّ غارق في الحديث، متظاهر بأنّه لا يلاحظ اليد المندسّة في جيب جلابيّته... وتبرق عيناه النحاسيّتان، وتذرفان دمعتين مثقلتين بالذكريات. والرجل الثاني، صاحب الحاجبين الكثّين، ينحني عليه ويواسيه ويربّت على كتفه. شعرت بالحرج وبالضيق وبالتعاطف، وصعدت الدموعُ إلى عينيّ. وأصبحت بعد كأسين أنظر إليهما كصديقين حقيقيين، كما لو كنّا نعرف بعضنا البعض منذ

سنوات. أدخلَ هذان الشخصان على قلبي دفئًا لم أشعر به، لا مع براهيم ولا مع غيره. وتمكّنت أخيرًا من أن أنساها ولو للحظات. إنّها لا تغيب عن ذهني لحظة واحدة. العالم السخيّ الذي فتحت أمامي ما زال طيبه يعطر الجوّ من حولي. قلت إنّ أشخاصًا بكلّ هذا اللّطف، نادرًا ما تتاح لنا فرصة لقائهم. صرنا أصدقاء من الوهلة الأولى. وهذا لم يحدث لي من قبل. ولتمديد الجوّ المفعم مرحًا وطيبوبةً، سمعت أحدهما يسألني هل الأرض تدور كما يدّعي زميله عينا الثعلب؟ وانفجرا ضاحكين معًا في الآن نفسه، مترقبين ردّي كما لو أنّه سيكون بالغ الأهمّيّة، ومتسائلين بعيونهما في الوقت نفسه هل تتبعت جيّدًا متاهات فكرتهما المتعلّقة بدوران الأرض... مكرّرين السّؤال نفسه مرّات عديدة كي يساعداني على الفهم، ومطلقين قهقهات ضاجة، ومترقبين دائمًا... وقلت بدوري لهما ممازحًا إنّ الأرض تشبه خبزة مدورة كبيرة. ربتا على كتفي موافقين. وأصبت في الآن نفسه بعدوى قهقهاتهما. أمّا في اللّحظة التي رأيتهما وأنا مقلوب، فوق الكرسيّين، رأسي تحتُ ورجلاي تلعبان في الهواء، وعرفت حقيقة من يكونان، فكما لو أنّ أحدًا هوى على رأسي بمطرقة. تزعزع كياني، وتفكّكت أجزاؤه، بحيث إنّني لم أر كيف أمنعه من التهاوي والسّقوط.

تهديد صوتيهما مضاعف في اللّيل البهيم، وبين الأزقّة الموحشة. ألم في مؤخّرة الرأس ومغص في المعدة ودوخة مستمرّة، وأنا أركض حتّى الأشجار المنتصبة خلف المستوصف. ويفاجئني الضحك في هروبي المتعجّل والمرتبك نحو العدم. أضحك وأنا أضع يدي على حجري ولا ألمس شيئًا. اختفت البيضتان، هربتا، كأنّما لتنجوا بجلديهما. لا يوجد تحت أصابعي غيرُ جَيْبٍ خاوٍ. منكمش ومتقلّص إلى الحدّ الأقصى، وأشدّ هولًا ممّا كان يحدث عندما كنت أغطس في الماء البارد وأنا طفل صغير. كنت لا أزال قادرًا على العثور عليهما، مختفيتين فوق، كما لو كانتا معلّقتين على فرع شجرة وتنتظران أن تخفّ برودة الماء أو يجفّ تمامًا. هذه المرّة لا إمكانية للعثور عليهما بتاتًا. لا توجدان لا فوق ولا تحت. ذابتا من الهلع؛ من هلع المصيدة التي تطاردني، فاتحة كماشتها للانقضاض عليهما. لمست في اللّحظة نفسها المسدس من دون أن تزيد ثقتي مثقالًا. ماذا ينفع المسدس في اللّيل؟ طلقة واحدة كافية لإيقاظ المدينة بكاملها، والنتيجة غير مضمونة.

ضممتُ ركبتي إلى صدري، ممسكًا بهما بكلتا يدي، وحابسًا أنفاسي، في جلسة غير مريحة، قابعًا خلف بناية المستوصف الذي كنّا سننسفه قبل

أيّام، أنا وبراهيم، لولا حسن الحظّ الذي رافق قنبلته الفاشلة، متخفّيًا بين أشجار أجمة زرعها قبل عشرات السنين أشخاصٌ لا يذكرهم أحد، أسمع تكسّر العشب اليابس تحت نعالهما. يقترب الصوت ويبتعد. وهناك صوت آخر. صوت الجدجد الذي يصمت عند اقترابهما، بالحذر والترقّب نفسيهما. إنّما من دون الخوف الذي يشلّ قدرتي على التفكير. ليس له ما يخاف عليه، وإذا اقترب أحدهما بالقدر الكافي، فسيسمع دقات قلبي الذي يضرب في صدري بعنف. أستعيد هدوئي وتوازني عندما أسمع الغناء. وأتمنّى أن يطول. وأقول إنّ الجدجد أجمل حشرة على وجه الأرض... غنّ يا صاحبي غنّ... وعندما يتوقّف يداهمني الخوف بشكل يجعل عضلاتي تتيبّس. أتوقّف مشلولًا، غائبًا، في غياب يشبه الغيبوبة؛ غيبوبة واحد مصدوم. أنتظر الغناء بدلًا من وقع النعلين. غناء الجدجد هو النجاة. هو اليقين بأنّ الفجر سيطلع وأنّ الغد سيأتي. هل سيجدنا الغدُ أنا والجدجدَ في المكان نفسه؟ صببت قبل لحظات سخطي على القمر وضوء القمر. والآن، في جلستي غير المريحة، وفي تردُّدي بين الإحساس بدنوّ الخطر وابتعاده، أرى أنّ ضوء القمر هو الذي جعل الجدجد يُطلق صوته الرخيم، ويستمرّ، ويستمرّ... كأنّما ضوء القمر هو الذي يمنح الطاقة الكافية للصوت، وكأنّما الصوت هو الذي يطرد الخطر والإحساس به. الطريق سالكة... الطريق سالكة، يقول الجدجد بلغته الليليّة الفريدة. فكرت في براهيم، وأنا أرى الساحة الفارغة، بعد الأجمة مباشرة، والصامتة، والتي ازدادت شساعة تحت ضوء القمر. قلت إنّ لا سبيل إلى عبورها الآن، وعليّ أن أعبرها قبل أن أتوغل في الأزقّة الأخيرة المفضية إلى بيت براهيم. تذكّرته من دون نيّة تذكُّرِه، لولا أنّني أبصرت السّاحة في اللّحظة نفسها التي سمعت فيها تحرُّكهما وتكسّر العشب اليابس تحت نعالهما في الجهة الأماميّة من المستوصف.

انتظرت ظهوره منذ عمليّتنا الفاشلة، في ورشته، كما قال. أخرجُ المفتاح من ثقب في أعلى النافذة وأدخل من الباب الجانبي وأجلس لساعات. هل هو براهيم الذي اجتزأ له ركنًا من الورشة ووضع له بابًا جانبيًا وفناءً ضيّقًا وسقاه بيته؟ الأرجح أنّها كانت على هذه الهيئة قبل أن ينتقل إليها ويبتكر له مهنة جديدة سقاها إصلاح السيّارات أو إصلاح كهرباء السيّارات من أجل صنع قنبلة لا تنفجر. أربعة جدران بلا طلاء، وسرير بلا متربة، ومائدة مربّعة وشمعة مستهلكة وجرائد عليها بقايا أكل الأيّام الفائتة. والرّائحة المنبعثة من الورشة تشبه رائحة الأسلاك المحترقة؛ رائحة المسامير التي ظلّ يرقعها كي يصل إلى تلك النتيجة المؤسفة،

ولكنّه لم يظهر حتّى أجزم بإمكانيّة وجوده في ورشته في هذه الساعة. هذا الشخص لا يمكن العثور عليه في أيّ مكان، وخصوصًا عند الحاجة إليه. يستأهل عبورُ الساحة تحت ضوء القمر المخاطرةَ في حال تواصل غناء الجدجد. يستأهل عبور الساحة المخاطرةَ إذا ظلّ المفتاح في الثقب جنب النافذة، حيث وضعته، آخرَ مرّة.

في اللّحظة نفسها التي أغلقتُ فيها الباب خلفي وقلت إنّني تخلّصت منهما، أسمع حركةً لا أتبيّن مصدرها، ولا أعرف هل هي آتية من داخل الورشة أم من خارجها. حركة خفيفة، كافية مع ذلك لألبد في مكاني، على بعد خطوتين من التهديد المتربّص بالخارج أو الداخل. اقتربت على أطراف أصابعي، متصيّدًا أدنى نأمة أمامي وخلفي. انتظرت. لا شيء. وقفت لمدّة أنتظر أن أسمع طَرقًا على الباب، متحاشيًا كلّ حركة. قد يكون بْراهيم؟ طال اختفاؤه أكثر ممّا يجب. قد يكون بْراهيم أضاع مفاتيح ورشته؟ ولمَ لا؟ أسبوعان كافيان ليُضيّع الواحد أكثر من مجرّد مفتاح. أحسّست هذه المرّة بيد تمسك بي وارتجفت قبل أن أتبيّن أنّه بْراهيم. لا أعرف كيف ارتميت عليه واحتضنته، صديقي بْراهيم، ولا كيف أمضيت ما تبقى من اللّيلة. أذكر أنّني تمدّدت وأنّ الأرض دارت بي، وأصبحت السماء تحت رأسي. لا أذكر ما حدث بعد ذلك.

الثلاثاء 3 يونيو 1958

رؤّاد المقهى هم عادة سائقو عربات وحلّاقون وأصحاب حوانيت بقالة وورشات إصلاح الدراجات. يمضون النهار يشربون الشاي ويلعبون الورق، ويترقّبون من خلف الواجهة الزجاجيّة الزبائن الذين سيقفون عند أبواب حوانيتهم. أمّا هذا الصباح، فالمقهى فارغ، ما عدا هذا الرجل الذي أمسك بمرفقي في ظلام الورشة، واعتقدت أنّه بْراهيم. لم أنتبه إليه حتّى غادرنا الورشة في مطلع الصباح. إنّه يضع على رأسه خوذة كاكيّة اللّون، وعلى عينيه نظّارة تخفي نصف وجهه؛ نظارة كبيرة وغليظة الإطار وسوداء كالتي يضعها اللحام في ورشته. جلسنا في هذا المقهى وبقيت أتساءل عن علّة وجودنا فيه، وعن الاسم الذي قد يحمله الرجل الذي وجدته في ورشة بْراهيم. هل اسمه مْبارك؟ هذا اسم يحمله الحراطين. أصابعه بيضاء وطويلة وتحمل خاتمين من الفضّة. وأذهلني بياض بشرة الأصابع وأصابني بنوع من الخيبة. جلست على مسافة خطوة من الباب حتّى أبقى قريبًا منه، وهي المسافة الكافية مخافة أن يعتبر تشبثي بمكاني تعنّتًا أو استفزازًا أو قلّة حياء، أو شيئًا من هذا القبيل، أو مخافة

أن أوقظ في نفسه توجسات لا ضرورة لها. وحتّى لا أعطيه مبرّرًا ليعتقد أنّني أنقص من قيمته... لا تعرف على أيّ جانب تتّكئ مع هؤلاء القوم. جلست، إذن، كواحد مطمئن ومتوجّس في الآن نفسه؛ كواحد يلبّي نصف دعوة. وقرّرت، في أثناء هذا، أن أفكّر في بناصر وفي زوجتيه الهاربتين، حتّى لا أشغل نفسي بشيء آخر أكثر من اللّازم. تركته زوجتاه لأنّه يفكّر في أنّهما ستغادران حتّى قبل أن تستقرّا في بيته... ويتعلّق بناصر بأيّ امرأة لمجرّد أنّه نقلها في شاحنته، أو سألته عن الساعة أو عن محطّة الحافلات. أفكّر للحظات في السراب الذي تراءى لي واعتقدته امرأةً سمّيتها البتول حتّى لا تختلط بالأسماء الأخرى. تعبر رعشة نسيم المقهى لتعلن بهذا الشكل المخادع، أنّ الحرّ الخانق ينتظرنا على الأبواب.

عندنا شغل كثير غدًا...

فاجأتني الكلمات ولم تفاجئني في الوقت نفسه. لا أعرف لماذا جئنا، ولماذا دخلنا المقهى، ولماذا جلسنا. اكتفيت بأن أهزّ رأسي بتلك الطريقة التي لا تقول شيئًا محدّدًا. ثمّ عاد الرجل يراقب الساحة ويدخّن مستخدمًا سبسي قصيرًا من الفضّة، عليه نقوشٌ غريبة كالنقوش التي تظهر على الخاتمين المثيرين في إصبعيه. عاد الرجل يراقب السّاحة متجاهلًا إيّاي، وقد نشر ساقيه على الكرسيّ المقابل، بحيث أرى أنّه ينتعل حذاءً أسود عالي العنق. بقيت لمدّة مشدودًا إلى الطريقة التي يدخّن بها، ذلك بأنّ شالًا أسود يلتفّ حول عنقه ويغطّي فمه، يُخفضه قليلًا بيد، ويحشو باليد الأخرى السبسي في فمه ويمجّ مجّتين قبل أن يجذب اللثام. مجّتان طويلتان ولا دخان، كما لو كان يتدرّب على إحدى ألعابه السحريّة قبل أن يدخل الحلبة. وجعلته هذه الحركة المضحكة ينقص في عيني. مجرّد زبون يجزي الوقت بهذه الطريقة المقرفة. استويت في جلستي من دون حرج وأنا أردّد بيني وبين نفسي أنّ الرجل، الزبون الوحيد الجالس في المقهى هذا الصباح، يحمل اسمًا غير: فبارك أو مسعود. وفكّرت في أن أطلب كأس شاي، إنّما لا يوجد سوانا في المقهى. ثمّ انتبهت إلى الحقيبة التي جلبها معه من البيت والتي تنام على المائدة، وإلى الرسوم القديمة، والممحوّة تقريبًا، والتي تزوّق حوافيه، متسائلًا في أيّ سلعة يتاجر. هل يتاجر في الحقائب المتفجّرة؟ ملت قليلًا لعلّي أسمع التكتكة. ربّما إنّه رأى ما أفكّر فيه، فمدّ يده ومرّرها على التزاويق. ولمعت أصابعه فوق الخشب لفترة وجيزة. ثمّ قال: باقي فعاك السلاح... هل كان سؤالًا؟ وبقي نظر الرجل سارحًا خارج المقهى، في السّاحة التي يغطّيها التراب. استمررنا

جالسين هكذا، قريبين، أحدنا من الآخر، وصامتين، لا ننتظر شيئًا؛ لا ننتظر أحدًا. ننتظر أن ينتهي النهار لأحمل الحقيبة من جديد. وأين سأضعها هذه المرّة؟ تحت مائدة من موائد فندق الحظّ السعيد؟ وهل ستخذلنا كما خذلتنا في مرّة سابقة؟ ثمَّ بسبب السُؤال الذي لا أعرف إن كان سؤالًا، وجدتني أفكّر في بزاهيم. وغيرت هذه الصورة المباغتة رؤيتي. رجّتني صورةُ بزاهيم المتخفّي خلف خوذة من فولاذ ونظارة وشال أسود وحقيبة تحت اليد، لمّا ارتسمت أمام عيني بهذا الشكل الفظّ. ولمَ لا يكون هذا هو بزاهيم المعلّم في النهاية؟ وقد دخلنا منعطفًا جديدًا في مخطّطنا المتمرّد. في مرحلة كهذه لا ينبغي لي أن أتعرّف إليه. ولهذا، يحجب وجهه. ويضع، في المقابل، فوق المائدة حقيبةً عليها رسوم ممسوحة كالتي رأيتها على الحقيبة التي كانت موضوعة في خلفيّة السيّارة كي أتعرّف إليه، من دون أن أتعرّف إليه. إنّنا في السرّيّة كما كان يقول. وربّما إنّها الحقيبة نفسها التي كسرتها تحت القنطرة؛ أصغر قليلًا، ولكنّها الحقيبة نفسها، ممتلئة بالدويّ الهائل الذي ستحدثها إلخ... اقتربت من الحقيبة ومررت عليها إصبعي. وأصدر الرجل صوتًا يشبه الحنحنة وهو يرشف من كأسه. كلّ ما في المقهى يوحي بالغموض والسرّيّة والخطورة. إنّه صديقي بزاهيم المعلّم. وربّما كان يبتسم تحت شاله الأسود. ابتسامته، التي لا أراها، انتقلت من مخيّلتي وظلّت سابحة في فضاء المقهى مدّة طويلة...

سكنني هاجس واحد خلال أسابيع الربيع التي أمضيتها في گلميم محبطًا، يائسًا، بعد اختفاء بزاهيم المعلّم، بعد عمليتنا الفاشلة والتي كنّا سنقتل فيها عددًا كبيرًا من الفرنسيّين المحتفلين عند الطبيب الفرنسيّ الذي يدير المستوصف. شغلتني فكرة عنيدة وأفسدت مزاجي تمامًا... إنّنا، أنا وبزاهيم، خذلنا الأشخاص الذين وثقوا بنا. أشخاص مهمُّون، سريُّون، خطيرون مثلنا، في مراكش أو الرباط، فكّروا فيّ طويلًا قبل أن يوكلوا إليّ مهمّة اغتيال الفرنسيّين. لم يقع اختيارهم عليّ صدفة، وضعوا كامل ثقتهم فيّ لأن بزاهيم رفع تقارير سرّيّة تعطي تفاصيل دقيقة عن حياتي وتقصّوها طولًا وعرضًا... مفترضًا أنّهم ناقشوا ليالي طويلة العمليّةَ وتوقيتها، ودقّقوا في كلّ التفاصيل، ومفترضًا أنّهم جاؤوا حتّى گلميم سرًّا حتّى يتعرّفوا إليّ عن قرب، ويعاينوا المكان الذي اختاروه لأفجّر فيه قنبلتي... والنتيجة؟ قال بزاهيم إنّ القنبلة تلفت لأنّني لم أكن أمسك الحقيبة بالطريقة الصحيحة. ما هي الطريقة الصحيحة للإمساك بالحقائب؟ هل هناك طريقة معيّنة تمنع القنبلة من التلف يا بزاهيم؟ وأمّا أنا، فأقول إنّ قنابله تالفة من أصلها. وهل هذا سبب ليجعله يتخفّى في

هذا الزيّ الفلكلوريّ؟ أمضيت الأيّام التي تلت ويداي فارغتان، بلا حقيبة، وبلا قنبلة تلهيهما. وعقلي يدور بلا هدف... مرّ عليّ الجزء الأكبر من الوقت على هذا المنوال: أعبر النهار رازحًا تحت فكرة الإحباط المسيطرة عليّ. وأحلم في اللّيل بأشكال عديدة من الأسلحة. وأطلق عياراتها في الهواء تارة، وأطلقها تارات في اللّحم الحيّ، في لحم بزاهيم في الأساس... ماذا سيقول بزاهيم وهو يرى مسدّسي مصوّبًا نحو صدره؟ ماذا يقول الأشخاص المجهولون الذين أمضوا ليالي يخطّطون ويعدّون المشاريع في مراكش أو الرباط، وهم يرون مجهودهم يذهب هباءً بسبب بزاهيم؟ لا بدّ من أنّ نظرتهم تغيّرت، وساءت، إلى درجة أنّ بزاهيم سيجد الفرصة سانحة لرفع تقارير مضادّة، كاذبة هذه المرّة. وقد تذهب به دناءته ليذكّرهم بأنّ القايد بوزيد والبرگادي مسعود والممرّض بوشعيب كانوا يسمّونني الحزطاني... وقد يضحكون ساخرين، أو يهزّون أكتافهم في يأس، كأنّما يقولون الآن عرفنا السّبب. إنّني الآن أقلّ يأسًا ومعي واحد من الأسلحة الكثيرة التي كان بزاهيم يُخفيها تحت سريره. هل سيكون أوّل رجل أُطلق عليه النار؟ الشيء الوحيد الذي من الممكن أن يشدّ توازني في هذه السّاعات العصيبة. وقف بزاهيم وحمل الحقيبة وهو يلتفت إليّ:

مستعدّ؟

«مستعدّ»، وتركنا المقهى.

أحسست بأنّني بخير، أسبح في سعادة نادرة. وفكّرت في أن أطبع على خدّي بزاهيم قبلتين. انحنيت على قفص دجاج موضوع جنب المقهى وقلت لهذه المخلوقات البئيسة: دابا وضّحات ليا الأمور... مللي نْولي بخيز غادي نْجي نطلق سراحكم... وأعتقد أنّ مزحتي أضحكتها. كنت سعيدًا. ودلفنا إلى السوق. يبيعون في سوق گليم عيّنات مختلفة من الراديوات: كبيرة في حجم الدولاب، أو متوسطة الحجم كالصندوق. وبينها جهاز صغير في حجم الكفّ كذاك الذي رأيته عند البرگادي مسعود. صوته مذهل. أكبر من حجمه. تستطيع أن تسمعه من خارج السوق. وضع بزاهيم الحقيبة بين قدميه، وأمسك الراديو وراح يقلّبه بين أصابعه البيضاء الطويلة قبل أن يضعه بين يدي وهو يقول من تحت الشال الأسود: جهاز صغير يمكن وضعه تحت الحزام أو في الجيب. وتستطيع أن تستمع من خلاله إلى الأخبار في كلّ وقت، وفي كلّ مكان. تستطيع أن تستمع إلى الأخبار وأنت ممدّد في الفراش؛ وأنت جالس في بيتك؛ وأنت سائر في الطريق. تأتيك أخبار العالم أينما كنت... وضعت المذياع الصغير في جيبي وغادرنا السوق.

على الرّغم من كلّ شيء فإنّ السّؤال يبقى معلّقًا على شفتي كلّما التفتُّ إليه... كيف السّبيل إلى التأكُّد من الأمر بصفة نهائيّة؟ لأنّه في النهاية لا سبيل إلى الوصول إلى فكرة واضحة، صحيحة ونهائيّة. قد يكون بِراهيم، وقد لا يكون. مع كلّ العلامات التي تشير إلى أنّه هو. الوجه هو الدّليل القاطع على أنّه هو. ما لم أرَ الوجه فسوف تبقى هناك سحابةُ شكّ تعكّر الصفاء الذي أنشده في هذه اللّحظة الاستثنائيّة. ذرّة شكّ واحدة كافية لتقوّض كيانك وتسمّم حياتك إلى الأبد، أليس كذلك؟ ونحن واقفان أمام السوق، حدثته عن طعام تقاسمناه عند دادا ذات يوم... غقلتي؟ الزنجيّة التي كانت تعدّ الطعام للعزّاب؟ وهو لا ينكر ولا ينفي. يكتفي بأن يرمي إليّ بالتفاتة خاطفة، وبنظرة من خلف حجابه، لا أعرف معناها. لأنّها نظرة غير كاملة ما دامت لا تستقرّ على وجه بعينه. ثمّ عندما أضع يدي في جيبي وألمس المذياع، أقول إنّه بِراهيم. وقد صار الآن عضوًا مهمًّا ضمن هذه الجماعة التي تسمّي نفسها أبطال الحرّيّة المتوكّلة على الله. إنّه بِراهيم الذي ظلّ التباسه حالته الأصليّة. وعليه أن يبقى غامضًا، متخفّيًا حتّى لا يتعرّف إليه أحد، ولو كان هذا الأحد موزّع الرّسائل الذي عاش بصحبته أشهرًا عديدة كجارين يتقاسمان الخبز والماء والأسرار. أصبح بِراهيم شخصًا مهابًا، يجلس في مقهًى شعبيّ ممنوع على أيّ كان ارتياده في حضرته، وعلى رأسه خوذةٌ عسكريّة لا يضعها أيّ كان، كأيّ قائد يعمل في السرّيّة. إنّه بِراهيم على هذا الأساس. إنّه ليس بِراهيم. الحيرة كاملة، ومستمرّة. وعلى الرّغم من الاستنتاجات والاستنتاجات المضادة، فإنّني ظللت أحوم حول ما أعتقد أنّه ذكرياتنا المشتركة. أسأله تارة إن كان يعرف آسا. آسا؟ قرية صغيرة جنوب گلميم. ثمّ أحدثه مطوّلًا عن المعلّم بِراهيم الذي عرفت، والذي كان يتجوّل وقاموس اللّغة الفرنسيّة تحت إبطه. حكيت له عن مغامراته اللّيليّة، عندما كان يعبر البرج ليلًا، ماشيًا فوق بيوت المخازنيّة على أطراف أصابعه... ولا أستطيع حتّى أن أراقب انعكاس كلامي على وجهه. الجبهة وجزء من الأنف وحدهما لا يكفيان. وحتّى أشحذ فضوله، تكلّمت على الصندوق القديم ذي النقوش الممسوحة، والتي تشبه نقوش هذه الحقيبة التي تحملها الآن تحت ذراعك، والممتلئة حتّى حافّتها بالشعير؛ والخيشة المربوطة بالحبال، والبنادق، والمسدّسات، والقنابل والرصاص... ثمّ أحاول أن أمازحه، وأنا أستحثّ فيه غريزة المرح التي تسكن كلّ انسان: تصوّرِ الحقيبة نفسها، بالرسوم نفسها، إنّما بدلًا من أن تفوح برائحة الشعير تطلع منها رائحة البارود؟ وهل تعرف ماذا قال صديقي المعلّم بِراهيم وهو يفتح الصندوق؟ سنفجر هذا البزار...

هذا ما قاله بالضبط. لم يردّ الرجل (الذي لا أزال أعتقد أنّه براهيم) على ضحكتي أو استفساراتي. اكتفى بأن هزّ رأسه، أو هذه هي العلامة الواضحة. ما دامت العلامات الأخرى (الضحك والاستغراب والتساؤل والنيات) تبقى متوارية تحت شاله الأسود ونظارته السوداء وخوذته العسكريّة. وربّما كان يبتسم ساخرًا، مستهزئًا. لا سبيل إلى معرفة ذلك. لا سبيل إلى معرفة أيّ شيء. الرجل مُكتفٍ بالإنصات ودسّ غليونه تحت الشال الأسود... والقايد بوزيد، هل تعرفه؟ القايد بوزيد الذي داهم غرفتك ذات ظهيرة... لا سبيل إلى معرفة أيّ شيء. الأمر يدعو إلى الحنق فعلًا، والغضب والثورة. مدّ إليّ الحقيبة بدلًا من أن يسأل أو يعلّق، وهو يعبر الشارع الفارغ. ولم أعد متأكّدًا من أيّ شيء. وإن كنت أخمّن أنّ هذه الحركة، وهو يمدّ إليّ الحقيبة، أو الحركة الأخرى، وهو يقتني لي مذياعًا في السوق، علامتان، على أنّ الأقرب إلى الصواب هو أنّ هذا الرجل هو براهيم المعلّم. ثقة بهذا الحجم لن يُقْدِم عليها رجل لا أعرفه ولا يعرفني. تجاوزنا المقهى الذي كنّا نجلس فيه قبل قليل حتّى موقف الدراجات والعربات. فتح براهيم سيّارة مختلفة عن السيّارة التي كنّا استقلّلناها من قبل، وقفزت في داخلها كما لو كنت أعرف مسبقًا المهمّة التي تنتظرني، كواحد أصبح يعرف دوره تمامًا... حتّى قبل أن يقول: هاذ القايذ بوزيد، الذي أتحدّث عنه، هو هدفنا لنهار الغد.

الأربعاء 4 يونيو 1958

إنّني منذور لمهمّة كبيرة. أمضيت اللّيل في بيت براهيم، في السرير الخشبي نفسه الذي تمدّدت فوقه ليلًا. لم تزعجني خشونة الخشب ولا صلابته. يشغل باليَ أمرٌ آخر. والغريب أيضًا أنّني لا أفكّر فيها بقدر ما أنا مشدود إلى كلّ هذا الذي يحدث لي ومن حولي. إنّني أستعدّ لليوم المقبل. أسبح في أريج الغابات وروائح الطرائد وصوت البارود... الغد يوم آخر. عمل جليل وُضع على كتفَي موزع رسائل لا ينتبه إلى مروره أحد؛ حزطاني تافه يسيء معاملته القايد بوزيد، يسخر منه البرگادي مسعود، ويحتقره مجرمان مجهولان في حانة جيجي ويهدّدان بنزع خصيتيه بأظافرهما. لحسن الحظّ، هناك هؤلاء الأشخاص المهمّون، السريّون، الخطرون، في الدار البيضاء أو الرباط، والذين فكّروا فيّ طويلًا، انتبهوا إلى وجودي قبل أن يوكلوا إليّ مهمّة أنتظرها وأتمنّاها. لا يتعلّق الأمر باختطاف فرنسي لم يرحل بعد، أو اغتيال زعيم يخطب في السوق، أو مُقدّم يتبضّع عند البقال، أو أيّ شخص يعتقدون أنّه غير مرغوب فيه، أو بوضعِ قنبلة غير تالفة هذه المرّة، في المازشي أو المستوصف أو الكنيسة.

اغتيال القايد بوزيد عدوّي. أخيرًا، هناك أشخاص يتقاسمون هواجسي نفسها، ويدركون أنّهم يستطيعون أن يعوّلوا عليّ؛ أن يستفيدوا من ذكائي وخبرتي. كنت مستعدًا دائمًا وأنتظر فقط الإشارة. حتّى قبل التعرُّف إلى إبراهيم المعلّم الذي لا يتحرّك من دون القاموس الفرنسيّ. إنّها فكرة خارقة. لماذا لم يطلبوا منّي أن أقتل القايد بوزيد قبل هذا اليوم؟ إنّه يوم عظيم. مجرّد فكرة اغتياله تهزّني وتشعل في قلبي حرائقَ فظيعة. في جسدي يغلي دم ممزوج بكلّ سخط الدنيا. كراهية أصيلة ظلّت لسنوات تضع بيضها في كلّ ثقب من خلاياي، وينتظر اللّحظة المناسبة ليفقس. وتمدّ أعناقَها كلُّ العفاريت التي ظلّت ترجّ دمي. أنا حرطاني، نعم، ولكنّني لست الشخص الذي تحتقرونه. هذا الحرطانيّ أصبح له أناس يقدّرونه ويحترمونه ويوكلون إليه مهمّات عالية لن يقدر عليها أيّ كان، كيفما يكن لون جلده. لم يقع اختيارهم عليّ صدفة. إيه، نعم. أصبح له أصدقاء. وضعوا كامل ثقتهم في موزِّع الرّسائل، لأنّ إبراهيم رفع تقارير سرّيّة تعطي تفاصيل دقيقة عن حياته التي تقضّوها طولًا وعرضًا، وعن ذكائه وجدّيّته وصرامته في التعامل مع الأشياء ومع البشر. وقد يكونون ناقشوا لياليَ طويلة العمليّةَ التي ستوكل إليّ، وتوقيتَها، ودقّقوا في كلّ التفاصيل، ووجدوا أنّني الشخص المناسب. وقد يكونون جاؤوا حتّى گلميم سرًّا حتّى يتعرّفوا إليّ عن كتب، وراقبوا تحرّكاتي أيّامًا وشهورًا. وعندما انتهوا إلى أنّني الشخص المناسب لقضيتهم، ذهبوا ليعاينوا المكان الذي اختاروه لأطلق رصاصًا أو لأفجّر قنبلة، مطمئنّين، واثقين بأنّهم عثروا أخيرًا على الرجل المناسب والمؤهَّل والجاهز... سقطت كلّ الحواجز التي ظلّت منتصبة بيننا، وكلّ الاعتبارات. وأنا مَدين بكلّ هذا لإبراهيم، ومدين بهذا للصدفة التي جعلت غرفتي ملاصقة لغرفته عندما كنّا معًا في برج آسا، ومدين لهؤلاء الذين منحوني ثقتهم، في الدار البيضاء أو الرباط، أيًّا تكن أسماؤهم، وأيًّا يكن اسم المنظّمة التي يديرونها. وكونهم اعتبروني بشرًا كسائر عباد الله، فهذا وحده كافٍ. سرت قشعريرة في كامل جسدي كتيّار لذيذ وأنا أقول: هذا يوم لن أنساه أبدًا. ومن جانبي عليّ ألا أخذلهم.

كلّ شيء في ذهني يشبه الحلم. ليل كثير الضوء. والرجلان يسيران أمامي، بوزيد في المقدّمة، متعثّرًا في أذيال قميص نومه الأبيض، يتبعه المعلّم إبراهيم. تفصلني عنهما بضعُ خطوات، محاولًا المحافظة على المسافة المعقولة، والمناسبة، حتّى لا أضيّع شيئًا من الوقائع الخارقة التي تحدث أمامي، وحذرًا ممّا قد يباغتني من الخلف. ذلك بأنّني أصبحت معنيًا بأمره، مرتبطًا بمصير الرجل المتعثّر في قميص النوم. لا أسمع

خشخشة الأعشاب تحت أقدامنا. كأنّما الصمت ابتلع كلّ صوت. أتساءل عن السبب، ثمّ أسمعها، خشخشةً خافتةً، كأنّها تساهم في الجوّ المقلق الذي نسبح فيه. وهناك قمر كامل فوقنا، كبير بشكل مفرط، كأنّما ليضيء حدثًا بالغ الأهمّيّة. هل هو كذلك؟ وغابة سنط على الجانب الأيمن. ونحن نسير على حافّتها منذ مدّة. ابتعدنا عن گلميم واستمرّت أضواء المدينة القليلة تشعّ في البعيد، كنجوم متناثرة على الأرض في فوضى، مضافة إلى النجوم الكثيرة التي تتلألأ فوقنا، والتي لم يقدر اللّيل على ابتلاعها. أصبحت خطواتنا ثقيلة ومتعثّرة بفعل اللّيل والطريق المحفورة، وطينها المبلّل بالندى، وأيضًا بفعل العلاقة غير المتكافئة التي تربطنا. رجل المقدّمة رجلٌ أعزلُ دائمًا، هشّ، كواحد غادر البيت من دون دروعه. يسير كالنائم. ونحن نتبعه كحلم مزعج، أو كأنّما يحمل حلمه المزعج هذا على ظهره. يسدّ الجدارُ اللّيليّ كلّ منفذ أمامه، وليس له عينان في ظهره كي يرى ما سيفعله به الكابوسُ المقلق الذي يتعقّبه. وفي ذهني تخبّ فكرةٌ غامضة عن مصيره المتأرجح. هل سيموت؟ لن يموت. لماذا ينام في قميص يشبه الكفن، إذًا؟ التفكير فيه على هذا النحو يترك في النّفس فراغًا كبيرًا، أو ثقبًا يشبه هذا اللّيل. يلتفت بَراهيم بين الفينة والأخرى ليتحقّق من أنّني أتبعه، ويشير إليّ بأن أحثّ السير، فأنتبه إلى أنّني أتعثّر أكثر منهما. تلمع بين لحظة وأخرى قطعة من القميص الأبيض؛ قميص بوزيد، الرجل السائر في المقدّمة والذي يشبه شخصًا يتحرّك في كفن... توقّف بَراهيم عند مدخل الغابة والتفت حواليه مرّتين قبل أن أرى المسدّس يلمع مرّة أخرى. أحمل مسدسًا في يدي، ولكنّه لا يلمع كالمسدّس الذي يحمله بَراهيم، مع أنّنا في اللّيل نفسه، وتحت القمر نفسه. بعد أن كان قد اختفى ها هو يلمع من جديد. وهما يقفان بشكل جانبيّ، بحيث أستطيع أن أرى فوّهة المسدس على ظهر الرجل، وأرى بريق معدنه المهدّد تحت ضوء القمر الكبير. وأنتظر... أنتظر... حمل اللّيل بدلًا من الطلقة صوتَ بَراهيم وهو يقول للرجل: من الأحسن أن نستمرّ في السّير، بالتهديد نفسه الذي ينبعث من مسدسه، ذلك بأنّ ليل الغابة يجعل الصوت شبيهًا بالنفخ في البوق، ثمّ يدفعه أمامه، ليس على الطريق نفسه التي سرنا فيها حتّى الساعة، وإنّما في اتّجاه عمق الغابة، متوغّلين في فضائها المرقّط بفعل تسلّل أشعّة القمر الفضّيّة، المتناثرة والمتسلّلة من بين أغصان الشجر الغافي، أو بفعل الشعلة الناريّة المنفلتة من جذوعها، ذلك بأنّ النار، بحسب ما سمعت، كانت دائمًا ساكنة في الشجرة قبل أن توجد خارجها، متوغلين أكثر بين دروب الغابة الصامتة والموحشة.

أعتبر نفسي قاتلًا محترفًا من الآن فصاعدًا، مع أنَّ اسمي الشائع هو الحرطاني. بالعكس سيكون اسمًا مناسبًا. عجيب كيف تختفي شحنة الاسم المذلَّة عندما تقترن بعمل خارق كقتل القايد بوزيد. أسير مجلَّلًا بهذا الإكليل. ليس الآن، ونحن وسط الغابة نجز بوزيد إلى حتفه. لا، منذ بداية النهار، وأنا أضع على رأسي طاقية، وألفّ حول وجهي شالًا أسود، وأقف تحت الشجرة العتيقة والباسقة أراقبه، مفكّرًا في أنَّه نهاره الأخير، وأنَّه على الرّغم من معارفه ومنصبه وأسلحته، لن يستطيع إضافة ربع يوم إلى رزنامة أيّامه، المعدودة، والمنتهية. وعلى الرّغم من مقاولاته ومخازنه والعدد الكبير من العبيد الذي يملكه والضياع والحوانيت في تيزنيت وأگادير، وعلى الرّغم من نعامتيه وطواويسه، فإنَّ هذا النهار هو بدايتي الحقيقيّة في العمل السرّيّ تحت لواء منظمة لا أعرف اسمها، ولا يهمّني أن أعرفه. وقد بدأته بوقوفي في السوق تحت شجرة الأرگان، محتميًا من شمس الظهيرة، وأتفرَّج على بوزيد بصحبة مجموعة من الرجال يفحصون جَمَلًا. ظهر بْراهيم للحظات تحت أركانة أخرى، بخوذته وشاله ونظّارته، ثمَّ اختفى، كأيّ قائد يراقب عن بُعد سير العمليّات، لأنَّه لا يعرف شيئًا عن حياة الجِمال وأشجار الأرگان؛ لأنَّه جاء من الشمال، وفي جيوبه مال كثير. بالمال أو من دونه، بالشمال أو من دونه، وكيفما يكن الشمال الذي أتى منه، فإنَّ بْراهيم سيبقى مثالي الأسمى، كما ظلّ دائمًا، في آسا وهو يمشي في النهار متأبّطًا القاموس الفرنسيّ، وفي اللَّيل وهو ينطّ فوق سطوح المخازنيّة على أطراف أصابعه... منذ مدّة والقايد يتفحَّص قوائم الدابة وعنقها ويعدّ أسنانها وينظر إلى قاع فمها... سيشتري بوزيد جَمَلًا، وهو لا يعرف أنَّه جَمَله الأخير. وهذا في حدّ ذاته أمر مثير. إنَّه لم يشتر جَمَلًا هذا النهار... ما غليهش... يُرجئ شراء الجَمَل إلى الغد... كأنَّما يريد أن يعاكس المصير الذي ينتظره والذي سطّرناه له أنا وبْراهيم في هدوء اللَّيلة السَّابقة. يمشي الآن بين أزقَّة السوق مشية رجل مطمئنّ إلى أنَّه سيشتري جَمَلَه في الغد، وأنا أمشي خلفه، مشيةَ رجل يرى العكس. إنَّني قاتل محترف، وهذه ليست سوى البدايات. لا تعنيني العواطف والأهواء والرَّغبات. أنظر من الآن فصاعدًا في عيون الناس نظراتِ القاتل، وأرى أنَّهم يتعزَّفون إليّ، وَجِلين، مذهولين، مشوَّشي البال، مع أنَّهم لا يعرفون بعدُ مقدار الغضب الذي يتأجَّج في داخلي.

جلست تحت الخيمة التي تبيع الشاي في أكواب طينيّة. طلبت شايًا وجلست أراقب بوزيد الذي يتحدَّث إلى رجل كان برفقته في سوق الجِمال ويلبس درّاعية مخطّطة. ويعتقد بعض الجالسين أنَّني جئت من

أجل كأس أخرى. منبسطون وعيونهم تشعّ ببريق التواطؤ، وهم في الغالب يأتون ليحتسوا الماحيا في الكؤوس الطينيّة نفسها... ألتفت إليه مرّة أخرى وأرى أنّني لا أشعر نحوه بأيّ شفقة... وجهه مربّع، وأنفه معقوف كواحد من الكواسر، وتحاكي اللحية انحناءات الوجه المربّع، الصارم... ثمّ إنّ أفكارًا سعيدة بدأت تنهال عليّ: بيت عريض فيه كلّ ما يحتاج إليه ابن آدم، بلا نعام ولا طواويس، لأنّني لا أحبّ هذه المخلوقات. حديقة أمام البيت وحصان أمام باب البيت يطرد الذباب بذيله، ودجاجات تنقرّ الحبّ بين رجلَيّ، وأبقار تعود في المساء وضُروعها المثقلة بالحليب تجزها مع التراب. وهي متّكئة على جدار بنيته، سعيدة بوجودها إلى جانبي، تحت ظلّ دالية زرعتُها لنجلس تحتها عندما تشتعل الأرض... بعد أن نكون قد فجّرنا هذا البزاز... تجلس العائلة في المساء فوق العشب الندي وتستمع إلى ملحمة اغتيال القايد بوزيد، ثمّ إلى الحكايات المسلّية التي رافقت تشييد البيت وغرس الدالية... لا أذكر اللّحظة التي وضعت فيها رأسي على مرفقي، ورحت أحلم... لحسن الحظّ أنّني انتبهت في اللّحظة المناسبة وغادرت الخيمة، متعقّبًا بوزيد والرجل صاحب الدرّاعية المخطّطة. أتعقّبهما من زنقة إلى زنقة. أقف عندما يقفان، وأتحرّك عندما يتحرّكان. واكتشفت بكثير من الغبطة أنّني أستطيع أن أسير وراءهما من دون أن يظهر عليّ أنّني أتعقّب أحدًا. أسير مرتاح البال، يدي في جيبي، وأصابعي حول المسدّس، وأحكي النكات وأتبادل الضحكات مع نفسي، وأحلم إذا عنّ لي أن أحلم. ذلك بأنّني عدت المشاء نفسه؛ الرجل الحالم نفسه. وهذا أمر أكتشفه بسعادة عارمة. نعم، تغيّرتُ لأنّني عدت كما كنت. بدلًا من رجل، أسير كرجلين يتبادلان المُلح والطرائف. ولا يظهر عليه أنّه يتعقّب شخصًا يلبس جلبابًا مخطّطًا. خطوط جلباب بوزيد المذهّبة تبرق تحت الشمس التي مالت جهة المغرب. رزّته باللّون الأصفر المشعّ نفسه. وهو نفسه يمشي كواحد لا يعرف أنّ شخصًا يتعقّب حياته الموشكة على الانطفاء. وهذا أشعل في نفسي حماسة منسيّة. إحساس يشبه الانتقام؛ الانتقام والسّخط والتمرّد. وقف الرجلان أخيرًا أمام المخزن الوحيد الذي يبيع الحبوب في كلّ المدينة. اكتفيا بتحية مختصرة وغاب بوزيد داخل مخزنه. وقفت في الجهة المقابلة، تحت شجرة أكاسيا منتصبة كالمظلّة. مظلّة إنّما بلا أزهار. يجلس إلى جانب المخزن الذين عادوا من تعب النهار، في قمصاتهم الزرقاء. انتهى نهارهم ولم يعودوا ينتظرون شيئًا. جالسون على الرّمل يدخّنون ويلعبون الضامة، أو ينكشون الرّمل بالأصابع التي لم تعد تصلح لشيء آخر بعد أن انقضى نهارها. وسيظلّون على هذه الحال

حتّى موعد السوق القادمة. لا أحد يدخل المخزن أو يخرج منه، لمدّة طويلة. لا يهمّ الوقت. وما دام الرجل متواريًا داخل مخزنه، فإنّني واقف تحت شجرتي، بلا أدنى استغراب. عندما غادر بوزيد المخزن، عندما تبعته أخيرًا، كان المساء قد بدأ يغلّفنا أنا والرجل والمدينة بحجاب أحمر مضبّب، في حمرة الجبال المحيطة. ثمّ وقفت لمدّة طويلة أنتظر خروجه من المسجد. وسط ساحة متربة، فارغة، بلا ضوء، تعبرها رياح المساء المتأخّرة وبعضُ الكلاب الضالة.

لم أكن أتصوّر أنّ غضبي سيكون بهذا الزخم وأنا أراه يتحرّك أمامي كواحد لا يتربّص به أيُّ خطر. وأقول إنّ عليّ أن أنبّهه إلى أنّني أتبعه، حتّى يأخذ الاحتياط اللّازم. ثمّ بدا أنّ تجواله لا يخضع لأيّ منطق، ولا يتّبع ترتيبًا واضحًا. يقف في السّاحة متردّدًا، كواحد لم تكن له وجهة معلومة سيقصدها، أو يعود يتنقّل بين الأزقّة نفسها التي عبرناها قبل قليل، كواحد يودّع المدينة لآخر مرّة ولا يريد أن يذهب من دون أن يحمل معه تفاصيلها. ربّما يتصرّف هكذا كلُّ الذين لا تفصلهم عن الموت سوى لحظات. وقد يكون فطن إلى أنّني أتعقّبه. ولهذا، يتعمّد أن يضيع طريقه بين خريطة دهاليزه السرّيّة. وهذا أدخل إلى نفسي كثيرًا من الحماسة. كأنّما أصبحنا متساويَين، بالأسلحة نفسها والخطط المدمّرة نفسها. ثمّ عاد يعبر الساحة ذاتها وهو يكشط التراب ببلغته. ساقاه تكشطان التراب في خطوات قصيرة كجرافات صغيرة، وتتركان خلفهما نثارًا من الغبار. كأنّما روحه هي التي تتفتّت. إنّني لا أحبّ التجّار أيًّا يكن نوع تجارتهم، وهم جميعهم وَضِيعون ويتاجرون في كلّ شيء: في البشر، كما في الأشياء الأخرى، بحماسة مماثلة. ثمّ اختفى في النهاية داخل أحد البيوت، وبقيت وسط الساحة أمشي وأجيء، فَرِحًا، عيناي على باب التاجر، مغتبطًا، وأنا أقلّد مشيته التي تشبه مشية طائر البطريق. وعندما التفتُّ رأيت بزاهيم بلا مسدس. المسدس مُختفٍ تحت حزامه، من دون دهشة، ومن دون استغراب. ذلك بأنّني كنت أعرف، حتّى قبل أن ألتفت، أنّه يقف تحت عمود النور المقابل لبيت بوزيد، ويرتدي هذه المرّة كسوةً رياضيّة غامقة اللّون.

ثمّ رأيته يغادر مكانه تحت عمود الضوء، ويتّجه نحو بيت التاجر (القايد بوزيد الذي سلّمته ظهير تعيينه والذي لا يعرف هو أنّه تسلّمه لبضعة أسابيع فقط)، ثمّ رأيته يتسلّق الجدار في خفّة، كالسحلية، من دون مجهود؛ كواحد متعوّد على تسلُّق الجدران، ويقفز إلى السطح. سقطت بعض الأوراق الماليّة من جيبه. إنّها تدور في هواء الساحة الفارغة؛ تدور

حول نفسها في شطحات لا تدرك معناها سوى الرياح التي تهزّها، ثمَّ رأيت الباب يفتح ويخرجان. التاجر أوَّلًا، يتبعه المسدس، ثمَّ بَراهيم. الأبواب المجاورة مغلقة، والنوافذ. والرجل يحتجّ ويصرخ مستغيثًا، ولكنَّ فمه لا يخرج منه صوت. لأنَّه فقد كلّ هيبة وهو في قميص النوم. أهله وأصدقاؤه وجيرانه لا يسمعونه. لن ينقذه أحد على هذا الأساس. جيرانه الذين ظلُّوا يشربون شايه ويتبضَّعون من محالّه ومخازنه لسنوات طويلة، يستنجد بهم ولا يسمعون استنجاده لأنَّ صوته لا يصل إليهم، والأزقَّة فارغة ومظلمة ونحن نقتحمها قبل نصف ساعة، وشبه مهجورة. أكثر ممَّا كانت عليه. والرجل الذي لم يَخِبْ أمله تمامًا استمرَّ على الشكل النائح والمستغيث نفسه، حتَّى وهو يتحقَّق أخيرًا من أنَّ لا صوت يخرج من فمه. رجل مسكين وتافه فقد حتَّى هيبة التاجر الذي كانه، شبهُ عار، ليس فوق ظهره سوى الفوقيَّة البيضاء التي كان ينام فيها قبل أن يزعج بَراهيم نومَه، ولا يغطّي قدميه سوى النعلين اللذين التقطتهما أصابعه في آخر لحظة، مَن سيسمعه؟ لماذا لا تطلّ عليه نعامتاه؟ لماذا لا تُطلق طواويسه صوتها المنكر؟ صامتة، ومتظاهرة بالنوم هي الأخرى، أو ربَّما تضحك في سرّها، أو سافرت وتركت الدار بلا حراسة...

الغابة مضاءة كالنهار بفعل الضوء المنبعث من جذوع الشجر، وأنا أسير خلفهما، على إيقاع تنفُّسهما المتقطّع الذي يشبه صدى رياح تمشي. ولا أعرف كيف أفكّر في بَراهيم، ولا في الرجل الذي كان قبل قليل القايد بوزيد، والذي يكتشف فجأة أنَّ حياته صارت خلفه. يسير الآن إلى الموت عن طِيب خاطر، كأنَّما هو الذي خطَّط منذ البداية لنهايته الفاجعة. سنصير قَتَلة بعد قليل، أنا وبَراهيم. عليَّ أن أقترب حتَّى لا أترك له أيّ فرصة ليتباهى عليَّ؟ معي سلاحي، ولي مشية تخصّني، وليست مشية بَراهيم المتبخترة. معي سلاحي، ولا أرفعه بالطريقة المثيرة التي يشهر بها بَراهيم سلاحه. لكلّ بَضمته. نعم. كلّ ما فيه مستفزّ. حنقي على القايد بوزيد تحوّل إلى حنق على بَراهيم. وعلى مسدسه اللّعين. بَراهيم، الذي كان يستعدّ لإطلاق النار، التفتَ إليَّ. والرجل جاثٍ على ركبتيه ولم يعد يهمّه أن يوخل قميصه الناصع أو يفقد نعله. وربَّما كان يصلّي ويطلب المغفرة، عندما انتفض طائر من بين أغصان الشجرة ومرّ فوق رؤوسنا. وقلت: من حسن حظ القايد بوزيد أنَّ الطائر مرّ في الوقت المناسب حتَّى يسلّيه، ويُنسيه ألم شواظ النار عندما يخترق الرصاص لحمَه. طائر في حجم الديك الرومي، جناحاه كبيران كالخيمة، ورميا فوقنا ظلمة حجبتنا جميعًا لثوانٍ طويلة طويلة، أطول من الوقت الذي يحتاج إليه أيُّ رجل ليستغفر

عن كلّ ذنوبه. وهذا ما حدث. استمرَّ القايد ينظر مفتونًا إلى الطائر الذي استقرّ فوق فرع شجرة كثيرة الضوء، وراح يراقبه، ناسيًا ماضيَه وحاضرَه، قبل أن تنطلق الرصاصتان وتستقرًا في رأسه وقلبه، ويخرَّ على وجهه. وانتبهت إلى أنَّ وجه الطائر يشبه وجه الرجل المضرَّج بدمائه، يشبهه إلى حدّ بعيد. كأنَّما روحه، عندما غادرت جسده، لم تتعدَّ الشجرة. استقرَّت في هذا الطائر الكاسر بدلًا من أن تتابع طريقها. أمّا أنا، فلم أرتعد. لم أشعر حتَّى أنَّني أطلقت رصاصًا.

في عربة الترام

الأربعاء 12 نوفمبر 2012

الترام مزدحم بالركاب. لا تزال مسحة من سكينة النوم تغلّف عيونهم الناعسة. افتتح أصحاب الشركة الخط مجّانًا لأنّه اليوم الأوّل للترام في الدار البيضاء. وهذا هو سبب التعليقات التي لا تتوقّف... هل سيصل في الوقت... القطار المغربيّ لا يدخل في الوقت ولا يخرج في الوقت... القطار المغربيّ لا يصل أبدًا... وهم في الغالب لا يقصدون أيّ مكان، أو جاؤوا فقط بسبب مجانيّة السفر، ومن أجل التعليقات، منتصف الصّباح والساعة لم تتجاوز العاشرة. وقد تزداد التعليقات سوداويّة مع تقدّم النهار. وضع كلّ الركاب سماعات في آذانهم. والسمّاعات ملحقة بخيوط بيضاء أو سوداء. والخيوط البيضاء والسوداء مدلّاة على الصدور وتربط السمّاعات بالآلات التي توجد في الأيدي أو الجيوب أو المَحافظ، كأشخاص لا يسافرون، ولا يزالون في بيوتهم، لا يستقلّون الترام لأوّل مرّة في حياتهم، ولا تعبير على وجوههم، فرادى، ولا ينظرون إلى شيء محدّد. كلّ العالم في السمّاعات، كأشخاص لا يوجدون في الترام، لا يوجدون في أيّ مكان. غائبون وصامتون كالرهبان في ديرهم.

لا يضع كلا المتقاعدين سمّاعة لأنّهما لا يفهمان الحاجة التي ستدفع ابن آدم ليغلق أذنيه، وعندهما شلّالات من الكلام لا تنضب، وحارسُ عمارة لا يضع على أذنيه سمّاعة لأنّ سمعه ثقيل حتّى من دون استخدامها. أصحاب الشقق سعداء لأنّ هذا العائق يُعفيهم من تبادل الحديث معه. ويحرس شققهم ويغسل مدخل عمارتهم، وتفوح منه روائح ماء جافيل والصابون المعطّر في كلّ وقت، ويأخذ خبزهم إلى الفرن ويغسل سيّاراتهم ويذهب إلى مكتب الكهرباء لدفع فواتيرهم، ويُفرغ سطول قماماتهم عندما يعود، ويضحك مع أطفالهم من دون حاجة إلى كلام. ويسكن شقّة صغيرة عند المصعد، ورأسه قريب من بابها حتّى لا يتركهم منتظرين عند الباب، وكي يبقى بعيدًا في الآن نفسه. ويتفادى المديح والذمّ، ويتجنّب الكلام والملاحظات والتعليقات، والصداقة والمجاملة. خمسون عامًا مرّت عليه وهو أمام الباب نفسه، بين أصص أزهار وطيور، وأشخاص يمرّون عليه من دون أن يكلّموه، ومن دون أن يروه. وسينتظرونه هذا النهار ولن يأتي في الموعد. إنّه مشغول. صداقة لم يكن يتوقّعها أخذته بعيدًا. وقال الرجلان إنّهما يشبهانه. فرض عليهما عملهما لعقود من الزمن أن يسافرا معًا، وينامَا معًا، ويأكلا معًا، إلى درجة أنّ لديهما الآن أسرارَهما ولغتهما وألغازهما،

وضحكهما الذي لا يفهمه غيرهما. إنَّما، في هذا العمر، وبتجربة في هذا الحجم، يعترفان بأنَّهما لم يعقدا صداقات دائمة. إنَّهما تقريبًا لا يعرفان أحدًا. إنَّهم جميعًا في عربة قطار عصريّ يعبر الشوارع ويقف في المحطَّات، يتفرَّجون على الواجهات تعرض محتوياتها، ومحالّ الأكل التي تتعاقب. لا تمرّ سيَّارات بهذا الشارع؛ لا سيَّارات ولا شاحنات. والزبائن يشربون قهوتهم على سطيحات لم تكن قبل أيام، ووُجدت بسبب الترام، كقطعة أرض تحرَّرت. نافع جالس قبالة الرجلين، ممسكًا بيد كلّ منهما، ضاغطًا عليهما، كما لو أنَّه يمسك بصنبوري ماء ويخشى أن ينقطع السيل إن هو أرخى قبضتيه، ليس لأنَّ القصَّة تعنيه، وإنَّما لأنَّه تعرَّف في آخر الطريق إلى شخصين ودودين يستطيع أن يستأنس إليهما لبعض الوقت، وهو ينصت إلى تاريخ لا يذكر تفاصيله، وإلى قصص أشخاص لا يذكر ملامحهم.

نعم، لن يتعرَّف إلى إدريس الثاني حتَّى لو صادف أن رآه، لأنَّه في ذلك اليوم البعيد كان قد قايض لباسه العادي ببدلة بائع الثلج المرتَّقة، ووزَّع قطعه على الزبائن العطشى أو الذين يسيلون عرقًا من فرط الحرّ. كان اللَّيل قد نزل عندما رأى إدريس الثاني أنَّ سائق الشاحنة الذي اسمه بناصر لم يكن على ما يرام عندما جلس إلى جانبه، ومدَّ إليه قطعة ثلج. شفتاه يابستان. ممسك برأسه ويقول إنَّه لا يستطيع التنفُّس. أخذ قطعة ثلج، وابتلعها دفعة واحدة بدلًا من أن يضعها على جبهته أو على قفاه. يشعر بناصر بضيق في صدره وضغط فوق رأسه، كأنَّ امرأة جالسة فوقه، يقول، تجدل شعرها الطويل والشعر يلتوي على عنقه. ولم يعد يشبه الرجل الذي ينقل البضائع بين گلميم وأگادير: الشاي والسكّر والشمع والحصر، وكلّ ما يحتاج إليه الناس في الحياة. إنَّه شخص يهذي ويخاطب شبح امرأة لا يراها أحد... يمكن الرائحة هي السَّبب... إينا ريحة... ريحتي... ويسأل الزبائن من حوله هل رائحته قوِيَّة إلى هذه الدرجة... وعطنة إلى هذا الحدّ؟ أقوى من ماذا؟ عطنة بالنسبة إلى ماذا؟ لكلّ بشر رائحته... ولا بدّ من أن تكون كلّ رائحة مختلفة عن الأخرى... كالخبز، كالزهر، كالحجر... ككلّ شيء في هذه الدنيا. ولماذا لا تقول المرأة شيئًا عن الرائحة؟ لا في اليوم الأوَّل ولا في العاشر؟ هل تعرف السَّبب؟ تحتفظ المرأة بها كسلاح ستستعمله عند الحاجة... عندما تتلاشى حاجتها إليك، فإنَّ أوَّل سلاح تُشهره هو سلاح الرائحة... لأنَّك لا تعرف رائحتك. هذه هي الحيلة. هل يعرف التيس رائحته؟ أو الكبش أو الديك؟ وبماذا ستقارن رائحتك لتعرف هل هي قوِيَّة أم لا؟ هذه ورقتها الفتَّاكة، الرابحة؛

الرابحة دائمًا لأنَّ لا أحد يستطيع أن يفسّر رائحته، أو أن يفهمها. ثمَّ قال ملتفتًا هذه المرَّة إلى جهة بائع الثلج: وعلاش ما كيهربوش منك انت؟ القضية لا علاقة لها بهذه الرائحة أو برائحة أخرى، أو بهذا وذاك، وكلّ الأشياء التي يقلن لأسباب سنجهلها دائمًا. وما علاقة اللَّون بالرائحة؟ كلَّما احلولك اللَّون كانت الرائحة قوِيَّة... مَن هو الحكيم الذي قالها... ثمَّ بدأ يقارن لون بشرته بلون بشرة بائع الثلج، يمدّ ذراعه إلى جانب الذراع الأخرى، ويقول إنَّ من المفترض أن تكون ريختي بحال ريختك... لأنَّ لوني أسمر... ها انت شوف... أبيض تقريبًا... ممسكًا بذراع جاره، مستعطفًا... *ما كتشم والو؟*

لا.

شمني؟

يدسّ بناصر يديه هذه المرَّة تحت قميصه يمسح تحت إبطيه، ثمَّ يشتمّ أصابعه العشر عدَّة مرَّات. يأخذ كأس ماء عن مائدة مجاورة. يغسل الإبط الأيمن، ثمَّ الأيسر، ثمَّ يدسّ يديه من جديد تحت القميص ويشمّ أصابعه عدَّة مرَّات، ثمَّ يقول مبتهجًا: الريحة فشاش... ثمَّ ينهض فجأة، ويعبر الساحة مهرولًا ويقف أمام واجهة الفندق، ويبقى ملتصقًا بها، يطلّ من خلالها على الاحتفال المستمرّ، وعلى الراقصين، ثمَّ يعود وهو يتوعَّد: هي السَّبب... هي السَّبب... إنَّها ليست آدميَّة. إنَّها تتلوَّن. رأيت بشرتها وهي تتلوَّن. حمراء، ثمَّ صفراء، فبيضاء. واللَّه العظيم، إنَّها ليست من الإنس. واللَّه العظيم... هل البشر يتلوّنون؟ هذه إبليس... هذه إبليس... يدور في الساحة ويصيح... هذه إبليس... هذه المرأة هي إبليس...

صباح خريفيّ، صافٍ، بسماء زرقاء أكثر من المعتاد، لا يحلم فيه الناس عادة سوى بالتمدُّد على رمل الشاطئ والاستمتاع بشمس فقدت حدَّتها القاتلة. في ساحة محمد الخامس تجمّعٌ كبير. مظاهرة ضخمة لكثير من الشباب، يبدون كتلاميذ الثانويَّات في وَزْراتهم البيضاء. أصحاب الشواهد العاطلين توحَّدوا في هذا الزيّ الأبيض حتَّى لا يختلطوا بالمازة، وهم يسبُّون الحكومة. إنَّ رغبة المحتجّين هي أن يصبحوا موظَّفين، بحسب ما فهم الركّاب من أحد المسافرين، حتَّى يتقاضوا أجورهم من دون أن يذهبوا إلى العمل. قال مسافر: هذه فوضى. وقال آخر: الفوضى منتشرة في كلّ مكان بسبب الدستور الجديد... وما هو الدستور الجديد؟ أوراق لا يفهمها أحد. كما لو أنَّهم عرضوا عليك فيلمًا باللُّغة الصينيَّة، وأطفأوا أضواء القاعة وتركوك في الظلام. وحدهم الذين عرضوا الشريط يعرفون لماذا أتوا بشريط باللُّغة الصينيَّة، ويعرفون لماذا يعرضونه على

الناس، ويعرفون لماذا أطفأوا النور. وضحك المسافرون على متن القاطرة العصريّة لأنّ لا أحد فيهم قرأ الدستور الجديد...

انحنى إدريس الأوّل على محفظته الموضوعة بين قدميه، وأمسك بها بكلتا يديه ووضعها على ركبتيه. كأنّما يخاف أن تضيع. فتحتها وأخرج أوراقها، واستمرّ يبحث في قاعها. محفظة مليئة بأوراق لا تصلح، تراكمت في بيت الرجل. كلّ ما تبقّى من حياته القديمة. فواتير الماء والكهرباء والكراء، علاها غبارُ نصف قرن. تدرك في نهاية مشوارك الوظيفي أنّها لا تصلح لأيّ شيء. وتجد في نهاية مشوارك الوظيفي أنّ بيتك عامر بأوراق لا تصلح ولا تعرف لماذا وُجدت أصلًا في البيت. مَحاضر الشرطة واستدعاءات المحاكم. وتقارير عن أشخاص لا تعرفهم أو لم تعد تذكر أين تعقّبتهم. مطبوعات الضريبة والتأمين وصندوق الضمان الاجتماعيّ وصندوق التقاعد والبنك. والتعاضديات والتعاونيّات وتوصيلات الإيجار... دفتر الحالة المدنيّة ودفتر التلقيحات وأخرى مكتوبة بخطّ غير خطّك، ولا تذكر من كتبها، ولمن. وإعلانات دعائيّة، وصور تذكاريّة لأماكن لم تزرها، ووصفات لتجنُّب الضغط الدمويّ وانحصار البول في المثانة، وشهادات طبّيّة نسيتَ المناسبة التي دفعتك إلى زيارة الطبيب... كلّ الأمراض التي تعاقبت عليك لم يبقَ منها غيرُ ضغط الدم الذي سعيت جادًّا إلى تجنُّبه والذي لحق بك بعد أن نسيته، كآخر علامة على تدهورك الحتميّ. ما الغاية من الاحتفاظ برُزَم من الأوراق طوال نصف قرن من الزمان؟ يحتفظ بها لأنّه يعتقد أنّه سيحتاج إليها في يوم من الأيّام، ليكتشف في النهاية أنّه لا يذكر حتّى لمَ تصلح، ويتساءل متعجّبًا: مَن وضعها في القمطر وأغلقه بالقفل وأضاع المفتاح؟ والمفتاح ها هو، بين أصابعه، عثر عليه ذات صباح بالصدفة، ولكن لم يعد يهمّ أن يفتح أو لا يفتح بعد هذه السنين الطويلة. تقبع حياتنا العاديّة في المحفظة، وفي المحفظة تقبع عاهاتُنا. أخرج ورقة كان قد وضع فيها حبّات ورديّة اللّون، رمى واحدة في فمه وابتلعها ماذًا عنقّه كما تفعل الدجاجة، ثمّ سأل: آش من نهار احنا؟

الأربعا.

ماشي الخميس؟

لا، الأربعا.

«ما يمكنش»، وأطلق ضحكة قصيرة حتّى لا يعطي الانطباع بأنّ ذاكرته تعطّلت أو لحقها الوهن. يتباطأ الترام من جديد. أمام العمالة جماعة أخرى. وهؤلاء حرّاس المرابد العموميّة. هم أيضًا يسبّون الحكومة

بالحماسة نفسها. أصبح الجوّ رماديًا فجأة. لم تنقشع السماء، إذن، سوى بضع لحظات لتغيم من جديد، كأنّها صدًى لما يقع على الأرض. هؤلاء عمال مضربون. والترام تباطأ ليتفرّج عليهم المسافرون من نوافذ القاطرة العصريّة. بعضهم متجمهر أمام العمالة، وآخرون مصطفّون فوق الطوار، وآخرون لبسوا أكفانًا بيضًا، وتمدّدوا واحدًا أمام واحد كالسلسلة. على مشارف سكّة الترام الذي اضطرّ إلى التوقُّف. لماذا اختاروا أكفانًا بيضًا، واعتبروا أنفسهم موتى؟ هذا أيضًا شيء جديد، حتّى لا يمرّ الترام ويدهسهم احترامًا لجثثهم، أو حتّى لا يمرّ مسرعًا غيرَ مبالٍ بهم وباحتجاجهم. تحاول قوات التدخُّل السّريع أن تُبعدهم عن السّكة، ثمّ بدأوا يجرونهم من سيقانهم، ويصرخ المضربون: عاش الملك. وهذا دائمًا أمر مضحك.

سائق الشاحنة الذي يسمُّونه الدابة

الجمعة 13 يونيو 1958

تحرق الريح الشرقيّة النبات؛ تقتله. تسود الأغصان وتتعرّى ولا تبقى على الشجرة ورقة واحدة تنبض بالحياة. تيبس أعواد بتيمة في الخزف مشيعة في الفضاء جوًّا من التعاسة تصيب البشر والحجر. كأنّما أكلتنا النار نفسها. ويكفي أن تهبّ نسمة واحدة لتحدث المعجزة. تولد الشجرة بخضرة أكثر نضارة. تزهو الأغصان سكرى بحياتها الجديدة وترتعش الأوراق وترقص وتمدّ أعناقها الهشّة، متمايلة، منتشية بألوان لم تظهر عليها من قبل. وبالنسبة إليّ، فإنّ المعجزة وقعت في تلك اللّحظة. قبل ستّة أيّام، عندما طرقت الباب وقالت إنّها تسأل عن نافع. وأنا لا أقول الأشياء التي سأندم عليها فيما بعد. أفكّر كثيرًا قبل الردّ على هذا أو ذاك، أو أقول هذا بدلًا من ذاك... لم أهتمّ بها من قبلُ، عندما عرض عليّ نافع قضّتهما. أما وقد جاءت حتّى بابنا بدعوى أنّها تسأل عنه، فما حدث بعقلي أسمّيه رجّة غير عادية، لا أقلّ ولا أكثر. ولم أكفّ عن التنقّل بها وأخذها من مكان إلى مكان لمساعدتها في البحث عن رجل مختفٍ. لم نترك ساحة أو فندقًا. لم نترك شخصًا لم نسأله عن نافع. نافع لا أثر له: مكتب البريد؛ محطة الحافلات؛ فندق الحظّ السعيد؛ الشركة المغربيّة للنقل. حتّى الأماكن الأكثر غرابة، كالمطحنة مثلًا، أو المقبرة. لا أثر للرجل. وقفنا عند مدخل السوق... هذا المدخل ضيّق، كثير الازدحام في هذا الوقت، وربّما في كلّ وقت. عربة واحدة كافية ليتعذّر كلّ دخول أو خروج. مسدود أيضًا بسبب الحمّالين وصناديقهم، والذين لا يحملون شيئًا، والحمير والكلاب والبغال. كما لو نكون غداة العيد. ولم أكن في حاجة إلى ولوج السوق في تلك اللّحظة بالذات، لأنّ رأسي عامر بأمور أخرى، وليس فيه أدنى فكرة عن هدية ما قد أشتريها لها.

مكتب البريد ملاصق للسوق، ويبدو فارغًا من هذه الزاوية. الرجل المكلّف بالبريد منزوٍ في قاع الحانوت المظلم الذي يسمّى مكتب البريد، والحانوت نفسه لا يوحي بأنّه يستقبل الرّسائل، والرجل متوارٍ في القاع بحيث لا يظهر منه سوى العينين المستغربتين وقوفنا أمام بابه. ولأنتبه أيضًا، فجأة، إلى أن على شفتيها سؤالًا يتأهّب ليقفز لأنّنا نقف أمام المكان المناسب لاستغرابها. والرجل يبدو مستعدًّا لتلقي أيّ سؤال من أيّ نوع كان، كواحد ينتظر أيّ سؤال ليبدأ نهاره، وليبدو عمله مبرّرًا؛ كواحد ينتظر منذ ساعات الصباح الأولى مَن يخلّصه من الصمت والفراغ اللذين يلتهمان

حياته، مع أنَّه مشغول بالسفنج والشاي؛ مع أنَّه في هذه اللَّحظة لا يستطيع أن يفعل لنا شيئًا، ويداه مدسَّمتان وفمه مملوء. السُّؤال الذي انتظرتُه لم يخرج. إنَّها مرتبكة، واقفة كواحدة مستعدَّة لتعتذر عن هذا الوقوف المزعج، أمام ما يشبه الإدارة، وغير اللَّائق، أمام رجل يفطر على خاطره خلف مكتبه. قلت له، إذن، على سبيل الاعتذار: ألم تَعُدِ الرَّسائل تصل إلى گلميم؟ لأنَّنا نبحث عن موزِّعها... نافغ... اسمو نافغ... وبقي يحرِّك شفتيه قبل أن يفتح فمه ويرمي فيه بسفنجة كاملة. قال: كنعرفو. وهما صديقان. تهلَّل وجهها وتورَّدت شفتاها... قبل يومين. لا، قبل أسبوعين، قبل ثلاثة أسابيع ربَّما أو أكثر قليلًا، كان جالسًا هنا حيث تقفان. من هنا كان يبدأ نهاره، دائمًا. نشرب كأس شاي ونحكي النكات. يحب نافع الضحك. لم أرَ بشرًا يحبّ اللَّعب والمرح مثله... لا يزورني في الخريف من دون أعذاق تمرٍ. ويأتيني في الربيع ببيض السمان. وحده يعرف أعشاشها. رأيتها تحرِّك يديها ولا تعرف ما تفعله بأصابعها. وتتلفَّت كأنَّها تراه قادمًا. قلت ربَّما إن قلبها اهتزَّ قليلًا. وقال أيضًا، وهو يمسح يديه برسائل كانت موضوعة على مكتبه، إنَّ الحافلة وصلت إلى گلميم. لم يكن أحد يتصوَّرها... والرَّسائل تأتي الآن بالحافلة... تأتي من كلّ مكان. من الرباط وفاس، وحتَّى من طنجة... الرَّسائل تذهب إلى المدن الأخرى بالحافلة أيضًا... وقال ربَّما قد نعثر عليه في السوق يتسكَّع لأنَّه بسبب وصول الحافلة أصبح بلا عمل... وتذكَّرتُ أنَّ الحظّ مهمّ أيضًا... قال وقد لا نعثر عليه... على حسب... لأنَّ نافغ هذا مثل الزواق... تارة ها هو فعاك، وبعد ثانية لا تعثرين له على أثر، كالزواق. وهو يضحك دائمًا ضحكته الدسمة... ويحشو السفنج في فمه من جديد ويصبّ عليه قدرًا كبيرًا من الشاي... لا يمكن الإمساك به... حتَّى عندما كان يعمل. ها هو معك الآن... واقف أمامك بلحمه ودمه... وتسألين عنه بعد لحظة، فيقولون إنَّه في آسا، أو أسرير، أو... وضحكتْ هي الأخرى بسبب كلّ هذه المدن التي ذكر لها من قبلُ والتي أصبحت تعرفها. ورددتْ خلفه كما لو أنَّها تردِّد تعويذة لجلب السَّعد: آسا، أسرير. كواحدة تعرف هاتين المدينتين وزارتهما أكثر من مرَّة. التفتُّ إليها مؤكِّدًا قول موظَّف البريد... هذا هو نافع. يعجبه التنقُّل، ويعجبه السهر، والمرح، واللَّعب... يسمُّونه الرقَّاص لأنَّه ينقل الرَّسائل من مكان إلى مكان. جِرابه عامر دائمًا بالرَّسائل، رسميَّة وغير رسميَّة. وكلُّها رسائل مهمَّة. نافع رجل مهمّ لأنَّه مشغول دائمًا. ولهذا لا يذهب كثيرًا عند الناس. العمل هو كلّ شيء في هذه الدنيا. وهو لا يجد وقتًا ليسأل فيه عن أحد. مشغول. وقلت أيضًا لن ينقضي النهار حتَّى نكون عثرنا عليه. وإذا لم نعثر عليه حتَّى الساعة،

فلأنّنا لم تبحث عنه كما ينبغي لنا أن نفعل... ويسمّونه أيضًا الجفل الذي لا رأس له لأنّ الرّسائل لا تصل في الوقت. وقلت كثيرًا من الكلام الذي لا يصلح...

ثمّ ذهبنا حتّى آساء وطرقنا باب غرفته. وسألنا المخازنيّة، فقالوا إنّهم لا يعرفون شخصًا بهذا الاسم. ثمّ عندما أسعفتهم الذاكرة صاحوا: الحزطاني؟ لم يروه منذ شهور. وهذا الاسم لم يُثر فيها قلقًا من أيّ نوع. وأنا، كما لو كنت أريد أن أنبّهها إلى أن عليها أن تقلق، صحت ساخرًا: هاها، هكذا يسمّونه إذن... الحرطاني... وملأتْ فمي بضحكة ضاجّة حتّى ترى أنّنا لا نتشابه أنا ونافع. ونحن في الشاحنة، وحتّى ترى الفارق بيننا، مددت ساعدي إلى جانب ساعدها، وقلت لها إنّ لونينا متشابهان تقريبًا... ولا أعرف إلى أين ستقود كلّ هذه الجِيَل. وعندما استنفدت الأماكن والطرق والقرى؛ عندما نضبت ذاكرتي ووقفت أوّل أمس لا أعرف وجهة جديدة أقودها إليها، داهمنا ثلاثة رجال كأنّما ليسدوا فراغًا نسيت احتمال وقوعه. رحّبت بهم حتّى قبل أن يقولوا إنّ الشاحنة محجوزة منذ الآن. الجراد يهدّد المنطقة بالكامل وهم يحجزون كلّ الشاحنات الموجودة لمحاربته. في حالة الغليان التي أنا فيها لم أكن في حاجة إلى تفسير. مستعدّ لأتبعهم إلى أيّ مكان يُنسيها الرجل الذي تبحث عنه. إنّهم يمنحونني فرصة إضافيّة لا يعرفون مدى أهمّيّتها لأبعدها عنه. لا يقدّرون خيرها عليّ. هل أشكرهم؟ ثلاثة رجال في الجلابيب القصيرة. وعلى الرّغم من الحرّ فإنّهم يعتمرون قبّعات سوداء من الصوف. ربّما إنّه لباسهم الميدانيّ، سواء داخل الشاحنة أو خارجها، فالسلاح لا يفارقهم. بندقيتان ومسدس، ونظارة صفراء يضعها حامل المسدس على عينيه حتّى يبدو في مظهر الرئيس. ويزيلها بين الفترة والأخرى حتّى يبدو جدّيًا... أصبحنا جميعًا مجلّلين بقداسة المهمّات الرسميّة. واكتسبت الشاحنة أهمّيّة بالغة وقد كُتب على بابيها، بالأبيض وسط دائرة حمراء لا تقلّ هيبة وحدة مكافحة الجراد. وها أنا معهم أتدحرج فوق الأحجار، بالمجانّ. وأقول لحسن الحظّ إنّهم ظهروا في الوقت المناسب لأنّ لائحة أماكن وجود موزّع الرّسائل نضبت. وأفكّر فيها بدلًا من التفكير فيهم أو في كفاحهم ضدّ الجراد، نخرج في الصباح ونعود في المساء، من بلدة إلى بلدة؛ من صحراء إلى صحراء. أفكّر فيها لأنّ الجراد لم أرَه إلى حدّ الساعة. أسمع منذ الأمس مخطّطات الرجال الثلاثة وأترقّب ظهور الحشرات الجانعة، المهدّدة، المتعطّشة لزرع لا وجود له. وإلى حدّ الساعة، فإنّها لم تظهر، ما عدا الجرادة التي ضغطها أحدهم تحت الحذاء العسكريّ قبل أن يقفز إلى الشاحنة. كلّ هذا يدخل ضمن

المخطط نفسه غير المتوقَّع، والذي أسمّيه الحظّ. عبرنا الكثير من الطرق السيّئة، حتّى الساعة، ذهابًا وإيّابًا، بصحبة ثلاثة رجال مسلّحين: گلميم، آسا، بويزاكارن، تّليوين. وتركت الشاحنة فيها نصف مساميرها، بين الحفر والحجارة. إنّها لم تيأس من العثور عليه. لا يهمّها الوقت الذي نعود فيه. تعود أحيانًا في وقت متأخّر من المساء. تشتغل والدتها في الفندق ولا تعود قبل العاشرة ليلًا. يدي على مقود الشاحنة وأفكّر فيها. ما زال كلّ شيء ممكنًا. ستنتهي إلى التسليم بالأمر الواقع. نافع هرب أو مات أو ما تشاء. بعد ستّة أيّام من التّحرّيات، حان الوقت. اليوم أو غدًا ستنتهي إلى الاقتناع بأنّها لن تعثر عليه. وإلى حدود هذه الساعة، بحسب ما فهمت، لا يوجد مكان لم نقتحمه. ألّا تزال مصمّمة على الاستمرار في البحث؟ وأنا لا أنتظر منها أن تتوقّف أو لا تتوقّف، ولا أقول لها أن تفعل هذا أو تفعل هذا. فكرتي هي أنّ كلّ شيء سيأتي في وقته. فكرتي أنّها ستتعب من دون شكّ. الصبر يذيب الحجَر، كما يقولون. فكرتي أنّها لا بدّ من أن تتعب من الانتظار. المرأة لا تنتظر الرجل إلى الأبد. سيأتي وقت تنفض يديها منه. سيأتي يوم يتحوّل حبّها إلى لامبالاة، أو كراهية صريحة، ومعلَنة، شأن البشر جميعًا. ثمّ إنّ الحبّ، بحسب رأيي، هو الرّغبة في أن تكون لديك امرأة في الدار بحيث لا تحتاج إلى الذهاب إلى مكان آخر، وأن المرأة في حاجة إلى رجل. الحبّ الحقيقيّ هو حبّ الأطفال الذين سيأتون. الحبّ هو الاعتياد على الجسد نفسه والفراش نفسه. وكلّ ما عدا ذلك سفاسف. ثمّ إنّ هذه المرأة في حاجة إلى رجل. وبعد أسبوعين، بعد شهر، بعد ثلاثة أشهر، ستنسى أنّه كان على وجه الأرض شخصٌ اسمه كذا وكذا... هذا في حالة إذا كانت قد أحبّت هذا الحزطاني فعلًا، وأنا أشكّ في الأمر.

أقول لها، حتّى أشحذ كراهيتها، إنّ هذا الرجل مجرم، مبحوث عنه لأنّه قاتل. وحتّى أزرع جرثومة الخوف في ذهنها، أقول إنّ لديه مسدّسًا يُخفيه تحت حزامه، لا يفارقه لا في اللّيل ولا في النهار، ومذياعًا صغيرًا يسمع من خلاله الأخبار... ولكنّها ليست أسبابًا كافية ليختفي ابن آدم. ثمّ أقول: ربّما احتاجوا إلى خدماته فعاد يوزّع الرّسائل من جديد. هذا وارد أيضًا. ما أراه إلى حدّ الساعة هو أنّها لن ترتاح ما لم تعثر عليه. لن ترتاح لا جالسة ولا واقفة. هذا ما تقوله. لا واقفة تحت جمر النهار، ولا ممدّدة في اللّيل، شديد الظلمة، مضطجعة على جمر أفكار لا تنطفئ. ثمّ إنّ البحث طريقة أخرى للعثور عليه، أقول مواسيًا، معزيًا تقريبًا. الطريقة الوحيدة؛ لا توجد طريقة أخرى؛ لا يوجد دواء آخر. قد نعثر عليه في أوّل زنقة، في أوّل انعطاف. قالت إنّها رأته هذه اللّيلة في الحلم يوزّع الرّسائل في بيت

الجيران. والبيت عبارة عن حقل فيه من شقائق النعمان أكثر ممّا فيه من الزرع. وبدلًا من رائحة هذه الأزهار، فإنّ رائحة موزّع الرّسائل هي التي تأتي حتّى الغرفة، لأنّ الغرفة بلا جدران. ورائحة التراب المبلّل أيضًا. وأنا أتساءل في الحلم ما الذي يمنعني من الذهاب إلى بيت الجيران. تقول لي خالتي باشا ألّا أقلق لأنّ ساعي البريد يطرق كلّ الأبواب. وسيطرق بابنا بعد بيت الجيران. وأنا أقول لها لا يوجد باب يا خالتي حتّى يطرقه... مضى أكثر من أسبوعين عدّتْ أيّامهما يومًا يومًا. كما عدّدتِ المرّات التي تصوّرتْ فيها أنّها رأته في الشارع أو يدخل السوق؛ والمرّات الأخرى التي أمضيناها نتنقل من مكان إلى مكان من دون أدنى فكرة عن المكان الذي سنعثر عليه فيه. وهي تقول: لا بدّ من أنّ هناك بيتًا أو غرفة يأوي إليها. لم نترك مكانًا لم نبحث فيه طوال هذه الأيّام. ومع ذلك، فأنا مرتاح لأنّني أعرف أنّنا لن نعثر عليه.

ثلاثة أيّام من التنقُّل بين الأسواق والمدن والدواوير والصحارى. من گلميم حتّى آسا، حتّى بويزاكارن. كأنّما الهدف من وجود الرجال الثلاثة المكلّفين بوحدة محاربة الجراد، وتنقُّلاتهم المختلفة، هو أن نحيا معًا مغامرات فريدة تقرّبنا أحدنا من الآخر، وتربط حبل الودّ بيننا. نزلنا في قرى كثيرة. في هذه القرية، قالت امرأة: الجراد كان هنا قبل أيّام، ولكنّه انتقل إلى الشمال. وقد أضحكتنا هذه القصّة معًا. وشعرت بدفء غريب وهي ملتصقة بي. نعم، هناك هذه السّاعات العزيزة، ونحن في الشاحنة، وكتفها على كتفي، وشعرها عندما تهزّه الرّيح يأتيني ضاحكًا ويلامس وجنتي. وأحبّ ألا تنتهي الطرق. ورأينا في قرية أخرى الرجالَ والأطفال يحدّقون في السماء ويصيحون: الجراد... الجراد، ويتعقّبون شيئًا لا نراه. قفز الرجال الثلاثة في حركة رشيقة من الشاحنة وهم يصيحون: فينْ هو، فينْ هو... ثمّ تخلّصوا من سلاحهم، وأنزلوا من خلف الشاحنة خزانات المبيدات، قناني ضخمة من البلاستيك، وحملوها على ظهورهم وراحوا يرشّون الأرض الجرداء. والأطفال يصيحون خلفهم بأنّ الجراد انتقل إلى الجنوب. وظهر حولنا رجال اخرون في القرية التالية. وهؤلاء قالوا إنّ الجراد انتقل إلى الشمال. لا يوجد جراد عندهم. والأمر نفسه في قرى أخرى... إلى درجة أنّنا نمرّ على المكان نفسه عدّة مرّات. شمال... جنوب، جنوب... شمال. أحيانًا أربع مرّات فأكثر. وهذا يسلّينا إلى درجة أقول فيها إنّها نسيت. لم يكن لنا أن نتسلّى لولا قصّة الجراد هذه، أليس كذلك؟ وهناك قرية أخرى، وقصّة الرجل قصير القامة ذي القدمين المعقوفتين إلى الداخل، وبسروال قصير ونعلين مرتقين، ويحمل صفيحة بنزين لشركة

«شيلْ» كان يعزف عليها عندما وقفنا. فقدت الصفيحة ألوانها وتحتفظ بجزء ضئيل من القوقعة المرسومة على ظهرها. قال هذا الرجل المعوجّ الساقين إنَّ أفراد الجيش المَلَكيّ مرُّوا عليه قبل أيّام وأعطوه خمسة عشر ريالًا حتَّى ينخرط معهم. وقال صاحب النظّارة الصفراء: خذ عشرين ريالًا حتَّى لا تنخرط معهم... وتذهب معنا إلى تيزگي. التحِقْ بالمقاومة. التحِقْ بأبطال الحرّيَّة المتوكّلة على اللّه. لن ينقصك خير. عشرون ريالًا ومؤونة شهرين للعائلة... الزيت والسكّر والدقيق... كلّ شيء موفور في تيزگي. الأكل والشراب. في النهار يصطادون الغزلان ويغنون في اللَّيل ويرقصون. ويأكلون عند الفجر لحم الغزال وينامون. وضرب على كتفه وهو يقول: وماذا يريد ابن آدم أكثر من هذا... لأوَّل مرَّة أدرك أنَّهم لا يحاربون الجراد فحسب. إنَّهم يجنّدون الشباب لهذه الجهة أو تلك. هناك، من جهة، الجيشُ المَلَكيّ الحديثُ الوجود، بشاحنات أخرى، وخزانات مبيدات أخرى، وخمسة عشر ريالًا لمن يرغب في الانخراط. وهناك منظّماتٌ مسلّحة منافسة تقترح أكثر. كثيرون ينضمون إلى الجيش المَلَكيّ في مقابل الخمسة عشر ريالًا. وفي المساء يغيّرون رأيهم في مقابل العشرين ريالًا الأخرى. وفي الغد لا تعثر لهم على أثر. ثمَّ قفزوا خلف الشاحنة، وأشار إليّ صاحب النظّارة الصفراء بأن أتبع الطريق. أيّ طريق؟ الشمال أم الجنوب؟ هو نفسه اختلطت عليه الطُّرق، ولم نعد نعرف الوجهة التي نأخذها. وكلّ هذا مُسَلٌّ. وأتمنَّى في قرارة نفسي أن تستمرّ هذه الدوخة أطول مدَّة ممكنة.

أمَّا ما أفكّر فيه فلا أقوله لأحد أيًّا يكن هذا الأحد. ما أفكّر فيه يبقى في رأسي، حتَّى لا أدخل في الصحيح وغير الصحيح، وهذا قلته وهذا لم أقله، وكلّ ما يعقب ذلك من جدل زائد. يستطيع نافع أن يكون أخي بقدر ما يشاء، ولكنَّه لم يقدّم إليّ خدمةً في حياته حتَّى أقول إنَّ دوره جاء ليكون في حاجة إليّ أو العكس. لن أستطيع أن أنفعه، ولو بمجرَّد نصيحة يتَّكئ عليها، أو حتَّى مواساة. ها هو مختبئ في بيتي، منذ عشرة أيّام. لم يغادره لأنَّه لا يعرف مكانًا يذهب إليه بعد أن قتل القايد بوزيد. والآن، ها هي تسأل عنه. ليس عن رجل عاديّ كما كان. تسأل عن مجرم. أين سيأخذها؟ ليس من حقّه أن يضحك على هذه البنت، أو أيّ بنت أخرى. ليس من حقّه أن يستخفّ بالناس. ليس من حقّه أن يتعامل مع ابن آدم، كما لو أنَّه لاشيء؟ لا أستغرب الآن أيّ حركة تأتي من جهته، كما لم أستغرب عندما قال إنَّه قتل بوزيد. ولم يبدُ مشوَّش البال، أو مرتبكًا، وهو ينشر أمامي خبر جريمته. كأنَّما يتعلَّق الأمر برجل ثان، لا صلة له بمرتكب الجريمة الذي صاره. ثمَّ بدا مشغولًا في الأيّام التي تلت، وأنا لا

أعرف السَّبب. هل يفكّر فيها؟ لا أسأله حتّى لا أقول له كذا أو كذا، أو أقول ما أفكّر فيه من دون أن أفطن، كما يحدث لي أحيانًا. وأن تشغل باله أو العكس؛ أن تشغل باله الجريمةُ التي ارتكب أو لا تشغل باله... هذه أمور لا تدخل في مجال فكري في هذه الساعة... لم أخبره إلى حدّ الساعة. عندما يفكّر في الخروج أحاول أن أثنيه. عندما أخمّن أنّه يفكّر فيها أقول له إنّ الشرطة في كلّ مكان؛ في الطرق والمحطات، وحتّى أمام بيت بابا. الحومة مطوَّقة بالبوليس في اللّيل والنهار. منذ دخل بيتي، منذ رأيت أنّها تشغل باله، أحاول أن أمنعه من المغامرة خارج البيت بكلّ وسيلة. وربّما لن يستمرّ هذا طويلًا. هذا ما أفكّر فيه. وهذا هو ما سيقع على الأرجح، عندما أقرّر؛ عندما أقرّر بشكل لا رجعة فيه.

والدنا الذي نسمّيه بابا ظلّ مبتهجًا منذ اليوم الأوّل الذي جاءت تسأل عنه، جالسًا تحت جدار البيت وهو ممسك بسكين المطبخ ويزيل الجلدة الميّتة عن كعبه وأصابع قدميه. لم يبدُ في حياته أكثر انشراحًا. طوال الأيّام التي ظلّت تأتي فيها إلى البيت، تسأل الوالدة إن كانت زوجتي. ونسهو عنها وقتًا لتعود إلى السُّؤال نفسه. يردّ بابا عليها، مغتاظًا: هذه امرأة نافع. إنّه فرحان لأنّ امرأة بيضاء دخلت العائلة. لأوّل مرّة، لم يعد منكمشًا على نفسه. لانت ملامح وجهه وأخذ مظهره شكلًا طريًّا، كواحد استعاد حيويّته فجأة. لم يعد يشتكي من عضلات فكّيه التي ظلّت توجعه. ولم يعد يمتنع من الأكل لأيّ سبب. واستعاد أمامها، وهي جالسة في الغرفة أو واقفة عند عتبة الباب، تفاصيلَ تاريخه المنسيّ: تلك البلاد التي اسمها الداهومي، الخضراء، المُزهرة دائمًا... ويقول لها إنّه ظلّ يحلم بالعودة إليها؛ إلى غاباته وبحيراته. لم أسمعه في حياتي يتكلّم على أيّ عودة إلى هذا البلد أو ذاك. قد تكون حياته، كما يحكي، مِحَنًا وعذابات. قد يكون جاء من الداهومي وهو في الأغلال، ويحمل على ظهره حَجَرًا للإمعان في إذلاله. ويعرف الآن، وهي واقفة أمامه، أنّ كل هذا له معنًى وهدفٌ. وطوال مرحلة الخرف هذه، أتساءل: لماذا لا يعود إليها؟ إلى تلك البلاد الخضراء التي اسمها الداهومي.

اشتريت لها أشياء عثرتْ عليها في الأسواق التي مررنا فيها. بينما يسأل الرجال الثلاثة المسلّحون عن الوجهة التي اتّخذها الجراد، أدخل السوق لأختار لها كلّ الأشياء الجديدة التي تحبُّها النساء... ثوب خنت أبيض، قناني كولونيا... حتّى لا تشعر بالغربة؛ حتّى تفكّر في الأشياء الجميلة؛ حتّى تنسى الحزطاني، وتفكّر فيما هو أجمل. النساء تعجبهن

الهدايا دائمًا... قلادة عقيق، أو خلخال من فضَّة، أو خاتم من ذهب. الخاتم هو الدليل على أنَّها ستبقى... إذا ما قبلته...

الأحد 15 يونيو 1958

تمدّدنا، أحدنا إلى جانب الآخر، ولا توجد بيننا غير فجوة صغيرة تنام عليها فراشاتها. إذا ما تحرّكتْ فستطير الفراشات وتختفي بنت خالتي. لست في حاجة إلى كلامها لأدرك ما يدور في رأسها. ممدّدة إلى جانبي وترتدي الكسوة ذات الفراشات الذهبيّة المحلّقة في سماء ثوبها الأحمر. تمرّر يدها على الفراشات كأنّما تستجدي ما ينقصها من شجاعة للتحليق. وأنا لا أحبّ هذه الفراشات المزهوّة بنفسها. إنّها تعتقد أنّ موعدها مع موزّع الرّسائل هو اليوم على الرّغم من أنّها قالت الشيء نفسه في الأحد الماضي. وستستمرّ تعتقد ذلك في الآحاد الآتية، إلى ما لا نهاية. أفضّل، من جهتي، أن تذهب إلى حيث تشاء قبل أن أصاب باللّوثة نفسها التي في عقلها. أينما حلّتْ، تزرع الحيرة في القلب والبلبلة في الدماغ. لا أحد يحبّها في البيت، ولا أحد يهتمّ بأن ترحل أو تبقى. تقول والدتها عنها كلّ الأشياء القبيحة. جمعتْ حوائجها ذات أحد في رزمة صغيرة وملأت بها الفجوة التي بيننا. وكما لم يظهر موزّع الرّسائل في الأحد الماضي، فهو لن يظهر هذا النهار، ولن تذهب معه إلى لاس بالماس لنصبح امرأة أخرى، وستبقى فتاة لا يحبّها أحد، على الرّغم من رزمة الملابس، وعلى الرّغم من الكسوة ذات الفراشات المحلّقة. أتمنّى مع كلّ صباح أن أفتح عيني ولا أجدها ممدّدة إلى جانبي، أو واقفة أمام النافذة تحدّق في الفراغ، زارعةً في ذهني البلبلةَ. كان بيتنا هادئًا قبل أن تدخله هذه الزوبعة العاتية. يبدو كما لو أنّه امتلأ بكائنات كثيرة الصخب. وربّما لهذا السّبب تقول خالتي منانة إن ابنتها مسكونة. في بيتنا ثلاث غرف قرّرت الوالدة مؤخّرًا طلاءها بالجير حتّى تقضي على البقّ. وخالتي منانة وجدت عملًا في فندق الحظ السّعيد. وبقيتُ غير مرتاحة مع ذلك، كما لو أنّ ظلًا مقلقًا حلّ في بيتنا. جمعت خالتي منانة المال الكافي وذهبتا معًا إلى موسم سيدي احماذ ونامتا تحت الشجرة القريبة من الضريح. شجرة الأركان التي تداوي عقول البنات المسكونة، كما تقول خالتي. ولكنّها لم تداوِ عقل ابنتها. عادت من الموسم كما ذهبت إليه، بلا عقل.

ثمّ إنّني لا أكرهها تمامًا، لأنّني أضحك كثيرًا عندما أسمع حكاياتها. ونسمع خالتي منانة تقول من الركن الآخر للغرفة: نغسو يا الجنيات... ونحاول أن نحبس ضحكاتنا، ولا نقدر... إنّها تتكلّم على هذه الأشياء كالمجرّبة. سنواتها العشرون كافية لتعرف كلّ هذه الأشياء. لقد رضعنا

الحليب نفسه. هل عليّ أن أشبهها لهذا السّبب؟ إنّها أكبر منّي بستّ سنوات، وإنّما بلا عقل. والدتي هي التي قالت إنّنا رضعنا من الثدي نفسه، عندما كنّا نسكن في المنزل ذاته قبل أن تنتقل هي وأمّها إلى أكادير. كانت تبكي كلما ألقمتها خالتي إحدى حلمتيها، واكتشفت الوالدة أنّ حليب أختها فاسد ومُرّ، كماء المستنقعات. هل عليّ أن أشبهها لهذا السّبب؟ لم أغامر بعيدًا عن بيتنا قبل ظهورها. أغامر معها فقط بعيدًا عن البيت، وأعبر المدينة من أقصاها إلى أقصاها، وخارجها أيضًا، بالوَجَل نفسه، والخوف نفسه. كما لو أنّني أقترف عملًا ممنوعًا. وهذا لم يحدث لي في السابق. ذهبنا إلى المعرض ورأينا المرأة العنكبوت، والرجلَ الذي يبتلع الأفاعي، والرجلَ صاحب الكسوة الجلديّة الذي يقود دراجته الناريّة على الحائط المستدير. هذه أشياء لم أرَها في حياتي. تصبح معها أفكاري مشوّشةً، ولا أعرف هل كبرتُ سنواتٍ أم عدتُ سنواتٍ إلى الوراء. كما لو أنّني أشاركها في حياة مليئة بالمخاطرات. عقلي قَلِق لهذا السّبب، وأنا عندما أفكّر في كلّ هذا أصبح حزينة.

خرجت خالتي مناتة للعمل في الفجر، وبقيتُ هي ممدّدة إلى جانبي وتقول إنّها تشعر كما لو أنّها ستعثر عليه اليوم. لا أحد استطاع إلى حدّ الساعة أن يضع يده عليه، أو يعرف أين اختفى. كما لو أنّ لموزّعي الرّسائل مخابئ خاصّة بهم. ولكنّها، هذا النهار، لن تعثر عليه، سواء خرجتُ معها أو بقيتُ جالسة في البيت. نهضتُ من الفراش، عازمة على ألّا أغادر البيت. خرجت من الغرفة وتبعتني. وعندما أدركتُ أنّني لا أتوجّه نحو الخارج أسندتُ ظهرها إلى باب الغرفة، ورزمتها بين يديها. كما لو أنّها ترغب في أن ترسم أمامي صورتها الأخيرة، صورة وقفتها البئيسة. وحتّى ترى أنّني لن أرافقها هذه المرة، أخذتُ من المطبخ فتات الخبز ورحتُ أقطعه وأطعم به العصافير التي تصيح في حوش البيت منذ الفجر.

إنّها بنت مسكونة فعلًا، من جميع النواحي. أوّلًا بسبب الأماكن التي تختارها. لماذا تحوم دائمًا حول الأمكنة التي يجتمع فيها الرجال؟ تحب المرور أمام القيسارية، أو المطحنة، أو أيّ مكان يوجد فيه تجمع رجالي. وثانيًا بسبب الحكايات التي تحكيها لي في اللّيل عندما نندس تحت الإزار... كانت تذهب إلى فندق السلام حيث اشتغلت والدتها لترى السيّاح يسبحون عراة في مسبح الفندق. وتصف مصرانهم الطويل الذي يتدلّى تحت صرتهم. إنّه غير مثير، رخو وأحمر كالجلدة التي تتدلّى من فوق منقار الديك الحبشي. أنا لم أرَ هذا المصران في حياتي. أتصوّره فقط،

وأتظاهر بأنّني لا أفهم ما تقصد لتعيد الحكاية بتفاصيل أكبر. ثمّ عندما كانت تذهب إلى الحلقة وتسمع حكاية العبد مسعود وعضوه الكبير الذي كان يهدّد به الملك. عندما تتكلّم على هذه الأشياء، يصعد الصهد إلى وجهي، وأختنق وأزيل الغطاء عن وجهي لأتنفّس، كما لو أنّ موجة الصهد تحوّلت إلى ضباب، والضباب إلى بخار حام، وأنا أرى صورها الشيطانيّة تلعب برأسي، وأتصوّر أنّني مسكونة أنا الأخرى. أطلق تنهيدة عالية لأطرد الصور الشيطانيّة ولا تختفي.

وهي بنت مسكونة، ثالثًا، لأنّها تحب أن تتبوّل في الخلاء تحت الشجر؛ دائمًا تحت الشجر، كما لو أنها ظلت طفلة في الخامسة، أو كما لو أنّها نبتت في خلاء، ذات صيف، قبل ست أو سبع سنوات، استمرّت في عمليتها حتّى وهي ترى أنّ طفلًا ينغرّج عليها من خلف سياج الصبّار. وأنا، عندما رأيت العينين المبحلقتين، جفلت في مكاني. أما هي، فقد وقفت وتوجّهت إليه: آش كتشوف؟ وعادت إلى عمليتها كما لو أنّها تغسل وجهها، وتنظر إليه متبسّمة، مستمرّة في التبوّل. ثمّ وقفت، وابتسامتها انّسعت وهي تجمع سروالها وطلبت منه أن يقترب. خرج الطفل من مخبئه خلف سياج الصبّار وفي يده عصفور يطلّ برأسه الصغير من قبضة يده ويبحلق فينا مذعورًا. اقترب متعثّرًا، متردّدًا، وَجِلًا، كأنّما سيسقط مغشيًا عليه. كان في سنّي نفسها: ثماني سنوات. طلبت منه أن يهديها العصفور، وظلّ واجمًا. ثمّ سألته هل يريد شيئًا في مقابل عصفوره. وظلّ على الوجوم نفسه. هل يريد أن يقبّلها على خدها؛ على فمها. هل يريد أن يرى مثلتها غير الحليق. برقت عيناه، فاغر الفم لا يعرف بمَ يردّ. ومدّ إليها الطائر، وبينما أنا ممسكة به، رفعت تنّورتها وأنزلت تبانتها. ظهرت كتلة الشعر والشقّ المفتوح وسط كتلة الشعر الأصهب. جحظت عينا الطفل وأمسك قميصه بكلتا يديه وهرب. وماذا فعلت؟ انطلقت في قهقهة عالية. ثمّ أمسكت بالطائر وراحت تبلّل منقاره بريقها... لهذا نقول جميعًا في البيت إنّها حقًّا بنت مسكونة.

رابعًا، لن أغامر أبدًا وأتكلّم مع رجل أسود، أو أسير إلى جانبه، ولو برفقة بنت خالتي. أبي لديه محل يبيع فيه الأثواب، ويقصده الناس من كلّ الأحياء لشراء حاجياتهم. وسيقتلني إذا سمع ما وقع حتّى لو تعلّق الأمر بابنة خالتي. لا أتصوّر إمكانيّة حدوث ولو جزء ضئيل ممّا يحدث لها. يوجد محل الثوب في حيّ العطّارين، ويعرفه جميع الناس. وإذا وصل إلى علمه ما تفعله بنت خالتي... والله حتّى يقتلني... كلّ ما تقوم به غير

مفهوم، وغير عادي، وغير طبيعي. كأن تفكّر في الهرب مع هذا العبد الأسود فقط لأنّه يحكي لها عن الطيور ويقلّد أصواتها. والدي، الذي يحترمه الكبير والصغير، يقول إنّ الله خلق العبيد لخدمتنا، وخلقهم سودًا حتّى يميّزنا منهم. وفي گلميم، مقبرة خاصّة بهم خارج المدينة حتّى لا يختلطوا معنا، لا هنا ولا في الآخرة. وفي محلّه دائمًا ثلاثة أو أربعة من العبيد يحملون السلع على ظهورهم كالبغال، ويذهبون بها من محلّ إلى محلّ وينقلونها عبر الأسواق. وعندما يموت أحدهم، فإنّ والدي لا يرافقهم إلى المقبرة لأنّ هذا عيب. البيضان لا يرافقون السودان إلى قبورهم. هذا معروف. أمّا هي، فإنّها ترافقه وهو حيّ. ويدها في يده كما لو أنّه يشبهنا. وتنوي فوق هذا الهرب معه إلى لاس بالماس، لأنّها غير طبيعيّة. وخامسًا، الرهبة التي استولت عليّ عندما التقيناه، ووقفنا معه، ولو بعيدًا عن الناس. نشف الدم في عروقي وأنا أرى الشبّان الثلاثة يدخّنون وينفثون الدخان على وجهي. لم تنتبه إلى خوفي لأنّها تعتقد أنّني أشبهها. وحتّى عندما اختفى الشبان، بقي الخوف يلعب بركبتي. قد يرتمي عليّ الأسود ويمسك بي بيديه القويّتين. بقيت لمدّة أحدّق في هاتين اليدين، قبل أن تنغلقا على العنق النحيف والرقبة الهشّة؛ قبل أن يتلذّذ وهو يسمع العظام الهشّة تطرطق... وأحدّق في الأصابع الطويلة، الخشنة، ووجنتيه البارزتين، وشفتيه الغليظتين، وعينيه الحمراوين. ليس في حاجة إلى يدين ليقتلني. مجرّد نفخة من بين شفتيه الغليظتين كافية لأسقط، كأنّ عاصفة هبّت عليّ؛ وجثته العالية وقوّة الحصان التي تفوح من كلّ جزء فيه. وماذا يخفي أسفل بطنه؟ هل تكلّمتُ، ونحن مختفيتان تحت الإزار، على السلاح الذي يُخفيه تحت سرواله؟ لا أتكلّم على المسدس. أتكلّم على السلاح الآخر، كسلاح مسعود، العبد الأسود الذي نام مع امرأة الملك. هل ينفع معه طلسم أو سحر أو تعويذة؟ لا بدّ من أنّه اغتصب عدّة فتيات. وقد يكنّ متنّ مختنقات لأنّهن لم يصمدن تحت القوّة الكاسحة لسلاح هذا الحيوان. هل تصلح عضلاته المفتولة لغير الاغتصاب والقتل؟ لماذا أمسكتُ لحظتها بيدي؟ لقد أمسكت بيدي وضغطت على أصابعي حتّى لا أهرب. ليس هناك تفسير آخر. واستمررتُ أفكّر في الهرب، واستمرّ الخوف يلاحقني ونحن نسير بين الدروب الفارغة ويدها تعصر أصابعي. وأنا أتوقّع في أيّ لحظة أن يهجم عليّ ويغتصبني، لأنّ عصاه المهدّدة قد تمزّق السروال في أيّ لحظة. والدي يقول إنّهم يشبهون الحيوانات. وأعتقد أنّهم يفعلون تلك الأشياء في أيّ مكان، حتّى في الخلاء؛ حتّى وسط الشارع. وهذا بالذات هو ما تحبّ، لأنّها تشبههم، ومسكونة بهم، على الرّغم من أنّها بيضاء. مَن

يدري؟ ربَّما إنَّ والدتها هي التي زرعت فيها هذا الحبّ عندما كوت فخذها بحديدة حامية.

أنا أحبّ العصافير وأكره الحمام. أحبّ أن أتفرَّج على العصافير وهي تتقافز وتطارد بعضها البعض، مالئةً حوشَ الدار بالزقزقة. العصافير فرِحة دائمًا، بالخبز أو من دونه، بعكس طيور الحمام التي لا تعرف الفرح، لا تعرف اللَّعب. تلتهم أشداق الخبز في جديَّة حزينة. أخذتْ بدورها قطع خبز صغيرة ورمتها للطيور. تركت الطيور تنقر فتات الخبز وجلست على الأرض وفتحت عقدة السروال، ورأيت النَّدَب الذي تركته الحديدة الحامية على الفخذ. يبدو النَّدَب كأنَّما يلمع بفعل حمرة اللَّحم التي تحيط به. كما لو أنَّه لا يزال تحت اللَّهب، أو كأنَّ الحديدة التي أحرقها بها والدها لا تزال قابعة تلمع حمرتها في القاع. بقعة ليست سوداء تمامًا, وإنَّما تبدو كذلك بفعل بياض البشرة الذي يحيط بالوشم. وشم على شكل موزة صغيرة، ملساء وتبرق كما لو أنَّها لا تزال تسيل. كانت في التاسعة أو العاشرة عندما وجدها والدها مع ولد الجيران، وكانت قد رفعت تنُّورتها لتبول والطفل الصغير ينظر إليها. قام والدها بكلّ الدسائس والمناورات والتهديدات ليطرد الطفل وعائلته من الحيّ. استعمل كلّ الأساليب لطرد العائلة حتَّى كونها عائلة من الحراطين. قد تفهم أنَّ والدها لا يحبّ السود. قد تفهم أنَّه أحرق فخذها لأنَّه يحبّها ويخاف عليها. وقد تفهمه حتَّى عندما يقول إنَّ هذا النوع من البشر لا يُوثَق به. لكنَّ الذي لا تفهمه هو أنَّ والدها سخَّر وقته وماله وحِيَله لطرد عائلة الطفل ليختفي بدوره بعد أشهر قليلة، عندما تعرّف إلى امرأة أخرى.

خرجنا معًا بعد أن رأيتُ الوشم الذي يشبه موزة صغيرة. إنَّما بدلًا من موزِّع الرَّسائل، وجدنا نفسينا واقفتين أمام الرجل الذي اعتقدنا في البداية أنَّه والدها. رجل خرج من الثكنة العسكريَّة ووقف يتحدَّث إلى حارس البوابة. عندما رأته أوَّل الأمر وأمسكتني وهزَّت كتفي مندهشة من التشابه بين الرجل الواقف أمامها والآخر الذي لم يبقَ منه شيء في ذاكرتها، قالت: كيشْبه لبَا... ثمَّ عندما تأمَّلته بدوري من دون أن أتعرَّف إليه، في البداية، بلباسه الأوروبيّ، وشعره المدهون والمسرَّح إلى الخلف، تحت الطربوش الأحمر المائل. والدها الذي لم تره منذ أن كانت في العاشرة، والذي اختفى بعد أن أحرق فخذها بحديدة حامية، كيف ستتعرَّف إليه وهي في العشرين؟ وبهذا الخلل الذي تحمله في رأسها؟ وبقينا مع ذلك مترَدّدتين. اتَّجه الرجلان نحو صندوق السيَّارة. فتح الرجل الذي قالت إنَّه

يشبه والدها الصندوقَ. أخذا بعض العلب وحملاها إلى داخل الثكنة. وبدلًا من أن نتابع طريقنا بقينا واقفتين، حتّى نتأكّد من أنّه هو، أو العكس. وحتّى إذا كان هو، فلا علاقة له بالرجل الذي كان. قد يكون تبدّل بعد أن تخلّى عن عائلته، لأنّ الرجل اختفى بمجرّد وصولهم إلى أگادير. حتّى وإن ظلّت خالتي منانة تعتقد أنّه سيعود. ذهب ليشتغل في إيفني، وعندما يوفّر المال الكافي سيعود. في السنوات الأولى على الأقلّ، استمرّت تأمل. حتّى غاب من ذاكرتها بعد أن غاب عن بيتها. ولكن الأساس بالنسبة إلينا الآن هو أن نتأكّد... واش هو ولا ماشي هو؟ استمرّ الرجلان يتنقّلان بين سيّارة السيمكا الحمراء عدّة مرّات، حتّى فرغ صندوقها من العلب. ثمّ عاد الرجل الذي اعتقدنا أنّه والدها من دون الحارس، وركب سيّارته وانصرف.

أضمّ أصابعي وأرى بدلًا من قبضة اليد عصفورًا. إذا وضعتُ طلاءً على ظفري فسيصير رأسه أحمر وتفيض الحياة خارج قبضتي. بين أصابعي يدقّ قلبه الرقيق: تتك تتك تتك... أنفخ على ريشه الناعم. أنحني على قبضتي وأسمع نشيده، خيط موسيقى كالماء يملأ عروق يدي ويمتدّ بعيدًا. أمسك يدي حتّى لا يطير العصفور وتهرب الموسيقى.

الجمعة 20 يونيو 1958

الحمد لله، اجتزنا مجاعات أكبر ولم تقتلنا. لم يسقط على رأسي حجر. لم تدهسني عربة ولا ثقب بطني قرنُ ثور مسعورٍ. بنت واحدة مثلها كافية لتجعل دم أيّ امرأة يجفّ. متُّ هذا النهار في أثناء صلاة الجمعة أو قبلها بقليل. كيف يموت الإنسان في هذا الوقت، وبهذا الشكل؟ الموت نهاية الحياة. وهل هذه حياة حتّى تكون لها بداية ونهاية؟ مع ألم المفاصل والركبتين والعمل وصداع البنت وكلّ الأشياء التي يتطلّبها البقاء في قيد الحياة، والتّفكيرِ طوال الوقت في هذا الشيء وذاك، وكلّ الأفكار النافعة والتي لا تعثر على طريقها لتتحقّق، كما لو أنّها غارقة هي الأخرى في الضباب الخانق... كما يحدث الان. الصوت لا يأتي من أيّ جهة بسبب الضباب الكثيف. لم يكن صوته مخيفًا عندما كان يسكن معنا. الصوت الآن مهدّد، مخيف، ذو صدى، كأن لا مصدر له. مميت، ويأتي من كلّ الجهات، في هذا المكان الذي لا أعرف هل هو مرأب، أم باحة، أم شارع عامّ. ستار الضباب كالدخان، أحسّ بأثره في وجهي وفي داخلي وأنا أستنشقه. ولا أراه لأنّني داخله، وجزء منه. وأنا أتهاوى والصوت لم يعد في عقلي أكثر من صورة تتلاشى شيئًا فشيئًا؛ صورة الرجل الذي كان زَوجي، والذي قال ذات يوم بعيد إنّه ذاهب إلى إيفني لأنّه وجد عملًا في مصفاة النفط في الميناء... واختفى ليظهر في هذه الصورة العدوانيّة. وانقطع في الثانية عشرة خيطُ الحياة. تدريجيًا.

لم أنتظر مساعدة من أحد طوال السنوات التي راكمتُها؛ طوال السنوات التي ظللت فيها في قيد الحياة. ليس أحسن من أن يكون لابن آدم ذريةٌ يحبّها ويسهر عليها ويفكّر فيها حتّى وهو بعيد عنها. هذا ما فكّرت فيه وأنا أكتشف وجوده في كُلميم. حان الوقت ليفكّر بدوره في ابنته، على الرّغم من أنّها تقول إنّها غير متأكّدة من أن يكون الرجل الذي رأته أمام الثكنة والدها. وما الذي سيجعلها متأكّدة أو غير متأكّدة؟ كيف ستعرف أنّ الأمر لا يتعلّق بالرجل نفسه الذي كان يشتري لها ملابس العيد كلّ عام حتّى بلغت العاشرة حين هرب؟ ما الذي سيجعلها تقف أمام الثكنة، إذن؟ وتتفحّصه، على خاطرها، لتقرّر في النهاية: يمكن ماشي هو... قالتها بكلّ الشك الممكن، لأنّ شيئًا تحرّك في داخلها... يمكن ماشي هو... ولكنّها وقفت وتأمّلته. كان من الممكن أن تمرّ عليه، كما تمرّ على عشرات الرجال في اليوم الواحد من دون أن يثيروا في عقلها أدنى سؤال. لماذا تقف عند

هذا الرجل بالذات، وليس أيّ رجل آخر؟ لأنّه والدها على الرّغم من أنّها لم ترَه منذ عشر سنين. عندما قال إنّه ذاهب إلى إيفني للعمل في شركات النفط. الخبر اليقين جاءت به جيجي، صاحبة فندق الحظّ السّعيد، عندما قالت إنّها تعرفه. كان يأتيها، في وقت ما، بالسجائر المهرّبة من إيفني، وهو مكلّف الآن بتموين الثكنة العسكريّة بالسجائر والويسكي من السوق السوداء. وعندما وصفت لي صاحبَ اللّباس الأوروبيّ والسيّارة الحمراء، ثمّ عندما ذهبنا وانتظرنا أمام باب الثكنة ورأيناه ينقل علبه إلى داخلها، قطعنا الشكّ... من دون أن يبدو الأمر غريبًا. عندما يذهب واحد مثله إلى إيفني، فكي يشتغل في تهريب السجائر أو الويسكي أو البنزين المهرّب، وكلّ السلع التي تروّج في السوق السّوداء. هل هو مهندس حتّى يعمل في منصّات البترول؟ ومع ذلك، فأنا لا أريد شيئًا لنفسي. أن يتعب من أجل ابنته كما تعبت، فقط. حتّى القطط تحبّ ذريّتها وتسأل عنها... حتّى الجرذان.

لم يقهرني العمل أو الوقوف طوال النهار بقدر ما قهرني التفكير فيها. غلبتني هذه البنت. الحمد لله في أيّ حال. التفكير فيها يشغل وقتي وبالي. لماذا لا تشبه الطاووسةُ، بنتَ أختي؟ أو بناتِ الجيران؟ هذه البنت هي التي خرّبت صحتي، واللّه العظيم. من حقّ أيّ امرأة أن تعرف أين تذهب ابنتها عندما تغادر البيت. وهل أستطيع أن أسألها: فين غادية ولا منين جاية؟ أبدًا. تكفي كلمة واحدة أقولها لتترك كأسًا في يدها تسقط على الأرض. لا تمكث في البيت إلّا المدّة الكافية لتشرب كأس شاي أو تلتهم قطعة خبز. أين تختفي طوال النهار؟ إنّها غلطتي لأنّني لم أعرف كيف أتعامل معها، وكيف تتعامل الأمّهات مع بناتهن؟ هل أربطها برِجل السرير؟ إنّها نضجت بسرعة، وبوقاحة. وبين ليلة وصبحها، أصبح لها صدر كبير ورائحةٌ قويّة. نضجت من دون أن أنتبه. نضجت في الزنقة. لم أرَ في حياتي بنتًا تكره المكوث في البيت مثلها. كأنّما وُلدت في الخلاء. وفي الشارع يلتفت الناس لأنّها تمشي بذلك الشكل المثير، والوقح. عندما أنبّهها تتعمّد النطق بتلك اللّغة الغريبة حتّى لا أفهمها. ولماذا لا تمشي كسائر عباد اللّه؟ البنات لا يمشين نصف عاريات وهن يضربن كعوبهن على الطوار ويهززنَ أردافهنّ بلا حياء كالفاجرات. واللّه يشهد أنّني لم أبخل عليها بشيء. والذهاب إلى ضريح الوليّ سيدي احماد مُكلف. المبيت والأكل والشراب، بلا نتيجة، أو بنتيجة واحدة... لا أعرف هل ستشفى وكم سيستغرق شفاؤها. إذا أراد اللّه لها أن تشفى، فأنا لا أريد شيئًا لنفسي. أن يفكّر في صحّة ابنته وعقلها. ليس هذا بكثير. حتّى القطط تحب ذريّتها

وتسأل عن أحوالها. ثمَّ إنَّ اللّه وضعه في طريقنا حتَّى يرى أنَّ له مسؤوليَّات وعليه أن يتحمَّلها. ومن جهتنا، ما دمنا عثرنا عليه فلم يعد من الممكن أن نتصرَّف كما لو أنَّه غير موجود، وخصوصًا بالنسبة إليها. إنَّها مريضة، وفي حاجة إلى الذهاب إلى ضريح أبعد من ضريح سيدي احماد. هذه أشياء سيفهمها. لأنَّ الرجل، كيفما تكن الحال، لا يتنكَّر لذريَّته. قد ينساها؛ قد يهملها، ولكن لا بدَ من أن يأتي وقت يضرب فيه جبهته ويتذكَّر. ثمَّ إنَّ أحواله الآن لا تبدو سيِّئة. يلبس اللباس الأوروبيّ ويقود سيَّارة سيمكا حمراء.

أجلستها في المطبخ وصببتُ عليها الماء الساخن ممزوجًا بالخزامى، وفركتُ جسدها وأنا أضغط بالمشط على شعرها ليهبط الرَّمل العالق به والذي التقطته في الطرقات. يحفر الرَّمل أخدودًا رقيقًا بين فخذيها. إنَّها امرأة الآن. لا ينقصها غير الرجل، قبل أن تفسد تمامًا. من جسدها تطلع رائحة الخزامى المخلوطة بالصابون المعطَّر. إذا أراد لها اللّه أن تشفى فستشفى في الحين. أتمنَّى أن يأتي ابن عائلة ينقذها. الحياة صعبة حتَّى بلا زواج... باب المطبخ بقي مشرَّعًا. بينما كنت أربط ضفيرتيها، ظهرت أختي في إطار الباب، بكحل في اليد. كحَلتُ عينيها إذن، ثمَّ صبغت شفتيها بالأحمر حتَّى يرى والدها المرأة التي صارت. يهتزّ ناب أختي الوحيد لأنَّها كانت تضحك. وبدت كما لو أنَّها تستعدّ لتطلق زغرودة. فجأة، رأيت الضباب يقتحم البيت، ورحت أرى أشياء؛ نساء يتقدَّمن ببطء، ثمَّ يقفن عند الباب المشرَع، ثمَّ يَدنين شيئًا فشيئًا. ثمَّ بدا دنوُّهن أكثرَ تهديدًا عندما وصلني نواحُهن. نتفن عند الباب شعورَهنَّ وتمرَّغن على أرضية المطبخ. رميت المشط وبقيت أرتعد. وبصقت وأنا ألعن الشيطان. ما الذي حلَّ بي؟

الحمد للّه أنَّني وجدت هذا العمل في الفندق لأنَّ صاحبته امرأة طيِّبة. وهذا هو الحظّ، عندما يريد أن يبتسم لك. الغرف قليلة، بحيث لا يأخذ منِّي تنظيفها مجهودًا كبيرًا. ستّ غرف في الطابق الأوَّل، والمطعم والبار في الطابق السفليّ. كان منزلًا للطبيب الفرنسيّ. وهو الرجل نفسه الذي حوَّله إلى فندق وسمَّاه فندق الحظّ السَعيد. ولأنَّه يهوى صيد الخنازير البرِّيَّة فقد ترك لها تسيير الفندق وأمضى سنواته الأخيرة يتعقَّبها في الغابات وبين الأدغال حتَّى بقر بطنه واحدٌ منها. ولا حول ولا قوَّة إلَّا باللّه.

تيقَّنت من أنَّه العنوان المكتوب على الورقة التي مدَّتها إليّ جيجي.

لم يكن هذا بالأمر الصعب لأنَّ السيَّارة الحمراء مركونة أمام البيت. طرقنا بابه في العاشرة صباحًا. بدا الوقت طويلًا ونحن ننتظر، وتراجعنا خطوتين عندما سمعنا حركة المزلاج خلف الباب، والتفتُّ إلى جهة ابنتي التي أمسكت بطرف جلبابي. لم يكن وجهها قلقًا كوجهي. ولم يفتح الباب. ظلَّ مغلقًا. واختفت خلفَه كلُّ حركة. الزنقة فارغة يلعب فيها الضباب الذي بدأ ينزل من فوق البيوت المحيطة في موجات مختلفة الكثافة. وفُتح الباب أخيرًا عندما هممت بطرقه ثانية. وظهرت امرأة متدثِّرة في حايك أسود. قصيرة القامة ووجهها طويل كوجه حصان. راحت تنظر إلينا. تتفحَّص وجهينا. فمها مفتوح وأسنانها كبيرة. إنَّها تنظر إلينا، وتتعرَّف إلينا شيئًا فشيئًا، كما لو أنَّها واقفة أمام متسولتين جاءتا من خارج المدينة. تنظر إلينا بأسنانها. إنَّها ترانا لأوَّل مرَّة في حياتها. البنت وأمَها التي كانت زوجة رجلها. ثمَّ بعد أن تأمَّلتنا بما فيه الكفاية، خَطَتْ خارج البيت وأغلقت الباب خلفها ولوت يمينًا. وتابعنا سيرها حتَّى اختفت في الضباب... وبقينا ننتظر، ونظنّ أنَّ شيئًا ما يحدث داخل البيت، وخارجه. قد نكون جئنا في وقت غير مناسب. وقد تكون المرأة ذهبت لتجلب المال الذي لم يصرفه على ابنته مدَّةَ غيابه. وأسئلة أخرى.

عادت المرأة وطرقتِ الباب والتفتت إلى جهتنا. لم نتبادل كلمة عندما خرجت، ولم نتبادل كلمة وهي تقف أمامنا كأنَّما لتمنعنا من دخول بيتها، وأنا أدقِّق النَّظر إلى وجهها لأرى ما يُخفيه قلبها. وبقي وجهها مغلقًا. طرقتْ باب بيتها ثانية. نافذة الصبر هذه المرَّة. وفُتح الباب وأطلّ علينا الرجل. نعم، الرجل نفسه الذي لم أرَ وجهه منذ اليوم الذي قال فيه إنَّه ذاهب للعمل في ميناء إيفني. أطلَّ أخيرًا. بطنه بارز تحت القميص الأسود. لم يكن بطنه بهذا الحجم عندما كان يسكن معنا. تغضَّن وجهه وازداد سُمرةً. علا وجهَه صدأ الأيَّام. وهذا لا يفلت منه الرجل، سواء بقي أو رحل. عزاؤنا الوحيد. البنت خلفي مطأطئة الرأس. عندما التفتُّ، لم أرَ وجهها بسبب الشعر الذي يغطِّيه. ولا أعرف هل هي فرحانة لأنَّها عثرت على ملامح والدها؟ وماذا سيحدث الآن؟ هل سيسأل عن صحتِّي وصحة ابنته ويدعونا إلى الغداء؛ وليمة استثنائيَّة. وهل سيسأل عن الشمل الذي التأم أخيرًا؟ لا، إنَّه يسأل عن سبب وقوفي أمام بيته، كواحد لا يعرف أنَّ له ذرَّيَّة عليه أن يُنفق عليها. لا يعرف أنَّني جئت من أجل النفقة، مثلًا. على الأقلّ، بدا مستغربًا، وخرج من فمه صوتٌ يشبه اللَّهب الذي يخرج من فم الفرن. ثمَّ بدأ، شيئًا فشيئًا، يتبدَّل. برزت عروق جبهته وهو يقفز خارج البيت، وانتفخت أوداجه وجمع قبضتيه حتَّى سمعتُ قرقعة سلاميَّاته ثمَّ

اندفع جهتي وبدأ يصرخ... ليست المرّة الأولى التي أقتحم بيته وأسلبه رزق أطفاله. ظلّ دائمًا يرسل المال الذي يستطيع إرساله، وأنا أهزّ رأسي مستنكرة بعد كلّ كلمة يتفوّه بها. ويقول إنّني أكلت كلّ المال الذي يعطيه لطفلته مرّة في الشهر، والمرأة تحملق فينا بوجهها الذي يشبه وجه حصان. ولم أستطع معرفة ما يدور في رأسها لأنّها قفزت إلى داخل بيتها كالهاربة. رغوة صفراء ظلّت تتكوّم على جانبي شفتيه وهو يصرخ، كالرّغوة التي تظهر على فم الجَمَل وهو يرغي. عاد ألم الركبتين أكثرَ حدّة من السّابق. انحنيت أمسّدهما من جديد لأنّ الألم أصبح غير محتمل. هذه حياة تعيسة، مع هذه الذرّيّة الملعونة... التفكير في هذه الأمور يجعل ماء العروق يجفّ، بالألم أو من دونه. التساؤل عن هذا وذاك، والتفكير فيها طوال الوقت، قد يكونان نافعين أحيانًا، وقد يكونان مضرّين أحيانًا. وكلّ الأشياء الأخرى، وكلّ الكلام الذي تقوله وأنت عارف أنّه لا ينفع، وكلّ الأشياء الأخرى التي لا جدوى منها...

لم أرَ سيارة الشرطة وهي تقف قريبًا منّا بسبب الضباب. نزع الرجل، الذي كان فيما مضى رَجُلي، قميصه ونعليه ووقف هكذا عاريَ الصدر، حافيَ القدمين، من دون أن يتوقّف عن الصراخ. سيّارة وجنديان بالزيّ الرسميّ استدعتهما المرأة ذات الوجه الذي يشبه وجه حصان، واحتمت بجدران بيتها... وربّما تراقب ما يحدث من ثقب المفتاح. ولكنّني لا أستطيع التأكّد بسبب الضباب. شابان يذكّران بالجنديّ الذي أقلّنا في سيّارته من أگادير. فتح أحدهما الباب الخلفيّ للسيّارة من دون أن يلتفت إلينا، ومن دون أن يهتمّ بنا، ومن دون أن يعرف قضيتنا. إنّه مشغول فقط بموعد صلاة الجمعة الذي حان. الرجل الذي لم أرَ خلقته منذ اليوم الذي قال فيه إنّه ذاهب للعمل في منصّات النفط، والذي كان يستعدّ للصُراخ، لاذ بالصمت. بسبب سيّارة الشرطة، اختفى من على وجهه كلّ انفعال. كأنّما مجرّد ظهورها كان كافيًا ليغيّر رأيه. وفي السيّارة، سيّارة الشرطة، ظلّ على حاله، كالمظلوم. لم يرفع نظره جهتي كما تمنّيت. تسير السيّارة بطيئة بسبب الضباب، وهو ينظر أمامه كواحد لا تربطنا به صلة. وهي جالسة إلى جانبي وأشعر بجسدها النحيف يهتزّ. أدقّق في ملامح الرجل، مذهولةً، متسائلة: فيمَ يفكّر؟ إنّه يحدّق في الفراغ، ولا يرفّ له جفن. ألتفت إلى الجهة الأخرى، حيث الطريق تهرب خلفنا. وأرى الضباب الذي تخلّفه السيّارة في طريقها، ممزوجًا بالتراب الذي يرتفع. ويصير الضباب ذا لون بنيّ. وأتساءل: هل له القدرة الكافية لينظر إليّ الآن. وماذا سيحدث له إذا ما التقت عيناي عينيه... وماذا عن كلّ الانفعالات، وكلّ الأشياء التي تأتي

مع كلّ سؤال... هل أعرف مَن يكون الرجل الذي تحمّلت عَرَقَه ورائحة فمه وجثته الثقيلة عشر سنين، مثلًا، وهل ينفع التفكير في كلّ هذه الأشياء الآن... وكلّ الأشياء الأخرى، والتي لا جدوى منها؟

توقّفت السيّارة أخيرًا، وسمعت أبوابًا تُفتَح وأخرى تُغلَق. ولكنّ الضباب كثيف وسدّ كلّ منفذ. كما لو كنّا دخلنا ظلمة رماديّة، ولا نعرف هل دخلنا ساحة أم وقفنا أمام بناية. وحده صوت الرجل. لقد عاد إلى صراخه، وبشكل مخجل، لأنّني لم أعد أراه، هو أو غيره، ولا أعرف هل ارتدى قميصه أم لا، ولا أعرف هل يخاطبني أم يخاطب شخصًا آخر... هاذ لفرا ما كنعرفهاش... واللّه ما كنعرفها... يشبه كلامه خنجرًا حادًا يخترق أذني... يقول لي، أو لغيري، إنّه منذ كان يسكن في أگادير وأنا أتحرّش به. وقد هجر مدينته وأهله واغترب عند الأجانب بسببي. وحتّى هنا، في هذه المدينة البعيدة، فإنّني لا أترك له لحظة راحة. والآن، أقول إنّ له بنتًا معي... ويزيد: وأنا كما تعرفون عامل مستقيم. وهذه المرأة تسبّب لي ولعائلتي كثيرًا من الأذى. وأعصابه التي انهارت، والأطباء العديدون الذين زارهم، ومستشفى المجانين الذي أمضى فيه ستّة أشهر بسبب هذه الملعونة التي تقول إنّها امرأته... وكلّ الأشياء الأخرى التي تخرج من فمه. ولم أعد أتتبع مسارها ومنطقها لأنّني كنت هويت... لأنّني كنت مت... ولا أعرف كلّ الأشياء التي قد تكون حدثت في الأيّام التي جاءت فيما بعد والتي لم أعد موجودة فيها. كما لا أعرف ما الذي سيحلّ بابنتي. تركتها بين يدَي اللّه. ربّما تجد الهداية في النهاية، لأنّ اللّه وحده هو الذي سيعرف كيف يتعامل معها.

كتبت رسالة إلى الوالد، قبل سنوات، حتّى يبقى موجودًا، وحتّى لا يختفي نهائيًا. ونستطيع أن نقول حتّى في غيابه إنّه معنا. معه دائمًا خيشة عامرة بالسلع، عندما كان في بيتنا. الخطّ ليس خطّي، ولكنّ الكلام كلامي، لأنّني قلته كلمةً كلمة، لرجل يكتب الرّسائل في السوق. تقول الوالدة إنّ هذا الرجل لا نستطيع أن نعوّل عليه، قبل رحيله وبعده. يلبس بذلة مكويّة، ويمشّط شعره، ويتعطّر قبل أن يغادر البيت. وحين يعود يكون العطر قد تبخّر. سكبت على الورقة، قبل أن أكتب الرّسالة، قطراتٍ من عطره. وأقول في الرّسالة له: نسلّم عليك أنا ووالدتي. وهي لا تعرف أنّها تسلّم عليه. وأقول له أيضًا: نحن في صحّة جيدة. وتقول الوالدة هل تحتاج السوق إلى كلّ هذا العطر؟ ويكتب الرجل كلامًا آخر. وأنا أقول له إنّنا لا نزال في أگادير، والرجل يكتب كلامًا آخر. وأنا كنت أسأل دائمًا: وماذا في الخيشة يا والدي؟ هل فيها عصافيز؟ والرجل لا يكتب هذا

الكلام. يكتب: ابنتك تطلب منك أن تجلب لها خيشة عامرة بالثياب، وأنا أقول بالعصافير، قبل السّلام وبعد السّلام. وفي الختام، لا ينقصنا سوى النظر إلى وجهك العزيز. والرّسالة رجعت بعد شهرين، لأنّ العنوان غير معروف.

سائق الشاحنة الذي يسمُّونه الدابة

الخميس 26 يونيو 1958

يجلس نافع أمام المائدة يخطّ رسالة، بينما أقف عند الباب وأفتحه للمرَّة الثالثة. وأقول من الأحسن له أن يهرب الآن. سيكون بعد قليل الوقتُ قد فات، ثمَّ أغلقه. طالت هذه الوضعيَّة أكثر ممَّا يجب، راجيًا أن ننتهي من الأمر في أسرع وقت. سيُتمّ الشهر دورته وهو قابع في البيت، جاثم على صدري، بينما أطوف في الصحاري بخزانات المبيدات، وبرفقة ثلاثة رجال مسلَّحين، وحرارة تتعدَّى خمسين درجة. ماذا يفعل نافغ؟ يكتب الرَّسائل عن مهمَّة أنجزها بنجاح كي أسلّمها إلى هذا الشخص أو ذاك. وأنا أقول له إنَّهم مسرورون بالمهمَّة التي أنجزت. وأقول له: يطلبون منك أن تنتظر الأوامر. وأقول أشياء أخرى أنساها في الحين، لأنَّ فكري مشغول. تحوَّل نافع من شخص يوزِّع الرَّسائل إلى واحد يكتبها ويسلّمها إليَّ لتنتهي في المزبلة. وقد آن لهذا الوضع الهازئ أن ينتهي. لا أقول له شيئًا زائدًا. لا أدخل معه في التفاصيل. ولكنَّ الرجال الثلاثة لا يظهرون، لا في هذه الجهة ولا في الجهة الأخرى من الزنقة. وهناك امرأة تنتظر أن يفرغ البيت لتستقرّ فيه. هذا هو بيتها. تركتها مع بابا أكثر ممَّا يجب، ومع حكاياته المزعجة. هذا هو وقت استقرارها في بيتي. وقد قرَّرتْ أخيرًا أنَّ أملها في العثور على نافع ضئيل. وأنا أعرف أنَّها لن تعثر عليه، وأنَّ فترة حدادها قد اقتربت من نهايتها لأنَّني أراه جالسًا إلى مائدتي، يكتب رسائل لن يتسلَّمها أحد. وأطلُّ من النافذة وأرى أنَّهم سيظهرون بعد قليل واضعين حدًّا لكلّ هذا الهزء الذي طال، حتَّى يستعد البيت لاستقبالها. وأنا أقول: آن الأوان لتستقرّ في بيتها. وماذا يفعل نافع بينما أجوب الامتداداتِ القاحلةَ للرمل والتراب والحجر الذي يلمع تحت الضغط القاهر لحَرّ النهار؟ والطنين الخفيف المتواصل الذي لا مصدر له؟ طنين الصهد الطالع من الحجر أو من تحت التراب، متواصل وحادّ ويلمع هو الآخر. يأكل ويشرب وينام ويحلم ويكتب الرَّسائل، وأنا لا أسلّمها إلى أيّ شخص. هل أستأهل هذه الحياة؟ ولماذا أستمرّ في الجري معهم خلف جراد لا نراه؟ ولديَّ بيتي وعائلتي والمرأة التي ستقتسم الحياة معي إذا ما ترك لنا نافع المكان الوحيد الذي نستطيع أن نستقرّ فيه. إنَّها حاضرة في ذهني بقوَّة، بأملها الضئيل في العثور عليه. ظللت أتعقَّب خيالها في مرايا الطُّرُق التي عبرتُها. خمسة عشر يومًا أمضيناها معًا في البحث، نفكّر فيه معًا، في اللَّيل والنهار. وأنا أقول: ستتعب بلا شك. لا بدّ من أنَّها ستنتهي إلى الاقتناع بأنَّها لن تعثر عليه...

وأقول أشياء أخرى. وماذا يفعل نافع في هذه الأثناء؟ ينتظر أوامر لن تأتي. وعندما يفكّر في مغادرة البيت، أقول له أن يتريّث لأنَّ العسكر يطوّق المنطقة بأسلحته وجيشه وآليّاته، وإنَّ أصدقاءه يفتخرون به ويطلبون منه أن يبقى لابدًا حيث هو حتّى تهدأ الدنيا بعد الزوبعة التي أحدثتها عمليّته الشجاعة. أرفع معنوياته. أدغدغ فيه الشعور بأهمّيّته. ويرفع الصوت عاليًا بالضحك لأنَّه يعتقد فعلًا أنَّه أصبح رجلًا مهمًّا... أنتقل إلى جهة النافذة وألقي نظرة متفحّصة على الزقاق، وأذهب إلى جهة الباب وأفتحه للمرّة الرابعة. وأقول من الأحسن له أن يهرب الآن. سيكون بعد قليل الوقتُ قد فات، ثمَّ أغلقه.

لم أكفّ عن التنقُّل وأخذها من مكان إلى مكان، حتّى تنسى. أخذتها قبل يومين إلى تيزنيت، ووقفت أنتظرها... ثمَّ ها أنا أراها، بعد جولة في السوق، عائدةً بخيبة الأمل نفسها التي تصوَّرتها. تقف أمامي ولا تقول شيئًا، منتظرةً، وعلى وجهها صرامة المرأة الناضجة. لن آخذها إلى أيّ مكان. انتهت الأمكنة. ستفهم هذا من تلقاء نفسها. امرأة ناضجة واثقة بأمرها وتعرف مسبقًا ضعفي. نعم، ضعفي الذي رأته على وجهي منذ اليوم الأوّل، وتلعب به كما تشاء. إنَّها وقعت على الرجل المناسب لنزواتها، والذي لن يرفض لها طلبًا. آمين. ويملك شاحنة. ما زال من الممكن أن آخذها حيث تشاء: أگادير أو مراكش، أو أيّ جهنَّم أخرى بعيدة عن وجهة لن تؤدّي في كلّ الأحوال إلى الرجل الذي تبحث عنه... ما زال من الممكن الالتفات نحو طريق أخرى. ظلّت كلّ الاحتمالات ممكنة حتّى اللّحظة التي سمعتني فيها أقترح عليها العودة إلى آسا. ولا سبيل إلى التراجع، كما لو أنَّ الأمر محسوم مسبقًا، قبل وجودنا أنا وهي. كان من الممكن الامتناع من الكلام أيضًا، أو قول هذا بدلًا من هذا. كلّ الأشياء التي تخرج من الفم يكون أوان التراجع عنها قد فات... أمَّا هي، فاكتفت بأن تهزّ كتفيها، كواحدة لم تعد واثقة بنفسها، أو كأنَّما لا تهمّها لا آسا ولا الطريقُ التي تقود إليها، كيفما تكن، ولو مجرَّد كومة أحجار متراصّة، بعضها إلى جانب بعض، على طول عشرات الكيلومترات كهذه الطريق التي نعبرها الآن. ما دامت الطرق مفتوحة أمامها، وواعدة، فإنَّها تظلّ متيقّظة، ترفرف حولي وتجعل قلبي يخفق بكلّ الآمال الممكنة وغير الممكنة. أفكّر فيها في اللّيل والنهار على الرّغم من أنَّ علاقاتنا لم تتقدَّم خطوة واحدة في الاتّجاه الذي أرغب فيه. ظلّت الأمور، كما هي. التفكير فيها يتّخذ أوجهًا متعدّدة، ويبقى هو هو.

هذا البيت اشتريته في الأصل لامرأتي الثانية، وليس ليستقرّ فيه

نافع إلى ما شاء. كأنّما ليست لي حياتي الخاصّة. إنّه لم يعتبرني أبدًا، أو لنقل يعتبرني شخصًا بلا حياة تخصّه، وبلا طموح وآمال، كهذا الديك الذي يلتقط الحَب، بلا مستقبل؛ أو بمستقبل يشابه مستقبل الديك. لن يذهب أبعد من القدر الذي سيحتويه في نهاية المشوار. هذا بيتي أوّلًا. غرفتان ومطبخ ومرحاض بلا نافذة، ولكنّه بيت لائق من جميع النواحي. واشتريت له الأثاث الضروريّ لتبقى امرأتي على خاطرها هي وأمّها وكلّ قبيلتها... النحس الذي يلاحقني ظلّ هو هو. ثمّ اشتريت لها دولابًا في وسطه مرآة كبيرة، حتّى تبقى على خاطرها. واشتريت لأمّها أشياء أخرى. قلت ربّما إنّني لا أهتمّ بهما بما يكفي. واظبت في الأيّام التي تلت على شراء بعض الأشياء كلّما مررت بشاحنتي في هذه السوق أو تلك: عطر، عقيق، سواك، ملابس داخليّة... إلخ. ثمّ انتبهت إلى أنّها لا تحب الهدايا التي أحملها. تنثرها أمامها على المائدة، وتجلس هي ووالدتها تتفرّجان عليها. انتشرت خلال هذه الأيّام في البيت روائحُ جديدة. فاسوخ وحرمل، وما يشبه رائحة الخرق المحترقة؛ روائح تقطع النَّفَس بمجرّد أن تطلّ على الباب. ماذا تفعل المرأة وأمّها في بيتي؟ ماذا تفعلان بي؟

أطلُّ من النافذة ولا أرى أحدًا. نعم، هناك هؤلاء الرجال المسلّحون الذين يمنحون مكافأة عشرين ريالًا في مقابل الانخراط في صفوفهم. والذي يستولي على المكافأة يضعها في جيبه ثمّ يختفي... لا يوجد منحوس واحد يمكن أن تضع يدك عليه وأنت متأكّد من أنّه لن يهرب بعد تسلم المكافأتين. لماذا لا يأخذون معهم نافع من دون مقابل؟ هذا على الأقلّ لن يختفي، قلت لهم. لأنّه مجرم وستأخذونه بالسلاسل باليدين فوق هذا، في مقابل العشرين ريالًا التي ستنفعني في المستقبل. بدلًا من أن أجوب الصحاري بالمجان، لماذا أجوب القفار بخزانات المبيدات، وعندي في البيت واحد لا ينتظر سوى مَن يقبض عليه؟ لن أطلب مكافأتين كالآخرين. مكافأة واحدة كافية. وحتّى إذا تسلّمتها فمن أجلها؛ من أجل مستقبلنا. ثمّ إنّ الكلام عندما يخرج من الفم، فإنّه لا يعود. وهذا ما قلته للرجال الثلاثة. أنا رجل كلمة. هل تريدون شابًا في مقابل العشرين ريالًا التي تقترحونها؟ لأنّه ليس شابًا عاديًا. نعم، شابٌّ يساوي ضعف الثمن لأنّه بغير حاجة إلى تدريب على السلاح، أو شيء من هذا القبيل. ثمّ أذهب حتّى الباب وأفتحه. وعندما لا أرى أحدًا يساورني الشك. إنّني أفتحه للمرّة الخامسة. أعود أتفرّج عليه وهو يكتب رسالته، وأقول له في خاطري: ولماذا لا تذهب إلى الفندق بدلًا من الاستيلاء على منازل الغير؟ إنّما أفضّل أن تظلّ أفكاري في رأسي، حتّى لا أدخل في الخطأ والصواب. فيمَ

ستنفعه الكتابة؟ فات الأوان. كلّ شيء زائد الآن، حتّى الأكل. جلبت له، كما في الأيّام السّابقة، طماطمَ وخبزًا وليمونًا، وأنا أتساءل: فيمَ سينفعه كلّ هذا الآن؟ منذ وضعت الطعام على المائدة، وأنا أراقبه يقرأ رسالته العاشرة. قبل ساعة؛ قبل أن أفتح الباب للمرّة الخامسة؛ عندما انتهى من كتابة الرّسالة طواها وأعطاني إيّاها: رسالته الأخيرة.

قلت لها أيضًا، بالحماسة نفسها، إن كانت ترغب في الذهاب إلى مكان آخر، قريب أو بعيد، إلى السماء أو تحت الأرض، غير الذي تعتقد أن نافع يوجد فيه؟ وقلت ليس من حقّ أيّ كان أن يقف ضدّ رغبتها. ليس من حقّ أيّ شخص أن يقوم بعكس ما تطمح إليه. من حقّها أن تبحث عنه، ومن حقّها أن تعثر عليه. ولهذا، قلت لها، هذا الصباح فقط، قبل مغادرة البيت، انتظرت طويلًا قبل أن أقول: نمشيو لآسا...

مشينا ليها...

نمشيو مرّة أخرى. يقدر يكون جا.

إنّني أقوم بكلّ ما يلزم لتبقى راضية، مطمئنة وراضية. التفتُّ إليها معتقدًا أنّها قد تكون ابتسمت، وغيرَ متأكّد من الأمر بشكل حاسم. وأترك أمامها باب الأمل مفتوحًا ريثما تيأس نهائيًا.

أذهب إلى النافذة وأفتحها. أتفرّج على الجبال الغارقة في ضباب الحرارة التي تتراقص في البعيد. ويتقدّم الآن وسط الضباب ثلاثةُ ظلال لثلاثة رجال، تقتفي أثرهم ظلالُ رشاشاتهم، ولا ضرورة لتبيُّن أشكالهم، ولا ضرورة لمعرفة نيّاتهم. الذي أفكّر فيه لا أقوله له أو لأيّ كان. أضع الرّسالة في جيبي بطريقة يرى أنّني أضعها فعلًا في جيبي، وأفكّر في الذهاب لفتح الباب، وأتذكّر أنّني تركته مفتوحًا، وأعود وأنا أقول إنّ من الأفضل أن أجلس قليلًا حتّى يهدأ الدم الذي يغلي في عروقي، بدلًا من أن أظلّ واقفًا، من دون أن أنظر إليه. لا أحبّ أن تلتقي عيناي عينيه، وحتّى لا أفكّر فيه، وأنا عند الباب. إذا تخطّيت الباب فسيتعذّر الرجوع إلى الوراء. سيكون أوان إصلاح أيّ شيء قد فات. ولماذا لا يدرك من تلقاء نفسه أنّ عليه أن يقفز من النافذة لينجو؟ اقتربت من الباب، إذن، بشكل عاديّ جدًّا وخرجت، بينما الآخرون، الرجال الثلاثة، يتقدّمون، ولم يعودوا ظلالًا. عادت كلّ الألوان لتستقرّ على الجلابيّات المخطّطة والقبّعات الصوفيّة والرشاشات المعدنيّة. أخذت الاتّجاه المعاكس وقد طلعت إلى عينيّ الدّموعُ وأنا أقول: ستتعب من دون شكّ. لا بدّ من أنّها ستنتهي إلى الاقتناع بأنّها لن تعثر عليه... وأشياء أخرى، وما يشبه سائلًا مرًّا استقرّ في حلقي...

ما أجمل أن يكون كلّ شيء على ما يرام، كما في حلم سعيد. ما أجمل أن يرى ابن آدم حلمًا يتحكّم فيه... وأن ينتهي النهار من دون أن تخطّط له، كما في أيّ حلم...

مساعد ضابط الاستعلامات
الذي يسمّى إدريس الثاني

الأربعاء 2 يوليو 1958

صدري كالقِدر يغلي فيه الغيظ. الغيظ والسخط. قرّر إدريس التوقُّف عن البحث. أصبح يفكّر كعامل مُضرب عن العمل، أو كجنديّ هارب من الخدمة. والسّبب ليس لأنّنا لم نتوصّل إلى مكان اختفاء الزنجي ولن نعثر عليه، كما يدّعي، وإنّما لأنّ جيجي سطت على عقله، وأصبح يذهب حتّى أگادير للبحث عن بيت يستقرّان فيه. يقول، من دون خجل، إنّنا أمضينا الشهر في گلميم مع أنّه أمضى نصفه تقريبًا في أگادير، يجري وراء بيت بالمواصفات التي تلائم ذوق جيجي... هذه القحبة أصبحت فجأة بورجوازيّة. القلب محتدم، والغضب مستعر يفتّت الأعصاب. أستيقظ طريًا على الرّغم من ذلك، معوّلًا على إتمام ما بدأناه رغمًا عن إدريس وقحبته. أليس من الأجدر، مثلًا، عند النقطة التي وصلنا إليها، أن نمسك بواحد من العائلة رهينةً؟ ومضت في ذهني الفكرةُ بشكل مباغت. كان عليه أن يفكّر في الأمر، كما أفكّر الآن. كيف تغيب عنه هذه الفكرة الصائبة إلى أبعد حدّ؟ ولأوّل مرّة، تبدو مهمّتي يسيرةً من دون إدريس الأوّل، من دون الوزن الممضّ الذي يشكّله وجوده إلى جانبي. متيقّن من أنّني لن أعود خائبًا. اليوم هو يوم حظّي. ستحدث أشياء مهمّة في هذا النهار. سترى. نضوتُ عنّي ثوبَ بائع الثلج، وارتديت بدلة عصريّة بالقميص الأبيض وربطة عنق حمراء، وكلّ الترسانة التي تجعل الإنسان محترمًا ومهيبًا. ظللت متفائلًا خلال كلّ المدّة التي استغرقها انتقالنا إلى بيت بابا خارج گلميم أنا وصاحب العربة، إلى درجة أنّني، من شدّة الانفعال والاستثارة، لم أنتبه إلى أنّني أردّد: هذه هي الفكرة... هذه هي الفكرة... وأنا أضرب برجليّ الأرضيّة الخشبيّة، حتّى اللّحظة التي وضع فيها صاحب العربة يدَه على ركبتي طالبًا منّي أن أهدأ لأنّ حركتي تؤثّر في معنويات البغل المنهارة أصلًا لأنّه لا يأكل منذ يومين غيرَ الأعواد اليابسة. هذه هي الفكرة الصائبة. رهينة واحدة تكفي. سينتهي الحرطاني بالظهور، من دون شكّ. الإنسان مخلوق على هذه الصورة. لا يهتمّ، لا بحيّه ولا بمدينته ولا ببلاده. كلّ هذا لا يعني له شيئًا. لا تتحرّك أوتاره الحساسة إلّا عندما يتعلّق الأمر بذويه.

تركته يشخر، تماشيًا مع فكرة العثور على الرهينة المناسبة من دون مساعدة إدريس، ولم أكلّف نفسي حتّى عناء إخباره بقراري الجديد. إدريس الأوّل عندما يبدأ شخيره تهتزّ أركان الغرفة كما لو أنّها تؤوي

مطحنة قديمة. أوّلًا لأنّه سكّير، وثانيًا لأنّه ينام منشورًا على ظهره كالميّت. فمه مشرّع، والجدران ترجع صدى شخيره المدوّي. في وضعيّته المخزية، وأمام تخاذله، أتأمّله وأتمنّى أن أضع يدي على صرصار سمين وأرميه في فمه المشرّع. وثالثًا لأنّه عارٍ. يساعد العري على إطلاق كلّ الأصوات القبيحة التي يختزنها الجسد لأنّه يكون على هيئته الأصليّة، الطبيعيّة. فتحت النافذة حتّى أخلّص الغرفة من الروائح المزعجة التي يُفرزها جسمه، ورأيت أنّ الشمس بزغت ويسطع ضياؤها. إنّها تضرب بقوّة جدرانَ البيت المقابل. بطنه مكوّر كالقبّة، ويلبس جوربين أحمرين وشليب. هذه القطعة كانت بيضاء، وهي الان مبرقعة ببقع من المني، عريضة وسوداء ومقرفة. ورابغا الحماسة التي اعترتنا بعد نجاح عمليّة خصاء كلب جيجي، جعلتنا ننسى خلافاتنا لبعض الوقت لنركّز في الأساسي... لا بدّ من أنّ هناك على الأقل فردًا واحدًا من هذه العائلة المنحوسة يعرف أين يختفي موزّع الرّسائل. ولا بدّ من أنّه سيظهر إذا وضعنا اليد على هذه الرهينة المناسبة. هذا هو الأساسيّ في فكرتي. هذا الفاسق لم يعد يهتمّ. يكتفي بأن يسهر حتّى آخر اللّيل عند جيجي. لقد أنهى دورة استهتاره، وها هو يتخلّى عن العمل ويبحث عن بيت ليستقرّ معها، مع أنّه لا يعرف حتّى اسمها الحقيقي. جيجي؟ هل هذا اسم امرأة تنوي الاستقرار؟ وأين؟ في أگادير. بيت خشبيّ على شاطئ أگادير كما تشترط هذه القحبة. تعتقد أنّها في السويد. نسي أولاده وعملَه، ولم تعد تسكن رأسَه المشوّش سوى هذه المرأة. يمضي اللّيل جالسًا أمام الكونتوار يمضّ أصابعها. وعندما لا يمضّ الأصابع المتورّمة من كثرة الفرك، فإنّه يربّت على ظهر الكلب الذي أصبح يمضي معظم وقته نائمًا على الزليج البارد كاليائس من الجنس البشريّ. وأذناه مطويّتان، أو كالمخذول، أو كأنّما لا تزال مؤخرته تشويه. لم يعد العمل يشغله. نسيه. نسي الحقيقة. والحقيقة هي أنّنا مقيّدان بهذا العبد المنحوس. أصبحنا عبيدًا مثله، ما دمنا مقيّدين به... يستيقظ إدريس الأوّل بعد الظهر ليمضي وقتًا طويلًا أمام المرآة يدقّق النّظر في خريطة جبهته، ينتف زغب حاجبيه، ثمّ الشّعر الذي يطلّ من أنفه وأذنيه. وينظّف وجهه وساعديه ويحلق شعر ساقيه ويدهنهما بمراهم لا أدري من أين يحصل عليها. ربّما إنّ تلك القحبة هي التي تمدّه بها. ثمّ يرض على المائدة القمصان، ويحار في اختيار القميص الذي سيروق لجيجي هذه اللّيلة. وقد أمضى في أگادير الأسبوعين الأخيرين ولم يعثر على بيت يلائم نزواتها البحريّة وذوقها البورجوازي، ولكنّه عاد بستة قمصان وثلاثة أحذية، من دون أن يفكّر في اقتناء شليب واحد على الأقلّ يعوّض به تلك الخرقة

القذرة. أمَّا جيجي، فقد اقتنى لها فساتين خفيفة وكثيرًا من العطور وجواربَ من النايلون، ومنامةً من الحرير الناعم الملمس يتمنَّى أن يراها على جسدها عندما يستقرَّان مساءً أمام البحر، على الشرفة الخشبيَّة، لأنَّه أصبح بورجوازيًّا مثلها؛ بورجوازيًّا لا يغيِّر قطعة الثوب المبرقعة التي يلبسها تحت السروال. وأصبح يرى أنَّ قوامها رشيق مع أنَّها مكوَّرة كفرس النهر، ولها ركبتان كركبتَيِ الجَمَل، وستبقيان كذلك، سواء في فستانها القصير أو في منامتها الحريريَّة، وسواء كانت وراء الكونتوار أو على الشرفة أمام البحر. ثمَّ إنَّه يقول لها أشعارًا حفظها عندما كان صغيرًا، كأيّ طفل، مع أنَّه في السادسة والعشرين، ولديه ولدان، وامرأةٌ يقول، إنَّه يحترمها. هذا الفاسق لم يحترم شيئًا. لم يحترم في حياته أحدًا. ويقول عندما نكون واقفين أمامها عند الكونتوار، إنَّ أحسن ما يمكن أن يحدث لأيّ ابن آدم، أيًّا يكن وضعه، هو أن يحيا على شاطئ البحر. يطلق في وجوهنا حكمته الأخيرة، كما لو أنَّه وضع يده على مفتاح سعادته الآتية. كيف يصوِّر له عقله المهزوز أنَّ هذه القحبة جميلة ورشيقة وذكيَّة وتعشق البحر؟ كيف يقبل ابن آدم بأن يضع على عينيه غشاء حتَّى لا ينظر إلى الهوَّة أمامه؟ ما هذه الحكاية؟ حتَّى صحَّته تدهورت. ازرقَّتْ بشرته وانكمشت عيناه من كثرة الشراب. لا بدّ من أنَّها وضعت في شرابه قلامات أظافرها، أو خلطته ببعر الفئران، أو ناولته حلوًى معجونة بزريعة الكيف أو مخّ الضبع. كيف يحدث أن يفضِّل الإنسان العمى على أن يرى أنَّها غليظة وتذهب مع صيّادي الخنازير إلى الغابة، وتنام معهم في الخلاء كالبهيمة، ولا تهتمّ به ولا تفكِّر فيه بقدر ما تفكِّر في حافظة نقوده؟ وخامسًا، إنَّ أوان عودته إلى صواب لم يكن يملكه في يوم من الأيَّام، قد فاتَ. يقفز بين الفينة والفينة إلى النافذة ليرى إن كانت جيجي قادمة مع أنَّها لم تطأ بيتنا من قبل، اللَّهمَّ إلَّا إذا كان قد أمدَها خلسةً بالعنوان، مستخفًّا بكلّ التعليمات وبكلّ الاحتياطات التي اتَّخذناها إلى حدّ الساعة. هذه هي نهايته: قبره الذي حفره بيديه. وبالنسبة إليّ، فإنَّها المناسبة. حان الوقت لأعمل من دونه إن أنا أردت أن أقفز من مساعد إلى ضابط استعلامات، أو ضابط استعلامات ممتاز بالراتب والمكانة والأشياء الأخرى؛ أو على الأقلّ أن أمسك بزمام المبادرة حتَّى لا نعود خائبين. ظللتُ دائمًا مقتنعًا بأنَّني لن أتقدَّم خطوة واحدة ما دمت أجرّ ورائي رجلًا مستهترًا كإدريس. كنت سأحرز من دونه تقدُّمًا حاسمًا. ما أتمنَّاه الآن هو أن يستمرّ في دوخته، ويكتري بيتًا لجيجي ويستقرّ معها في أگادير. هل سينفعه هذا في شيء؟ هل سيشفيه من الاحتلام وتلطيخ الشليب بالمني؟ عندما سيفيق، بعد

أيّام، بعد أسبوع على أكثر تقدير، سأكون انتهيت من قصّة العبد الناقص في اللّائحة بشكل نهائيّ، بأيّ وسيلة. لا تنقصني الوسائل. كلّ الأسلحة واردة في هذا النوع من العمل. لم أعد متعجّلًا ولا متوتّرًا أو مغتاظًا، بعد أن أصبحت أتّخذ القرارات بنفسي. وسأقوم بجولة أزور فيها أفراد العائلة وأختار الرهينة الملائمة، بلا عجلة. لن أتّخذ الآن أيّ قرار. لديّ ما يكفي من الوقت. أزورهم كواحد يزور أفراد عائلة عزيزة. وبعد أسبوع، بعد أسبوعين على أكثر تقدير، سأكون جمعت حقائبي وعدت إلى بيتي.

وجدته معلّقًا على السلّم، ينصب عريشة أمام الباب. عليه قميص أحمر فوقه جلباب من الصوف أخضرُ باهت اللّون. ظهورنا أنا وصاحب العربة لم يُثره إطلاقًا. لم يتعرّف إليّ، لأنّي ذهبت في زيارتي السّابقة بصحبة إدريس متنكّرًا في زيّ تاجر زرابي، إلى جانبه سلّمْ ثان وبرميل جير والعديد من أدوات البناء. حتّى يتذكّرني، سألته هل يهيّئ البيت لولده الذي يشتغل في القصر الملكّي. لم يتذكّر أنّ له ولدًا، كأنّني لم أخبره من قبل. لم أرَ السعادة التي رقصت في دمه ورشحت من كلّ جزء من جسده عند زيارتنا الأولى، ثمّ وأنا أشير إلى خلفيّة العربة... المؤونة الشهريّة التي وعدك بها الطفلُ الذي التحق بالقصر الملكيّ... ها هي... كلّ ما تحمله العربة من مؤن: خيشة الدقيق وصفائح الزيت وقوالب السكر وعلب الشاي... لا يبدو أنّه مدرك ما أقول... ولم ألحّ أكثر. لم يعد هذا أمرًا مهمًّا. قلت له أن يعتبرني منذ الآن كأحد أبنائه، وأنا أمدّ إليه القصب الذي سينشر ظلّه أمام الباب. وبينما هو يشدّه إلى دعائم الخشب، عرضت عليه مساعدته اليوم وغدًا، وفي كلّ الأيّام التي سيحتاج فيها إلى مساعدتي. أسندت السلّم الثاني إلى الجانب الآخر من العريشة، وصعدت وساعدته على تثبيت القصب حتّى لا تطير به الرياح. وكما يفعل كلّ ضابط استعلامات محترم، مجدّ في نصب المكائد الضروريّة لإنجاح مهمّته، عدت إلى المحاباة... وأنا أعقد القصب بخيوط من الدوم، قلت له إنّ عملي هو ترميم البيوت. وسألته لماذا لا يستعين بأولاده إن كان له أولاد. أولاده جميعهم مشغولون والحمد للّه. اللّه في واسع سخائه أعطاه ذريّة صالحة. الكبير يملك شاحنة ينقل فيها البضائع والبشر. اسمه بناصر... تبارك اللّه... ونافع؟ إنّه أصغر سنًّا. وهو يشتغل في البريد. موظّف، وهو في السّابعة والعشرين يجوب البلاد وينزل في الفنادق كأيّ شخصيّة مهمّة... وتمطّت شفتاه واتّسعت عيناه عندما قال إنّه يعدّ البيت لزواجه. نعم، عنده خطيبة الآن، وبيضاء. واللّه العظيم، بيضاء أكثر ممّا كنت أحلم به. بيضاء أكثر ممّا نستحقّ. ثمّ نزل من سلّمه ودخلنا البيت، وتنقّلنا بين كلّ الغرف والطوابق

وهو يتكلّم على العرس الكبير. وأنا منذ الآن مدعوّ إلى العرس في الشهر القادم. إن شاء الله، سيكون عرسًا كبيرًا... إن شاء الله... ثمّ، وأنا أودّعه عند باب البيت، كان بابا لا يزال يشرح كيف أنّه بنى هذا البيت حجرًا حجرًا...

وانتقلت من هناك إلى بيتهم الأوّل في حيّ اليهود.

تنشر البنات الغسيل تحت الشمس. ثلاث طفلات ينشرن الغسيل على شجيرات السدر خلف البيت. وأنا واقف تحت شجرة يابسة أتفرّج عليهن وأجتزّ صور إدريس الأوّل البئيسة، ساخطًا ومكفهرّ المزاج. لا تغادر ذهني جثثه المرمية كالخيشة، ملفوفة في روائحها الكريهة واكتفائها البئيس. ثلاث طفلات سوداوات ذميمات ينشرن الغسيل على شجيرات السدر، كما لو أنّهن يلعبن. أرى أنّ الشمس الحارقة لا تؤذيهنّ. كبراهن لا تتعدّى العاشرة. بعد أن انتهين من نشر الغسيل، أخذن يتراشقن بنبق السدر الذي قطفنه قبل نشر الغسيل. يتدحرج ضحكهن حول الشجيرات كارتجاج حبّات عقد من الحصى. ضحك أبيض كأسنانهنّ. عندما انتبهن إلى أن أيديهن فرغت، قطفن حبّات أخرى وأكلنها، ثمّ بصقنها لأنّها حامضة. ثمّ قالت الكبرى أن يقطفن الحبّات الناضجة. وكيف يعرفنها؟ النبق الناضج يكون بنيًّا. كلّما مالَ نحو اللّون البني حلا. استمرّ الطعم الحامض يرسم على وجوههنّ تكشيرات قبيحة طوال المدة التي استمررن فيها يحلمن بحلاوة النبق الناضج، ثمّ نشرن سيقانهن النحيفة تحت ظلّ شجيرات السدر وجلسن يمشطن شعر بعضهن البعض المتجعّد والمنفوش، والذي يشبه أعشاشًا من الصوف الأسود. وصوت المشط كصوت المنفاش ذي الأسنان السلكيّة الذي كانت جدّتي تمشّط به الصوف. صوت خشن؛ صوت قبيح. وقفتُ قبالة بيتهنّ، تحت الشجرة اليابسة لأنّ بيتهنّ فارغ، والباب مشرّع بحيث تستطيع أن تتجوّل فيه من دون أن يسأل عنك أحد. البيت عامر بالجراد. فوق الدولاب وداخله، وفوق السرير وتحته، وعلى الأواني، وفي قاع الجرار والخوابي. قلت: إذن، لا أحد في هذا البيت يصلح رهينة. هناك ثلاث بنات. ربّما فكّرت في كبراهن... إنّما فيما بعد... تركت البنت الأولى المشط معلّقًا في يد أختها وفرّت نحو البيت لأنّها لا ترغب في أن تصبح جميلة كما تعدها أختها. ولم يبق تحت الشجرة غير اثنتين. الكبرى اسمها عيشة، واستمرت ضاغطة بفخذيها على وركي البنت الصغيرة التي تمسك دمية بلا أطراف. ولأنّ الصغيرة اغرورقت عيناها بالدموع، ولا تستطيع أن تهرب كما فعلت أختها، فإنّها رمت الدمية وبدأت تلوي رأسها

وتبكي. تغرز أختها المشط في الشعر المتلبّد وتضغط، وهي تأمرها بأن تهدأ والصغيرة ترد عليها: انتي خايبة... ثمّ تقول: غادي نقولها لأمّي... وأنا أضحك لأنّ لعبهما الطفولي راق لي. وعيشة تضغط وتضغط على الشعر الأكرت... عيشة كتهضر مع الحجام... تقول الصغيرة. وعيشة تضغط وتضغط وتضغط كي يمرّ المشط بين الألياف المشدودة، بعضها إلى بعض، ولكنّ المشط لا يمرّ. توقّف في بداية الطريق كما لو أنّ له عجلات غاصت في الوحل... غادي نقولها لأمّي... غادي نقول ليها عيشة كتاخذ لفلوس من عند الحجام... تتجمّد يد عيشة فوق المشط... انهزمت. توقّفت، وتراجعت مستسلمة للتهديد، وانسحبت أخيرًا، مخذولةً، تاركةً المشطَ عالقًا في الشعر الأكرت. اغتنمت الطفلة الصغيرة لحظة الخذلان ففرّت بدورها، يتوّج شعرَها المنفوش مشطٌ بلاستيكي مدوّر أخضر. واختفى الضحك واللّعب.

لم تهرب كما فعلت أختاها عندما أبصرتاني. منعها الرعب الذي استولى عليها من الحركة. هل هي الريح الصحراويّة التي لجمتها في مكانها؟ وقفتْ ولم تعد دميمة فحسب. حالة الرعب والقلق لوّنت وجهَها بقشرة رماديّة؛ لون البشرة السوداء عندما ينسحب عنها الدم. وراح منخراها المبعوجان ينتفخان، وصدرها يعلو ويهبط، كأنّما راج في فكرها أنّني سأعاقبها على ضحكها وضحك أخواتها، أو على حبّات النبق التي قطفنها، أو بسبب الريح غير المتوقّعة التي هبّت ومعها كلّ هذا الرمل. توقّفتُ بدوري لأنّني رأيت أنّ ساقيها ترتعدان. خشيت أن تهرب قبل أن أسألها عن خالها سائق الشاحنة، أو أمّها أو جدّتها. خشيت أن تهرب حتّى قبل أن أتحرّك نحوها. ثمّ سمعت الطفلة خلفي تصيح ضاحكة هذه المرّة: عيشة خايبة... اشتدّت الرّيح جالبةً معها غيومًا كثيفة من الرّمل. اجتمعت الطفلات من جديد حول الغسيل؛ الطفلات الثلاث. ينزعنه من شوك السدر قبل أن تذهب به الرّيح أو يبتلعه الرمل، بالضحك نفسه، بالصياح ذاته وبالمرح نفسه المثير للنفور. وهي تمز أمامي، بسطت عيشة يدها لأرى حبّات النبق البنيّة الناضجة تلمع في كفّها الشديدة البياض. سألتها عن أهل البيت، فقالت إنّ أمّها وجدّتها ذهبتا إلى المقبرة.

لم تخلُ الطريق إلى المقبرة من متاعب. غزت الرمالُ الشوارعَ في ظرف وجيز. حملت ريح الصحراء الرمالَ فوق السطوح، وغطّت حوافي النوافذ، وكوّنت على عتبات الأبواب تلالًا صغيرة. تستقر الرمال في أذنَيّ وعينَيّ وأنفي. ولا تزال غيومها ترقص في الجوّ باحثةً عن ثنايا أخرى

تنسلّ إليها. على طول الطريق، صبّارٌ ونخيل وأشجار زيتون حجبت حوافيها رمالُ الصحاري. وجنازة تسير تحت الشمس التي بهتت من دون أن يختفي لهيبها. غيمات صغيرة لا تهدّد أحدًا. هكذا بدت في البداية. بقيتُ لمدّة أتفرّج على الغيمات الصغيرة، غير المجدية وهي تمرّ، كالهاربة، ذاهبة إلى حيث لا أحد، من دون أن يحظ غيثها على حجر أو نبات. لا يوجد نبات ينتظرها. ثمّ فجأة اشتدّت الرّيح. صارت الغيمات جدار رمل أصفر يرتفع بينما الشمس تشحب شيئًا فشيئًا، كأنّما ستنطفئ. الشمس شاحبة، كوهج شجي، وعابسةٌ، غطّاها غبار الرّمل. وهذا الغبار ينزل ويصعد ويدور مع ريح صارت هي الأخرى حمراء. كلّ شيء صار بلون الطين الذي تُبنى به البيوت. وحشد متواضع يشق طريقه إلى المقبرة بصعوبة. سبعة رجال متدثّرون بجلابيب بنيّة اختلط لونها بلون الرمل المتراقص في الفضاء الأحمر وعلى رؤوسهم نعش صغير. اضطرُّوا إلى التوقُّف ريثما تمرّ العاصفة، متكتّلين حول النعش؛ حول بعضهم البعض. انضممت إليهم حتّى لا تذهب بي الريحُ العاتية. إنّه الشرقي. الريح الشرقيّة ريح قبيحة، ولا تجلب معها غير ما هو قبيح. وقد تستمرّ تجلد جلدك أسبوعًا كاملًا، كأنّما فُتح باب جهنم وانطلق صهدها الساخن ينفث اللّهب. وما دام مفتوحًا، فإنّ اللّهب الذي يخلّفه سوط الرمل، وهو يجلد وجهك، تزيد حدته مع كلّ هجمة. يأخذ الجوّ في أثناء ذلك، شكلًا هلاميًا، ذائبًا، كالحمم، ويزداد غليانًا وكثافة مع ارتفاع جدار الرمل. وتختفي ملامح الأشياء، وحوافيها. يختفي الشجر، والجدار الذي كان منذ لحظات أمامك يندثر، يتلاشى، ابتلعته الحمم. وحين يستقرّ الرّمل في عينيك وأذنيك، حين يجرح حنجرتك، يأخذ الشواظ مكانه بين تضاريس كيانك...

وأخيرًا، عندما فتحت عينَيّ جاهدًا، كانت العاصفة قد هدأت بالفجاءة نفسها التي ظهرت بها. صَفَا الجوّ ورأينا هذا المشهد. وقف شيخٌ فوق التلّ المجاور يحمل فوق رأسه قطعةَ ثلج كبيرةً في حجم الصخرة، ويشير إلى السماء. رفعنا رؤوسنا ولم نرَ شيئًا حيث يشير. إذا كان يشير إلى الثقب الذي تركته قطعة الثلج عند سقوطها، فإنّنا لا نراه، لأنّ بياض السماء أصبح أملس. تكاد السماء بنفسها تختفي وسط هذا اللّون الباهت، غير الواقعي. استمررنا نحدّق فيما يشبه سماءً. الذين رأوا الثقب، وهم قليلون، سجدوا حتّى لمست جباهُهم الأرضَ. قال الشيخ إنّها من أجل طفلهم الذي مات من العطش. السماء، في أيّ وقت وفي أيّ موسم، حبلى بالماء من أجل المؤمنين. وهذا قَدَر منه. القَدَر الكافي من الماء الذي سيرويه في قبره ريثما يصعد إلى السّماء هذا الطفل الذي قتله العطش

على الأرض. وبكوا. إنَّه حيّ يُزرَق. بكوا وبكيت مثلهم. تذكَّرت الخيبة التي جنيتها بسبب تصرُّفات إدريس الأوَّل فذرفت دموعًا حارّة سالت فوق النعش الصغير. لأوَّل مرَّة أتذكَّر المجاعة والجرادَ الذي كنَّا فقط نسمع عنه والذي زحف على بعض الدواوير المجاورة. كلّ هذا يقع لنا وإدريس غائب؛ غير مهتمّ؛ غير موجود. وضع الشيخ قطعة الثلج فوق النعش وسرنا صاعدين في اتِّجاه المقبرة ونحن ننشد: مولانا نسعاوْ رضاك... على بابك واقفين...

في كلميم أربعُ مقابر. مقبرتان منها للعرب. تركتُ جنازة الطفل متوقِّفة عند باب واحدة منهما. لم يتوصل أصحاب الجنازة إلى طريقة عادلة لاقتسام قطعة الثلج تبرّكًا. هذا في البداية: عندما وضعوا النعش المبلّل أرضًا، وارتموا على قطعة الثلج من دون أن يفلحوا في الإمساك بها. قطعة الثلج، بدورها، راحت تنفلت من بين الأيادي وتهرب بين الأرجل، وتذوب. وتذوب كلّما ارتموا عليها. وتذوب كلّما ابتعدتْ عنهم. وعندما لم يبقَ منها غيرُ البلل الذي يقطر من بين أصابعهم، حملوا النعش ودخلوا المقبرة... وبعد المقبرة الخاصّة بالمسلمين مقبرةٌ لليهود. ومقبرة أخيرة، بعيدة عن هذه المقابر، معزولة، خارج المدينة، مقبرةُ العبيد. وهي مجرَّد حُفَر ترمى فيها هذه الشريحةُ المنبوذة، والتي جاءت من أدغال أفريقيا في الأغلال لحفر الآبار وإصلاح المجاري المعطَّلة وتسخين الماء في الأفران ليؤدي المسلمون مثلنا صلواتهم. والسَّبب؟ ليس هناك سبب. العبد ليس مسلمًا ولا نصرانيًّا. إنَّه عبد. والعبد لا ديانة له، كما أتصوَّر. جاء واحد في الأغلال وتحت لهيب السوط، ويحمل على رأسه أنياب الفيلة أو الحجر الثقيل. كيف سيفهم أن فوق رأسه إلهًا يرعاه ويتبع خطاه؟ لن يفهم هذا أبدًا لأنَّ اللّه، سبحانه وتعالى، في بالغ حكمته الواسعة، اختار لهم حياة العبوديَّة والمذلَّة كما اختار لنا حياة الحرِّيَّة والعزَّة... لا يمكن حتَّى الحديث هنا عن مقبرة حقيقية بقبور وشواهد وآيات من القرآن. والو. حفر نبشتها الكلاب، وامرأتان جالستان على التراب عند حافَّة واحدة منها. الثياب والبشرة والنظرة سوداء. لا تعرف أين يبدأ سوادُهما وأين ينتهي. وأنا أتساءل الآن: ماذا أفعل بالمرأتين؟ هذه زهيرة وهذه أمّها. وبعد؟ ما عدا المرأتين، المقبرة فارغة. ثمَّة فقط الصهد ورائحة تراب القبور التي تختلف عن رائحة التراب الذي أعرفه.

كفكفتْ زهيرة أمّ الطفلات الثلاث دموعها، عندما وقفتْ عند رأسها. وقالت معتذرة إنَّها تتبعها إلى المقبرة كلّ صباح حتَّى تعيدها إلى البيت.

أمًا والدتها، التي كانت تتمايل بجذعها فوق الحفرة، فقد اكتفت بأن تسأل ابنتها هل أنا ولدها بناصر. وعادت تتمايل وتطلّ على الحفرة... استقرَّت نهائيًا في المقبرة، ولم تعد ترغب في العودة إلى بيتها. وماذا تفعل طوال الوقت في مقبرة لا شيء فيها يدلّ على أنّها مقبرة؟ إنّها تتذكّر أعمامها وأخوالها. تستعيد سيرتهم. لقد ماتوا وجميعهم أصحّاء، تقول الوالدة. أعطاهم اللّه أعزَّ ما يتمنّى المرء: الصحة والعافية وراحة البال. ماتوا فقراء، ولكن معافين. الوالدة مكبّة على الحفرة، نصفها العلويّ يصعد ويهبط على إيقاع كلامها المتقطع... اللّه هو الذي يعطي ويأخذ. لم يقتلهم مرض أو وباء. اللّه لم يعطهم مالًا أو عزّة أو شرفًا، ولكن أعطاهم الصحّة. وهم مدفونون في كامل صحّتهم. المشكلة مع الوجوه السّوداء هي أنّك لا تراها حتّى تقترب منها. لا تستطيع أن تدرك أفراحها وأحزانها. لا تستطيع أن تدرك مآسيها حتّى تحدّق فيها الوقتَ الكافي. عندما انحنيت على الوجه، وجه زهيرة، ودقّقت فيه، رأيت عند ذاك فقط الدمارَ الذي لحق به. العينان عوّضت بياضُهما حمرةٌ قانية؛ حمرةُ الدم المتجمّد في داخلهما. وحولهما كدماتٌ وجروح لا تظهر زرقتُها. والشفاه الغليظة في الأصل تشبه الآن السفنج المغموس في القازّ. الوجه الذي أراه أمامي، لم تعد فيه ذرّة واحدة من المسحة الآدمية التي تكسو كلّ الوجوه التي على وجه الأرض. الغيظ والرغبة في الانتقام هما اللذان جعلاني أسألها عن رَجلها عبد الرحمن الذي أمضى سنوات زواجه في التنكيل بهذا الجسد. قلت لها إنّني مستعدّ لقتله؛ مستعدّ لجرّه من ساقه حتّى هنا، حتّى مقبرة العبيد ورميه في الحفرة نفسها التي أطلّ عليها الآن، ودفنِه حيًّا فوق عظام سلالته الملعونة. حانق فعلًا. والدم يغلي في عروقي. كلّ هذا لفظته أمامها من دون أن أشعر، في الأساس، عندما قالت إنّه باع إحدى بناته وصرف المبلغ على المشروب في الحانات، مع أنّه ظلّ ينكر ذلك، ويقول إنّه أعطاها لابن عمّه الذي لا أولاد له. كنت غاضبا فعلًا. وسألتها، بالغضب نفسه، عن رجلها: فين هو؟ متسائلًا في الآن نفسه عمّا إذا كان هذا المجرمُ العبدَ المناسب ليملأ النقص الحاصل في لائحة القصر الملكيّ، بدلًا من أن يكون رهينة. لأنّه، حتّى لو أخذته رهينة، فلا أحد سيسأل عنه. وسأكون في الآن نفسه قمت بعمل إنسانيّ، في سبيل اللّه.

وجدت إدريس جالسًا على السداري عندما عدت، ويمسك رأسه بكلتا يديه، كأنّما يخاف أن يسقط. وضعُه بئيس فعلًا. أوّل عمل سأقوم به هو الإقلاع عن الشراب، أو أن أقلّل منه. كأس واحدة في أثناء الغداء، وكأس في أثناء العشاء، بدلًا من الزجاجتين اليوميتين، وخصوصًا بالنسبة

إلى واحد مثلي ينتظره عملٌ لم يعد يحتمل أيّ تأجيل. وفكّرت في بعض الزملاء. صفت بشرتهم لأنّهم توقّفوا عن الشراب في الوقت المناسب. هل تحسّن مردودهم؟ لست أدري، ولكنّها فكرة ألحّت عليّ طوال النهار.

الأربعاء 12 نونبر 2012

هذا أيضًا لا يذكره. غاب إدريس الأوّل عن الوعي فعلًا عندما وصل الترام إلى محطة المستشفيات. ويعتقد أنّه فقط غفا لحظة، وأنّ هذا راجع إلى التعب وقلّة النوم، لأنّه أصبح في السنوات الأخيرة يستيقظ بجسد مرهَق وعضلات مشدودة وعقل زائغ، كأنّما بات يزحف على بطنه... ولكن إدريس الثاني يصرّ على أنّه أُغمي عليه... ويلتفت إلى نافع ليوافق على ما يقول. والصديق القديم، صاحب القلنسوة الباسكيّة لا يستسلم، محاولًا تبرير إغفاءته: ما نعستش البارخ مزيان...

حتّى أنا ما نعستش البارخ مزيان...

ما نعستش هادي أسبوع.

حتّى أنا...

لكن هذا ليس دليلًا على أنّه لم يغب عن وعيه، وفي الترام وأمام الناس. كانت هذه المشادّة تُضحكهما في السّابق. كلّ شيء كان يُضحكهما. أمّا الآن، فقد خرج الكلام من فمويهما من دون أن يدريا إن كان للتسلية أم للتشفّي. الآلام التي تعاقبت عليهما، قابلاها بنوع من الازدراء. الآن وهي مستمرّة على الوتيرة نفسها، الآن وقد أصبحت زادهما اليومي، فإنّهما يعتبران أنّ نوعًا من الظلم لحق بهما، وأنّ البلاد لا تستحقّهما، لا تستحقّ كلّ ما قدّما من أجلها من تضحيات. كانا يتباهيان معًا بشفاههم الشبقيّة، ويرسمانها على الورق، ويعلّقان صُورَها في غرف الفنادق التي نزلا فيها. لم يتصوّرا لحظة أنّ ابن آدم يأتي عليه وقت تنشف شفتاه، وتجفّ بشرة جلده وتنكمش، ويهجره النوم ليكون له الوقت الكافي ليفكّر في الشفتين كيف كانتا، وفي البشرة عندما كان لونها صافيًا... ويكون أمامه الوقت الكافي للتفكير في الأسوأ، كأن يُغمى عليه في الحافلة أو الترام؛ كأن يغمى عليه وهو سائر في الشارع العامّ أمام مارّة غير عابئين؛ كأن يعجز عن إطعام نفسه، ويأتي شخص لم يعد يذكر من يكون ليطلب منه أن يفتح فمه المزموم، لأنّه نسي لمَ يَصلُح الفم، المعوجّ قليلًا من كثرة الكلام الذي اندلق منه، حتّى تستطيع الملعقة أن تدخل؛ أو يتبوّل في ثيابه؛ أو يدخل في هذيان لا نهاية له. وإنّه، هو الذي أمضى سنوات يطير في رمشة عين حتّى گلميم، سيأتي وقت يحتاج فيه إلى نصف ساعة كي ينتقل من الغرفة إلى المرحاض، أو يصير في حاجة إلى من يجرّ كرسيّه حتّى

الفراش. وسينظر، بكثير من الخجل، إلى أطفال الجيران وهم يتقافزون ويتصايحون من حوله كالجراء، وبالكاد يستطيع أن يرفع ذراعه ليهش عليهم... وليواسي أحدهما الآخر، فإنّهما يستعيدان يوميًا المغامرة الفريدة التي دفعتهما حتّى بوابة الصحراء، قبل سنوات، قبل عقود، بحثًا عن عبد سقط من لائحة القصر الملكي. للمرّة الأولى والأخيرة، عاشا مغامرة فريدة لم يعشها أحد قبلهما، ولن يعيشها أحد بعدهما. فخوران بهذا أيضًا، يتذكّران باعتزاز، وبفرح كبير، مؤسّسة الخصاء في منفيوة، ومقبرة العبيد في گلميم، وفندقَ الحظّ السّعيد. وعشقَ جيجي وكلبها الذي تحفل العمليّة بإباء، وأقعى على الزليج البارد لأنّ مؤخرته ظلّت تشويه من دون أن يعثر على السبب. إنّهما يائسان الآن. إنّهما لا يساويان شيئًا بعد كلّ هذا المجهود. ويقولان إنّ البلاد لا تسير على ما يرام، وينتقدان الدولة وكلَّ مؤسّساتها، ويلعنان الأحزاب السياسيّة وزعماءها. ويقولان إنّها مع زعمائها السّببُ في الفساد الذي لحق بالبلاد، ويسخران لأنّهما وصلا إلى هذه النتيجة المخجلة، ويمسحان عيونهما لأنّ الضحك فجّر فيها دموعَ حنين ظلّت محبوسة. وفي خضم هذه المرارة التي ترشح من مكان منسيّ من كيانهما، ظلّ إدريس الأوّل مصرًّا على أنّه لم يُغمَ عليه. ولم يُعِز إدريس الثاني اهتمامًا لإصرار صديقه. واكتفى بأن خفض بصره نحو اليد الميّتة، واعتقد حارس العمارة أنّه في حاجة إلى مواساة، فمدّ إليه ذراعه وهو شارد يتعقّب أفكارًا طريّة. لأوّل مرّة يجد نفسه بعيدًا عن العمارة التي يحرسها... سيكون أولاد الطوابق السبعة قد عادوا من مدارسهم، والعمارة الآن مليئة بضجيجهم في غياب الحارس، وهم يخربون المصعد، أو يرمون علب الحلوى والمشروبات الرخيصة على طول السلّم، أو يخربون أصص الأزهار... راقته فكرة حرّيّتهم الموقّتة، قبل أن يعود هو ويعود معه النظام والهدوء إلى الدرج والمصعد والممرّات، مفكّرًا أيضًا في أهمّيّته وجدواه وضرورة وجوده أسفل العمارة في كلّ الأوقات... أسند خدّه إلى الزجاج وترك لقليل من الندم الحرّيّةَ ليعبث بعقله. لم يهتمّ بما يحدث خارج عربة الترام. يشغل الطوارَ كثيرٌ من الشبّان السّود. إنّما في هذه اللّحظة، وهو يسند رأسه إلى الزجاج، لم يكن المشهد قد دخل مجال رؤيته بعد.

أخذ إدريس الأوّل بعض الوقت ليلتفت حوله وهو يتشبّث بالذراع الممدودة، ويرى أنّ الحياة داخل الترام ملوّنة وزاهية، وأنّ عطورًا جديدة، خفيفة ومنعشة بطعم الخزامى، تنبعث من الأجساد الرشيقة. وقرّر في فورة غضبه الجديد أن يطلب من زميله ألا يناديه إدريس الأوّل. منذ هذه اللّحظة، سينسى اسمه القديم، ويمحوه، ويمحو حياة بكاملها. وسيختار

اسقا جديدًا. وسيولد مع الاسم الجديد إنسان جديد تمامًا؛ إنسان لم يزره من قبل، ولا يعرف ملامحه ولا أفكاره ولا رغباته. وبلا ذكريات يضطرّ إلى الحفر فيها ليكتشف في اخر المطاف أنّها ذكريات بغيضة.

بَشَرٌ كثيرون في هذه المحطّة وخارجها، لا علاقة لهم بمسافرين سيلتحقون بالترام أو ينتظرون ضيوفًا سينزلون منه. أغلبهم من الأفارقة. مصطفّون أمام حوانيت بائعي الأثاث المنزلي والسردين المقلي وأقراص الأفلام الهنديّة والبيض المسلوق والأجهزة الإلكترونيّة، أو في الجهة الأخرى، حيث حيّ الصفيح. الحيّ مُختفٍ عن الأنظار بحائط مطليّ بالجير الأصفر، وتستطيع، وأنت تمرّ على الحائط، وأنت تراه من خلف زجاج نافذة الترام، أن تقول إنّ وراء الجدار حديقةٌ للأطفال يلعبون فيها أيّام الآحاد، لولا البارابولات المنتصبة فوق السطوح والمثبتة بالحجارة والعجلات المطاطية والدواليب المهشّمة، لأنّ أصحاب أحياء الصفيح يحتفظون بكلّ الأشياء التالفة والتي لم تعد تصلح. كلّ الأفارقة السود الذين عبروا الصحراء الكبرى واجتازوا الجوع والعطش والأفاعي والابتزاز والتيه واليأس والضياع، وتركوا على الطريق عرقهم وعرق أولادهم، وعظامهم وعظام ذويهم، رست بهم مصائرهم أخيرًا عند أبواب سوق درب غلف المزدهر. ها هم واقفون، جاحظو العيون، زائغو النظرات، ذلك بأنّ أحدهم علّق نفسه على عمود الكهرباء، ويهدّد بأن يلقي بنفسه من أعلاه. لقد جاء من بلاد بعيدة يبحث عن مستقبل غير موجود. كلب مربوط أسفل العمود، بحبل يعصر عنقه. والرّغب منتوف على طول استدارة الحبل، بحيث تظهر تحت الحبل بقعٌ الجلد المهترئ. ولا تعرف هل هو كلب الأسود المعلّق في العمود، أم كلب أحد ساكني الحيّ. ولا تعرف لمَ يهزّ بذيله، ولا يبدو أنّه يتألّم، كالأسود المعلّق فوقه. لا تأتي من جهتهما مجرّد إشارة إلى أنّهما يتألّمان. ربّما تعلّق الأمر بمصير السود قاطبة، وأنّ هذا الأسود لن يكون استثناءً في قائمة السود المنذورة لهذا المصير غير المفهوم، والذي يبدو شيئًا من كلّ وجهات النظر. والكلب؟ هل هو مدرك ما يقع له؟ أو ما يقع فوقه، أو حوله؟

الشاب الأسود واقف على حديدة مثبتة في أعلى العمود وقد يسقط حتّى من دون أن يهدّد بأن يلقي بنفسه. يضع على عينيه نظارة و«كاسكيت» تحمي رأسه من شمس غير موجودة، ويحمل في يده راية لا تعرف إلى أيّ قبيلة تنتمي. والحبل حول عنقه، شبيه بالحبل الذي في عنق الكلب. كلّ شيء حقيقي. النظارة والحبلان حول العنقين والراية والحذاء

الرياضي. لباسه رماديّ هو الآخر. والحبل ممدود، كأنّما تكفي هبة هواء لينكسر وبسيح دمه على الطوار. ويبدو في الآن نفسه غير حقيقي. لم يتحرّك أحد، لا الشرطة ولا رجال المطافئ ولا المتفرّجون، تحت السماء الغائمة، الرماديّة. سكان حي الصفيح المقابل للسوق قلقون، مفتونون قليلًا، لأنّ هذا الأسود جاء من بعيد، ترك أهله وقبيلته وأغانيه ليشنق نفسه على مشارف سوق درب غلف المزدهر. إنّه يجرؤ على ما لم يستطيعوا القيام به. يعيشون بلا ماء ولا مجارٍ، ويقتسمون حجرة من الصفيح مع الفئران والخراء، ولم يفكّر أحدهم في أن يشنق نفسه مع أنّ أعمدة الكهرباء كثيرة وتمرّ فوق خرابهم. وكأنّما ينتظرون أن يفي الشاب الأسود بوعده، ويتمنّوا ألا يخذلهم في هذه اللّحظة الاستثنائية. إنّه يتكلّم باسمهم وباسم كلّ المعطوبين. زبائن الترام ليس لهم الوقت الكافي ليروا التفاصيل في الدقيقة التي وقف فيها الترام في المحطة. ذلك بأنّ هناك تفاصيل عليهم أن يلتقطوها في الحين. لماذا يضع الكاسكيت واليوم بلا شمس؟ وهل الحبل حقيقي؟ وماذا سيحدث إذا لم يرمِ بنفسه؟ هم أيضًا يراهنون على حياة لا يملكونها، وعلى حلم ليس لهم.

استطاع الترام أن يتحرّك بعد نصف ساعة من المفاوضات. سيخفّ الألم بعد قليل. عضّ إدريس الأوّل على أسنانه حتّى لا يعطي فرصة لأيّ كان ليشفق عليه. وأغمض عينيه، مفكّرًا في الاسم الجديد الذي يريد أن يسمّى به. ثمّ فتحهما حتّى لا يغتبط إدريس الآخر معتقدًا أن إغماءة أخرى على الأبواب، ومتسائلًا أيضًا لماذا لا يعضّ إدريس الثاني على أسنانه هو الآخر. إنّه يتألّم مثله وربّما أكثر منه، ولكنّه لا يظهر ذلك. لكلّ ألمه. لكلّ عزلته. الألم هو العزلة. لا أحد ينفع أحدًا. عليك أن تدخل في جلدك وتلبث رابطًا تتنضت على ألمك من دون أن تترك ذرّة تنفذ خارج ذاتك. هذه هي حيلة إدريس الثاني الذي كان في هذه الأثناء يوشوش في أذن نافع ويشد على يده ويهزّ رأسه حتّى يعطي الانطباع بأنه في كامل عافيته، ويتعانقا ويبوس كلٌّ منهما خنك الآخر. سيسقيه النمس... وها هو يستعيد توازنه، وهو يرى أنّه لا يزال في إمكان عقله أن يشتغل. لم يعثر بعدُ على اسم يلائم شخصه الجديد، ولكنّه عثر على اسم يليق بصديقه، وأعجبه أن يتمّ الأمر بهذه السرعة.

إدريس الأوّل الذي فتح عينيه على هذه الواقعة، أغمضهما من جديد ليأخذ الوقت الكافي ليستمرّ في البحث، وليستمتع بهذه اللّحظة النادرة التي يستعدّ فيها لاستقبال اسمه الجديد. وتذكّر أنّه عاشر رجلًا ظلّ

يرفع عنه تقارير كاذبة إلى المسؤولين من دون أن ينال ذلك من صداقتهما. التفت إلى صديقه عندما استطاع أن يفتح عينيه مرّة أخرى: ما عندكش شي فنيدة أخرى؟

وهاديك اللي شربتي؟

ما ڤضاث والو. شوف ليا شي وحدة اخرى.

مدّ إليه المحفظة بيده السليمة، ليعثر في داخلها على أقراص أكثر نجاعة.

موزّع الرّسائل الذي يسمّى الرقّاص

السبت 5 يوليو 1958

كان ينبغي لي أن أشعر بالغربة في هذا المكان المنعزل. ولكن لا، لست غريبًا تمامًا في هذا المنزل على الرغم من أنّني أجهل الموقع الذي يوجد به، كأنّما رأيته في قبل، أو مررت عليه في واحد من أسفاري السّابقة. وربّما أقمت به ذات ليلة هاربًا من عاصفة رمل مباغتة. وأعتقد أنّنا نوجد في نواحي آقا، بعيدًا عن گلميم، أو ربّما في أگمامو، في غرفة شحيحة الضوء لأنّها بلا نوافذ، على الرّغم من أنّ الباب يظلّ مفتوحًا في النهار. عندما يسمح لي أحد الحراس بالذهاب إلى المرحاض، أرى أنّه بيت كبير، وفيه عدّة أجنحة ودور في الطابق العلوي، وبرج صغير للمراقبة لم أر أحدًا يصعد إليه. السّاحة واسعة، مربّعة، وغطّتها الأعشاب البرّيّة اليابسة، ومطلية جدرانها بالجير، وفيها شجرات ليمون أربع. بيت يبدو أنّه عرف مجدًا في زمن ما. لا أعرف بالضبط عدد الرجال المقيمين به. عشرة؟ خمسطاش؟ أحيانًا يزداد عددهم. وأحيانًا يقلّ، حتّى لتقول إنّ لا أحد يحرس المكان. مسلّحون جميعهم. جميعهم شبان ومسلّحون، وينتمون إلى منظّمة أبطال الحرّيّة، ويعدّون لهجوم وشيك، في صمت، وبجدّيّة قاسية. هذا ما استطعت استنتاجه منذ الأيّام الأولى من وصولي، ولم أتقدّم بعدها خطوة واحدة.

قلت فقط وأنا أرى البنادق القديمة هذه: إذن، هي منظّمة أبطال الحرّيّة المتوكّلة على الله؟ ووصلت حتّى مقرّها من دون أن أدري. كأنّما عندي موعد مع بْراهيم وجئت لألتقيه. وهذا هو الطبيعي. وبقيت على هذا الاعتقاد إلى الآن. لم أرَ بْراهيم ولم أسمع عنه منذ اغتيال بوزيد. بعد الفجر بقليل، جاء حارس يعوّض الحارس الأوّل الذي أمضى اللّيلة أمام باب غرفتي. وهذا الحارس لم أرَه من قبل. فتح الباب وابتعد حتّى وسط السّاحة. جلس على ركبتيه وأشعل المجمر ووضع عليه قِدرًا، وهو يلتفت حوله، ثمّ هزّ رأسه نحوي ضاحكًا، كما لو أنّه يحاول أن يقتسم معي سرًّا. ثمّ اقترب من باب غرفتي، بعد أن نفخ في النار، وسط الدخان الأزرق المتصاعد والمنتشر حوله في فضاء الفجر الرمادي، وقال إنّه يعرفني لأنّه كان ضمن كتيبة المخازنيّة في اسا. وهو الآن مع المنظّمة، وترك عمله وهرب... وكذلك البرگادي مسعود، والممرّض بوشعيب... لأوّل مرّة أتذكّرهما منذ غادرت البرج في آسا... كلّهم؟ نعم، كلّهم... هربوا بكسوتهم وسلاحهم، والتحقوا بالمنظّمة ليحرّروا الصحراء. وعاد بالقرب من المجمر،

اسمه امبارك هذا الحارس، ويضحك في كلّ وقت. يضحك وهو منكبٌ على المجمر وينفخ في النار. يضحك وهو يطلّ على الماء الذي يغلي في القِدر. يضحك وهو واقف يراقب السماء. أمّا أنا، فلا أذكره، لا في اسا ولا خارجها. لم يتجاوز السادسة عشرة. بندقيته التي لا تفارقه مرقّعة بالأسلاك. بدأ امبارك يتنقّل في الساحة مُحدِثًا صوتًا غريبًا وهو يضرب بنعليه تراب الساحة. إنّه يقفز من مكان إلى مكان. ويكاد يترك خلفه نعليه الممزّقين في كلّ قفزة. ويعود بالقرب من النار ليرمي في القِدر ما جمع من جراد. أعاين لأوّل مرّة عن قرب الجراد الذي يتحدّث عنه الجميع من دون أن يراه أحد. امبارك فرحان بغنيمته. أسنانه الكبيرة البيضاء تبرق وسط وجهه الكالح. يراقب القِدر الآن، ويعيد الجراد الذي يحاول الإفلات من النار، وينكبّ على المجمر ينفخ في النار من جديد. ويضحك، فَرِحًا بوليمته. أن يختزن ابن ادم هذا الكمّ من الضحك، فهذا ما لم أكن أتصوّره.

عدت إلى تصفُّح جدران الغرفة كما دأبت على ذلك منذ اليوم الأوّل. قد تكون أشياء غابت عنّي في الأيّام الأولى، كهذا المسمار مثلًا. لأوّل مرّة أرى مسمارًا مدقوقًا في الجدار. نزعته من مكانه وأنا أحاول تذكُّر عدد الأيّام التي أمضيتها محبوسًا في هذه الغرفة. هل حقيقة أنّها ثمانية أيّام أم اثنا عشر يومًا؟ أم أكثر؟ حفرت عدّة خطوط، ثمّ توقّفت وأعدت المسمار إلى مكانه. في أيّ حال، انتهيت من عدّ الأيّام بشكل لا رجعة فيه. بعد اليوم الرابع اختلطت ببعضها البعض، فتوقّفتُ عن العدّ. عدت أتمدّد على الحصير، وأحكي لنفسي قصصًا مسلّية، وبلغتي الجديدة التي حذفت منها الزاء والقاف. الصورة التي ارتسمت في ذهني عنها لا تغادر بالي. هل ما زالت تنتظر؟ مضى أكثر من شهر. أتساءل أيضًا عن الفكرة التي حملتها معها. كلّ ما أفكّر فيه لا يحمل أيّ يقين. أين هي الآن، وماذا تفعل؟ هل هي جالسة على الشاطئ تنتظر رجلًا يقلّد أصوات العصافير؟ وكم سيمرّ عليها من الوقت قبل أن تيأس، وتنسى، وقبل أن تصبح قادرة على نطق الحرفين الناقصين في معجمها. وأبقى متشبّثًا بالحرفين الوحيدين اللذين يربطانني بها، هذا ما أحاوله، متفقّدًا قصصنا القديمة وتتبّع خرائطها المنسيّة، إنّما بلا فائدة. إنّها تستعدّ لتمحوني من شبكة علاقاتها بالمرة.

لم يحدث لي مثل هذا الأمر في السّابق مع أيّ امرأة، لا مع فاطمة في تيزنيث ولا مع كلثوم في مراكش. وأنا الذي اعتقدت أنّني اجتزت إلى الضِّفّة الأخرى بلا خسارة كبيرة. أراها هناك، إلى جواري، ممدّدةً على الزربية ذات التشكيلات الهندسيّة الحمراء والسّوداء، تحت خيمة حمادي،

عاريةً. ضوء القمر ينفذ من تحت حوافِّها. في أعلى فخذها ندبٌ لجرح قديم، كهلال داكن اللَّون يسبح في سماء بشرتها البيضاء. إنَّني لم أرَها عارية من قبل. وأنا إلى جانبها أتأمَّل الجسد اليانع، ولا نعرف لا أنا ولا هي ما نفعله بأيدينا. حيرتها أكبر من حيرتي. لا تعرف ما تفعله براحتيها. هل ستغطِّي وجهها، أم نهديها اليانعين؟ تنقل يديها الحائرتين بين الوجه والنهدين. وجهها الذي يصطبغ بحمرة شفافة، وفمها يفترّ عن ابتسامة لا تكاد تكون كذلك. أتأمَّلها ولا أعرف هل عيناها مغمضتان، أم أنَّها تطلّ عليَّ من بين شقوق أصابعها، بلا سلاح غير سلاح خجلها الفاتن. وقد صارت طفلة، ناسيًا بدوري سنواتها العشرين. بنزقها وعفويَّتها وحيرة جسدها، وارتباك يديها، وبكلّ ما كانت تزرعه في خيالي من فوضى، وما كانت تتركه حركاتها وضحكاتها في النَّفس من حيرة... محبوس في هذه الغرفة منذ عدَّة أيَّام، ولا أفكِّر في غير هذه اللَّحظة الفريدة، السَّعيدة، التي مرت علينا... في المرَّة القادمة، هل ستكون هناك مرَّة قادمة؟ يزداد حضورها جبروتًا بين عتمة الجدران. وملامح وجهها تزداد عذوبة. أصفِّر كطائر يبحث عن أنثاه، وسيسمع بعد قليل رفرفة جناحين ويعرف أنَّها قريبة، تُخفيها أغصان شجرة وارفة. لست مستاءً أو يائسًا سوى في اللَّحظات التي أفكِّر فيها، وأرى أنَّني ضيَّعتها بشكل نهائيّ؛ أو الفكرة الأخرى: هل سأراها ثانية؟ لأنَّ العكس هو الذي يحدث في مثل هذه الحالات.

لم أستغرب عندما ظهر البرگادي مسعود في الظهر ما دمت سمعت اسمه في الصباح. ولن أستغرب أن يأتي بعده الممرض بوشعيب. يتجوَّل البرگادي في الساحة وبندقيَّته على كتفه، ويتظاهر بأنَّه لا يعرفني. هذا مفهوم لأنَّه كان يكرهني عندما كنَّا في آسا، ولا يناديني بغير الحرطاني مع أنَّ بشرته ليست نقيَّة كما يتوهَّم. إنَّها في لون القمح الفاسد، ثمَّ عاد ليعتذر في بداية الظهيرة. عندما اشتدَّت الحرارة وفرغت الساحة من الحراس واختفى امبارك بعد أن طها جراده وأكله، جاءني البرگادي مسعود بكسرة خبز وكأس شاي. وضع الصينيَّة عند طرف الحصير، وشدّ على يدي بحرارة، وتراجع ليقف عند الباب. قال إنَّ وجود الحارس الآخر هو الذي منعه من السلام عليَّ لأنَّهم هنا جميعم بيَاعون. سألته عن امرأته الجديدة، فقال: لابأس عليها... تذكَّرنا معًا قصَّته عندما ذهبنا لخطبتها، وسألته هل هي المرأة نفسها، وصاح محتجًّا: لا، تلك المرأة بقيت عند أهلها عند مصبّ نهر درعة. وهذا أشاع الدفء بيننا، كأنَّنا لم نكن عدوّين في السَّابق. سألته عن البيت الذي نوجد به. هل نحن في آقا؟ هزّ رأسه هزاتٍ لا تدلّ على مكان محدَّد. البرگادي مسعود لا يعرف الموقع بالضبط. إنَّنا وسط الجبال.

وكم من الوقت سأبقى حبيس هذه الغرفة... لا يعرف البرگادي مسعود كم سأبقى حبيس هذه الجبال وهذا البيتِ وهذه الغرفةِ... بَراهيم وحده يعرف متى دخلتُها ومتى سأخرج منها. وها أنا أتذكَّره مرَّة أخرى، وأقول إنَّني كنت على حقّ عندما عرفت أنَّني محبوس عند المنظَمة. صديقي بَراهيم صاحب القنبلة الفاشلة، لم يغب عنّي لحظة أنَّه هنا. ومع ذلك تساءلت متعجِّبًا: المعلّم بَراهيم هنا؟

هو الشافْ.

وفين هو؟

في أگادير... وسيعود اليوم. وعليّ أن أستعد لأنَّه سيأتي، من دون شكّ، لزيارتي...

ثمَّ قلت بيني وبين نفسي، متأكِّدًا هذه المرَّة: هذه إذن هي منظَّمة أبطال الحرِّيَّة المتوكِّلة على اللّه، والتي كثيرًا ما حكى لي عنها صديقي بَراهيم. وقد وصلتُ إليها أخيرًا... إنَّني أنتمي إليها قبل البرگادي والممرض والكثيرين غيرهما؛ قبل هؤلاء الشبان الذين يمسحون الجدران في صمت. صعدت الدموع إلى عيني وأحسست بحرارة تلفَني. بَراهيم؟ صديقي بَراهيم... بقيت جالسًا عند الباب أحاول أن أتصوَّر هيئته القديمة، وهو متأبِّط القاموس الفرنسيّ، ويستظهر مفرداته وهو يمشي ويجيء في غرفته. وأفكِّر فيه وفي كلّ ما قمنا به: القايد بوزيد ومسيرتنا اللَّيليَّة في الغابة؛ الحقيبة والقنبلة الفاشلة في داخلها... ضبطت نفسي وأنا أضحك، وأمسح عينَيّ لأنَّهما فاضتا بدموع الفرح. هل وضعتُ الحقيبة فعلًا بالمقلوب يا بَراهيم؟ لم أنتبه إلى البرگادي وهو يغادر الساحة، وإلى النهار وهو يتقدَّم. كنت جالسًا في وضعيَّة مريحة، مرتاحًا بشكل غير مسبوق، كما لو أنَّني أصبحت آخر مثلهم؛ واحدًا منهم، وأحسن منهم؛ واحدًا قام بأعمال لا تخطر في بال أشدِّهم بأسًا. إيه، نعم، انتميت إليهم قبلهم. وسيعرفونها من فم بَراهيم نفسه، عمَّا قريب؛ اليوم أو غدًا. وسأضحك في خاطري وأنا أرى عيونهم المنبهرة من المفاجأة. ماذا سيقول البرگادي مسعود؟ هذا هو الحرطاني الذي كنت تحتقره. عندما كنت تقول لبوزيذ إنَّه لا يفهم سوى لغة العصا... إيه، نعم. واستعدت تفاصيل أخرى: المذياع الذي اشتراه لي، والمسدس الذي أهدانيه، والغزال الذي لم أصطده... ولماذا لا أطالب بمذياع صغير منذ الغد لأستمع إلى أم كلثوم وأنا أتشمَّس في السَّاحة واضعًا رِجلًا فوق رِجل؟ والحقيقة أنَّ وضعيَّتي منذ البداية لم تكن وضعيَّة سجين. نعم، هناك هذه التفاصيل الصغيرة، الأخرى، التي لم

أنتبه إليها في الحين: باب الغرفة الذي يظلّ مفتوحًا طوال النهار. لا بدّ من أن لهذا سببًا. والأكل الذي يختلف عن أكل سجين حقيقي. والإحساس بأنّني لست غريبًا تمامًا في هذا المنزل... ربّما لهذه الأسباب، لم أفكّر في الهرب في أيّ لحظة. وربّما كنت أتوقّع، في قرارة نفسي، أن يظهر براهيم أو واحد يعرفه ويعرف أمجادنا المشتركة... مشغول أيضًا بالطريقة التي سيظهر عليها؛ بالكسوة والنياشين وهيبة السلطة. حدثت جلبة في الخارج، عندما بدأت ظلال المساء تزحف على الساحة، وكثرت الهرولة في الساحة... الشاف جا... براهيم جا. هذا ما قاله البرگادي مسعود وهو يطلّ إطلالة قصيرة ووجهه منقبض على الرّغم من أنّني لم أسمع صوت سيّارة، أو ربّما كنت لاهيًا وأنا سارح في سراديب أفكاري الجديدة. أخيرًا، بعد أيّام بلا عدد. أنا لست البرگادي. انتفضت فرحًا بدلًا من أن يشلّني الخوف. أخيرًا، منتظرًا إطلالته المفاجئة والتي لن تكون مفاجئة تمامًا. أتصوّر دخوله إلى الغرفة، ووقوفه مندهشًا أو مستغربًا، أو فرحًا لأنّه سيكون عارفًا بقصتي من الألف إلى الياء، ثمّ العناق الحارّ... وربّما الدموع... نافع؟ براهيم؟ عاد امبارك. وهذه المرّة أيضًا كان يضحك. على كتفه السلاح المرقّع بالأسلاك نفسه، ويرتدي معطفًا أميركيًا باليًا ومرتّقًا يصل حتّى الأرض. أغلق الباب بقوّة. غرقت الغرفة في الظلام بدلًا من عتمة المساء، واستمرّت الجلبة في الساحة طويلًا، وأنا واقف قرب الباب أتسقّط الأخبار. أمدّ عنقي في كلّ اتّجاه لأمسك بأدنى خيط يربطني بما يقع خلف الجدار. أطلّ من تحت الباب ومن بين شقوقه ولا أرى شيئًا. الأرضية المكسوّة بالعشب اليابس أراها. والقِدر التي تركها امبارك بعد أن طها فيها جراده... وبراهيم الذي جاء مع الجراد... لم يظهر بعد.

لم أنتبه إلى اللّيل وهو ينزل. غدًا... غدًا يوم جديد. جلست على الحصير ومددت يدي إلى الجرادات الستّ التي أعطاني إيّاها امبارك. كبيرة الحجم؛ سمينة لأنّها أتت على زرع الفلّاحين بالكامل، وجاء دورها. أكبر من الإصبع الوسطى. أكلت الأولى بتوجّس. وجدت أنّ طعمها يشبه طعم الكاوكاو. أكلت الجرادات الأخرى بلذّة أكبر وأنا أفكّر في الفلّاحين الذين بقوا من دون زرع... ثمّ تمدّدت ولجأت إلى قصصي القديمة، أحكيها لنفسي بلغتي الخاصّة، من دون قاف أو راء.

الأحد 6 يوليو 1958

صوت الديك، ثمّ أصوات أخرى تقترب. يُفتح الباب، وأرى أنّ امبارك هو الذي يذبح الديك وسط الساحة. ديك أحمر. قلت إنّ الحارس امبارك بعد غذاءنا أنا وبراهيم، دجاجًا بالزيتون واللّيمون الحامض. وهكذا يكون

النهار قد بدأ على هذه الصورة المتفائلة جدًا جدًا، بينما حمرة الديك المشتعلة تترنّح وسط الساحة في آخر انتفاضاتها، في وهج ضوء النهار الطالع. دخل عليّ رجل طويل القامة يلبس قميصًا أبيض قصير الكمين. نهضتُ. صدره أحمر ومشعر، ويلعب بخيزرانة في يده. شعره مدهون وممشّط إلى الخلف. ويُخفي وجهه وراء نظّارة عريضة ومدوّرة. حذاؤه ذو العنق الطويل، كشعر رأسه، يلمع. حذاء رجل جاء من المدينة، من أكادير أو مدينة أخرى أبعد، إنّما جاء على صهوة حصان بدلًا من السيّارة. هذا ما فكّرت فيه. ثمّ إنّه لا يشبه بْراهيم الذي عرفت. بشاربه المسطر بعناية فوق الشفتين، لا يعطي الانطباع بأنّه سيرتمي عليّ ليعانقني. ظللت لمدّة طويلة أبحث عن العينين اللتين أعرفهما ولم أعثر عليهما. هذا الرجل لم يسبق لي أن رأيته من قبل. لا يعطي الانطباع بأنّه بْراهيم، أم إنّه تغيّر إلى هذا الحدّ؟ يرافقه شاب لم تنبت له لحية ويبدو مزهوًّا بالكسوة الكاكيّة الخفيفة التي يلبسها، وبدنوّه من رئيسه، الرجل الذي اعتقدت أنّه بْراهيم. يدوّن الشاب على الورق كلّ كلمة يتفوّه بها. قال وهو يقدّم نفسه: السي بْراهيم الفاسي... توقّف فكري عند هذه الصورة. رجل يضرب بخيزرانته عنق حذائه، ويمرّر أصابعه النحيفة على شعر رأسه المدهون إلى الخلف، ويتصفّح جدران الغرفة بدقّة، ولا ينظر إليّ. هل هو صديقي بْراهيم الذي يختفي وراء الشارب المسطر والنظّارة العريضة المدوّرة والشعر المدهون؟ وقد أصبح رئيسًا لهذه الجماعة التي تطلق على نفسها اسم أبطال الحريّة المتوكّلة على الله... هذا هو بْراهيم الذي احمرّت بشرته تحت شمس أكادير... نزع النظّارة وبدت عيناه خفيفتين، كفقّاعتين تسبحان في الهواء. الفراغ هو الذي يملأهما بدلًا من شحنة العاطفة التي بثّ أتصوّرها. عاد يتأمّل الجدران. ربّما ينبغي لعينين من هذا النوع وقتًا أطول لتفقّد كامل أرجاء الغرفة والانكباب على الأرضيّة وعدّ الدعامات الخشبيّة التي تسند السقف. أمّا اللّحظات التي استغرقها تفحّص هيئتي وهو يحزّك خيزرانته في الهواء، فقد طالت. تمدّدت بشكل يدعو إلى القلق، لأنّني أصبحت أفكّر فيه بالشكل الذي لم أكن أتصوّره. لماذا لا يترك خيزرانته تهرشني تحت الإبط أو على القفا، وأطلق ضحكًا مخبولًا كي يخفّ توترنا معًا؟ وأضحك مثل امبارك؟ كما ظلّ يفعل بابا كي يستمرّ في قيد الحياة؟ في عينيه امتعاض، وغضب، ودائمًا من دون أن يرفع عينيه، متحاشيًا أن تلتقي نظراتنا، كأنّما يخشى أن تنفذ عيناي إلى عينيه... إذن، أنت هو، قال.

نافع، الرقاص ديال آسا... كندي الأخبار وكنجيبها...

واش كان كيعمل في گلميم...

هذا السؤال الأخير موجّه إلى الشاب الذي يدوّن الكلام، أو إلى البرگادي، مسعود أو إلى غيره، ولم يكن موجّهًا إليّ. أم إنّه سؤال استمرّ معلّقًا بيننا ينتظر من يردّ عليه. أردّ في خاطري على الرجل الوقح الذي يتظاهر بأنّه لا يعرفني... ماذا سأصنع في گلميم، بحسب رأيك؟ ألتقط الجراد مع صديقي براهيم ونطهوه ونأكله... هاهاها... مفكّرًا في أنّ الوقت قد حان لأطلق نكتة كما كان يفعل بابا حتّى يبقى في قيد الحياة. نكتة فاحشة، وكلمة بذيئة، تجعلان سلطة عينيه تلين، وتجعلان قسوة فراغهما تختفي... إنّه الآن يدور في الغرفة ويحك ظهره بالخيزرانة ويقول: bien, bien, bien... إذن، انت اللي قْتلتي بوزيد؟ ويقف وسط الغرفة لينظر إليّ بعداوة معلنة... في عينيه، في قاع عينيه وخلف العينين، امتعاض واحتقار أعرفهما لأنّني لطالما تبيّنتهما في العيون الكثيرة التي مرّت على شاشة عيني... ومع من؟ مستمرًا في استنطاقه الوقح... بوخدك؟ وغلاش قتلتيه... وكلّ الأسئلة التي لن تفاجئ شخصًا مثلي يعمل في السرّيّة، وعليه أن يكتم الأسرار والأسماء والعناوين والنيّات، كما علّمني صديقي براهيم. كيف، ومع من، وبأيّ سلاح؟ كلّ الأجوبة التي ينتظرونها، والتي ظلّوا يتوقّعون أنّها لن تخرج لأنّهم يعرفون بدورهم معنى أن يكون الواحد في السرّيّة. لقد سبق لي أن طرحت على نفسي السؤال نفسه: لماذا قتلت القايد بوزيد؟ وأجبت نفسي، كما أردّ عليه الآن، بلا تردّد: ولماذا في نظرك؟ لماذا يقتل شخص شخصًا آخر؟ وتابعت بتهكّم: كأنّما السؤال في حاجة إلى جواب؟ ما دام ابن آدم مخلوقًا ليموت بطريقة أو بأخرى، في الأساس إذا كان خائنًا كالقايد بوزيد. أطلق براهيم ضحكة استغراب. بدا كما لو أنّ جوابي يسلّيه إلى أبعد حدّ... وفعل الآخرون مثله، مستغربين بدورهم. الذين عند الباب والذين يقفون في الساحة، رفعوا حناجرهم في قهقهات عالية. أنا لا أقتل الناس بلا سبب، مردفًا إلى ضحكهم ضحكيَ الساخرَ..

انت مع من؟

معاكم.

واحنا شكون؟

أبطال الحرّيّة المتوكّلة على الله.

والقايد بوزيد؟

مع لخرين...

ازدادت القهقهات والكركرات صخبًا كما لو كانوا يقفون أمام هارب من مستشفى الأمراض العقليّة، يضربون أفخادهم، ويُطلقون ضحكات كالنباح. أضفت: كنت أنا وبراهيم...

بْراهيم؟ شكون بْراهيم؟ قالها وهو يلتفت إلى جهة الشابّ الذي مطّ شفتيه وحرّك رأسه، نافيًا معرفته بشخص يدعى بْراهيم، من دون أن يكفّ عن التدوين. والبرگّادي مسعود حاضر، واقف عند الباب في وقفة عسكريّة صارمة. وينظر إلى السقف كواحد لم يسمع بالمعلم بْراهيم، ولا يعنيه أن يكون بْراهيم موجودًا أو غير موجود.

ماذا سأفهم في هذا البزار؟ أفكّر في كلّ هذا جالسًا على الحصير، مغمّضَ العينين، كأنّما جلبت اللّيل قبل أن ينزل عليّ. تداهمني رغبة في التبوُّل ولا أملك جرأة على النداء على الحارس. كأنّما لم تعد لي رابطة بكلّ ما حولي؛ لا بالمكان ولا بمن فيه. انفصلت عن الجميع. وأعتقد أنّني لن أتعرّف إلى البرگّادي مسعود إذا ما فتح الباب الآن، أو بوشعيب الممرّض. وبدوره، لن يتعرّف إليّ. كما فعل بْراهيم... إنّني متأكّد من أنّ الرجل الذي رأيت ليس هو صديقي بْراهيم؛ غير متأكّد تمامًا. تبقى دائمًا تلك الفجوة المقيتة التي يدخل منها الشكّ. قد يأتي رجل آخر. بلا نظّارة وبلا شعر مدهون وبلا خيزرانة. وسيكون بْراهيم، حتّى وهو لا يحمل الاسم نفسه. لا أعرف هل أنا ناقم عليه، أم على نفسي. لم أنتبه إلى اللّيل وهو يغمر الغرفة. وقد أكون غفوت، لأنّني قفزت من مكاني على جلبة في الساحة. قفزت من فوق الحصير وهرعت نحو الباب ووضعت أذني على الخشب. جلبة وحركات أرجل توحي بأنّ عددهم يفوق العشرين، وأنّهم يمدون زربية كبيرة في الساحة. قد يكونون محاربين عادوا من دورية أو معركة. هرجُ حماستهم كبيرٌ. ولم تمض دقائق حتّى ساد الصمت. لقد تمدّدوا على الزربية وناموا. هذا ما خمنتُ، قبل أن أنتبه إلى أنّ هناك أياديَ تحاول فتح الباب، وأصواتًا تتساءل... اقتربت لأسمع الأصوات التي تتحدّث خلفه، يتساءل أصحابها عن الشخص الذي يوجد في الغرفة:

شكون اللّي في الغرفة؟

واحد الحزطاني شدّو عبد الله...

آش دار؟

قتل القايد بوزيد... حرطاني... إيه... وقتل القايد؟... إيه...

ثمّ اشتدّ الضغط على الباب الذي بدأ يهتزّ. الهمهمات أوّلًا، مستنكرة،

متقطعة، سرعان ما غطّتها ضربات الأيدي والأرجل... إنّهم يحاولون اجتثاث الباب. تراجعت إلى قاع الغرفة الغارقة في الظلام، متوقّعًا الأسوأ. يبدو أنّ غرضهم أكبرُ من مجرّد رؤية الأسود الذي قتل بوزيد. ثمّ توقّفوا فجأة. تراجعت الأيدي التي كانت تحاول خلع قفل الباب وساد الصمت، إلى أن سمعت خربشة جديدة على خشب الباب. استمرّ حذري متيقّظًا حتّى بعد أن سمعت الصوت. إنّه الممرّض بوشعيب. شكون بوشعيب؟ لا أعرف شخصًا يحمل هذا الاسم. أنا لا أعرف أحدًا في هذا المكان. لا براهيم ولا مسعود ولا بوشعيب. نسيت جميع الناس الذين أعرفهم... اسمخ ليا... ثمّ سمعته من خلف الباب يسأل هل أنا بحاجة إلى حبّة أسبيرين. لا. اللّه يجازيك. ويبدو أنّه جلس في الجهة الأخرى وأسند ظهره إلى لوح الباب، كواحد نادم على ما وقع، وجاء ليعتذر. أشعلت الشمعة واقتربت، وأسندت بدوري ظهري إلى الباب، وبقيت لمدّة أسمع تنفُّسه. مدّ إليّ من تحت الباب سيجارة أشعلتها. سألته عن براهيم: عقلتي عليه؟

إيه.

فين هو؟ ماذا فعل اللّه به؟

حككت جلدة جبهتي حتّى أدميتها وأنا مغمض العينين كي أرى بوضوح أكبر، لأنّ مسعود يتحدّث عن الشخص صاحب الخيزرانة على أنّه صاحبنا براهيم معلّم آسا. كيف أتعرّف إليه بعد أن ارتدى جلدًا آخر؟ وأصبحت لا أثق بما أرى حتّى أثق بواحد لا أرى عينيه. قال الممرّض إنّ عليّ أن آكل وأنام وأنتظر أن يفرجها اللّه، لأنّ قضيتي... واش عرفتي آش درتي يا المسخوط؟ لماذا قتلتَه؟

لماذا قتلتُ بوزيد الذي هو واحد من جماعتهم؛ من أبطال الحرّيّة المتوكّلة على اللّه. إيه، ثمّ إنّني آكل وأشرب وأنام في واحد من بيوته. هذا الرجل الذي أقول إنّه من الخَوَنَة، هو الذي أهداهم هذا البيت حتّى تستمرّ قضيّتهم مشتعلة، رغمًا عن الطائرات والقنابل. وماذا سأفهم في هذا البزار؟ هل أقول له إن براهيم هو مرشدي ودليلي من دون أن يجز عليّ اعترافي مزيدًا من النّحس؟ القضية مضحكة برمّتها. ثمّ فتح الباب مرّة أخرى وسط الظلام الكثيف الذي يلفّ السّاحة، وقال صوت لا أعرفه: اجمع حوايجك...

ما عندي حوايج...

تبعته عبر الساحة. يكسر الصمتَ صوتُ المفاتيح المدلاة في حزامه.

ثمَّ فتح بابًا آخر عبر دهليز شديد الظلمة، ودفعني داخل فضاء لا أعرف ما هو. وماذا تريدني أن أفهم؟ ماذا ستفهم أنت، ماذا سنفهم جميعًا، لا أنت ولا أنا، ماذا سنفهم جميعًا، في كلّ هذا البزار؟ أنا موزِّع رسائل، ولا أهتمّ بأيّ شيء خارج هذا العمل. وحتّى هذا العمل تخلّى عنّي. يعجبني الضحك والنكات. أكون حيث يكون الطرب واللّعب والضحك. لن تجدني في مكان آخر. أنا عصفور. أتصرَّف كما يتصرَّف. وليس لديَّ صديق اسمه بْراهيم...

سائق الدراجة الناريَّة، وهو يدور على حائط الخشب الدائريّ. كأنَّما يشدّ دورانُه المحموم إلى حائط الموت رغبتَه في الطيران. صوت محرّك الدراجة العالي واهتزاز الخشب تحت أقدامنا، وذلك الإحساس بالدفء ونحن قريبان، أحدنا من الآخر، متلاحمان، ذراعي تحيط بخصرها. تدور الدراجة تحتنا، صاعدة وتقترب حتّى لتكاد تلحس أقدامنا. تلعب ريحها بثيابها. ثيابها تنتفخ... ستطير بعد قليل... تشدّ ذراعي على خصرها بقوّة حتّى لا تطير؛ بقوّة مفرطة، وهي تفلت، ترتفع، وأصابعي غير قادرة على منعها، وعاجزة تمامًا...

الأحد 6 يوليو 1958

كان عليّ أن أفطن إلى أمرهما قبل الآن. كان عليّ أن أفطن حتّى قبل أن أرى بابا يمدّ إليها منديلًا ويطلب منها أن تحتفظ به على رأسها، وهي تفعل ما يطلب منها راضيةً، متبسّمة، متواطئة. لقد استنفدتُ كلّ الأمكنة التي من الممكن أن آخذها إليها ووقفت عاجزًا أتفرّج عليهما، في لعبة ضيّعتُ مفاتيحها. يمسك بيدها ويساعدها على الصعود إلى الشاحنة. وهي تقفز في خفّة وتستقرّ بيننا كأنّما تعرف الوجهة التي تقصدها، حتّى قبل أن يتحدّث بابا عن البيت القديم. استقرّت بيننا مطمئنة. أمّا بالنسبة إليّ، فإنّها استقرّت في اللامكان، أو في كلّ الأمكنة لأنّ الجميع يسأل عنها. وضعت جيجي في يدها مفاتيح الغرف بعد وفاة أمّها مباشرة، وتقول إنّها ملأت فندق الحظّ السّعيد بالحياة. تقول خالتها إنّها والدتها الثانية وتحبّها كابنتها. وبابا اعتبرها منذ اليوم الأوّل زوجة نافع، وارتاح ونام على هدوء هذه الفكرة. في كلّ الأمكنة، شبان كثيرون يجلسون أمام الطاحونة ينتظرون أن تشرق، كما لو أنّها خيط شمس يمرّ، وهم يفتحون عيونهم على وسعها لمقاومة الوهج الذي يغشي أبصارهم. لا يرون المارّات القليلات متدثّرات بالشواد يعبرن كالظلال. لا يعرفون هل هنّ جداتهم أم بناتهم أم أخواتهم؟ يتصوّرون ما يشاؤون. أمّا الآن، فإنّهم يرون بنتًا تمرّ؛ بنتًا حقيقيّة حافية الساقين وعارية الذراعين، ومكشوفة الوجه والشعر الأسود يتماوج حولها. إنّها قادمة من بعيد، من أگادير؛ من الشمس؛ من البحر، في كسوتها المزوّقة بالفراشات. إنّهم هنا منذ بداية الصباح، مترقّبون، تنتصب آذانهم حتّى قبل أن ترنّ المحارات التي تطوّق بكاحلها. إنّهم هنا، منذ ظهرت، على دكّتي المطحنة، أو على كراسي المقاهي المجاورة. شبان ورجال مسنّون، يتظاهرون بأنّهم ينتظرون زرعًا لا يملكونه.

عندما لا تكون تعمل في فندق الحظّ السّعيد أو بيت خالتها، فإنّها تأتي إلى بيتنا لتسأل عنه أو لتنتظره. بابا هو الذي يطمئنها. كلامي المتفائل والأمكنة العديدة التي حملتها إليها لم تعد كافيةً لطمأنتها. فقد شحنته الأولى. فقد بريقه. وبالعكس، عادت إلى بابا عافيته القديمة. يُطعمها بيديه، يعتني بها كما لم يفعل لا مع امرأتي الأولى ولا الثانية. والسّبب هو أنّها بيضاء. يشتري لها ما يعثر عليه من أشياء جميلة في السوق. لم تطفح على وجهه مثلُ هذه السّعادة وهو ينتظرها. ويجتهد ليجعل صوته مضحكًا حتّى يسلّيها، كأنّما حياته أصبحت متوقّفة على

الطاقة التي يبذلها لتسليتها؛ كأنّما كلّ سعادته متوقّفة على الزمن الذي يصرفه في إضحاكها، أو يسرد عليها أحداثًا تتعلّق بعائلته. ينشر أمامها سيرة كاذبة ويخترع أحداثًا لا وجود لها. كأن يقول لها إنّني بقيت أبول في الفراش حتّى بلغت العاشرة، أو إنّني أذهب إلى الحمام ثلاث مرّات في الأسبوع لفرك جلدي طوال ساعتين حتّى تصبح بشرتي بيضاء... وهو يقلّد حركة الفرك مصوّتًا: هاه هاه هاه... وتدوّي هنا قهقهاتهما بشكل مخجل... ما دامت تضحك فإنّه بخير وعلى خير. أمّا وهو يمدّ إليها الثوب الأبيض المطرّز؛ أمّا وهي تمسك به وتضعه على رأسها وتقفز إلى داخل الشاحنة في خفة، فإنّني أدرك فجأة ما ظللت أتجاهله، بشكل عاصف، وأرى ما كنت أخشى وقوعه، وترتعد عضلات وجهي وتمسك بحلقي الغصّة. إنّها تبتعد.

بدأت يداي تتعرّقان وبللتا المقود. مسحتهما بسروالي. غزت الساحة حرارةٌ لم نعرفها من قبل. مسحت عرق جبهتي. أدرت الشاحنة وعبرت الساحة في الاتّجاه الذي يقود إلى بيتنا القديم. لم نذهب بعيدًا، لأنّ الشاحنة توقّفت بمجرد تجاوزنا للبيوت الأخيرة. وقع ما تمنّيت أن يقع، عند محطة المسافرين. عندما قلت بيني وبين نفسي: وماذا لو تتوقّف الآن؟ وإذا بالمحرّك يصمت. هل لهذا دلالة ما؟ أغادر الشاحنة وأبقى واقفًا أتطلّع إلى وجوه المارة لأرى إن كانت تظهر على ملامح وجوههم ما وصلت إليه من تعاسة. لا شيء. الحياة مستمرّة كأنّ شيئًا لم يقع. الباعة يبيعون والمشترون يشترون، عند باب المحطة. لا أحد يتعرّف إلى ما يرسله وجهي من يأس. مسافرون يغادرون وآخرون يعودون. كأنّما أنتظر منذ الآن هذا الشخص الذي سيوقفني عن التفكير في أفكاري الهذامة. تطير في الجوّ أجسام خفيفة تشبه الفراشات حين تلعب. بزر الهندباء؛ نباتات بيضاء تخلّصت من أصولها الشوكيّة وانطلقت ترسم في الهواء دوائر وانحناءات. من أين جاءت ولا نبات على وجه الأرض؟ ولا شيء غير الرمل والغبار. ذلك بأنّ الرّبيع جاء ورحل من دون جلبة.

نزلت من الشاحنة وراحت تتعقّب أزهار الهندباء التي ترقص في الفضاء. عندما عادت، بسطت راحتيها أمام بابا ونفخت على الزهرات التي عادت إلى رقصتها في الفضاء. ومن جهة أخرى رأيت أنّها بدأت تنسى موزّع الرّسائل، ما دامت تتعقّب النباتات الخفيفة التي تشبه فراشات بيضاء، وتستطيع حتّى أن تتأمّلها وهي ترتعش على راحتها المبسوطة وتتتبع طيرانها في فرح طفولي. لو أعرف فقط ما يدور في رأسها، الآن، قبل فوات الأوان، مرّة أخرى، مرّة أخرى؟ لا سبيل إلى ذلك. هذا الأمر

القاهر. لا أستطيع أن أتكهَّن بما يدور في رأسها، كما لم أستطع التكهُّن بما يدور في رأسي المرأتين السابقتين. هل تلعنني في خاطرها الآن. ولمَ لا؟ مستهزئة، مشفقة على حالي. شيء ما يختلّ في داخلي. شيء ما يتكسّر. ما أفكّر فيه يبقى في رأسي، دائمًا. لا أقوله لأحد أيًا يكن هذا الأحد. عندما تدخل هذا المنعطف، فإنّك لا تخرج منه، أو تخرج عاريًا. عندما تقول ما تفكّر فيه فإنّك تكون خرجت للعاصفة عاريًا، والباب أغلق، ولا سبيل إلى التراجع. مسحت يديّ في سروالي للمرّة الثانية. فاجأتني موجة حرّ مباغتة. وهي موجة لا تأتي من الخارج. إنّها تصعد من فرن داخلي ظلّت ناره تزيد شيئًا فشيئًا.

وصلنا إلى أمام بيتنا القديم الذي أحرقته الوالدة في هذياناتها السابقة، والمنتصب على الأكمة المطلّة على النهر الجافّ. لم أتعرّف إليه. مطليٌ بالجير ويلمع تحت الشمس ببياض جارح. ونحن الذين أمضينا وقتًا نتساءل أين يمضي بابا وقته. إنّه ظلّ يرمّم ويبني ويطلي بالجير خفيةً، كواحد ذي نيّات سيّئة. أسدل بابا المنديل على وجهها، وأمسك بيدها وقادها حتّى باحة البيت. وإلى حدّ الساعة، فإنّني لا أعرف الهدف من كلّ هذا الاستعراض المضحك، الماجن، واقفين وسط كلّ أدواته: براميل الجير والسلالم والغربال، ثمّ قوالب الخشب والآجرّ الطينيّ الذي يجفّ في الجزء المشمس من الباحة، وجذوع نخل وكومة حصًى وكركور من حجر الوادي وبالة تبن وسطول الماء والنقالة التي يستعملها لجلب الطين من مجرى النهر، إضافة إلى الدعائم الخشبيّة التي التقطها هنا وهناك، والتي أسندت السقوف العديدة التي شيّدها في گلميم وخارجها، لأنّ من عاداته أن يجمع كلّ ما وقعت عليه عيناه، من أسلاك ومسامير وحبال وكلّ قطعة خشب لا تصلح... هذا البيت كان قد شيّده عند وادي تالمعدرث، وهو نوع من البيوت الغريبة الهندسة. وحشدَ كلّ طاقته ليشيد أغرب بيت في گلميم وخارجها، بغرف كثيرة وسلالم ودهاليز وأربعة أبراج مربّعة. لا تعرف هل هو بناء من ثلاثة طوابق أو أربعة، بسبب تداخل الغرف بعضها ببعض، وامتداد السلالم في اتّجاهات متباينة. سقطت جدرانه بعد الحريق الذي أتى عليه، ولم نعد إليه. أمّا فيضان الشتاء الفائت، والذي جرف نصف گلميم ببشرها وعرباتها وحيواناتها، فقد هدّ جزءًا كبيرًا من جناحه الشماليّ. وسقطت سقوف بعض الغرف. وظلّت تلعب فيها الريح والناموس وحشرات السنين التي مرت عليه مهجورًا. وتداعت أبواب النوافذ ومالت على الحائط في سبات سرمديّ. زال كلّ هذا الخراب وعوّضته نوافذ وأبواب وسقوف جديدة، وبياض مشتعل ويزداد الآن توهّجًا تحت الشمس،

إنّما لا تراه عيناها المختفيتان تحت المنديل المطرّز. الحوش الذي كان يسرح فيه الدجاج والإوز وتفوح منه روائحُ عطنة لذرق قديم، اختفى، وامتلأت بدلًا منه الأرضُ برائحة باقات النعناع البريّ التي وُضعت فوق المائدة. وفي الوقت الذي كنت أطوف فيه الصحاري وأنقلها من مكان إلى مكان، وفي الوقت الذي كنت أساعد على محاربة الجراد والقضاء على هذه الآفة، كان بابا يعيد إلى البيت ألقه القديم، كواحد ذي نيّات سيّئة.

ثمّ أخذ بيدها وقادها إلى إحدى الغرف، عبر دهاليز وجدران تزكو برائحة الجير الطريّة. نزعت مندبلها وسط غرفة واسعة، لا أذكر هل كانت موجودة من قبل، يتوسّطها سرير عريض ذو أربعة أعمدة بمظلّة فوقه وستائر من المخمل باللّونين الوردي والأخضر. بياض جير الجدران مشتعل. وهكذا، طوال المدّة التي أمضيناها نتساءل أين يمضي نهاره وجزءًا من ليله، معتقدين أنّه يرافق الوالدة إلى المقبرة، كان يعدّ الغرفة التي ستزهر فيها ذريّته الجديدة، كما يقول الآن، وهو يمسك بالمنديل، كما لو كان يمسك بهبة غالية... يعيد إليها المنديل ويطلب منها أن تحتفظ به على وجهها في كلّ وقت، حتّى لا تتوحم مستقبلًا على واحد أسود البشرة مثلنا، لأنّ ذاكرتها البريئة ستبقى محتفظة بصورنا القبيحة إذا ما استمرّت تعاشرنا وعيناها مكشوفتان. ولا أدري هل تسمع ما يخرج من فمه من تجديف. تحتفظ بالمنديل على وجهها على الأقلّ في حضورنا، حتّى لا يأتي الولد بأنف أفطس كأنف هذا الحرطاني، أو حتّى لا تتوحم على واحد من جنسنا، أسود البشرة قبيح الخلقة مثل طفلات زهيرة، ذوات الوجوه التي تشبه وجوه التيوس... أو مثل هذه الدابّة التي اسمها بناصر. وحتّى يزهر على شجرة العائلة الوليدُ الأبيض الأوّل... ولا واحدة من طفلات زهيرة خلّفت في نفسه ذرّة من الحماسة التي تهزّه وهو يراها تتجوّل في الغرفة، حاسرة ثوبها عن كاحليها الأبيضين... عندنا ما يكفي من الوقت لينتفخ البطن ونرى المولود الأبيض، المولود الأوّل الذي سيزيّن شجرة العائلة السوداء، المذمومة. هذا الجنس الممقوت، جنس إبليس، لا تعرفين أذاه... بعد عام، بعد عامين، عندما يأتيها الوحم، ستستيقظ صورنا القبيحة، وجوهُ التيوس هذه، وتغطس في دمها وتستقرّ في رحمها... وماذا سيحدث آنذاك، والعياذ بالله؟

تأجّج الغضب في داخلي بدلًا من السكينة التي تنبعث من الغرفة.غضب مفاجئ، مركّز، يشبه الشرّ؛ غيظ خالص لم أكن أتصوّر أنّني أختزنه، ولا أعرف كيف أبحث عن فكرة أخرى لأعوّض هذا السّائل المرّ

الذي يغلي في داخلي؟ ما أشعر به يشبه مرضًا أدرك بشكل فاجع أنّني لن أشفى منه. أكاد أسقط من الهلع وأنا أرى هذا الأمر الذي يشبه الهبوط إلى الهاوية. وعندما غادرنا، كان اللّيل قد بدأ يشقّ طريقه هابطًا نحو الأرض. ورأيت الوطاويط تغادر أعشاشها التي بنتها في زوايا بيتنا المهجور، مُحدِثة ضجيجًا يشبه صياح أطفال مشاغبين. تميل السماء الصحراويّة إلى حمرة بنفسجيّة، ودرجة الحرارة لم تخفّ حتّى في هذا الوقت المتأخّر من النهار.

الاثنين 7 يوليو 1958

خرجنا من دون وجهة. غرضي هو أن أقف على رأي نهائيّ، وحاسم. لا يغادر السّؤال لساني. ينام معي ويستيقظ معي، وعليّ أن أطرحه في الوقت المناسب، بعد قليل، حتّى أرى بوضوح أنا في حاجة إليه. في هذه اللّحظة بالذات، في جهة ما من الكرة الأرضيّة، يلتقي الرجل المرأة التي لم يكن ينتظرها، وتتغيّر حياته من الأساس. والسّؤال الذي يلحّ عليّ لا يخرج عن هذه الدائرة. ما أفكّر فيه يبقى في رأسي. هذا هو الأساسي، بدلًا من أن أقول هذا أفعله وهذا لا أفعله مثلًا، مركّزًا كلّ فكري في السّؤال. إنّها لم تعد تبحث عن نافع. وهذا أمر إيجابيّ ويساعد. مرت الأيّام وحملت معها نصيبها من النسيان. أفكار جديدة تملأ رأسي. عقلي متيقظ ويعجّ بالأفكار المثيرة، وكلّ الأمور الأخرى... لست دائمًا على صواب. لا أرى غير تفسير واحد للقلق الذي يستولي عليّ منذ أمس، والفوضى التي بعثرت أفكاري، وهذه المرأة التي أصبحت قلقي وفوضاي. أفكّر في نافع أيضًا. استقرّ في ذهني بعد أن اختفى من ذهنها. عليّ أن أنساه ما دامت توقّفت عن التفكير فيه. من الأحسن لنا أن ننساه لنبني شيئًا طيّبًا فوق هذا الخراب. وهذا ما أحاول أن أملأ به رأسي. التفكير الإيجابي. لنكن إيجابيّين بدلًا من هذا الكلام أو ذاك الكلام، وهذا من هنا وهذا من هناك، والأشياء الأخرى التي لا نفع فيها... إنّها بنت وحيدة، مقطوعة من شجرة بعد أن فقدت والدتها. شردت غزالة عن قطيعها، وتتلفّت حولها مذهولة تبحث عن حماية. وهذا هو الوقت المناسب، لأنّني أصبحت أعطف عليها أكثر من السّابق، وأقدّرها وأحترمها. ولكنّه لا يزال حاضرًا، كالعقبة، أو كجبل عالٍ يحجبها. حتّى في هذه الحالة التي لم يعد في إمكانه التبجّح فيها بنسائه العديدات، هناك واحدة تبحث عنه حتّى في نسيانها. نافع محظوظ حتّى في غيابه. لا أفهم كيف تهتمّ به إلى هذه الدرجة. السّبب هو أنّه لا يفكّر فيها؛ لا يصرف عليها؛ لا يفكّر في حاجياتها، ويبحث بين خردات الأسواق عن أشياء تعجبها، لأنّ الدنيا مصنوعة بشكل أعوج. هذا هو رأيي. مجرّد موزّع

رسائل. حزطاني كما يسمُّونه. لا يملك بيتًا وشاحنة، ولديه في كلّ مدينة امرأةٌ كما يقول. نافع لا يشغله التفكير في المستقبل. ولهذا، لا ترى وجهه عابسًا كوجهي. لا يأخذ الأمور بالجدّ اللّازم. خرجنا من دون وجهة مع أنّ كلّ شيء يشير إلى أنّنا ذاهبان للبحث عنه مرّة أخرى. الفرق هذه المرّة، هو أنّني لا أعرف إلى أيّ اتّجاه أوجّه شاحنتي. كلّ الأشياء في هذه الدنيا مبنية بالمقلوب، وتسير في طريق لا تريد أن تسير فيها. تقوم بعمل لم تختره. تقطن في بيت لا يعجبك. تختار المرأة التي لا تحبك... إلخ. كيف ينزل ابن آدم إلى هذا المستوى من الاستسلام؟ ما الذي يعجبه في الذهاب مطأطئ الرأس إلى الشراك التي سيسقط فيها؟ لا أحب الخوض في الصحيح وغير الصحيح... أو ماذا فعل فلان وماذا لم يفعل. وكلّ الأسئلة التي لا نفع فيها... لن أزعجها بالأسئلة. المرأة تزعجها الأسئلة دائمًا، ولو أنّها أسئلة تافهة من نوع ماذا تعشق امرأة في موزع رسائل أسود، لا وضعيّة له، ولا يستقرّ على حال... وكلّ الأسئلة الأخرى التي لا تنفع... سوى هذا السؤال الذي على طرف لساني، الأوّل والأخير.

لن نتعب من البحث عنه. مستعدّ للذهاب أبعد من أگادير ومراكش، حتّى تستمرّ جالسة إلى جانبي، وعبر طُرق غير سالكة حتّى لا تغيب عن عيني. هناك عصافير بنت أعشاشها في داخلي وتنتظر فجوة صغيرة لتنطلق مغرّدة في الفضاء الرحب. هذه أشياء خاصّة بي وتسكنني. نعبر طريقًا لا أعتقد أنّ أحدًا قد مرّ منها من قبل، كأنّما هدفي أن نضيع. أحجار في حجم البطيخ مولية كلّ جهدها نحو تخريب أعصابك قبل شاحنتك. هذه الطريق الحجرية لا تظهر حتّى تكون توغّلت فيها. إنّه سرّ من أسرار الأمكنة، كأيّ شرك. لا تظهر حتّى تكون عجلات شاحنتك قد غاصت فيها بلا رجعة ممكنة. بعد حقول الذرة وبعض البساتين بمنعطفاتها الظليلة. وامتدادات يغطّيها الدغموس والصبار والدوم، وجبالِ الأركان، ينفتح الشرك أمامك بشكل غير لافت، كغمام خفيف، يداعب حوافّ الشاحنة، آتيًا من جهة البحر... بلا وجهة. لا أراه. سواها لا أرى شيئًا. وجودها إلى جانبي هو الطريق، وهي الوجهة التي أقصدها. وجودها إلى جانبي هو المكان الذي أقصده والذي أحنّ إليه وسأحنّ إليه في كلّ آن. إلى جانبها، أسمع قلبي يدقّ بعنف. والشفتان تتيبّسان. أبلّلهما بلساني من دون فائدة. كما لو أنّني أصبّ الماء على رملٍ حارّ. وأقول إنّني على ما يرام إلى جانبها. وهي ملتصقة بالنافذة، وبعيدة، وتنظر إلى المَشاهد التي تعبر عبر الزجاج. وتتماوج أمام عيني أطيافُ ضوء لا مصدر له. إنّني على ما يرام. في كلّ مرّة أجدني في هذه الوضعيّة، قريبًا منها، أكون على ما يرام. نعم، لقد

نسيَته. وهذه الفكرة أعادت إليّ الأمل. ضغطتُ على الدواسة عدّة مرّات. تهلّل وجهها وهي تسمع المحرّك يُصدر حشرجات قوّيّة، يبذل كلّ جهوده حتّى لا يخذلنا. ولا أدري ما الذي أفضّله في هذه الساعة: أن يستمرّ المحرّك في حشرجاته، أم يصمت كما فعل بالأمس. ولا أدري هل فرحت وأنا أسمع قلبي يستعيد نبضه العاديّ. غمرني شعور بالدفء وأنا أحسّ بأصابعها تتخلّل شعري في حنان فائض، كالكلب عندما يضع سيده في فمه قطعةَ حلوى. سعيد إنّما ليس لي ذيل أهزّه حتّى ترى سعادتي. صعدت إلى عيني الدموعُ. ربّما إنّها تنتظر كلامًا لا أستطيع الجهر به، ويصعد حتّى الحلقوم ويتوقّف. مسحت عيني كأنّ حشرة انحبست فيها. إنّها لا تشبه امرأتَيّ السابقتين. إنّها لا تشبه أيّ امرأة. أنا متأكّد من أنّها لن تهرب كما فعلت المرأتان السابقتان. وهذا أيضًا لا أجهر به. لا أترك على وجهي أيّ انفعال يفضحني. أصبح هدير المحرّك طاغيًا، والشاحنة منطلقة، وليست لديّ أدنى فكرة عن الوجهة التي سيأخذها هذا النهار. مستعدّ للذهاب إلى أيّ مكان ترغب فيه. لا يهمّ أنّنا زرناه أم لم نزره من قبل. ونسأل عن نافع ونتلقّى الجواب السّابق نفسه: نافع. ما شفناهش. نبدأ من الصفر. مستعدّ من جهتي لأقوم بكلّ ما ترغب فيه. لو تريد فقط أن تبقى. لن ينقصها شيء. لو أستطيع فقط مساعدتها كي تبقى. نعم، هذا ما أردّد كلّ يوم، وكلّ ساعة. وخلال كلّ هذه الفترة التي ظلّت تزور بيتنا، ظللت أقول كلّ يوم، وكلّ صباح، ما ينبغي لي القيام به هو كذا وكذا. هل جاءت من أجل أن تبقى؟ هل هذا هو السؤال الذي أرغب في طرحه؟

سيبدأ بعد قليل الوضعُ غير المريحُ الذي أعرفه. سيفرز الجسد عَرَقَه. وتبدأ البقع تظهر تحت الإبط وعلى الياقة. عيناي على الطريق الساحلي الذي يأخذنا إلى جهة لا أعرفها، صوت الحجر وهو يتدحرج تحت الشاحنة وحولها. غادرنا گلميم منذ ساعة تقريبًا ولا أزال أجترُّ الأسئلة غير المعقولة نفسها... قد يظهر نافع أمامنا في هذه الطريق التي لم أخترها. ما الذي سيمنعه؟ الأمر دائمًا على هذا المنوال بالنسبة إليّ. لا أتّخذ قرارًا حتّى أندم عليه في الحين. أندم في الحال على كلّ مبادرة أيًّا يكن نوعها. وأتساءل، وأضرب هذا في هذا، ولا أخرج بنتيجة؛ أو بنتيجة واحدة ونهائيّة... كان عليّ أن آخذ طريقًا أخرى... مرتعب من فكرة أنّنا سنعثر عليه. تصوّر. مع أنّني سلّمته بنفسي إلى تلك المنظمة التي تطلق على نفسها اسمًا عجيبًا... اسمها؟ أبطال الحرّيّة المتوكّلة على الله. ماذا سيفعلون به؟ لأيّ غرض سيصلح؟ ينصب خيامهم ويُشعل مواقدهم ويطهو طعامهم ويغسل مراحيضهم. لأيّ غرض آخر قد يصلح حرطاني

مثله؟ أمَّا هي، فتبدو غير مبالية. إنَّها تتفرَّج على البحر وأمواجه التي تتكسَّر على الصخور، ولا يهمّها أن تسير الشاحنة فوق الرمل أو على الحجر، أو أن يظهر نافع أو لا يظهر. صرير الحديد وهو يتوجَّع وتكاد أجزاء الشاحنة تتطاير بسبب الطريق غير الموجودة... كلّ هذا لا يمسها ولا يعنيها. إنَّها مرتاحة البال، كما يجب. ولا داعي إلى التشكيك في الأمر. تخبط الأمواج الحافةَ الصخريَّة بقوَّة، ثمَّ تنسحب مبتسمة لتنقضَّ على الصخر الأسود بعنف أكبر.

مضت مدة ونحن نتأرجح، كما لو أنَّنا نمتطي ظهر ثور مسعور، نهتزّ على إيقاع ارتجاج مقصورة الشاحنة من دون أن تكفّ عن الالتفات إلى جهتي. اكتفيت بأن أمسح يدي المتعرِّقتين بسروالي، موجِّهًا كلّ تركيزي إلى البياض الذي بدأ يلوح أمامي وعلى جانبي: الشاطئ الأبيض. ماذا يفعل الشاطئ الأبيض هنا؟ ثمَّ اكتشفت، بنوع من السَّعادة، أنَّنا نسير في الطريق الخطأ. اختفت من ذهني كلّ الطرق. كيفما كانت الطريق التي أسير فيها فلن تكون غير الطريق الخطأ، كما لو كنتُ تعمَّدتُ أن أتيه. وهذا يحدث لأوَّل مرَّة. وأشعر أيضًا بدغدغة غير مفهومة، كمجرى هواء خفيف، كما لو كنت تعمَّدت أن أضيِّع الطريق نهائيًا.

هل سقط ثلج على الساحل؟ تركت الشاحنة الحجر وتوغَّلت في الطريق الرملي، من دون أن تدري إلى أين تسير. أكتشف هذا مذهولًا ومفتونًا في الوقت نفسه. تشقّ الشاحنة الطريق كما لو كانت تشقّ حقول الندف الثلجيَّة. تزعجه بين الفينة والفينة أكواخُ الصيادين المنتشرة على طول الساحل، أو منظر الصيادين الذين يعرضون سمكهم لعابرين غير موجودين. لم أكن أعرف قبل هذه اللَّحظة أنَّ للرمل مثلَ هذا الضوء، بحيث ظننت لأوَّل وهلة أنَّه ليس رملًا، وأنَّ الأمر يتعلَّق بغمام أو سحابة لا تزال غافية على الشاطئ. جمعت حفنة في يدي ونسيت الأفكار التي بلبلت ذهني في أثناء الطريق. حبَّاته ناعمة الملمس، كالريش، وخفيفة كزغب الفراخ. تركت حباته تسيح بين أصابعي وتتناثر حولي وتميل حيث تميل الريح. الشاطئ رمله أكثر بياضًا من البياض المعتاد. إنَّه ليس بياضًا بالمرَّة. لون أشبه بلون الحليب الصافي الذي لا تذكره، لأنَّك رضعته عندما كنت صغيرًا من دون أن تراه. والطعم طعم الحليب نفسُه، وله الرائحة والإحساس نفساهما اللذان يبقيان بعد أن يتلاشى الطعم. غادرت الشاحنة بدورها لتسير على الرمل الأبيض كما لو كانت تحلِّق فوق حقول الثلج، في هدوء الظهيرة الورديّ. والريح التي تصفر حولها غلّفت سطح الرمل بغلالة

خفيفة من الغبار الأرجوانيّ، بحيث إنَّ المشهد يزداد غرابة كلَّما حدَّقتُ في بياضه الجارح. ثمَّ وأنا أراها تتهادى كالبجعة في الغمام. نصفها العلويّ، العائم فوق غلالة الغبار، يتحرَّك، في هدوء، بلا ملامح واضحة. قريب وبعيد في الآن نفسه. ويتصاعد البخار الخفيف نفسه منها، ويدور حولها كالموسيقى. كلّ شيء يبدو قريبًا وبعيدًا في الآن نفسه. كما في الحلم؛ كما في حلم تتحرَّك فيه الأشياء بعد أن تخلَّصت من الجاذبية التي ظلَّت تأسرها. سراب يغمرنا معًا. سراب رمل وسراب بحر. وسراب شخصين في مكان آهل بمخلوقات دقيقة تشبه الريش. حتَّى خطّ الأفق الورديّ سراب. ووسط كلّ هذا تتحرَّك، وقد أصبحت الآن فتاةً أعرفها، وأحاول الإمساك، بها وتبتعد وتتلاشى كلَّما ابتعدت. صعدتُ إلى الشاحنة وأدرت المحرّك لألحق بها. تدور العجلات في الفراغ. لقد غاصت في الرمل حتَّى منتصفها. لماذا؟ حتَّى تعطي الفرصة للفتاة الغريبة كي تختفي نهائيًا. أليست هذه هي القاعدة؟ كما فعلت امرأتاي الأولى، والثانية، كلّ واحدة بطريقتها. هل هناك تفسير آخر؟ عندما اختفت في الضباب الأرجوانيّ بقيتُ لمدَّة مشغولًا بالمشهد المضحك الذي أجد نفسي فيه، من دون أدنى استغراب. هل هناك دليل أكثر وضوحًا؟

لم تأت وحدها امرأتي الثانية عندما جاءت إلى البيت. جاءت معها أمّها. وعندما استقرَّتا في البيت الجديد، وجدتهما تبعثران أثاثه كأنَّما تبحثان بين تضاريسه عن كنز أو عن تعويذة شريرة، أو عن شيء آخر لا أدري ما هو، ثمَّ تعودان إلى مراقبتي وهما تتهامسان وتنقّلان البصر بيني وبين كومة الأشياء التي تراكمت حولهما. تنظران إليّ ككائن غريب؛ كائنٍ طفيليّ نزل عليهما من دون توقُّع؛ ضيفٍ حلّ بلا دعوة؛ شيء ما فاسد استقرّ في بيتي منذ البداية؛ شيء بغيض، بالإضافة إلى رائحة الحرمل والفاسوخ والصوف المحترق وروائح أخرى أكثر إبهامًا. كما لو أنَّهما عثرتا على ساحة الحرب المناسبة. تستقرَّان في المكان المناسب للمراقبة من جديد، بعد المراقبة ورش أركان المنزل وقراءة التعاويذ. لا تفترقان حتَّى أكون أويت إلى فراشي ونمت بعين واحدة. تخرجان معًا وتدخلان معًا. لا تفترقان لحظة واحدة. كأنَّما لا بيت لأمّها، ولا عائلة عليها أن تهتمّ بها. المرأة التي أحاول أن أعتاد على تسميتها بامرأتي، تمضي النهار ممدَّدة في غرفتها أو في المطبخ تطلي وجهها بقشور الخضار، وتلحس أصابعها كالمنتهية من وليمة استثنائيّة. وإذا لم تكن ممدَّدة في غرفتها تأكل، فإنَّها تتجوَّل بين الغرف حاسرةَ الثوب حتَّى الركبتين. لا أفهم كيف تتغيَّر أمور النساء بهذه السرعة. من امرأة منطوية، صامتة لا أعرف حتَّى لون صوتها،

إلى واحدة مستقرّة تمامًا، في بيتها. وتغوّلت بعد أسبوع واحد من استقرارها، كأنّما كانت تسكن هنا منذ سنوات. البيتُ بيتُها والأثاثُ أثاثُها، تعبث به كما تشاء. كلّ الفضاء فضاؤها وتتجوّل فيه كما لو كانت في حديقتها. ولم أعد أجرؤ على دخول غرفتها مخافة أن تطردني. ظللت لمدّة شهر كامل، أيّام عزّ عاطفتنا، ظللتُ نادرًا ما أغادر البيت. وإذا خرجت، فإنّما لجلب أكل أو شراب، من السوق لها ولأمّها، الشاحنة هي الأخرى ظلّت عاطلة، يأكلها الغبار أمام البيت. حاولت، خلال ذلك الشهر، أن أتبدّل حتّى أنزل عند رغبتهما وتبقى على خاطرها هي وأمّها. أفعل هذا بدلًا من هذا، وأدخل هذا في هذا، حتّى تبقى على خاطرها. أذهب إلى الحمام مرّتين في الأسبوع. وأسخّن بقية الأيّام مقراج ماء لأغسل أطرافي. أترك ملابسي معلّقة في مسمار خارج البيت، حتّى لا تشمّ رائحة قد تزعجها، أو كي لا تجد الأمر سببًا لتقول كذا وكذا. صوتي هو الآخر تبدّل. أصبحت له نبراتٌ مختلفة، ذاتُ تلوينات غريبة، هامسة، على مقاسهما. وكلّ هذا لم يمنعها من الفرار عندما قرّرتْ أمّها ذلك. كلّ هذا انتهى فجأة. طردتني من حياتها نهائيًا. أصبحت تتجنّب النّظر إلى وجهي عندما أطلّ عليها، وعندما أسأل لا ترد عليّ. إنّهما اختفتا ذات صباح، هي ووالدتها، ومعهما أثاث بيتي وكلّ المشتريات التي وضعتها بين يديها كي تبقى...

ثمّ ظهرت، في الجهة الأخرى من الشاحنة، وهي تقطر، واقفةً أمامي بشعرها المبلّل، وغرّتها المنسدلة على جبهتها، وتبتسم شفتاها الحمراوان الرقيقتان. تقف على الرمل الأبيض، متوحّدةً بأشعة الشمس التي تنعكس عليها. تنزل خصلة شعر على جبهتها، وتمرّ وسط الخدّ، وتنتهي بين شفتيها المبلّلتين. هل ستسخر إذا ما بحثُ أمامها بما أشعر به؟ ربّما إنّه الكلام الذي تنتظره. ربّما إنّه الكلام الذي ينقصنا، والقنطرة التي نعبر فوقها الهوّةَ التي تفصل بيننا، بعد أن قرّرتْ نهائيًا أن نافع خرج من حياتها، ولم يعد مجديًا أن نبحث أو لا نبحث عنه... طلعت إلى عيني الدموعُ عندما ابتسمت شفتاها المبلّلتان، وشيء دافئ استقرّ في صدري. مسحتُ عينَيّ. لأوّل مرّة تبتسم منذ صعدت إلى شاحنتي. لا أذكر لحظةً أكثر تفاؤلًا. إنّها تبدّلت. هل غطست في البحر؟ لا يظهر على ثيابها بلل. هل غطست في البحر أم عثرت على البحر المناسب واكتفت بأن تنحني وتدلق صورة نافع في مائه، وتتخلّص منه نهائيًا وتخرج نقيّة، خفيفة، عذراء، مبتهجة كما تظهر الآن؟ ربّما إنّه الوقت الذي فكّرت في أن أسألها فيه، ثمّ عدلت عن الفكرة. لا أحبّ أن أخوض في السّؤال، والقيل والقال، أو هذا أقوله وهذا لا أقوله... إلخ. ثمّ قالت، عندما استنفدت الابتسامة إمكانيّاتها، إنّها وبابا سيستقرّان

في بيتنا القديم ريثما يعود.. ونسيث السؤال.

الثلاثاء 8 يوليو 1958

لم أتعرّف إليه وأنا أراه ملطّخ الوجه واليدين والثياب، ويتخبّط وسط عجين الطين، حافي القدمين. وقد رفع قندورته حتّى الركبتين، يحرّك يديه إلى الخلف وإلى الأمام وهو يدور وسط عجين الطين حتّى يبدو خفيفًا، مكتفيًا، مستغنيًا عن أيّ مساعدة، وحتّى يبدو ما يقوم به عملًا ممتعًا، غير مرهق بالمرّة بالنسبة إلى رجل ناهز السبعين. عندما انتبه إلى وقوفي، راح يضرب الأرض بقوّة كما لو أنّه يؤنّبني لأنّني أتفرّج عليه بدلًا من أن أساعده. يبدو الآن في أحسن حال، بين الاته وطينه وأخشابه، ومع فكرة إحداث نافذتين في الجدار الأمامي، لأنّه يفكّر أيضًا في الضوء الذي سيملأ البيت. بعد أن انتهى من ترميم أغلب الأجزاء التالفة من البيت الذي سيستقرّان فيه في انتظار مَن تبقّى من العائلة، فتح ثقبين هائلين في الجدار: النافذتين الواسعتين اللتين ستستقبلان ضوء النهار الجديد. يفكّر بابا في العائلة التي ستلتئم. تشدّ أزر بعضها البعض في انتظار المولود الأبيض الذي سينتقم لسنوات القهر والاضطهاد. ويفكّر في البيت الكبير الذي سيعود إلى أبهة لم يعرفها في السّابق، مع فرج؛ مع نافع؛ مع زهيرة التي عادت ومعها بناتها الثلاث ووجهها المنتفخ لأنّ رَجلها باع واحدًا من أولاده. ستشارك الوالدة في هذا الاحتفال على الرّغم من أنّها لم تعد ترغب في الذهاب إلى أيّ مكان. لم تعد توقد أفرانها بسبب قلّة ما تطبخ. لم تعد الوالدة تُخرج أوانيها كما في السّابق. استقرّت نهائيًا خارج المطبخ وخارج البيت. استقرّت ما بين البيت والمقبرة. وماذا تفعل طوال الأسبوع؟ إنّها تتذكّر أعمامها وأخوالها. تستعيد سيرتهم. وفكرة واحدة تؤرّقها: رغبتها في أن تُدفَن حيث دفن آباؤها وأجدادها... نعم. لم يبذ سعيدًا مثلما هو الآن. يوليني ظهره ويستمرّ في دورانه ورفس العجين بقدميه الغائصتين حتّى الكاحلين. ثمّ أسمعه يقول: سيحتاج إتمام العمل إلى أسبوع على الأقلّ. ويتمنّى ألّا يعود نافع قبل هذا التاريخ. ينحني على عجين الطين ويغمس فيه يديه. يمدّ يده إلى سطل الماء ويفرغ اخر قطراته على العجين ويعود إلى الرفس والدوران. يتوقّف ليسأل عنها ولا أردّ. لا أقول لم أرها هذا النهار، أو إنّها في عملها في فندق الحظّ السّعيد، أو كذا وكذا. يكفّ عن الدوران. يتراجع خطوات ليتأمّل الفجوتين وليعاين مقدار الضوء الذي قد تسمح به نافذتاه. أساعده على تثبيت أحد الإطارين. ألتفت إلى الباب العريض الذي يقود إلى الغرف. يخترق احمرار آخر النهار السقوفَ التي لم يصلها الترميم بعدُ، وينشر على الأرضيّة بقعًا من الضوء

البنفسجيّ تستر ما تبقّى من الخراب الذي أحدثه المطر والشمس والحريق. يجلس ليمسح عرقه ويحدّق في الشمس الغاربة بعدوانيّة، لأنّها عبرت السماء بأسرع ممّا ينبغي لها. انقضى النهار وانتهى الأمر، وعليه أن ينتظر الغد ليعود إلى العمل. ينهض بسرعة ليستأنف العمل. ساعدتُه لنقل الآجرّ الذي يبس بالقرب من النافذتين. أردت أن أرشّ الماء على الآجرّ فوجدت السطل فارغًا. قلت له: هذا العجين ينقصه الماء يا بابا، مفكّرًا في أنّني لن أذهب أبعد من هذا. وعندما انتهيت من التفكير في الماء بدأتُ أرض الآجرّ تحت كلّ نافذة... وأنا أنظر إلى البئر وأتمنّى ألّا ينزل إليها لجلب الماء. لكن بابا لا يدرك نيّاتي، مستمرًا في تفحُّص عجينه، وتقليبه بين أصابعه المفتولة كالحبال... حتّى اللّحظة التي رأيته يقصد البئر. وأحسب الدقائق، حتّى اللّحظة التي رأيته يختفي فيها، جزءًا جزءًا، وأحسب الدقائق، وأنتظر وأنا أقول: ليس الآن... فيما بعد. وينزل إلى البئر، وأسمع الصوت الأجوف الذي يُحدثه السطل الفارغ وهو يصطدم بخشب السلّم. حتّى اللّحظة التي رأيتني فيها أتنصّت عليه في قاع البئر وهو يملأ السطل. ليس الآن... فيما بعد. ثمّ أطل ثانية وأراه، في العتمة الضيّقة لقاعها. ويستعدّ ليصعد. وأقول إنّه يستعدّ للصعود، ربّما فيما بعد. وأحسب الدقائق، وأنتظر وأنا أقول: ليس الآن... فيما بعد. ثمّ أجذب السلّم.. شخص آخر جذب السلّم، وأنا أحاول أن أمنعه من دون أن أفلح. هكذا يجيء هذا الوقت الذي لا يرى فيه المرء الشخصَ الذي حلّ محلّه، ويتركه سائبًا، غيرَ مهتمّ بما سيقول ولا بما سيفعل. كأنّما الأمر حُسم في مكان آخر ولا سبيل إلى الاعتراض أو الاحتجاج، ولا سبيل إلى التراجع. حتّى عندما اقتربت من البئر وجذبت السلّم خارجه، كنت لا أزال أردّد: ليس الآن... فيما بعد. أمّا في قاع البئر، فلم يصخ أحد أو يطلب نجدة. إذن، لا أحد في البئر، أليس كذلك؟ ثمّ أخذت كلّ ما جمع بابا طوال الأيّام السالفة، من آجرّ وقطع خشب وجذوع نخل، ورميتها في البئر، وردمتها، لأنّ لا أحد فيها. وابتعدت وجلست على عتبة البيت لأرى إن كنت سأبكي. جلست بعيدًا، بعيدًا عنها، منتظرًا أن يخرج، منتظرًا أن يخرج من البئر صوتٌ أو صياحُ استغاثة، وأنا أعرف أن لا صوت سيخرج من تلك الحفرة. والسّبب؟ لا أحد في البئر. والدّليل؟ أطلّ من جديد ولا أرى أحدًا. جذبت السّلّم لأنّ لا أحد في البئر. كان هناك شيخ طاعن في السنّ، مترهّلٌ، وأكثرُ شيخوخة من أيّ شجرة، ولكنّه لم يعد هنا. عاد إلى الغابة، عند أهله؛ إلى مملكة مندثرة اسمها مملكة الداهومي، حتّى يروا آثار الأصفاد حول المعصمين وآثار الحديدة التي ربطت ساقيه وهو فوق مصطبات أسواق العبيد في مراكش

وفاس؛ حتّى يسألوه لماذا أنجب أولادًا لا يرغب فيهم أحد. أين هو بابا الذي كان يُضحك الناس بنكاته وتكشيراته... والكلمات البذيئة التي كان يطلقها عندما يهرشونه حتّى يُخفي صورته الأصليّة؟ عاد إلى مملكة الداهومي. أين هو بابا الذي يحكي لزبائن المقاهي قصصًا طريفة عن الولد الذي يشتغل في القصر الملكي، والذي سيعود قريبًا؟ عاد إلى الغابة. لن يحكي قصصًا بعد الآن، لها أو لغيرها... لن يحكي لها النكاتِ وهو يمدّ الطعام إلى فمها. والثوب المزركش الذي كانت تضعه على عينيها حتّى لا ترى وجوهنا المغضوب عليها، وحتّى يأتي مولوذها في كامل بياضه... وكلّ شيء... وكلّ شيء. نعم، ومزايا العائلة حين ستلتئم... والهبات الملكيّة التي لن تتأخّر في الوصول... أتذكّر الآن تصرّفاته الجديدة، عندما حلّت البنت في خياله، والعنايةَ التي أصبح يوليها لمشيته وحركات رأسه في الأيّام الأخيرة، ولهندامه، والابتسامةَ الرزينة التي عوّضت قهقهاته الهازئة، ومشيتُه التي أصبحت حركاتٍ راقصةً، واللّباسَ الجديد الذي اشتراه: قميصًا أحمر فوقه جلباب أخضر من الصوف في لون الفستق. وترك لحيته تنمو حتّى تكتمل صورة الوقار التي يريد أن يظهر عليها عندما تلتئم العائلة من دون التكاميش التي تفضح شيخوخته. استمرّ يراقب نموّ لحيته المضحك وتطوّرها وتشعّباتها الغريبة حتّى اقتنع بأنّ الشعيرات الملتوية التي نبتت وتكوّرت وصارت كالزبيب، لم تفعل سوى أن تردّ إليه صورته القديمة عندما كان يمضي اليوم في إطلاق النكات واختراع التكشيرات المضحكة كالقرد، فحلقها واكتفى بالجلباب الأخضر والمشية الراقصة والطربوش الأحمر، والجلوس عند الباب على كرسيّ من الدوم ينتظر مجيئها. أفكّر في أن أذهب لأطلّ عليه، ثمّ قرّرت ألّا أهتمّ بالأمر، لأنّنا لم نعد في حاجة إلى إضافة كلمة من هنا وكلمة من هناك، وهذا أقوله وهذا لا أقوله، وكلّ الكلام الذي لم تعد له أدنى أهمّيّة الآن، لأنّ المهمّ قد حدث. انتهت سلالة الشياطين: السود الحاملين كلّ شرور الدنيا. ولن يأتي بعد الآن أيّ أسود من أدغال أفريقيا ليزرع شؤمه ونحسه ونحس سلالته من بعده. أما آن لهذا الشرّ أن يختفي من على ظهر الأرض؟ أصيخ السمع وأدرك أنّه لا يطلع من تحت الأرض أيّ ألم. الأسود لا يتألّم، سواء فوق الأرض أو تحتها، أو في قاع البئر. هذا ما أتصوّره، لأنّ الألم غير موجود بالنسبة إلى جنسنا. وحتّى إذا وجد، فإنّه سرعان ما يتلاشى. لا يبقى بالحدّة نفسها إذا طال. مع استمرار الألم تنقص حدّته حتّى الوقت الذي لا يعود ألمًا، وخصوصًا بالنسبة إلى جلدة خشنة تشبه جلدة التمساح. ثمّ يأتي وقت يصير فيه الألم مجرّد حالة نفسية تضايقك أكثر ممّا توجعك.

أليس كذلك؟ على أيّ، فأنا فَرِح لأنَّ نسمة خفيفة هبَّت عليَّ من جهة الغرب.

عندما أفكّر في نفسي، وهذه أصبحت عادتي في الأيّام الأخيرة، عندما أفكّر في نفسي على النحو الذي اعتدت عليه... إلخ، وفي الأحداث التي تعاقبت عليَّ، ومع سوء الحظّ الذي أسبح فيه طوال الوقت وبلا مبرّر... لا أجد ما أقول. أنا في الحقيقة لا أطلب شيئًا؛ هدية أو التفاتة أو كلمة شكر... إلخ. على أيّ، لن يهتمّ أحد بهذه التفاهات التي تعشش في فكري لأنَّ ما أقوم به غير مهمّ بتاتًا. حتَّى الشاحنة لم أشترها. تصادف أنَّ رحل صاحبها إلى لاس بالماس وبقيت مركونة جنب البيت لأنَّه لم يعثر على مشترٍ يخلّصه منها. من سيشتري شاحنة متداعية لا تقوى حتَّى على حمل نفسها؟ إلى درجة أنَّني اعتقدت لفترة أنَّ هذه الآلة التعيسة هي سبب سُوء الحظّ الذي يلاحقني، والأفكار السّوداء التي تستولي عليّ. لست أدري كيف ولا متى استقرَّت هذه الأفكار في رأسي كالعاهة... ألوكها طوال النهار وأدخل في متاهات لا أوَّل لها ولا آخر. أدخل هذا في هذا... وهذا من هنا وهذا من هناك... إلخ. أنا إنسان متوسّط؛ إنسان دون المتوسط. وأتساءل أيضًا لماذا تشغلني أفكار تافهة كهذه. وأحاول أن أتخلَّص منها، وبدلًا من هذا تظلّ تحفر وتحفر... وهذا في حدّ ذاته ليس أمرًا طبيعيًا. يحلو لي أن أسمّي الأشياء بأسمائها، فأقول مثلًا إنَّني إنسان غير طبيعيّ، أحيانًا، مع أنَّني طبيعيّ. وهذا هو المضحك في حالتي. تطلع إلى عيني الدموعُ عندما أفكّر في هذا الأمر. أنا شخص بئيس وجدير بالازدراء. والسّبب طبعًا أعرفه. السّبب هو أنَّ امرأتيّ الأولى والثانية غادرتا البيت، ولم تتكلَّفا حتَّى عناء إخباري، أو ترك الخبر عند الوالدة أو عند الجيران. لا يوجد سبب آخر. والذي يدّعي أن هناك سببًا آخر، إنَّما يكذب. كلّ واحدة وجدت طريقتها الخاصَّة لمغادرة البيت. ولماذا؟ أن أكون إنسانًا تافهًا، متوسّطًا، أو دون المتوسط ليس مبرّرًا. كلّ إنسان يأتيه رزقه حتَّى باب بيته، إلَّا أنا. كل واحدة لا تستقرّ أكثر من سبعة أشهر أو تسعة أشهر، أو أكثر قليلًا أو أقلّ. لا يهمّ. المهمّ هو أنَّهما لم تتجاوزا السنة. لا الأولى ولا الثانية. وهذا أمر غير طبيعيّ. كما لو أنَّهما كانتا على اتّفاق. الفرق فقط هو في الطريقة. امرأتي الأولى لم تقل إنَّني إنسان فاشل، أو بئيس، أو متوسّط، أو واحدة من هذه الأفكار التي تعشش في رأسي. هذه المرأة العادية، والتي جلبتها من بادية مراكش، والتي سمَّيتها المراكشيَّة حتَّى أمدّ حبل الودّ بيننا، قالت لي بعد شهرين من إقامتها إنَّها لا تنام بسبب شخيري. شغلتني فكرة أنَّها تمضي اللَّيل سهرانة، منكبَّة على وجهي

تُحصي أنفاسي. قالت إنَّ شخيري يوقظ الموتى من قبورهم. حزنت من أجلها وأنا أتصوَّرها تتقلَّب في الفراش بلا نوم، مفكِّرًا في الالتحاق بسريرها متأخِّرًا، متأخِّرًا جدًا، حتَّى يكون اللَّيل تجاوز نصفه، عندما تكون نامت وشبعت نومًا... ومن قال إنَّها لا تشخر هي الأخرى ونحن نائمان؟ فكَّرت في هذا، وفي غير هذا، وأنا أنتقل إلى الغرفة الأخرى، فاسحًا لها المكانَ لتتمرَّغ في سريري على خاطرها. وأفكِّر في الأمور على نحو آخر. وأمضيت ليالِيَ من دون نوم، مكتفيًا بمراقبتها. ومع ذلك، ظلَّت تقول إنَّها لا تنام. وقد يكون هناك سبب آخر لا علاقة له بالشَّخير. لا يتعلَّق الأمر بالشَّخير تمامًا، ولكنَّها لا تحتمل وجود رجل إلى جانبها في السرير. أيًّا يكن هذا الرجل، يبدُ الأمر أكثر وضوحًا الآن، كما بدت فكرة الشخير غير معقولة منذ البداية. هذه المرأة المراكشية، العادية، ترفضني في فراشها، كما لو أنَّها ملكة أو أميرة. وهي جاءت من البادية بلا حذاء، وتبغضني، وتحتقرني، وتحاول إذلالي من دون أن تقولها بالحرف، بسبب شيء لم تفصح عنه. قد تكون تعرَّفت إلى رجل ثانٍ. هذا هو السَّبب؛ أو ربَّما كانت على علاقة به حتَّى قبل الزواج. هذا أمر يحدث باستمرار. من يستطيع أن يقول إنَّه يفهم النساء؟ لا يهدِّني العمل بقدر ما تهدني هذه الأفكار. أبقى في الغرفة المجاورة ساهمًا، منهَكًا. والغرفة باردة. البرد نفسه الذي يسرح في ركبتي، وأنا أتصوَّرها تتمطَّى، ممدَّدة في سرير لا وجود لي فيه، سعيدة بإنجازها البئيس. الغرفة الأخرى التي كانت غرفتي مشغولة الآن. لا يفصلني عنها غيرُ حائط رهيف. أتتبَّع في خيالي حركاتها في الجهة الأخرى من الجدار. فيمَ تفكِّر؟ ممدَّدة في الفراش وتتلوَّى عارية، مفتوحة، مستعدَّة لاستقبال الرجل الآخر. ذلك بأنَّ هناك دائمًا رجلًا آخر في حياة أيِّ امرأة؛ رجلًا تحبه فعلًا حتَّى لو لم تكن رأته سوى مرَّة واحدة؛ حتَّى لو لم تكن رأته مطلقًا؛ حتَّى لو لم يكن له وجود أصلًا. وستفتح له الباب عندما أكون غادرت البيت لأقتني لهما ما يأكلانه، وهما يتقلَّبان في الفراش، ويضحكان، ويعتقدان أنَّهما الإنسانان الوحيدان المنسجمان في هذا العالم... فكرة الخيانة فكرة مثيرة دائمًا. فجأة يحلّ محلَّك رجلٌ آخر، يزيحك ويتربَّع على عرشك، ويخطر في باله أن يتعرَّف إليك، ويراك في بيتك بين ذويك، ويرغب في أن يتعرَّف إلى طريقة عيشك واهتماماتك. وقد يبدأ في احتقارك بشكل أوضح بمجرَّد جلوسه إلى مائدتك، لأنَّه أصبح ربَّ العائلة الفعليّ، والمثاليّ، والمطلَق، وبلا مسؤوليّات. حضوره في ذهنها كافٍ لتتغيَّر الحياة الرتيبة الهادئة التي كانت حياةَ العائلة حتَّى الساعة. شبح حلَّ بالبيت لا أحد يراه. يأكل إلى مائدتنا ويندس في الفراش بيننا،

ولا أحد يراه، لا الزوج ولا الأطفال ولا الضيوف. يرون فقط أنَّ تبدُّلًا طرأ على المرأة ولا يعرفون إلامَ يردُّونه. أصبحت تسهو كثيرًا. تنسى الطبيخ على النار حتَّى يحترق. تكحل عينيها بلا وقت. وتغنّي بلا وقت، ولم تعد تهتمّ ببيتها كما كانت. لا أحد يعرف... وفي الشهر السَّابع أو الثامن اختفت. ربَّما كانت امرأة طيّبة لأنَّها فكَّرت في الحلّ الأنسب، لأنَّني ظللت خلال الشهرين الأخيرين أمضي النهار أفكّر فيها، وفي الرجل الآخر، العشيقِ غير الموجود، والذي يمضي اللَّيل يتمرَّغ على فراشي بينما أنا جالس في الغرفة الباردة أشرب الغيظ والندم. ثمَّ أصبحتُ عندما أعود في المساء من العمل، أقف عند الباب مذهولًا، وأنا أتساءل هل سأجدها عندما أفتح الباب، أم ستكون جمعت أغراضها وانصرفت، وعادت إلى أهلها أو ذهبت مع الرجل الآخر؛ العشيقِ غير الموجود، والذي تحبّ. استغرق التفكير فيها كلَّ وقتي وملأ رأسي بالممكن وغير الممكن. هل يوجد رجل آخر؟ شابٌّ وسيم لعبت معه في الزنقة الألعابَ التي تحرمني إيَّاها. شابٌّ وسيم ومَرِح وليس كمثل هذه الجلدة المكمشة والكئيبة والتي لا لون لها، لا بيضاء كسائر البشر ولا سوداء كبشرة نافع... وببساطة، قد يكون هذا النفور المزمن عائدًا إلى لون بشرتي... من كثرة ما عركتها وفركتها وغسلتها، فإنَّها اتَّخذت لونًا باهتًا، مسخًا... صرتُ بلا لون. هذا هو السَّبب.

الأربعاء 9 يوليو 1958

حمّى، ولكنَّها خفيفة. والعقل يلفّه هذه الأيَّام ما يشبه الضباب، حتَّى إنَّني لم أنتبه إلى الطريق التي قطعناها حتَّى البيت. أمضيت الوقت في التفكير في المفاتيح حتَّى لا أفكّر فيها، وفي الأشياء الأخرى التي ستحدث. حمّى خفيفة أحسّ بها على أطراف أصابعي أيضًا وعلى حافَّة أذني، وعلى جبهتي، ولا أهتمّ بها حتَّى لا أترك أيّ فكرة غبية تشوّش أفكاري. إنَّني أتهيَّأ، وأهيّئ الجوّ المناسب، وفي داخلي غبطة تأكلني كالحمّى التي يسبح فيها جسدي. كلّ شيء بدا غريبًا منذ فتحت الباب. وها هي تدخل بيتي لأوَّل مرَّة، وها أنا أتوقَّع رحيلها، في اللَّحظة نفسها التي تجاوزت فيها عتبة البيت. كالمرأتين السابقتين؛ ما إن تستقرّ المرأة في بيتي حتَّى يسكنني هاجس رحيلها الوشيك. هكذا، بلا أدنى سبب. كأنَّما عملي الوحيد هو أن أتنبَّأ وأجلس أتفرَّج على نبوءتي وهي تتحقَّق.

أتحرَّك في البهو وأنا لا أعرف أنَّني أتحرَّك. أغيّر وضع الأثاث في الغرفة من دون أن أنتبه. أنظّف الأرضيَّة من دون أن أحدث أدنى صوت. أضع على المائدة أربع شموع وأشعلها في وضح النهار، وهي تتأمَّل ما يجري حولها. إنَّها جالسة تحت النافذة، في انتظار أن تلتحق بي، أجلس

على السرير في الجهة المقابلة. أنظر إلى الساعة في معصمي وأنا أقنع نفسي بأنَّ كلّ شيء ممكن من دون أن أعرف ما أعنيه. اليوم يوم أربعاء. يوم يدعو إلى التفاؤل... مرتاح مع نفسي وأنا أراها تأخذ وقتها الكافي، تحطّ بصرها على كلّ قطعة في البيت. هل ستبدأ في تغيير نظام الأثاث؟ وأعدّ: واحد... جوج... ثلاثة... وأفتح عينَيّ على وسعهما حتّى أبدو جدّيًا، مرتاحًا، وأنا غير مرتاح في كلّ ما أقوم به وما أفكّر فيه. أذهب إلى النافذة وأطلّ على الزنقة. النافذة تطلّ على سماء، وخلاء فيه أشجار قليلة، وزنقة فارغة وصامتة، عبرها ثلاثة مسلحين في يوم سابق، وأخذوا معهم رجلًا لا أرغب في ذكر اسمه في هذه الساعة الدقيقة، والحاسمة. هل أغسل أطرافي الآن، أم فيما بعد؟ وأحلق ذقني وألبس قميصًا أبيض نظيفًا. كلّ هذا قمت به في الصباح الباكر. كلّ هذا سأقوم به مرّة أخرى، ولكن فيما بعد. ذهبت ليلة أمس إلى الحمّام، وسأذهب إليه ثانية، إنّما فيما بعد... كلّ هذا وارد، إنّما ليس الآن. بعد ذلك الشيء. الحمّام والصابون المعطّر، والذهاب حتّى ميناء إيفني، وأكل الأسماك الطرّيّة... كلّ هذا ممكن وممكن وممكن، إنّما فيما بعد. وربّما ذهبنا عند بابا، ونضونا عنه غبارَ البئر، وتقاسمنا معه السمك الذي جلبناه... ثمّ، ها هي الساعة تدقّ من جديد... واحد... جوج... ثلاثة... تسارعت دقات القلب. لماذا لا يتأخّر قليلًا هذا الرقمُ الأخير ليمنحني فسحة من الوقت لأتأمّل، على خاطري، كلّ ما يمكن أن أقوم به قبل أن أقوم به؟ كفاكهة عليك أن تتلذّذ بطعمها بعضَ الوقت قبل أن تقطفها. وأعد واحد، جوج... وأمنح رقمَ الثلاثة هذا، لحظةً، متمنّيًا أن يتوقّف بدوره، أو يتباطأ قليلًا على الأقلّ. رقمُ ثلاثة هذا، يستريح من عناء الطريق التي قطعها، يأخذ له نَفَسًا، على الأقلّ. وهي؟ ماذا تفعل خلال هذه اللّحظات المارقة؟ إنّها تتلهّى بالقلادة التي حول عنقها. قلادة من العقيق تتدلّى منها خمسة قلوب من الفضّة. في أصابعها عدّة خواتم، فضّيّة هي الأخرى. والكحل في العينين، وشقائق النعمان على الشفتين. أتأمّلها قطعةً قطعة. القميص المزوّق والحذاء الأحمر. أمامي الوقت الكافي. ليس الآن، بل فيما بعد. وأعدّ: واحد... جوج... وأتوقّف. كأنّما آخذ الوقتَ الضروريّ للانتقام من اللّحظات السّابقة في الطرقات القاحلة، والانتظار الطويل، والمرهق، والمذلّ؛ تلك اللّحظات التي مرت عليّ. الكحل الأسود زاد عينيها اتّساعًا. والأحمر زاد شفتيها المكتنزتين نهمًا. كأنّما تستعد لتلتهمني بدورها. ليس الآن، بل فيما بعد. بينما أنا أنتقل إلى المطبخ لآتي بالحلوى التي اشتريتها، والحليب والمونادا والجبن والزبدة، وكلّ الأشياء التي أكلتها امرأتي قبل أن تهرب. وضعت الصينيّة عامرة أمامها، ورحت

أفكّر في هذاه ال «فيما بعد». ما معناها؟ مركزًا نظري في الزليج، متحاشيًا النظر إليها. أعدّ الزليج لأركز في الأساسيّ. والأساسيّ هو هذا الحضور المباغت، والهلع المصاحب له. أخرجتْ مشطًا وبدأت تصفّف شعرها، في تؤدة. ورمته بحركة خفيفة إلى الخلف، واتّكأتْ على الجدار، ومرّرت يدها على شعرها، مكتفيةً بهذا القدر، كما لو أنّها خافت أن يُصيبني بياض بشرتها بالعمى. كما لو أنّها قامت بواجبها كاملًا، وآن لها أن تستريح، مانحةً إيّاي مهلةً للتفكير في كلّ ما يحدث أمامي. أغمضتْ عينيها وتركتني أسبح في بحر وجهها النضر، محاطًا بهالة الشعر الأسود الكثيف، والناصع بفعل أشعّة النهار المطلّة عليه من النافذة، أو جزاء ضوء داخليّ، كما العطرُ الذي يفوح منها، مضوعًا أركان الغرفة. إنّها مغمضة العينين. صدرها يعلو ويهبط في طمأنينة. لا أعرف كم مرّ من الوقت وأنا لا أجرؤ على أدنى حركة. مشلول تمامًا، كأنّما أخاف أن يتبخّر البهاء. لا أجرؤ حتّى على مدّ يدي إلى الحياة المنبسطة تحت ناظري في سخاء. هل أنتظر أن يتفجّر من نهديها الحليبُ لأرتوي؟ غمرتني كآبة مفاجئة، وعرفت أنّ الدموع التي صعدت إلى عينَيّ ليست دموع حزن.

تراودني، لأوّل مرّة، أفكارٌ غريبة عليّ وأنا أجلس إلى جانبها. كأن أفكّر في عضوي مثلًا، وأرى أنّه بعيد عنّي، لا حياة تنبض في داخله. وماذا لو لم أتمكّن... ثمّ أعود بالقرب منها، مشوّشًا بعضَ الشيء، قَلِقًا بعض الشيء. وأطرد أفكاري التافهة، أسخر منها، وأراها جالسة على اللّحاف، وجهها مستند إلى الحائط، في نصف التفاتة، وخيط شمس يسيل على أرنبة أنفها ويشق شفتيها المفترتين قليلًا. المائدة المُعَدّة سلفًا، ها هي. وبعد؟ أربع شموع تضيء محيطها، وكوب شاي مصبوب. وصلنا إلى نقطة لا ضرورة معها لكأس شاي أو غيرها. تقول الابتسامة أكثر ممّا توحي به. والجبهة العريضة الناصعة، والشعر المسترسل على كتفيها كشلال معطّر. إنّني متعجّل. أصبحت متعجّلًا فجأة. لن توجد لحظة غير هذه اللّحظة. لن توجد فرصة غير هذه الفرصة، الأولى والأخيرة، كي أتغيّر وأصير آخرَ، كما أردت دائمًا أن أكون، وأقتحم مناعتها وأفرض نفسي. لم يعد أمامنا وقت نضيّعه. بكلّ العنف الذي خزنتُه خلال الأيّام التعيسة والتي مرت عليّ، مددتُ يدي ووضعتها على فخذها. اصطبغ لون وجهها بحمرة قرمزية، ثمّ علته بقع صفراء، وانكمشتْ على نفسها وقد تعاقبت على بشرتها ألوانٌ شتّى. ابتعدتُ ففتحتْ عينيها واستعادت ألوانها البهيّة، كأنّما اطمأنت. تقول ابتسامتها إنّني مسالم وغير مُؤذٍ. مرتاحة من هذه الناحية؛ مرتاحة تمامًا. وأنا لا أريد أن أكون مسالمًا. لماذا لا أكون متهوّرًا ومؤذيًا وشريرًا؟

إنَّها اللَّحظة المناسبة. وأعتقد أنَّني كنت على حافَّة البكاء، وأرتعش... سينتشر بعد قليل أمام عيني بهاءُ صدرها الأبيض، العاجيّ. وربَّما سنذهب أبعد، بعد قليل أو الآن. الصدر السخيّ، الواسع، والفخذان وعضلاتهما المشدودة والمثلَّث الحليق... وأضمّها إليّ وأرتوي. وضعت يدي على فخذها ثانيةً، ومررت يدي، وبدلًا من التيَّار الذي كنت أتوقَّع أن يسري في أصابعي، بدلًا من الحرارة التي انتظرت أن تصعد من تحت الثوب، رميت مخزوني المَنَويّ بمجرَّد أن لمست يدي سروالَها. وانتهى كلّ شيء. يبعث الأمر على الضحك. ضحكتُ مداريًا خجلي. تراجعتُ متلفِّحًا في خزيي. أحسن ما يمكن أن يقع لي لحظتها هو أن أذوب ويبتلعني التراب. أنهض متجنِّبًا النَّظر إليها، مختبئًا وراء ضحكتي الباهتة. على سروالي بقعُ المني بدأت تسرح. وعلى وجهي التصقت ضحكتي البلهاء حتَّى وأنا أعرف أنَّني لم أعد أضحك. التصقت عليه بشكل نهائيّ. وَشَمَتْه. أنهض بعد أن وسَختُ سروالي، وفاحت رائحتي. أنهض بعد أن دنستها قبل أن ألمسها. على وجهها ضحكة محبوسة. شقائق النعمان على شفتيها لم تعد حمراء. وهذه الضحكة المحبوسة ستخرج مدوية، من فمها وأنفها وعينيها، الآن أو فيما بعد. إن لم أسمع دويّ انفجارها الآن فلأنَّه ينتظر الساعة المناسبة. سأسمعه بعد قليل أو غدًا. سأسمعه دائمًا وفي كلّ لحظة. ولأوَّل مرَّة في حياتي، أسمع ضحكًا آتيًا من داخلي. كأنَّ شخصًا يهزأ بي في الخفاء. وماذا تقول الضحكة الهازئة؟ هؤلاء السود وما يُحكى عن كنزهم المنتصب دائمًا... بوف... خجلي لا حدود له... لم يقع شيء... هذا سَحاب عابر سينقشع... هل الأمر كارثيّ إلى هذه الدرجة؟ هذه غيوم جاءت لتستمرّ. في المرة القادمة، ستعرف كيف تتصرَّف. مدرك تمامًا أنَّ المرَّة القادمة لن تأتي. المرَّة القادمة بعيدة، بعيدة جدًّا بالنظر إلى المجهود الذي بذلته كي أصل إليها. ثمَّ وأنا واقف في مكاني، أراها من علِ الآن، وأضحك في سرّي. خرجتُ وأنا أقهقه، كأنَّ شيطانًا استيقظ في داخلي. تركت الباب مفتوحًا وذهبت إلى السوق واشتريت سمكًا مقليًا وبطاطس مقليَّة وفلفلًا مقليًا. وانتبهت إلى أنَّني ابتلعتها من دون أن أنتبه.

موزِّع الرَّسائل الذي يسمُّونه الرقَّاص

الأربعاء 9 يوليو 1958

الجوّ، كما كان بالأمس، هادئ، ساكن، نقيّ، بألوان تفيض بالبهجة، كأنَّما انتشرت هنا للرونق. بنفسجيَّة في القاعدة وتتدرَّج إلى الورديّ، وهي ترتفع. والجبال في الخلف حمراء، كأنَّما العواصف الرمليَّة التي زعزعت استقرار الأيَّام السابقة لم تكن سوى حلم. فجر ورديّ يُنسيني الزنزانة، فأقول ربَّما كان لهذه الحجرة حسناتها أيضًا، ما دامت تطلّ على هذا المدى الرَّحب والملوَّن. بقدر ما تخنقني رائحة الزنزانة ينعشني هواء الصحراء. وهي حجرة مستطيلة وضيِّقة جدًّا، أرضيَّتها من تراب ويغلفها حصير من سَمار أفسدته الرطوبة. الجدران الطينيَّة غير مطليَة، بحيث تمتدّ العتمة على الوتيرة نفسها، لا أميز فيها اللَّيل من النهار سوى من خلال الكوّة. يأتي النهار من الكوّة لأنَّ الباب يظلّ مغلقًا، وهذا يضاعف حدَّة الرائحة الكريهة التي تسبح في هذا الفضاء المظلم. رائحة قوِّيَّة، خانقة؛ مزيج من فساد التربة وعفونة الحصير وروائح قديمة أخرى لا تساعد على التفكير في نكتة ساخنة أحكيها لبراهيم في زيارته القادمة. وهكذا، أمضي النهار، إمَّا معلَّقًا في الكوّة وإمَّا قريبًا منها، وأسمع الترنيمة التي تبدأ مع طلوع النهار... واحد، اثنين. واحد، اثنين... عندما تتأمَّله، هذا الفجر الورديّ، المغسول، البهيج، تتوقَّع أن تطلع الموسيقى من جهة ما من الصحراء. وبدلًا من الموسيقى تستمرّ الترنيمة الرتيبة لأحذيتهم العسكريَّة الثقيلة... واحد، اثنين. واحد، اثنين... إنَّهم هنا منذ أسبوع على الأقلّ يتمرَّنون خلف البناية. إنَّهم هنا كي أراهم؛ كي أسمعهم وأراهم من الكوّة الصغيرة في أعلى الجدار، ببدلات تلمع، وحماسة تتجدَّد كلّ يوم، وفرح طفوليّ. واحد، اثنين. واحد، اثنين. واحد، اثنين... منذ طلوع الفجر، كما قلت، وهم يتدرَّبون في الملعب خلف البناية. تبدأ أصواتهم بعيدة ثمَّ تقترب شيئًا فشيئًا. وعندما تصير تحت الكوّة، يتدفَّق هديرها كدقَّات الطبول. ثمَّ تبتعد لتتلاشى شيئًا فشيئًا ولا تعود سوى صدًى غامض لحيوات كانت هنا. ومن جهتي، لم أعد أعدّ عوارض السقف الخشبيَّة السبعة عشر. أتلهَّى بمحاولة ضبط عددها. أتناسى الحرّاس القدامى لأركِّز في الذين التحقوا مؤخَّرًا. لا أهتمّ بالبرگادي، ولا ببوشعيب الممرِّض، ولا امبارك الذي يضحك بلا وقت. أرى أحيانًا أنَّ عددهم يفوق الثلاثين، وأنَّهم من أعمار متباينة. ولا يتعدَّى أحيانًا عددهم سبعة عشر نفرًا، ربَّما بسبب ضيق الكوّة التي تمنعني من تكوين فكرة شاملة عن الملعب. وانتبهت أيضًا إلى أنَّ البدلات تبدَّلت.

اختفت السراويل المرقَّعة والنعالُ الجلديَّة الممزَّقة. ووحّدتهم بدلات نظيفة وأحذيةٌ ذات عنق يغطّي كلٌّ منها الكعب، وصرامةُ الحياة العسكريَّة. يتوقَّف التدريب عند الظهيرة، لتبدأ نغمة أخرى: أصواتُهم وهم يأكلون تحت الكوَّة مباشرة. هذه الأصوات عندما تسمعها معزولة عن مصدرها، لا تتوقَّع نهائيًا أنَّها أصوات لبشر يأكلون. أصوات تبعث على القلق؛ أصوات تشوِّش الذهن؛ أصوات أقرب إلى همهمات بهيميَّة. لا ينتهي القلق إلَّا عندما يرتفع لغطهم من جديد، وضحكهم وغناؤهم، بالحماسة نفسها، والفرح نفسه، واللَّامبالاة الصبيانيَّة ذاتها. ثمَّ يستأنفون تداريبهم عند العصر.

بدأت الترنيمة الرتيبة نفسها في غبش هذا الفجر. لكنْ، هذه المرَّة، لم أكلِّف نفسي مشقَّة الاقتراب من الكوَّة إلَّا المدَّةَ الكافية لتغيّر السماءُ ألوانَها وأعود إلى جلستي على الحصير، ممتلئًا بما تركتْه في نفسي ألوانُ الفجر من بهجة، كما كان يحدث في السابق، عندما كنت حُرًّا، ممدَّدًا على كثيب رمل، متحفِّزًا، متيقِّظًا تمامًا. وعلى الرَّغم من الجفنين المسبلين، فإنَّ العينين يقظتان، مترقِّبتان، منتظرتان أن تفاجئهما ألوانُ الفجر البنفسجيَّة بفرح طاغٍ، غير مبالٍ ببرد الصباح الذي يبدأ دبيبه من تحت الرمل باكرًا... أمَّا الترنيمة فمستمرَّة في مكان ما من الملعب. واحد، اثنين... واحد، اثنين... دار المفتاح في القفل، وظهر امبارك، فَرِحًا بكسوته الجديدة. ويضحك، ويشير إلى الشارة على صدره. ذلك بأنَّهم ينتمون الآن إلى القوّات المسلَّحة المَلَكيَّة. نعم، قايضوا النعال المرتَّقة بأحذية عالية العنق. والبنادقُ لم تعد مشدودة بالأسلاك...

احنا دابا مع الجيش المَلَكي... هاهاها...

الجميع؟

الجميع.

ما بقيتوش مع أبطال الحرّيّة المتوكلة على الله وداك البزار لاخر؟

لا، بدّلنا؟

علاش؟

الراتب مضمون والماكلة أحسن...

هذا ما قاله امبارك وهو يضحك... لم يعودوا ثوارًا، كما كانوا يقولون. عوّض كأسَ الشاي لحمُ البقر، والبندقية المشدودة بالأسلاك عوَّضتها بندقيةٌ جديدة، وباتت الكسوةُ الكاكيَّة النظيفة بدلًا من الأسمال

التي كان يرميها امبارك فوق ظهره وهو يحلم بقلب النظام وطرد الإسبان في الآن نفسه، كما كان يقول قبيل أسبوع فقط، وكان يضحك أيضًا... وهم يتدرَّبون كلّ هذا الوقت لأنَّ استعراضًا كبيرًا ينتظرهم في بويزاكازن... والسَّلام... وكلّ هذا فأل خير. وأضاف أيضًا: دابا ما عندك مناش ثخاف... وهذا ما قاله الحراس الآخرون، الذين أعرفهم والذين لا أعرفهم. يفتحون الزنزانة ويضعون قطعة الخبز وكأس الشاي، أو كأس ماء، أو لا يضعون شيئًا على الإطلاق، عدا تفاؤلهم... ما عندك مناش ثخاف... منذ الآن، لأنَّنا أصبحنا جميعًا من القوَّات المسلَّحة المَلَكيَّة. لا يوجد سبب يجعلني مطمئنًا بعد كلّ هذه المدَّة التي أمضيتها في حجرة لا تتعدَّى مساحتها مترين عرضًا وثلاثة أمتار طولًا. ومن جهة أخرى، لا يوجد سبب يجعلني أشعر بالقلق، عندما يقولون أيضًا هناك خطأ وقع. وربَّما ستخرج غدًا كما سمعنا. وأشدّ قبضتي، لأوَّل مرَّة، لتتصلَّب عضلة ذراعي ككرة ستنفجر وأقول لها في مرح: كيف جيتك... ثمَّ أصبحت أرى أنَّ القضية غامضة من أصلها.

ظهرت غيمة غطَّت بظلّها مربَّع السَّماء الذي يظهر في الكوَّة، بعد أن انقضى الصباح على هذه الوتيرة. تحرَّكت غيمة سوداء عريضة في عدَّة اتِّجاهات، ثمَّ نزلت على الملعب دفعة واحدة. كأنَّما نزل علينا ليل غير متوقَّع، جديد تمامًا، وفي صوت يشبه الهدير. غطَّى الجراد في بضع ثوان الأرضَ والشجر. فتح الحارس الباب من الخوف، كأنَّما يخاف أن يضيع وحده، أو ربَّما لأكون شاهدًا على الكارثة. اقتربت من الباب وبقيت أطلّ على الساحة، ولا أراها ولا أرى الشجرات الأربع. اكتست كلّها باللَّون الذهبيّ الممزوج بالأصفر؛ لون الجراد النهم. وهذا الجراد اختفى، بدوره، بعد أن غلَّف لونُ الكارثة كلَّ الفضاء. لا أرى الجراد، ولكنَّني أرى الشجر وهو يتقلَّص، بسرعة، بشكل مرعب، كأنَّما كائنات لامرئيَّة تلتهمها. تختفي الشجرات شيئًا فشيئًا. ليس ما أحسّ به قلقًا، ولا حتَّى خوفًا. الإحساس بأنَّ شيئًا خارقًا لن يتكرَّر يحدث أمامي لأوَّل مرَّة. كأنَّما الشجرات الأربع تأكل نفسها، أو تلتهمها قوَّة خارقة لا يدركها أحد. ثمَّ اختفت الشجرات، نهائيًا، في لمح البصر. كأنَّما اجتثت من جذورها. حتَّى النباتات الطفيليَّة، واليابسة، والتي ظلَّت تترعرع على أرضيَّة الساحة في كلّ دعة، بلا أدنى خوف من أن تطمع فيها مئاتُ الكائنات التي تسرح حولها في النهار واللَّيل، اختفت بدورها. والسماء سُدّت، واسودَّت. كأنَّما أغلقت بابَها، جحافلُ الجراد كغيمة لا حدود لامتدادها. تتجمَّع الآن في كتلة واحدة متماسكة، متلاحمة بعضها ببعض، ترتفع متماوجةً وتتمايل في اتِّجاهات عشوائيَّة،

غير متوقَّعة، في إيقاع أقرب إلى ابتهالات الجنازات، كأنَّما أسكرها نسغ شجر اللَّيمون الذي ابتلعت. تعرَّت السَّاحة التي امتلأت بالجراد. والجراد الذي غطَّى الأرضية حتَّى أن لا أحد يستطيع أن يخطو خطوة واحدة من دون أن يسحق ثلاثة منها على الأقلّ، طارت. وبقيت السَّاحة عريانة. والجراد؟ لا أدري أين هو. ربَّما انتقل إلى مكان آخر؛ إلى وليمة أخرى؛ إلى شجر آخر. لا، ربَّما إنَّه هنا. يسرح حرًّا بين زوايا الحجرة ولا أراه بسبب العتمة. بقيت ذاهلًا في مكاني، عند الباب، ليس بسبب الرعب، وإنَّما لأنَّني وجدت نفسي، لأوَّل مرَّة، أفكِّر في الهرب.

الخميس 10 يوليو 1958

ليس هناك سبب يدعوني إلى التفكير في الديك، ولكنَّني فكَّرت فيه عندما وقف أمامي. ماذا يفعل الديك الأحمر الآن في بطن بَراهيم؟ أو الرجل الذي قدَّم نفسه على أنَّه بَراهيم؟ صحيح أنَّ أيَّامًا عديدة مرَّت على التهامه الديك في السَّاحة، محاطًا بزبانيته، وأنا أطلّ عليه من ثقب المفتاح، وإنَّما لا بدّ من أنَّ خصيصة من خصائص الديك علقت بدمه، لأنَّ لا شيء يختفي تمامًا. وقلت سأرى إن كان صوته هو الذي تبدَّل، أو مشيته. أمَّا نظرته فلن أستطيع الاطلاع عليها، ولن أعرف هل تبدَّلت، لأنَّه دخل يغطي وجهه شاشٌ أزرق وعلى عينيه نظارته السوداء، وعلى كتفه تلمع ثلاث نجمات. إنَّما هناك، من جهة أخرى، هذه الإشارة المهمَّة. يضع تحت إبطه القاموس الفرنسيّ لاروس بدلًا من الخيزرانة. لماذا؟ لأتعرَّف إليه ولا أتعرَّف إليه، في الآن نفسه. على أيٍّ، في المرحلة التي وصلت، لن ينفعني في شيء التعرُّف إليه، أو أن أقلِّده في جهامة الوجه، كما فعلت في المرَّة السابقة. لن ينفعني أن أنشر على وجهي كلَّ البؤس الممكن، في العينين بالأساس. كلّ شيء في العينين. لن تصل عيناه المغلَّفتان إلى صحراء عيني المكشوفتين. لم تعد أمامي خيارات في المرحلة التي وصلت إليها. هناك هذه الطريقة التي تدرَّبت عليها في الأيَّام الأخيرة. أحكّ قفاي وأنا أنظر إلى الأرض بشكل جانبيّ، ثمَّ أدخل رأسي في قفاي حتَّى أبدو ذليلًا إلى أبعد حدّ، وأقل شأنًا إلى أبعد حدّ، ولطيفًا ومسالمًا ووضيعًا إلى أبعد حدّ. هل هذا كافٍ؟ وضعيَّة بئيسة كهذه، هل ستجعله يغيِّر موقفه، ما دام هو بَراهيم الذي عرفته. يأكلني قفاي فأحكّه هذه المرَّة بشكل حقيقيّ.

إيوا؟ لابأس؟ صوته جاف، بعيد، بارد.

الحمد لله.

آشنا هي هاذ القصة ديال بوزيد؟

كما لو أنّني أقف أمام شخص لم أرَه من قبل. هل أعيدها عليه ثانية؟ لا أفهم أصلًا لماذا يريدني أن أحكي قصّة سمعها قبل أيّام، اللّهمّ إلّا إذا كان شخصًا آخر، كما يرغب في أن يبدو. قلت، مع ذلك ما عليّ سوى أن أحكي من البداية، ربّما يريد أن يعرف بداية علاقتي به كما لم أفعل في المرّة السّابقة، ليتأكّد من شيء أجهله: كنت مع بْراهيم المعلم...

خلّي بْراهيم ظْرانكيل... أنساه... تكلم على راسك... شمعتي أ الكلب؟

وقف على أطراف أصابعه كما لو كان يريد أن ينقضّ عليّ، بشراسة في الصوت وحدّةٍ في المزاج. يهمّ نسر بالانقضاض على فريسة، جرو أو أرنب وديع أو غيره. واقف في هذه الوضعيّة الشرسة وينتظر، وأنا أتساءل ماذا ينتظر. ولا أعرف هل أستمرّ في الحديث عن بْراهيم، أم أنتقل إلى موضوع آخر لا أعرفه... عندما فتحت فمي مرّة ثانية أخرج مسدسه وهو يهدّد: اسكت. اسكت.

مساعداه اللّذان يلبسان البدلة العسكريّة الجديدة نفسها، بدلة القوّات المسلّحة الملكيّة، إنّما من دون نجمة، متّكئان على الباب ويتفرّجان على ما يحدث في السّاحة. وحتّى السّاعة، لا شيء يحدث في الساحة. أعاد بْراهيم المسدس إلى غمده، وبدا هادئًا، جامدًا في وقفته ويفكّر. كأنّما يناقش مع نفسه القرارَ الذي سيتّخذه... كانْ بوزيد إنسان معقول... قايد معقول... ومعين بظهير. بظهير مَلَكيّ. وانت يا العبد، أسود البشرة والدم، يا الحرطاني، آش درتي؟ قْتلتيه... قتلتْ موظّفًا ساميًا معينًا بظهير شريف... وهذا الخبر أهاج أحد مساعديه، فأمسك بياقة قميصي وراح يهزّني بعنف: دابا تشوف الفعلة ديالك فين غادي توصلك... وهمست في مذلّة ويأس واستجداء، وهم يديرون لي ظهورهم منصرفين: ثصبحوا على خير... ولم أعرف هل ما حدث يدعو إلى الضحك أم إلى الأسى... ثصبحوا على خير... كيفاش؟ بعد الذي حدث هل يستطيعون النوم حتّى يصبحوا على خير؟

في المساء أطلّ الممرّض بوشعيب. ماذا يريد؟

قضيتك كخلا. قتلتي موظف ديال المخزن.

نعم، أفهم هذا جيّدًا. لأنّنا في المقاومة، ننتمي إلى منظمة اسمها أبطال الحرّيّة المتوكّلة على اللّه.

مابقيناش في المقاومة. كتفهم ولا ما كتفهمش؟

ما كنفهمش.

استطعت، مع ذلك، أن أسأل عمًا ينتظرني. قال إنّه لا يعرف في الأوّل... صمت طويلًا وهو يفرك شحمة أذنه، ثمّ قال إنّهم بمناسبة تعييناتهم الجديدة يفكّرون في تقديمي هدية إلى القصر المَلَكي... وعَبَر الدهليز في صمت، كأنّما ليترك لي فرصة تأمّل الخبر الجديد والحكمة التي تقبع خلفه... صمته أشبه بقهقهة مدوّية لم تختف حتّى بعد أن ابتلعه ظلام الدهليز... كأيّ عبد في السوق؟ ولم لا؟ بابا لا يزال يحمل أوراقه التي بيع بها في أسواق العبيد بين مراكش وفاس. هذه هي النهاية المعقولة. أجلس الآن كواحد عرف قَدره، أخيرًا؛ كواحد جلس أخيرًا يلحس جراحه بلا شكوى لأنّه لا يستأهل أكثر ممّا يقع له.

أرى السماء من الكوّة ذاهبةً إلى لونها المسائي، الأحمر. تغير الجبال ألوانها في هذه الساعة. تنتقل من الأرجواني الذي جزته وراءها زمنًا، إلى البنفسجي الفاتح الذي يهدّد بالتلاشي في كلّ لحظة. وتصعد من عمق الأودية الروائح الساخنة التي تجمّعت طوال النهار. السماء ذاهبة إلى لونها المسائي، الأحمر؛ لونها الزاهي؛ لونها الأخير لهذا النهار.

الجمعة 11 يوليو 1958

لا أرى شيئًا، ليس بسبب عتمة الحجرة أو المساء الذي بدأ ينزل، وإنّما لأنّني ملفوف في الحصير ذي الروائح الكريهة، وأعواد السمار تثقب قفاي وظهري وفخذي. والعجب هو أنّني غير خائف. حتّى قبل هذا، عندما ارتمى عليّ الحارسان ولفّاني في الحصير، لم أشعر بالخوف. العسكري قبل الحارسين. هذا العسكري الذي يلبس بذلة التدريب الكاكية، والذي أراه لأوّل مرّة، صوّب بندقيته نحو رأسي وحطّ فوّهتها على صدغي. ثمّ الحارسان اللّذان ارتميا عليّ ولفّاني في الحصير. ودخلت العتمةُ عينيّ ولفّت باقي جسدي. هذه هي المفاجأة الثالثة التي أتى بها هذا النهار، لأنّه لم يكن نهارًا عاديًا على الإطلاق.

مرّ النهار خاليًا من أيّ جلبة. لا يأتي من الخارج صوت، لا داخل البناية ولا خارجها. من دون تداريب أيضًا، ومن دون واحد، اثنين... واحد، اثنين... واستمرّ النهار منحدرًا على هذا المنوال، وأيضًا من دون خبز أو شاي. كما لو أنّ قرار الترحيل أصبح ساريًا، كما قال بوشعيب الممرّض بالأمس. ولا جرعة ماء. (صباح عيد الأضحى لا نقدّم إلى الكبش أكلًا حتّى يستأنس بفكرة الموت الذي يتربّص به.) شيء ما غير عادي يحدث. والحقيقة أنّني نمت واقفًا كأيّ كبش، بعد كلّ الذي سمعت. وأمضيت جزءًا

من النهار أتوقّع الأسوأ. لا يحضر في بالي ما يفعله الناس في مثل هذه المناسبات. هل يصلّون، أم يقرأون القرآن، أم ينطقون بالشهادة. لا شيء من هذا يحضر في بالي. ظهرت أصابع، كالمعجزة، ودشّت قطعة خبز من تحت الباب واختفت. وهذه هي المفاجأة الأولى. لا أتكلّم على الخبز فقط، وإنّما على الباب والشقّ الذي سمح لقطعة الخبز بأن تظهر من تحته. وجوده كافٍ لكلّ توقّع. أحدّق فيه لأنّني أمضيت اللّيل أفكّر في الهرب. قطعة خشب عادية من السرو حال لونها. كُتبت عليها أسماء وخُطّت عليها خربشات. قطعة خشب جاءت من الأطلس أو الريف، ومنها صنع نجار مغمور في نواحي تزنيت أو أگادير هذا البابَ. وترك شقًّا كافيًا لتتمكّن أصابع مجهولة من دس قطعة خبز من تحته. الباب هو هذا وأكثر من هذا. مصيدة وطريق نجاة. وعد بالحرّيّة، أو تهديد بموت وشيك. تحدث الأشياءُ الجميلة والقبيحة خلف الباب. تحدثُ الأشياء الواضحة والأشياء الغامضة؛ العادية والخارقة. والذي نجهله هو أنّه في أيّ جهة نكون فنحن خلفه. محبوسون دائمًا في حبال وعود لا تتحقّق، وآمال لا تأتي.

أمّا المفاجأة الثانية، فهي الوجه الذي أشرق من بين شقوق الدعائم الخشبيّة التي تشدّ سقف الزنزانة. تسلّلت من بين الدعائم الخشبيّة وحطّت يدها على رأسي، كأنّما لتتأكّد من أنّ نقطتي دمها لا تزالان عالقتين بشعري. وسمعتها تقول إنّها ستغادر بيت أهلها وتبقى إلى جانبي إلى الأبد، محاولة أن تشرح أموزًا لا أدركها، على الرّغم من أنّني أفهم لغتها المبتورة، لأنّني حينها كنت أفكّر في الحرارة المنبعثة من يدها. إنّها تتلألأ فوقي كبؤرة ضوء أفلتت من بين دعائم السقف. ثمّ استمرّت في فورة حماستها السّابقة تقول إنّها ظلّت واعية بما قد يحلّ بنا ذات يوم يشبه هذا اليوم. تعيه وتتوقّعه وتنتظره، ومستعدّة له. وترسم حولي دوائر مشعة. وأنا مستمرّ في التفكير فيها. مَن تكون؟ ولماذا حضرت في هذا الوقت؟ هل ستتعزّى وتمنح أصابعي قليلًا من دمها؟ وتمنح لرأسي استراحة قصيرة على صدرها. سيتوهّج بعد قليل ضوؤها وسيرقص أمامي نهدان عاليان متوثّبان سخيّان وسط وهج لا يأتي من أيّ مكان. ولأنّها رأت ما يتزاحم في عقلي من صور، فقد قالت، بالصوت الهامس نفسه، والراقص حولي، إنّها المرّة الثالثة التي تأتي فيها إلى هذا المكان. وإذا لم تتمكّن من الدخول حتّى الساعة، فلأنّها لم تعرف في أيّ زنزانة وضعوني، فأقول معتذرًا، والدموع في عيني، أعرف أنّها بذلتني كما بذّلت كلّ الرجال الذين تعرّفت إليهم في حياتها القصيرة، العامرة. هالة أقرب إلى ضوء داخلي تنبعث منها، كأنّما الجسد هو الذي يضيء عتمة الزنزانة بشعلته الناصعة. أراها

تعبّ الآن جرعة كبيرة من هواء الصحراء النقي الذي جلبته معها. وتقول إنّها ادّخرت بعض المال الذي يكفينا لبعض الوقت ريثما نتدبّر أمرنا، هنا أو في مكان اخر. أرض الله واسعة. هذه جملة نطقتُ بها أنا في فورة حماسة زائدة وأنا أتذكر مشروع بيع الطيور للإسبان في لاس بالماس. إنّهم يحبّون الطيور كثيرًا. أمسكتُ بيدها حتّى يكون لكلامي معنى، وأكون أوّل من يقتنع به. العمل موجود في لاس بالماس، ليس كموزّع رسائل كما في السّابق. هذا عمل انتهى، وفي لاس بالماس ما يكفي من موزّعي الرّسائل، محاولًا أن أقتنع بهذا أيضًا... قلت بيني وبين نفسي في تلك اللّحظة الحاسمة: أنا الذي كنت أتمنّى مجرّد رؤيتها ها هي تطلّ عليّ وتنير زنزانتي حتّى أنسى الظلمة التي أسبح فيها... كنت مغتبطًا، ومنتشيًا، وحرارة يدها تسري في بدني كما لو كانت دمًا آخر، دمًا جديدًا، خفيفًا، يمرح، يملأ خواء كلّ التجارب السّابقة. ومع ذلك، فأنا غير مرتاح إلى ما يحدث لي... إنّها ستربطني بها بشكل نهائي، لا رجعة فيه. ولهذا، عليّ أن أبوح لها بأنّني متعلّق بامرأة أخرى. نعم، إنّها تنتظرني منذ أسابيع. وهي لا تعرف حتّى الساعة ما الذي حلّ بي. لأنّها تعوّدت أن أعود متأخّرًا، وأحيانًا ألّا أعود أبدًا. وهل تعرفين اسمها؟ اسمها البتول. وامتلأت الزنزانة بضحكي وصدى ضحكي. وقلت للحارس خلف الباب، وقد هبّ مذعورًا، إنّني أتكلّم مع نفسي. والضحك؟ قلت له إنّني لا أضحك. إنّني أبكي.

يحضر الجوع لأوّل مرّة كدودة تنخر عقلي. منعني تفاؤلي المفرط من التفكير فيه في الأيّام السّابقة، ربّما لأنّ مزاجي المرح يتخلّى عنّي أيضًا. بدأ يتخلّى عنّي عندما لاحظت أنّني نسيت أن أشاهد الفجر وألوانه القزحية، كأنّما بدأت أستعد لأنسى أنّ وراء الكوّة الصغيرة عالمًا آخر، رحبًا وجميلًا، لا يفصلني عنه سوى هذا الجدار الطيني الهشّ. استمرّ النهار، إذن، بالوداعة نفسها التي ظهر عليها بالأمس. وأنا أراجع ما حدث: تهديد براهيم؛ نبوءة الممرض، والأصابع المجهولة التي ارتجفت طويلًا قبل ساعات وهي تحاول أن تدسّ الخبز تحت الباب. هل هي أصابع البرگادي، أو الممرض، أو افبارك؟ لا سبيل إلى معرفة صاحبها. ولكنّها العلامة على أن شيئًا استثنائيًا يقع. هرعت نحو الباب أسأل من خلفه، وأتلصّص من الشقّ الذي يفصله عن الأرضيّة. والو. ولا أدنى همهمة. كأنّ الأصابع جاءت من العدم وعادت إلى العدم. جلست أتساءل عن المدة التي يمضيها الجائع كي يختفي شعوره بالجوع. ثمانية أيّام. بعد اليوم الثامن يختفي كلّ شعور بالجوع. ينعدم كلّ إحساس، ويصبح المرء خفيفًا، كما لو أنّه طافٍ في الهواء... وفكّرت في السيجارة بدلًا من الخبز، مع أنّني نادرًا ما أدخّن. هل

هذه هي البداية؟ أمضيت ما تبقى من النهار أراقب الباب وأغرّد، وأكتشف في الوقت نفسه أنَّ التغريد طريقة ناجعة في تجزية الوقت، وأنَّ حياة الطيور مختزلة كلّها في حفنة تغريدات... ثمَّ عزفتُ بفمي النشيدَ الوطني، ثمَّ أنشدتُ نشيد حزب الاستقلال. ربَّما سمع أحدهم النشيد وانتبه أخيرًا إلى أنَّني واحد منهم، وأرجأ إهدائي إلى القصر المَلَكيّ إلى وقت لاحق.

أمَّا ما حدث في آخر النهار، فلم أكن أتوقَّعه. لا أحد كان يتوقَّعه. قرقعة الأسلحة كأنَّما تتهيَّأ لإطلاق النار. تحرَّكت ظلال في الممرّ، ورأيت البندقية مصوّبة نحو دماغي وفوّهتها على صدغي. وارتمى عليَّ الحارسان ولفّاني في الحصير وجرّاني حتَّى الممرّ، وانتهينا. العبد ملفوف في الحصير، والحبال ربطت الحصير، والأيدي جرّت الحصير عبر الممرّ حتَّى وسط الساحة، وانتهينا. الهدية مُعَدَّة كما يجب، وملفوفة كما يجب، وتنتظر من يحملها إلى صاحبها، في الجهة الأخرى من الباب؛ في الجهة الأسوأ إذن؟ مع أنَّ نسيمًا خفيفًا يهبّ من جهة ما، في الوقت غير المناسب، عابرًا فوهتي الحصير. أحسّ به، في الأساس، عند القفا وأخمص القدمين. فكَّرت في الصلاة، لأوَّل مرَّة في حياتي. فكرة عبرت ومرّت سريعًا لأنَّني اعتبرت أنَّ الوضعيَّة غير مناسبة. تتوغَّل الرائحة الكريهة لرطوبة الحصير، وتكوّن حفرة مؤلمة في الجهة الحساسة من رأسي؛ هوّة حقيقيَّة، كالهوة التي أتمدَّد فيها الآن. أتململ حتَّى أترك حيزًا لشعاع قمر شارد كي ينفذ إلى داخل الحصير ويستقرّ إلى جواري. أحرّك رأسي إلى أعلى ربَّما رأيت القمر، أو جزءًا منه، أو على الأقلّ رقعة صغيرة من السماء. أحرّك قدمي لأتيقَّن على الأقلّ من أنَّهما ما زالتا في قيد الحياة. وأرى إذا كان ضوء القمر ينفذ من بين الأصابع. لم أرَ القمر، ولكنَّني سمعته يتحرَّك قريبًا منّي. يدخل من هذه الجهة ويخرج من الجهة الأخرى. تضيء زرقته المتنقّلة الأطرافَ المظلمة. تمرّ على شعري. تدخل من ياقة قميصي ورجلي سروالي. أحسّ بها على ساقيّ، على ظهري وعلى بطني. يعجّ الحصير بالحركة. تتلاشى مع كلّ حركة الرائحةُ ويتقلَّص الحصيرُ وترتخي الحبالُ، في دبدبة خفيفة كالموسيقى، لامرئيَّة كالنسيم الذي يهبّ. الجرادات الذهبيَّة الطيّبة الجميلة تشتغل، بأناة، وتأكل الحصير، في عمل دؤوب ومستقرّ، وفي الوتيرة نفسها من المثابرة. الجرادات التي التهمت أربع شجرات ها هي تلتهم الحبال والحصير، وتتركني واقفًا وسط الساحة الفارغة أتطلَّع إلى ضوء القمر الأزرق الرحيم.

السبت 12 يوليو 1958

أواصل السَّير في غلس اللَّيل، في هذا القفير. سيطلع بعد قليل النهار. أسير في مسالك وعرة أعرفها. ولست في حاجة إلى أن أتوقَّف لأتبيَّن طريقي لأنَّني أحفظها من كثرة ما عبرتها طولًا وعرضًا، مدفوعًا بغبطة عادية؛ غبطة الرقَّاص الذي كنته، مبتعدًا ما أمكن عن نقاط المراقبة والحراسة التي أنشأتها القوَّاتُ المسلَّحة الملكيَّة الجديدة، أو منظَّمةُ الحرِّيَّة المتوكِّلة على اللَّه، والتي كانت ثائرة وأصبحت جزءًا من القوَّات المسلَّحة المَلَكيَّة، أو الأسماء الأخرى التي لا تصلح إلَّا لإثارة مزيد من البلبلة في رأسي... ثمَّ إنَّني أحفظ نقاط الماء في هذه النواحي. يكفي ألَّا تكون وقعت في أيدي أفراد واحدة من هذه الجماعات. تذكَّرتهم، وتذكَّرت معهم خصيتَيَّ، وأخذت أنزل في منحدر وأجري كالمقذوف، هاربًا، وفي حنجرتي ضحكة محبوسة، أو صيحة عالية تشبه الشتيمة، مبتعدًا ما أمكن قبل انتهاء اللَّيل وعودة النهار. سيكون نهارًا آخر كيفما تكن الحال، مع أنَّ دغدغات الجرادات لا تزال تهرش جسدي، أو تهرش ما تركت عليه من ضوء قمريّ أزرق. لن يحبسني أحد في حجرة ضيِّقة إلَّا إذا كان فيها جرادات وكوَّة يدخل منها ضوء القمر.

ثمَّ، ها أنا أنزل مع نسمات الفجر على فضاء رحب، صحراويّ، ويظهر في هذه اللَّحظات الأولى كأرض حديثة التكوين، لم تمسَسها يد أو تحظ عليها قدم. امتداد فارغ، كما خلقه اللَّه أوَّل يوم، بلا مَنازل، وبلا جدران، وبلا حجارة. في الصحراء لا أحد في بيته. لا يوجد بيت أصلًا. الصحراء هي البيت والفراش والوسادة. لا أحد يستطيع أن يقول إنَّه يملك شيئًا، ما عدا الرَّمل. الرَّمل سيد المكان... وأنا أسير بين كثبانه، في طريق غير مرسومة، يحفُّها الدوم وشجرات العُشر. هذه طريق بويزاكازن. توقَّفت وأنا أتساءل عن علاقة طريق بويزاكازن بالصوت الذي سمعته. وقلت أيضًا: في هذه اللَّحظة التي أقف فيها هنا، أكون اقتربت من بويزاكارن. وتفصلني عن گلميم مسافةُ يومين أو أقلّ. فأحثّ السَّير، يجتذبني الصوت هذه المرَّة بدلًا من أن يدفعني إلى الهرب. والصوت الذي أسمعه هو صوت الصحراء أيضًا. ذلك بأنَّه صوت حان، كتهليل رمضان تحت النجوم. ثمَّ رأيته. كان الرجل لا يزال في صلواته حين أبصرته، في أعلى الكثيب. وجهه إلى السماء. إنَّه يصلِّي، بلا سجود أو ركوع. صوته عالٍ من دون حاجة إلى أن يرفعه. في الصحراء لا أحد يرفع صوته. يكفي أن تهمس ليصل صوتك إلى الجهة الأخرى من الصحراء. الصحراء يسكنها الهمسُ الرقيق، الناعم، الخفيف. يصل صوتك إلى آخر سماء. صوت المدن مليء بالضجيج. صوت الزحام، والتدافع، والتغلّب، والمعاندة. تملك كلّ شيء، في المدينة ما عدا

الضروريّ... الرجل جامد في وقفته. صوته الهامس يقفز من كثيب إلى كثيب، متماوجًا بين الأرض والسّماء، يغطّي الصحاري المجاورة. الصلوات هنا قصيرة، مركّزة، مهموسة، بلا مباهاة، في الصحراء تكون أقرب إلى اللّه، لا تحتاج إلى مسجد. لا تحتاج إلى حجر. لا تحتاج إلى كثير من الصلوات. لا تحتاج إلى استغفار، لأنّك دائمًا نقيّ. في الصحراء، تكون دائمًا في العراء، تحت السّماء. اللّه هو السّماء التي فوقك، وحبّات الرمل حولك. في الصحراء، يكون ربّك حاضرًا، قريبًا. في الصحراء، العبادة هي النظر إلى السّماء. لا تحتاج إلى ركوع أو سجود. رؤية الرجل أنزلت عليّ هدوءًا لم يلمسني من قبل، ولا أدري كيف هبّت عليّ ريح متفائلة نمتُ على حفيفها.

وقفت على الطوار أمام باب المقهى الوحيد في بويزاكازن أتساءل عن منظري البئيس. كان النهار قد فجّر أنهار ضوئه على العالم منذ مدّة. ماذا سيقول صاحب المقهى؟ هل يعطيني كأس شاي أم تطرده هيئة الشريد الذي صرته؟ لم أتساءل عن سبب وجود بشر كثيرين في الشارع. ولم أتذكّر الاستعراض الذي تحدث عنه امبارك حتّى سمعت الطلقات الناريّة. في نهاية الشارع ظهر أفراد الاستعراض، يلفّهم غبار التراب الذي يغطّي الشارع: لافتات مكتوب عليها ميليشيا حزب الاستقلال... رايات معلّقة فوق الحوانيت وعلى النوافذ. وهذا أمر لم أنتبه إليه من قبل. بدت أشكالهم غامضة في البداية، قبل أن تتّضح شيئًا فشيئًا، ويظهرون في كامل أبهتهم، تجلل جباههم المعارك التي لم يخوضوها. تجاوز عددهم المئة، بحسب تقديري. تساءلت هل هم سعداء، وهم يتقدّمون مثنى مثنى، منظّمين، وبنادقهم الجديدة مسنَدة إلى أكتافهم، وفوّهاتها تهدّد السّماء، ووجوههم صارمة، بلحاهم الخفيفة وجلابيبهم القصيرة، يخبطون التراب بأحذيتهم الثقيلة. وأنا واقف أتفرّج على الاستعراض، رأيت بزاهيم واقفًا غير بعيد، على عتبة المقهى، في بذلة بيضاء، بيضاء كالحليب، وصفرة النياشين على كتفيه وعلى أكتاف رفاقه من حوله متوهّجة تحت الشمس. بزاهيم، كما عرفته في برج آسا، إنّما من دون قاموس لاروس. رأيتني في لحظة إشراق نادرة أسير إلى جانبهم، أو في مقدّمتهم. ولمَ لا؟ شخص جديد أراه يحلّ محلّ موزّع الرّسائل الذي كنته. شخص لم يكن يخطر في بالي حتّى مجرّد التفكير في إمكانيّة الاقتراب منه، ينهض من بين حطام الحرطاني الذي كنته. أصحاب الحوانيت المجاورة ظهروا فجأة على الرصيف المقابل، وخرج رجال آخرون من السوق يحملون القفف والرزم، ورايات صغيرة من الورق. والذين كانوا يحملون صناديق الدجاج على أكتافهم، وضعوها أرضًا ووقفوا يتفرّجون على الاستعراض.

انضاف إلى الميليشيا المنظَّمة شبانٌ آخرون أقلُّ تنظيمًا، يفصلهم عن المجموعة الأولى عشرات الأمتار، مشمِّرين عن أكمامهم. لباس هؤلاء جديد. لباس يرى النور لأوَّل مرَّة كلباس يوم العيد. يلمع أكثر ممَّا يجب. كأنَّما فرضته المناسبة، وسيرمونه بمجرَّد أن ينتهي الاستعراض. وكذلك الأحذية، والقبعات. لا يمكن أخذهم على محمل الجدّ سوى من خلال الرشاشات التي يشهرونها، والمسدّسات المتدلِّية من أحزمتهم. هؤلاء الشبان يرفعون لافتات بيضاء كُتب عليها: توكَّلنا على اللّه. هذه دفعة أخرى من الذين تخلّوا عن سلاحهم وانضموا إلى القوَّات المسلَّحة المَلَكيَّة. الراتب مضمون والماكلة أحسن... هذا ما قاله امبارك وهو يضحك... كلّهم ذاهبون الآن إلى استلام مرتباتهم. البذلة ولحم البقر في الثكنة، والكسل لحياة كاملة. وهم الذين يطلقون النار في الهواء ويغنُّون: مغربنا وطننا روحي فداه... مشهد لم أرَه في حياتي، وبعث في نفسي دفئًا لطيفًا، وحنينًا إلى عمل كنت أنتظره قبل أن أذهب إلى الحبس. صوتهم عذب، حماسيّ، ينشر على البشرة قشعريرة كمس ودبيبًا الكهرباء. توقَّف الاستعراض فجأة، وصمتت الأصوات، وخرج شاب من بين الجماعة الأخيرة وجاء يركض حتَّى وقف أمام بزاهيم الذي كان يتفرَّج على الاستعراض أمام المقهى، وعلى طرف شفتيه غليونٌ مرصَّع بقطع من الفضَّة. تقدَّم الشاب خطوتين وأدى له التحيَّة العسكريَّة، وعاد يركض ليحتلّ مكانه الأوَّلَ في صف الشبان الذين عادوا إلى الغناء المتحمِّس: مغربنا وطننا روحي فداه... ثمَّ تابعوا سيرهم. استمرّ بزاهيم يتابع الاستعراض بعين يقظة، وهو واقف على عتبة المقهى. يتابع الاستعراض بكلّ حواسّه، كقائد يستعرض قواته، بلا منصّة. لا ضرورة لمنصة، وخصوصًا بالنسبة إلى واحد مثل بزاهيم كان يعمل في السرِّيَّة. كنت فَرِحًا بشكل لم يسبق أن أحسست به لأنَّ حماسته تسرَّبت إليّ. أقف بعيدًا عنه وأحسّ كما لو أنَّ كتفي تلامس كتفه، وأحسّ بالحرارة التي تسري في جسده تنفذ إلى جسدي حتَّى لأستطيع أن أقول إنَّنا في تلك اللَّحظة صرنا واحدًا. بزاهيم صديقي، ويكبر في عيني بعد أن رأيت الشاب يتقدَّم نحوه متهيبًا ويكاد يغشى عليه من الرهبة، قبل أن يضرب نعليه أحدهما بالآخر ويعود ليندسّ بين جماعته.

اختفى أفراد الميليشيتين فجأة كما ظهروا. يتبعهم غناؤهم وصخب أسلحتهم. استمررت واقفًا على الطوار، مبهوتًا، لا أزال تحت تأثير الاستعراض الذي لم أكن أتوقَّعه، ولا بزاهيم الذي لم أكن أنتظره، مفتونًا بهذه البهرجة، وبهذا المهرجان، وبهذا الفيض من السلاح والصياح ولعلعة

الرصاص فوق الرؤوس، والغناء، والأمل في المستقبل. والمتفرّجون الذين بدت خيبتهم كبيرة لأنّهم كانوا ينتظرون استعراضًا أكثر كثافة، لم يلتحقوا بالمقهى في الحين. ظلُّوا ينتظرون مدّة، معتقدين أنَّ الاستعراض لم يكن سوى في بدايته. وحتّى عندما لجأوا إلى المقهى بقففهم وصناديقهم، بقي في الجوّ بعضٌ من عطش لم يرتوِ. أمّا أنا، فقد صعدت الدموعُ إلى عيني من شدّة الحماسة وسدت الغصّة حلقي من التأثُّر، ورغبت لو أعانق بْراهيم وأبكي على كتفه. ولكنّه كان قد استقلّ سيّارة جيب ختمت الاستعراض ووقفت أمامه، كاكيّة، جديدة، يقودها شاب أسمر. وهو الذي نزل منها مهرولًا وفتح الباب، وانتظر حتّى قفز بْراهيم في داخلها وأغلق الباب وعاد أمام المقود. ثمَّ أشعل غليونه المرصّع بنقوش فضّيّة، وانطلقت السيّارة خلف الموكب الذي ابتعد، وبقيت تعطّر الجوَّ رائحةُ التبغ المهرّب من الجزر الخالدة.

صاحبة فندق الحظّ السّعيد

التي يسمُّونها جيجي

الاثنين 14 يوليو 1958

يا ربِّي أعطِينا الخير.

وأعطينا عام زين.

يا ربِّي أعطينا الخير والخميرة

وشْتا كثيرة...

لا أحد يعرف أين يرذ رأسه، في هذا العام الصعب، والشاقّ. وكلّ واحد يسعى لينقذ نفسه أوّلًا... عادة، لا يسير الإنسان في الدنيا وحيدًا. عادة، لا يسير أحد في الدنيا بلا سند ولا معيل. هناك دائمًا شخص يسنده، أو شجرة تظلّله عند الحاجة. حتّى وإن لم تكن موجودة، فإنّها تظهر عند الحاجة، من دون شكّ. من دون هذا المدد، لن يبقى على وجه الأرض ما يُسعف على البقاء. لن يبقى شخص واقفًا على وجه الأرض من دون سند. اقترحت عليها أن تأخذ مكان والدتها لأنّها بنت طيّبة ويتيمة وتستأهل كلّ خير. إذا لم نصرف الخير في حياتنا فمتى نصرفه. نعم، هناك دائمًا هذا السند الذي يظهر فجأة، من غير توقُّع، لأنّك فقط في حاجة إليه. الجميع هنا يسمّيني جيجي. هذه الفتاة فأل خير، ليس لأنّ ظهور بنت في البار يجعله دائمًا أكثر إنسانيّة، وإنّما لأنّ حالة من السكينة عمّت الفندق برمّته، وهذا لم يحدث من قبل. لا يفرغ البار من الزبائن. تبقى أفران المطبخ موقدة حتّى وقت متأخّر من اللّيل، إلى درجة أنّني وجدت نفسي أتساءل، بعد أسبوعَي يُتمها الأوّلين إذا كانت ستبقى معنا.

نعم، مضى الآن خمسة عشر يومًا على رحيل والدتها، وأنا تركتها تفعل ما يحلو لها. وكلّما صادفتها في ممرّ أو غرفة أقول لها ألّا تغامر بالخروج لأنّ الرجال أولاد حرام. وهي لا تستطيع أن تستقرّ بين الجدران لمدة طويلة. تظهر على وجهها تعاسة لا تُحتمل. ما الذي سيدور في رأسها وهي ترى صورته معلّقة على الجدران. الصورة والاسم، من دون الجريمة التي اقترفها. قتل أو سرقة. وإنّما بهذه الكلمات القاسية... مجرم فارّ من العدالة ومبحوث عنه... صورة لم تكن بالأمس، وها هي هذا الصباح ملصقة في كلّ مكان. فكرتي هي أن تقلّص تنقُّلها إلى الحدّ الأدنى، وألّا تغامر خارج الفندق حتّى لا تراها. بعد أن بحثنا عنه معًا، انتهينا إلى الاقتناع أخيرًا بأنّنا لن نعثر عليه.

الخروج من الفندق هو المجهود الذي عليها الاستغناء عنه في هذه الأوقات العصيبة. في الأيّام الأولى، كنت أنصحها بألّا تبتعد كثيرًا عن الفندق؛ ألّا تبتعد سوى بالقدر الذي تبقى فيه بناية الفندق حاضرة ضمن مجالها البصري. إنّها في حاجة إلى شيء تطمئنّ إليه؛ إلى شيء تتمسّك به كيفما يكن هذا الشيء. ولو بناية متآكلة اسمها فندق الحظّ السّعيد. إنّها في حاجة إلى هذا الجدار الوهمي تتّكئ عليه موقتًا ريثما تنسى. سيأتي يوم تنسى فيه قصّة موزّع الرّسائل، مع أنّني كنت أفضّل لو تزوجا. هذا ما تمنّيت لهما. يستقرّان معي في الفندق ويساعداني في تسييره، لأنّه شاب طيّب ومرح ويحبّ الخير للناس. إلى حدّ الساعة، لا أتذكّر اللّحظة التي بدأت أرى وجودها في الفندق ضروريًا كالضوء، حيويًا كالماء. كلّ حياة الفندق تدور حولها. أحاول إبقاءها معنا بأيّ طريقة. لقد ملأت ركنًا في الفندق كان فارغًا، وفي نفسي أيضًا، ونفوس الزبائن وفتيات الفندق الثلاث. نعم، البشر لا يسيرون في الدنيا بلا سند ولا معيل، لأنّ الإنسان ليس حشرة، ولكنّه ليس حجرًا أيضًا حتّى يقبع في المكان نفسه.

وهذا الصباح، ها هي صورته مالئة واجهات المقاهي وأبواب المحالّ التجاريّة، والجدران التي بالأمس فقط كانت عارية. عندما نزلت من غرفتها قلت لها إنّ الخروج ممنوع اليوم لأنّ عملًا كثيرًا ينتظرنا. وحتّى لا تتذكّره، حتّى تنساه نهائيًا، أخفيت الصورة؛ صورته القديمة بصحبة الزبائن المنتشين، رافعين كؤوسهم وتحتهم جثّةُ الخنزير. وهو يقف إلى يسار الصورة. موزّع الرّسائل. أوّل صورة التُقطت له في حياته، كما قال. لهذا كان يضحك وفمه مشرّع، وأسنانه البيضاء تأخذ في الصورة أكثر من حجمها. أمّا صورته الثانية، فإنّها معلّقة في كلّ مكان. أحسست بوخز في الصدر وأنا أراها تبتسم للمكان الفارغ الذي تركته الصّورة، ولا أفهم لماذا أخفيتُ صورة سبق أن رأتها. استمرّتْ واقفة تحدّق في المكان الفارغ. عضلات وجهها مرتاحة، في بداية هذا الصباح الذي بدأ بهذا الشكل السيّئ. قالت إنّه يضحك بلا وقت. يحبّ المرح والضحك، والنشاط. وعضضت على شفتي. كأنّما هي التي تشفق عليّ الآن. وتذكّرته وهو يركض وراء فتاة المطبخ، أو الفتيات المكلّفات بتنظيف الغرف. أصبحت صورته الغائبة أكثر حضورًا. وهي مغتبطة وقد غشيت وجهَها سكينةٌ حانية. كأنّما تتوقّع أن يدخل علينا في أيّ لحظة. وما أتمنّاه في هذه اللّحظة هو ألّا تفكّر في الخروج. رأيت دمعتين تبرقان في قاعَيْ عينيها، فأحطتها بذراعي، وقبّلت جبهتها، ودعوت الله أن يحفظها، ثمّ سألت من أين يبدأ الناس عادة عندما يفكّرون في البحث عن شخص لا عنوان له؟ هل يقفون في ملتقى الطّرق

وينتظرون أن يمرّ؟ إنّه موزّع رسائل لا يستقرّ في مكان بعينه. قالت إنّه يعرف أسماء الطيور لأنّه يمضي أوقاته معها، ويعرف الأماكن التي توجد بها بكثرة، بحيث يكفي أن تمدّ يدك لتحظ عليها عشرات الطيور... وهو يعرفها كما يعرف جيبه... وأطلقتْ ضحكة مفاجئة، رقراقة. مجرّد التفكير على هذا النحو جعل مزاجها يتحسّن، كما لو أنّ مجرّد ذكره يعيد إليها الحيويّة الضروريّة لتستمرّ منشرحة طوال النهار. وهذا وحده كافٍ ليجعلني أقول إنّها ستبقى معنا لأنّ أشياء كثيرة تغيّرت في داخلي أيضًا. وأمسكت بيدها وضغطت عليها لينفذ إليّ بعضٌ من انشراحها.

أراقب، من خلف الكونتوار، الجدرانَ التي تظلّ تتقشر، لأنّ الشمس حارّة وتظلّ موجّهةً لهيبها إلى هذه الجهة من الساحة طوال النهار. كليم مدينة الشمس والألوان الملائمة للشمس والزُّرقة، والبهجة التي تغسل القلب. يجد الربيع صعوبة ليظهر على الرّغم من رائحة الياسمين التي تضوع الأزقة في اللّيل. والموظّفون الفرنسيون أصبحوا يسكرون بلا وقت، بالبدلة وبدون البدلة، ويسبّبون لي مشاكل مع السلطات، حتّى أضطرّ في كلّ مرّة إلى زيارة الكوميساريّة كما حدث قبل شهر. يتجرّدون في منتصف اللّيل من ملابسهم، ويصعدون إلى سطح الفندق ليعوموا عراة في براميل الماء؛ أو ينزلون إلى البئر خلف الفندق كالضفادع. هذه هي طريقتهم للاحتفال بلا عيد. أمّا في العيد، كما هو الشأن هذا النهار، فلا أعرف عاقبته.. الله يخرّجو بخير... طلع ضباب خفيف في بداية الصباح، معلنًا عن قيظ هذا النهار، ثمّ اختفى نهائيًا. ومن خلال زجاج الفندق، ظهر الأطفال يمشون وراء خروف مزوّق بالأبيض والأحمر والأزرق. وفي السّاحة، دقّت الأجراس على سطح الكنيسة الصغيرة. وبقيت المدينة مبلّلة مع ذلك، رماديّة، من دون أن يمنع هذا الاحتفالات من أن تبدأ وتستمرّ، في الساحة والحديقة. وجاء الجنود الإسبان من إيفني يحملون معهم روائح البحر والشاطئ، وكثيرًا من الأكل، لأنّهم يحبّون الأكل أيضًا. ظللت دائمًا أتصرف معهم كأولادي. أنا أيضًا كنت أحبّ الشراب معهم لأنّهم كالأطفال. ولكن الصحّة قلّت، وشهيّتي للشراب تقلّصت مع الوقت. أكتفي بأن أتفرّج عليهم وهم يشربون، أو أصاحب شرابهم بجرعة أو جرعتين. الإنسان خلق الشراب ليفرح. وبدلًا من هذا، فإنّه يبحث عن المشاكل. الله يخرّج هاذ النهار بخير، هذا ما أقول.

تفاؤل مبكر خيّم على الفندق. اختفى الضباب الذي غطّى الساحة في بداية الصباح، واشتعلت الشمس تحرق جلود المارّة، في عنفوان

جبروتها. وتغيَّر مزاج الزبائن باشتعالها. يريد الجنود أن تجلس البنت معهم حتَّى وهي لا تشرب، لتخفِّف حدَّة الجوّ الخانق الذي يدمِّر عقولهم. وجودها حول مائدتهم كافٍ لتلطيف الجوّ الخانق. حتَّى إنَّهم أقلعوا عن الصراخ وقلب الموائد، وجلسوا طوال الظهيرة يشربون في هدوء. لن يتصرَّفوا كما في السَّابق. لن ينزلوا عراةً إلى البئر في منتصف اللَّيل. وهم أيضًا لاحظوا أنَّ الفندق استعاد وهجه المنسيّ. ولم يعد بالقتامة الخانقة نفسها. فكرةُ أنَّ والدتها رحلت لن تغيّر من مجرى حياة الفندق شيئًا. لن تجد الوقت لتفكِّر في الخروج، هذا النهار على الأقلّ، حتَّى لا ترى الصورة التي تزوّق الساحة والشوارع المحيطة. كلّ هذا يذكّي جذوة التفاؤل، ولمَ لا؟

الموظَّفون الفرنسيُّون عندما يسكرون يقولون إنَّهم يأتون من أجلها. والجنود الإسبان جاؤوا من إيفني بمناسبة عيد أصحابهم الفرنسيِّين، ومحمَّلين بالهدايا فوق هذا: أزهار وعلب حلوى وأرنب شديد البياض. اشتريت لها، بدوري، قميصًا قصيرًا أبيض. بهذا اللِّباس الخفيف تطوف حول الزبائن خفيفة، مرتاحة، حتَّى لتقول إنَّها بدأت قصَّة جديدة. هنا لن ينقصها شيء. ستجد دائمًا سريرًا وأكلًا. صحن سردين طريّ بالقزبر والثوم، لن تجده في مكان آخر. ستجد مَن يحبّها ويعطف عليها ويواسيها ويفرح لأفراحها. ولكنَّ النهار انتهى على غير الانشراح الذي بدأ به.

عمَّ الاحتفال أركان الفندق من أوَّل النهار، لأنَّ الموظَّفين الفرنسيِّين يحبُّون هذا العيد، ولأنَّ الإسبان يعشقون الاحتفال في كلّ وقت، وجاؤوا من إيفني، بصورة خاصَّة، ومعهم هدايا ليحتفلوا معنا. ستظلّ بعض المحالّ التجاريَّة مفتوحة الأبواب حتَّى وقت متأخِّر من اللَّيل. وزُينت بعض البنايات بالرايات وأكاليل الأزهار الملوَّنة، وحطَّت في الساحة جوقاتُ الألعاب الناريَّة وأراجيح الأطفال والسيَّارات الكهربائيَّة، وارتفع دخان شواء النقانق في أركان الأزقة، وصدحت أصوات الموسيقى الراقصة وفوق الأكشاك المنتصبة في أركان الساحة الأربعة، ولم تتوقَّف أجراس الكنيسة عن بعث رنَّاتها النُّحاسيَّة منذ العاشرة صباحًا... زينتُ، من جهتي، بابَ الفندق ببالونات مختلفة الألوان، ووضعت أصص الأزهار في بعض النوافذ. أهداها الجنود الإسبان قميصًا بأجنحة من ريش حقيقيّ، أحمر وذهبيّ وأخضر، كريش طيور الغابات الأفريقيَّة. ظلَّت تمشي وتجيء تخدم الزبائن الكثيرين بهذه الكسوة الفريدة، تحت الأضواء والبالونات الملوَّنة، وعلى وقع الموسيقى التي لا تتوقَّف. وكانت تقفز، في المساء،

فوق لوح الكونتوار كطائر يرقص. تطير خفيفة فوق رؤوس الجنود السكارى، مفردة جناحيها العجيبين. وضعتُ في غمرة حماسة الاحتفالات خاتمًا من ذهب في إصبعها، وندمت في اللّحظة نفسها على فعلتي، لأنّها استمرّت تحدّق فيه. وعاد الحجابُ الحزين الذي لا أحبّه يغلف وجهَها. مسحة حزن غشيت وجهها، واستقرّت في قاعَي عينيها. حزن كانت قد نسيَته طوال الأسبوعين السابقين، وعاد إلى البروز. على وجهها ذلك النوع من الحزن الذي لا يزول تمامًا. تعتقد أنّه اختفى، ثمّ وأنت تحدّق في الوجه، تلاحظ أنّه تسلّل إليك من دون أن تدري. تكفي حركة أو إشارة لتجعل مزاجها ينقلب من العكس إلى العكس. جاء أحد الجنود وربط حبلًا رقيقًا حول خاصرتيها، وفي طرفه الأرنبُ الأبيض الجميل، كأنّما ليُنسيها للحظة الكآبةَ التي أقحمتُها فيها من دون أن أدري. فعلًا، نسيتْ حزنها في الحال، بمجرّد أن لمست يدُها فروَ الأرنب الناعم. عادت إليها غبطتها من جديد. واختفى الوجوم الذي خيّم على الصالة لحظات بدت طويلة، وراحت ترقص في أرجاء الصالة الشديدة الإضاءة وسط التصفيق المدوّي للزبائن والهتاف العالي، والأرنب يقفز خلفها وبين ساقيها، وهي تتحاشى أن تدوسه بنعليها. اغتنم الأرنب فرصة وقوفها ليختفي تحت الأريكة الخشبيّة العتيقة. لا بدّ من أنّه تعب من هذا الدّوَران الذي لا يفهم مغزاه. وربّما إن الزبائن تعبوا بدورهم لأنّهم نسوا حماسة الرقص ووجّهوا اهتمامهم إلى الأرنب المختفي تحت الأريكة. خرجتُ بدوري من خلف الكونتوار، واقتربت من الجوقة المحيطة بالأريكة. وبعد مدّة، لم يفلح أحد في العثور على الطريقة المناسبة لإخراجه من مخبئه. لم تنفع النداءات الملحاحة. لم تنفع قطع الجزر التي راحوا يرمون بها الأرنب. لم ينفع التهديد. لم تنفع الملاعق وعصيّ المكانس، ولا تحريكُ الأريكة لأنّها مثبّتة بالبلاط بالمسامير. اقترب في النهاية أحد الجنود من الأريكة وجذب الحبل وتبعه الأرنب، ولكنّه غير الأرنب الجميل الناعم الزغب الذي اختفى قبل لحظات. ترك تحت الأريكة فروته البيضاء كاملة وظهر عاريًا، مدمًى، بئيسًا كأيّ جرذ في طرف الحبل الذي اصطبغ بالدم. واصطبغ وجهها بالحمرة القانية نفسها. وغلّفَتْ بشرتَها بقعٌ صفراء تشبه الدمامل المتقيّحة، واتّسعت عيناها المرعوبتان، كأنّما ستغادران محجريهما، وانهارت على أقرب كرسيّ وأجهشت في البكاء. أمّا أنا، فعجزتُ عن القيام بأيّ حركة، كالمشلولة. ولكن الرعب الحقيقيّ الذي استولى عليّ في اللّحظة نفسها هو بسبب الحجارة التي بدأت تتساقط على الواجهة الأماميّة، فتهاوى الزجاج، وعلت أصوات سكرى في الخارج، مختلطة مع الصياح والصفير والضحك والغناء

وانفجارات البالونات الملوَّنة التي علّقتُها فوق الواجهة في الصباح. تنكسر الكؤوس والزجاجات في البار، والحجارة مستمرَّة في التهاطل، وصياح المهاجمين كأنّما أيقظ غريزة الفتنة النائمة في قلوب الجنود السكارى. تطير الكراسيّ في الهواء وتنقلب الموائد. ووجدت العربدةُ المرتعَ الخصب لانتشائها. وفي لحظة الهلع الطويلة هذه، وقفتُ مشلولة، مصعوقة.

تذكَّرت اللَّحظة التي أهديتها الخاتم عندما بدت لي حزينة. هذه المخلوقة لم توجد لتبقى معنا. لقد اختفت، في خضمّ الفوضى التي اجتاحت البار. واختفى الجناحان المزوّقان اللذان زيَّنا حياتها الموقتة بيننا، بحثت عنها في زوايا البار، وفي السطح، وفي كلّ الغرف. عمّ الهدوء من جديد، بعد منتصف اللَّيل بقليل، ولكنّه هدوء يدمي القلب. بقيت أحدّق في الخراب الذي اجتاح البار والفندق. تركت الباب مفتوحًا، مع ذلك، إذا ما عادت.

أنا ملاك، خالتي باشا تقول ذلك، وأتعجّب. وأسألها لماذا لا أطير، إذن. الملاك لا يمشي، الملاك يطير. أنا ملاك، تقول صاحبة الفندق؛ جيجي. ملاك هبط على فندق الحظّ السّعيد. وتقول: قلبك خفيف كالريشة. وعندما تنحني وتطلّ على عينَيّ، تقول إنّ في قاعيهما حزنًا قديمًا. الملاك الذي يطير لا يعرف الحزن. لحظات الحزن ليست إلّا قشرة... والقشرة هي دائمًا قشرة... يجب أن تُحَكّ جيّدًا... جيّدًا... قشرة الحزن تُخفي أضعافها من الفرح... وأنا أُخفي أضعافًا من الفرح، ولكن لا أحد يراه...

موزِّع الرَّسائل الذي يسمَّى الرقَّاص

الثلاثاء 15 يوليو 1958

غفوت في الوقت غير المناسب. وصلت إلى بيتنا القديم في آخر اللَّيل، من بويزاكارن حتَّى هنا من دون توقُّف. قطعتُ، من دون توقُّف، الأوديةَ والصحاري هاربًا. واجتزتُ الشعابَ الصخريَّة وجبالًا كالجدران، مطلَّة على الهاوية. ليس كما كنت أمشي في السَّابق، عندما كنت موزِّع رسائل، متَّكئًا على نخلة لساعة أو نصف يوم، أو عارجًا على خيمة البرگادي حقادي لنتقاسم كأس شاي. كنتُ مطاردًا وهاربًا. ووصلت إلى المكان الوحيد الذي أستطيع الوصول إليه، من دون أن أملك أيَّ فكرة عمَّا أستطيع القيام به الآن أو فيما بعد. وصلت إلى بيتنا القديم، من دون أن أنتبه إلى التغيُّر الذي طرأ عليه. تمدَّدت مع ضوء النهار الأوَّل في إحدى غرف الطابق الأخير، وأغمضت عيني ورحت أفكِّر، ولم أعثر على الأشياء الجميلة التي قد تجلب النوم، كالتفكير في اللُّغة الجديدة، أو قطرتي دمها العالقتين بشعري. لم يستسلم الجسد من شدَّة التعب، كأنَّما تعدَّى حالة التعب، ووصل إلى الجهة الأخرى من الإرهاق. وصل إلى الجهة الأخرى من النوم. وهكذا، أمضيت جزءًا من النهار جالسًا أتأمَّل الغرفة التي لم تكن موجودة. إنَّها منتصبة على سطح البيت، بيضاء، يحيط بها الحائط الذي ازداد ارتفاعه. وعلى طول الحائط فتحاتٌ ضيِّقة، وما يشبه برجين صغيرين في زاويتين متقابلتين، وقد زُوِّقت حافَّتها بنقوش تشبه سعف النخل. أطللت من إحدى الفتحات، ولم تكن تنقصني غيرُ البندقية. في الأسفل، الخطُّ الطويل الرماديّ لنهر يلعب على جنباته أطفالٌ عراة. وبعض العنزات ترعى الدوم الذي نجا من الجفاف. لو لم أسبح في مائه لَما قلت: كان هنا نهر يجري، سبحنا في مائه أنا وبناصر، واصطدنا الضفادع تحت أحجاره. ووقفت مشدوهًا وأنا أخطو إلى داخل الغرفة. سرير واسع ومحاط بستائر من المخمل. كأنَّها مُعَدة لاستقبال إحدى الأميرات التي تظهر في المنام. ثمَّ رحت أتفقَّد البيت، كما لو أنَّني عدت إلى أيَّام الطفولة، من دون شيطناتها. وسرَّني أن يكون بابا عاد إلى نشاطه السَّابق. ما أحدثه من إصلاحات غيَّر معالم البيت تمامًا. إنَّما استمرَّت الدهاليز والغرف والممرَّات الخشبيَّة الطويلة تئزّ وأنا أسير فوقها. ورائحة الخشب، ورائحة الطين الذي خُمِّر تحت شموس كثيرة. عثرت على قفة من الشريحة والحمص المقلي قد يكون بابا جلبها معه حين كان يرمم البيت. أكلت حبَّات قليلة، وعدت إلى غرفة السطح، وغفوت أخيرًا.

ليل آخر قد نزل. وقد يكون تقدّم كثيرًا عندما أخرجتني من غفوتي حركةٌ غير عادية في الخارج. ثمّ إنّ ظهورها على عتبة الباب جعلني أصحو تمامًا. كانت متدثرة بما يشبه ريشًا ملوّنًا مشعًا تحت ضوء القمر. باهتةَ الملامح تحت ضوء القنديل المشتعل. جفلتُ وقد أعماها الضوء، وتراجعت وهي تراني أخرج من العتمة. ملأني ذهولًا أوّل الأمر ظهورها أمامي، بجناحين مضحكين فقدا في الطريق بعضًا من ريشهما. كان لها جناحان مشتعلان يهتزّان من الخوف أو من برد اللّيل. لم أتعرّف إليها وهي تضع قدميها على الدرج. لم أتعرّف إليها حتّى خلال الدقائق التي تلت. لم أتعرّف إليها حتّى نزعت ريشها وخلعت القبعة الحمراء من فوق رأسها، ومسحت أصباغها وظهرت جبهتها مشعةً فوق سواد الحاجبين. تقدّمتْ بدورها، مطمئنة هذه المرّة، مستمرّة في مسح وجهها حتّى أتعرّف أكثر إليها، وحتّى تزداد الحيرة والتساؤل. أمّا الاستغراب، فسيأتي في الوقت المناسب. أرفع القنديل وأراها. أعتقد أنّها تحاول أن تبكي، ولكنّ الدموع لا تُسعفها، أو ربّما لم تجد الوقت. أطفئ القنديل وأمسك بيدها. أقول لها سنبكي معًا، إنّما فيما بعد. نفكّر الآن في وضعيتنا الجديدة، ليس بسبب الوطاويط (سكون البيت في النهار لا يضاهيه في عدم الاحتمال سوى الضجيج الذي أحدثته هذه المخلوقات المقيتة في اللّيل وهي تغادر مخابئها وتعود إليها، داخلةً وخارجةً في حركة لا تتوقّف، كما الان، مرعبةً ومقززةً، وصياحها منكر، كتصايح الرضّع في الظلام)، وإنّما لأنّنا بدأنا نرى قناديل تتأرجح في الوادي، متوجّهة نحو البيت، يرافقها ضجيج رجال يحملون المشاعل والقناديل المتوهّجة في اللّيل الأسود. صياحهم أسود كهذا اللّيل. يتدحرجون على تراب النهر الجافّ، ثمّ يتوقّفون، ثمّ يميلون في اتّجاه البيت في صفّ طويل يمتدّ على طول الخطّ الذي كان نهرًا في مرحلة سابقة. أجبرهم على التوقّف أسفلَ التلّ صياحُ الوطاويط وهي تحوم فوق رؤوسهم وقد أثارها الضوء والدخان. لحقهم نصيبهم من الخوف، والصمت. ماذا سيحدث الآن؟ هل سيقتحمون البيت الآن أم بعد قليل؟ إنّهم ينتظرون أن يتلاشى الزعب الذي أحدثته الطيور الليليّة. أفكّر في الوطاويط. لم تعد، لا مقززة ولا مرعبة. وإنّما طيور لها حسناتها، كأن تمنع هذه الشرذمة من الهجوم علينا. لقد حطّوا أجسادهم وما حملوا معهم أسفلَ الأكمة، بنيرانهم ومادبهم وموسيقاهم، تحت البيت. هل نصعد إلى الغرفة الفوقانيّة ونتمدّد في السرير الواسع والمحاط بستائر المخمل، وننام؟

حكى لنا بابا عن وضعيّات أخرى، وهو شابٌّ لم يتجاوز العشرين،

طويل القامة، رشيق، جالس على ما يشبه حجرًا، مقيّد اليدين بالأصفاد. القدمان منفرجتان لأنّ الحديدة التي تربطهما طويلة وعريضة. القدمان حافيتان، وشبكة تغلفه بالكامل، كأيّ بهيمة وقعت في المصيدة. وضعيتنا تشبه وضعيته، بمصيدة مختلفة. وماذا في وسعنا؟ هل نلبس ثياب بابا التي كان يرتديها في أثناء العمل ونندس بين المهاجمين؟ ونحن في ثياب خشنة تيبست بفعل الجير والإسمنت، لن يتعرّف إلينا أحد أو سيلزمه وقت طويل ليرى تحت بذلتي البناء، شخصين مبحوثًا عنهما. وسيكون لدينا فائضٌ من الوقت لنضحك من هذا الأمر فيما بعد. كثير من الأمور مضحكة، إنّما فيما بعد.

رأيت أن أتفقّد الأبواب والنوافذ والرتاجات، لأرى من أيّ جهة سيأتي الخطر، وإلى أيّ جهة سننوجّه عند أوّل مداهمة. ستة أبواب وخمس عشرة نافذة تركتها مشرّعة حتّى أرى الخطر أيًّا تكن الجهة التي سيهبّ منها. لم تُرُقْ لي الفكرة بتاتًا. سينقضّون علينا من كلّ الجهات بدلًا من الهجوم من جهة واحدة. لن يحتاجوا إلى كسر باب أو تسلّق حائط. راجعت المخطّط من أوّله. انتقلت من غرفة إلى أخرى، وصعدت حتّى الطابق الأخير والبرج الذي فوقه، ثمّ سرت حتّى الركن القصيّ من البيت. أغلقت كلّ الأبواب. تركت بابًا واحدًا، بحيث يسهل الوصول إلى السطح. أوصدت الأبواب الجانبيّة. جمعت ما استطعت من قطع حديد ومسامير وأسلاك موزّعة في فناء البيت وضعتها في برميل. وضعت إلى جانب البرميل صفيحة الغاز التي كان بابا يستعملها لإشعال قنديله، ومعها صندوق الثقاب، حتّى يسهل الوصول إليه عند الحاجة. قد تُلهي الانفجارات المهاجمين لبعض الوقت ريثما أبتعد. تطلّب منّي إعداد هذا الفخّ ساعة أو أكثر. ثمّ صعدت إلى السطح وتدرّبت على المشي فوق الحائط مغمض العينين، وبسرعات متفاوتة، لأنّ الهجوم سيتمّ ليلًا، الآن أو بعد قليل. لن ينتظروا حتّى يطلع النهار. العدو لا يهجم في النهار. وصلت بعدها إلى نتائج مُرضية، ثمّ جلست أمسح عرقي وأتأمّل المجهود الذي بذلته، واكتشفت أنّنا أصبحنا مسيّجين بالفخاخ التي نصبتُها، من كلّ جهة. لن نتمكّن من الهروب أو الصعود إلى السطح بالسرعة المطلوبة مع كلّ الأخشاب التي وزّعتها في أركان البيت. الأبواب مغلقة، وسنكون أوّل من يصطلي بالنيران إذا ما اندلعت. على الأقلّ، أفتح بابًا خلفيًّا ألجأ إليه عندما يبدأ الهجوم. ثمّ فتحت الباب الأماميّ أيضًا لنراهم وهم يدخلون. صببتُ البنزين حول البرميل.

ثمَّ بدأت أصواتهم تصعد نحونا. لم تَصِز هديرًا بعد، ولكنَّها آخذة في التشكُّل لتصير كذلك. لم أنتظر حتَّى تتزاحم الجوقة عند الباب هائجة مسعورة. رششت الغاز في أمكنة متعدِّدة قبل أن يطلّ علينا أوَّل المقتحمين، وأضرمت النار في كلّ هذا البازار. وتسلَّلنا من الباب الخلفيّ، ثمَّ ابتعدنا نحو الجهة التي لا يوجد فيها ضوء. أمسك بيدها وأسمع لهاثها الذي أصبح هادئًا... وأنا أقول: لماذا لا نذهب عند كلثوم في مراكش؟ هذه المرأة التي ظللتُ لثلاث سنوات متتالية أذبح على عتبتها ديكًا بلديًّا كلَّما وطأت بيتها، وأشتري لها في كلّ مناسبة كبشَ العيد. وأهديتها مرَّة سلسلة ذهبيَّة وجدتُها في جامع لفنا؟ هذه المرأة تحبّ الطيور أيضًا.

محطّة الشاطئ، نهايةُ الرحلة

الأربعاء 12 نوفمبر 2012

فيمَ يفكّر موزّع الرّسائل السّابق وهو يغادر التراث، ويسير على الطوار النظيف، المحفوف بأزهار الجيرانيوم الملوّنة والمشذّبة بعناية، منحدرًا إلى جهة الشاطئ، بمحاذاة القِلَل المظلّلة بأشجار الميموزا، ويرى أمامها بوّابين مبتهجين بالحظّ الفريد الذي طَرَق بابهم، مظلّلين بنعيم أسيادهم، وبشجر الميموزا المزهر، وبعبير الأزهار الطالعة من كلّ جهة، على مشارف البحر الفسيح، كما لو أنّهم في عطلة دائمة؟ كلُّهم سُود، وجاؤوا من گلميم أو المحاميد، أو من زاگورة. ويجلسون على كراسيّ متداعية. كلّ كراسيّ البوابين متداعية؛ عبارة عن قطع خشب وأجزاء من هيدورة متّسخة وبلاستيك مقشّر، مشدودة بالأسلاك والقنّب. لأوّل مرّة، يرى موزّعُ الرّسائل السّابق والذي أصبح بوّابًا، أنّه كلّما كانت الفلل فاخرة كانت كراسيّ البوابين متهالكة. يمرّ عليهم كما لو كان يمرّ على قبيلة نجت من الهلاك وتتشبّث بكراسيّها المتداعية محنيةَ الظهر حتّى تمرّ آخر عاصفة. يسير إدريس الأوّل إلى جانبه، وهو يضع يده على كتفه، كأنّ حدثًا سعيدًا وقع في حياتيهما. يتوجّهان إلى الشاطئ، يتبعهما إدريس الآخر وهو يكتع.

جلس إدريس الأوّل على الحائط القصير الذي يمتدّ على طول الكورنيش بمجرّد أن عبرا الشارع. رمى في فمه حبّة ملوّنة، نصفها رماديّ ونصفها بنفسجيّ. وأخرج من محفظته زجاجة ماء وعبّ منها حتّى فرغت ورماها خلفه. نسوة يتريّضن على حافّة البحر. يمررن أمامه في بدلات مزخرفة وفوق أنوفهن نظّارات سوداء وعريضة تقي وجوههن من الشمس من جهة، وتمكّنهن، من جهة أخرى، من التلصص من تحت زجاجها الغامق على الجيران الذين يلهثون بجوارهنّ. يرفعون أقدامهم برشاقة. يجاهدون في الاستمرار في قيد الحياة أطولَ فترة ممكنة. أطول من النساء الأخريات اللائي يركضن على الطوار الآخر. تلهث وراءهن كلابٌ قزمة كالأرانب. نساء قويّات، مفتولات العضلات، أزهرت على صدورهن ورود. نهودهن مضاءة كشموس في الربيع. شابّات طريّات يشربن الماء المعدنيّ وهنّ يركضن. يدلقن ما تبقى على شعورهنّ وهنّ يركضن، ويبتسمنّ للأيّام القادمة وهن يركضن، غيرَ عابئات بالرجل الذي يجلس على الحائط القصير، والذي يفكّر في أنّه خضع قبل عشر سنوات لعملية إزالة البروستات. ويتذكّر صديقه الذي أجرى العمليّة نفسها، وفي الأسبوع نفسه. وسالت على خدّيه دمعتان وهو يقذفهنّ بكلام بذيء لا وقت لديهن

لسماعه. الرجلان الآخران، الواقفان أمامه، واللذان اعتقدا أنّه يبكي، وضعا يديهما على كتفيه ليواسياه. وأحسّ بالإهانة لأوّل مرّة منذ ستين عامًا. دفع يديْ صديقيه بعنف وتحامل على نفسه، من دون أن يعضّ على أسنانه هذه المرّة.

استأنفا سيرهما على الطوار، كصديقين لم يفترقا لحظةً... أمسك إدريس الأوّل بيد صديقه وشدّ على أصابعه بتأثُّر بالغ، كأنّما حاجة أحدهما إلى الآخر غدت أكثر إلحاحًا من أيّ وقت مضى. إنّهما غير نادمين. ينقصهما فقط اعتراف لم يأت من أيّ جهة. ولهذا، فإنّهما مستعدّان للاحتجاج، وحتّى السير في المظاهرات الشعبيّة والتنديد بالفقر والاضطهاد. ما يدفع إلى الاستغراب هو أنّها اللّحظات التي يفكّر فيها ابن آدم، وهو في هذا العمر المتقدّم، في أنّ الوقت قد حان ليعيش بطريقة أخرى، بطريقة أفضل، وأن يناضل من أجل أهداف واضحة، وأنّ الناس سواسية، متشابهون، وأنّ العدل أساس التقدُّم... كأن هذا كافٍ ليغيّر الجسد خططه وينسى تاريخه الحافل بالكوارث. على لسانهما أجوبة كثيرة ولا يعرفان أيُّها الأنسب... كلاهما يتنفّس هدوءًا جديدًا لأنّ الحكاية التي استرجعاها والحنين الجارف الذي رافقها، مرّا على جراحهما كالمرهم. يتذكّران يوم الاحتفال. يتذكّران الملاك الطائر فوق الرؤوس، ويتذكّران من أيّ جهة انطلق الحجر الأوّل الذي كسر واجهة فندق الحظّ السّعيد في ذلك اليوم البعيد، والذي كان فيه الزبائن يحتفلون بالعيد الوطني الفرنسي؛ كلّ أولئك الجائعين والعاطلين والمحرومين، والذين أمضوا النهار إمّا جالسين على دكتي الطاحونة يدخّنون، وإمّا يحومون حول الفندق ويطلّون على الفتاة وهي ترقص للموظفين الفرنسيّين والجنود الإسبان... أوقف بناصر شاحنته على جنب الطوار قبل الهجوم، ونزل منها وهو يترنّح كالأعمى ويكاد يسقط عند كلّ خطوة. إدريس الثاني، الذي لم يره سوى مرّة أو مرّتين، لم يتعرّف إليه في البداية، ليس بسبب لونه الممسوخ، بل وجد إدريس الثاني صعوبة ليتذكّر الوجه الذي رآه من قبل. هذا الوجه شاحب وأصفر، وجه شخص يعاني. والرجل نفسه لم يكن في حالة طبيعيّة. يتنفّس بصعوبة كأنّما علقت في حنجرته كرةٌ من الصوف، وزبَدٌ أصفر لاصق بزاويتي شفتيه اليابستين. الرقص رقص رجل بلغ درجة عالية من الحمّى. والصفير العالي، الشبيه بالحشرجة، يهزّ صدره. بدا خارجًا عن طوره تمامًا. يلتفت حوله ويكلّم أشخاصًا غير موجودين، زاعقًا، مهدّدًا، ويطلق في وجوههم تكشيرات مرعبة. ويقول: إنّها تتلوّن. هذه الفتاة ليست الكائن الذي تعتقدون... الملعونة تتلوّن، كالكائنات المائيّة... ويطلق

ضحكًا مخبولًا. الملعونة تشتعل وتنطفئ... ويطلق تكشيرته التي يعتقدها ضحكًا. وهو الذي أخرج من جيبه حجارة ورمى بها زجاج الواجهة المضاءة.

استيقظ غيظهم دفعة واحدة، ثمَّ هجموا على الفندق وعاثوا بأثاثه، والتهموا حلوى العيد، ولعبوا بالشموع وفرقعوا البالونات الملوَّنة. وعندما لم يعثروا عليها، قال لهم أحد المهاجمين إنَّه رأى جناحين ذهبيَّين يطيران في ظلام الوادي. قفزوا داخل شاحنة بناصر، أو على عربات المارة، وساروا في مجرى الوادي. أمامهم يتمايل الجناحان، ينخفضان ويعلوان، يبتلعهما الظلام تارة، وتارة يشتعلان كمصباحين في الريح. تتبعهما عربات وسيَّارات ودراجات. والذين لا يملكون وسيلة نقل، يحملون المشاعل والشموع ويتبعون القافلة. قال إدريس الثاني: وقفنا أخيرًا تحت البيت الذي احتمت به الفتاة. منعتنا الخفافيش من الدخول، لأنَّ الخفافيش لا تعمر غير المقابر والأمكنة المسكونة. وبقينا ساهرين أسفل البيت في انتظار ضوء الفجر واختفاء الخفافيش. ولم نر السَّائق حتَّى اللَّحظة التي ظهر فيها في أعلى البيت وهو يصيح: علاش أنا اكحل... علاش أنا اكحل... غير منتبه إلى النار التي ارتفعت والانفجارات التي بدأت تهد أسس البيت. ربَّما يكون هو نفسه الذي أضرم النار، لأنَّه كان قد فقد آخر ذرَّة من عقل. ولكن لا أحد يستطيع أن يجزم بأمر قاطع. وقال إدريس الأوَّل: نحن لم نضرم نارًا ولم نَرَ من أضرمها. إدريس الأوَّل معه حقّ، لأنَّه كان في هذه الأثناء ممدَّدًا تحت الكونتوار، في أقصى درجات السُّكْر، وجيجي تمشي وتجيء فوقه وهو يتأمَّل تبانها الأحمر ويحلم بالكوخ الخشبيّ على شاطئ مهجور جنوب أگادير. ولكنَّهما أدركا، صباح الغد، وهما يستعدَّان للعودة، أنَّهما لم يعودا في حاجة إلى رهينة لأنَّ النار التهمت العبد الناقص في اللَّائحة. أليست هذه معجزة؟ ماذا نصنع أكثر من هذا؟ الرجلان اللذان أمضيا شهورًا في الطرقات، وبذلا جهودًا للعثور على العبد الناقص في اللَّائحة وتعقُّباه في الأمكنة الآهلة وفي الصحاري المقفرة، لم يعثرا عليه، أو على شبيهه. ولكنَّهما في أوج الكارثة، وأمام ألسنة النار المرتفعة من كلّ جهة، عثرا على الحلّ المناسب لمعضلتهما. لن يستطيع أيّ شخص أن يزايد عليهما من هذه الناحية. سيعودان إلى أهلهما، وسيكتبان في تقريرهما: العبد الناقص في اللَّائحة أضرم النار في جسده أمام أبصارنا وأبصار الجميع، عندما هممنا باعتقاله. نعم، معه حقّ الشخص الذي قال إن الحلّ موجود دائمًا.

أخرج إدريس الأوّل من محفظته ما تبقى من حلوى ورماها في فمه وابتلعها في لقمة واحدة. وأخرج إدريس الثاني من جيبه قطعة خبز بالعسل وأعطى البوّاب بعضها، وهو يسأله هل يذكر لقاءهما في بار جيجي، عندما صعد فوق المائدة وسقط على قنّة رأسه وهو سكران... ونهره إدريس الأوّل وهو يمضغ: لا داعي لإزعاج صديقنا بأمور لا تخصه يا إدريس... وهل يعرف سبب وجودهما أصلًا في كُليم؟ إدريس، خللي عليك السيد ظرانكيل... حرّك إدريس الثاني رأسه ملتفتًا إلى جهة البوّاب، متمغنًا في وجهه... قال البوّاب إنّ سمعه ثقيل... اقترب إدريس من الأذن وصاح في داخلها: ذهبا إلى كُليم لاصطياد الأروى... ما جدوى الكلام مع رجل لا يسمع؟ ولكن خصو يعرف... علاش؟ استمرّ إدريس الثاني، صاحب قبّعة القش، يحدّق في البوّاب طويلًا، وربّت على ظهره وهو يهزّ رأسه ضاحكًا ويقول لصديقه: كنّا غادي نخليوه بلا بيضات مسكين... ثمّ سأله هل يعرف كيف يخصون العبيد. وبدأ إدريس الأوّل يؤنّبه من جديد: لا داعي لإزعاج الرجل بأمور لا تخصُّه. بالعكس، إنّها تخصُّه. وعليه أن يعرف، لأنّه في هذا الوقت الذي نتحاور فيه، كان هذا الرجل الذي نعتبره الآن صديقًا، سيكون... يعني من دونهما... إذا كان يفهم ما يعني... قال هذا الكلام وهو يصرخ ويهتزّ، ويده ترتعد، وفتات الخبز يتطاير حولهما. قال ليس هذا هو الموضوع.

وما هو الموضوع؟

الموضوع هو الرجل الذي احتجّ وعلّق الكلب أمام باب بيته.

الموضوع هو العبد الذي احترق على سطح الدار...

لا، أنا ما كنتش حاضر.

عرفتْ. كنت سكران.

ولكنّه كان حاضرًا يوم صبوا البنزين على الرجل الذي علّق الكلب قبل أن يشعلوا فيه النار...

نسكتو أحسن.

نسكتو أحسن.

وصمتا فعلًا بعد أن وصلا كعادتهما إلى حدّهما الضروري من التوتّر لهذا النهار. ثمّ التفت إدريس الأوّل يسأل صاحبه ماذا كان يقول وهو مشتعل على سطح الدار...

كان يصيح في الظلام ومن فوق سطح الدار. وأخذ نَفَسًا وصاح بها

تبقى له من صوت: علاش أنا اكحل... علاش أنا اكحل...

انفجروا ثلاثتهم، لأوّل مرّة منذ التقوا صباحًا على خطي سكّة الترام، في ضحك صاخب غطى حتّى على هدير الأمواج في الأسفل. وتذكّر نافع أنّه لم يشترِ زوانًا لطيوره، وأنّه بمجرّد دخوله البيت ستسأله عن الزوان وسيقول لها: نعم شريتو... وسينزل عند العطار ليشتريه قبل أن تبحث عنه في المطبخ.

لا ينقصنا شيء. ليس عندنا أولاد، ولكنّ هناك أولاد السكان وهم لطيفون ومؤدّبون. السكان طيّبون أيضًا. نأكل ونشرب بفضلهم، ويعطون نافع دراهم زائدة عندما يغسل سيّاراتهم. هذه هي الحياة. تدريب طويل على الاعتياد، كما يحدث عندما يعود نافع ولا يقول إنّه نسي شراء الزوان، ثمّ يخرج عند العطار ليعود به تحت معطفه. هذه هي الحياة. الأشياء التي لا نقولها هي التي تجعل الحياة ممكنة. أحنّ فقط إلى اللّعب. أحيانًا، أحنّ إلى أن أعود طفلة. أغلق عليّ الباب وآخذ في القفز على رِجل واحدة. البهو ضيّق ولكنّه كافٍ للقفز على رِجل واحدة. ويهتزّ نهداي. لقد جفّا من دون أن يُرضعا أحدًا. هل كان فيهما حليب في يوم من الأيّام؟ ألمسهما. ما الذي سيحدث إذا ما انحنيت ومصصتهما؟ هل سيفيض حليبهما أم أنّ الأوان قد فات؟ أتوقّف عن القفز وأغنّي... آ جرادة مالحة... فين كنتي سارحة... البهو ضيّق ولكنّه كافٍ لصوت خفيض مثل صوتي... آ جرادة مالحة... فين كنتي سارحة... هل أرفعه قليلًا؟ أحاول ولا يخرج غير الخيط الرّقيق الذي ظلّ دائمًا هو صوتي. ياه، كيف حدث أنّني لم أرفع صوتي يومًا؟ كيف حدث أنّني لم أصرخ في حياتي ولو على سبيل التجريب؟

لدينا طيور كثيرة، ونافع هو الذي يشتري لها الزوان. أعتني بها كأولادي. والحمد لله. إنّها تنام في اللّيل وتستيقظ مثلنا في النهار. أمسك أحيانًا بواحد منها وأفرد جناحيه وأعدّ الريشات الصّفراء على كلّ جناح. وعندما أضعه على كفّي، فكي أتذكّر الطائر الآخر الذي اشتعل في سمائنا ذات ربيع بعيد؟ أتذكّره وتدبّ نعومة الريش في أناملي. لا تزال يدي تحتفظ بحرارته.

لم تعجبني أبدًا فكرةُ أن يغنّي الطائر في اللّيل حتّى ينفجر. بالعكس. أحسن لها ولعافيتها أن تستريح في اللّيل، وتأخذ ما يكفي من الراحة لتملأ حياتنا بالأمل للأيّام الآتية.

سبتمبر ٢٠١٥

أوغست ٢٠١٧